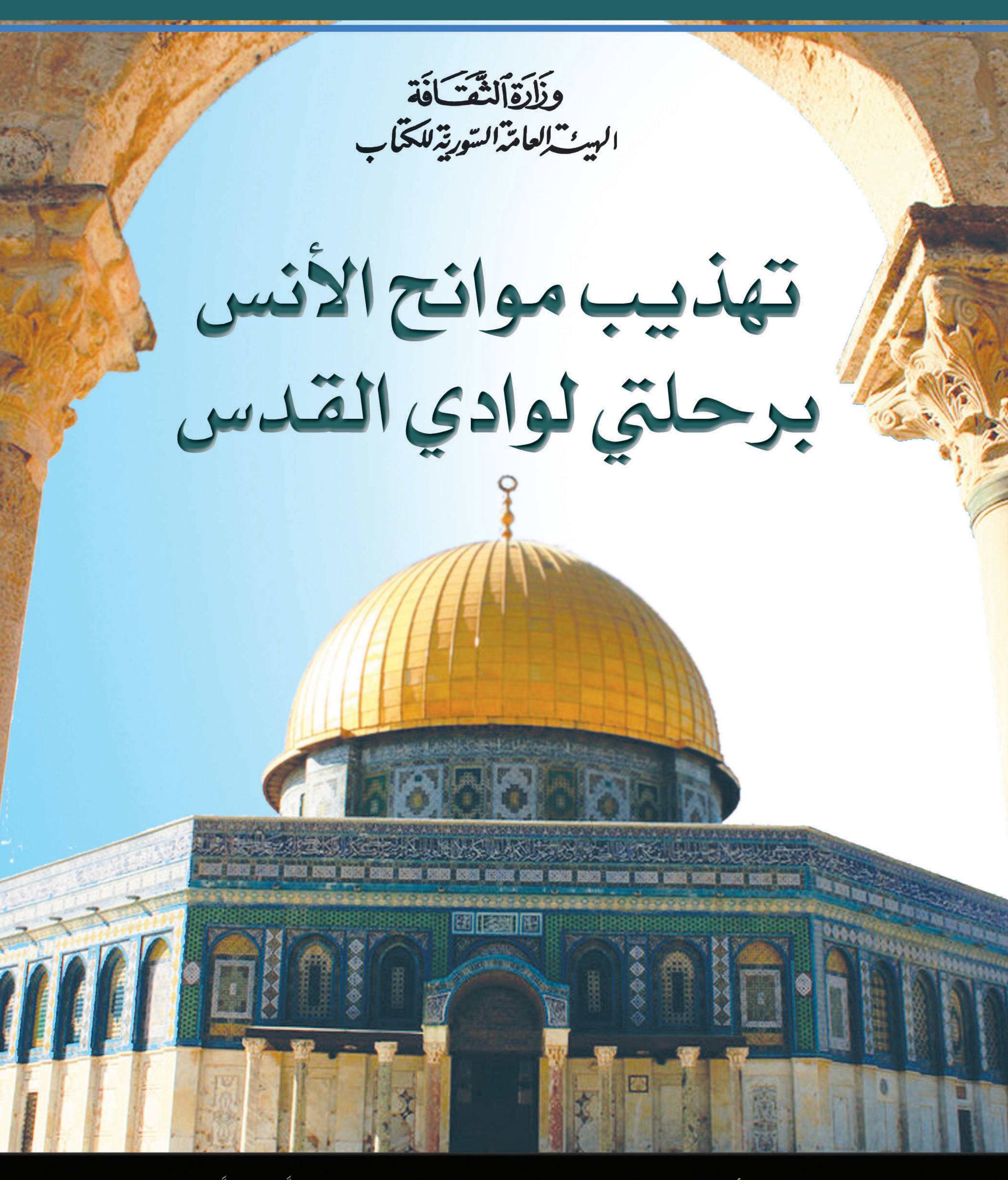
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس



تأليف
مصطفى أسعد اللُقَيْمي

هذَّبها وحقَّقها
الدكتور رياض عبد الحميد مراد

تهذيب موانح الأنس



تهذيب موانح الأنس
برحلتي لوادي القدس



تصميم الغلاف

أحمد إسماعيل

وزارة الثقافـة
الهيئة العامة السورية للكتاب
إحياء ونشر التراث العربي
(١٨٧)

تهذيب موانح الأنس

برحلتي لوادي القدس

تأليف
مصطفى أسعد اللُّقَيْمي
المتوفى سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م

هذَّبها وحقَّقها
الدكتور رياض عبد الحميد مراد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م



تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس/ تأليف مصطفى أسعد اللقيمي؛ هذبها وحققها رياض عبد الحميد مراد .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٣٥٢ ص؛ ٢٤ سم.

(إحياء ونشر التراث العربي؛ ١٨٧)

١- ٩١٥,٦٤ ل ق ي ت ٢- ٨١٩ ل ق ي ت
٣- العنوان ٤- اللقيمي ٥- مراد ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

أولاً : المؤلف

اسمه وأسرته ونسبته

هو مصطفى أسعد[1] بن أحمد بـــن محمد بن سلامة بن محمد بن علي ابن صلاح الدين اللُّقَيْمي الشافعي الدمياطي، نزيل دمشق. ولد بدمياط سنة ١١٠٥هـــ، وبها نشأ في كنف والده أحمد بن محمد بن سلامة الدمياطي مع إخوته عمر، ومحمد سعيد، وعثمان، وكلهم شعراء[2].

ويذكر اللقيمي في رحلته هذه زيادة في نسبه فيقول[3]:

(فإني الفقير مصطفى أسعد اللقيمي الحسني سبط المولى محمد أفندي العنبوسي، سبط المولى عبد الرحمن، ابن العالم العلامة مفتي الديار المصرية، في أواخر القرن العاشر - أبي الحسن نور الدين علي بن محمد ابن محمد بن علي بن خليل بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن غانم المقدسي ابن علي بن الحسن بن إبراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري).

---

(١) هكذا ورد اسمه مركباً عند كل الذين ترجموا له، إلا في طبعة دار صادر من سلك الدرر ففيه (مصطفى بن أسعد) وهو خطأ، لأن المؤلف نفسه ذكر اسمه في رحلته هذه مركباً، ويبدو أن تركيب الاسم عادة تكررت في أسرة اللقيمي، فإن لمصطفى أخاً اسمه محمد سعيد، وهذه العادة لا زالت مستمرة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلى عصرنا الحاضر.

(٢) انظر الجبرتي - دار الكتب - ٣٦٧/١ فقد ذكر أخاً ثالثاً للمؤلف وهو عمر.

(٣) موانح الأنس ٢٤٥.

ونسبة اللقيمي إلى قرية في الطائف اسمها لُقَيْم وقد أهملتها جميع كتب البلدان، وانفرد بذكرها الفيروزابادي في قاموسه، وتابعه المرتضى الزَّبيدي في شرحه للقاموس[١].

والعَنَبُوسي نسبته إلى عَنَبوس - كَحَلَزون: قرية من أعمال نابلس، كما في شرح القاموس[٢].

شيوخه وكتبه وتلاميذه

وقد شدا علومه الأولى في بلدته دمياط، فأخذ العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف، وغيرها من علوم المرحلة الأولى التي يدرسها كل فتى يطلب العلم عن والده، وعليه تخرج مع إخوته في سائر الفنون

ولما بلغ شبابه تطلع إلى أخذ علوم آبائه وأجداده فراح يتلقى على شيوخ بلده أولاً، ثم الشيوخ الذين لقيهم في رحلته في بلاد فلسطين، وفي بلاد الشام، وفي رحلته إلى الحج في البلاد المقدسة.

وأول شيوخه جدُّه لأمه، وهو العلامة الشيخ محمد الدمياطي الشهير بالبدر وبابن الميت (المتوفى ١١٧١هـ) فقرأ عليه أنواع العلوم، وبه تخرّج ومنه انتفع[٣].

وشيخه الثاني هو عبد الله بن سالم البصري المكي (المتوفى ١١٣٤هـ) لقيه في المدينة المنورة أثناء حجه مع والده وأخذ عنه علومه[٤].

والثالث: محمد بن سلطان الوليدي (المتوفى ١١٣٤هـ) أخذ عنه أثناء حجه أيضاً[٥].

---

(١) مادة (لقم).

(٢) مادة (عنبس).

(٣) سلك الدرر - دار صادر -٤/١٨٠ وكتاب أعيان دمشق وعلماؤها ١٢/ ٣/ ٢١٢.

(٤) سلك الدرر ٤/١٨٠ وأعيان دمشق ١٢/ ٣/ ٢١٢، وفيه: (عبد الله البصري).

(٥) سلك الدرر ٤/١٨٠ وله ترجمة في سلك الدرر أيضاً ٤/١٣٠.

والرابع: الشيخ محمد بن سليمان المغربي أخذ عنه أثناء الحج[١].

والشيخ الخامس هو الشيخ عبد الغني النابلسي عالم العلماء في عصره وشيخ المشايخ وشاعر الشعراء (المتوفى سنة ١١٤٣هـ)[٢].

والشيخ السادس إسماعيل العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢هـ) سمع عليه صحيح البخاري، وأجازه بكل ما رواه وما ألفه، وله إجازة بخطه مصورة في كتاب (أعيان دمشق وعلماؤها)[٣] وقد ألحقتها بصور مخطوطات الكتاب.

والسابع الشيخ مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين الصديقي الحنفي[٤] (المتوفى ١١٦٢هـ).

والثامن هو الشيخ محمد بن محمد الخليلي ذكره المؤلف في رحلته هذه[٥] في أكثر من موضع.

وله من الكتب والرسائل:

١- التوصّل في شرح الصدر بالتوسل بأهل بدر[٦].

٢- الحياة المعلمة البهيجة بالرحلة القدسية المهيجة[٧].

٣- ديوان شعر جمعه وسماه (تحائف تحرير البراعة بلطائف تقرير البراعة)[٨].

٤- رسائل في الحساب والفرائض[٩].

---

(١) سلك الدرر ١٨٠/٤ وأعيان دمشق ٢١٢/٣.

(٢) سلك الدرر ٣ ثم٣٦ وفي الرحلة هذه ١٩١ .

(٣) أورد مؤلفا كتاب أعيان دمشق هذه الإجازة مصورة في ١٢/ ٣/ ٢٢٩.

(٤) سلك الدرر ١٨٠/٤ وله ترجمة فيه ٢٩٥/١ .

(٥) الرحلة ٢٠٤.

(٦) سلك الدرر ١٨٠/٤، وأعيان دمشق وعلماؤها ١٢/ ٣/ ٢١٣.

(٧) الأعلام للزركلي ١٣٠/٨، وقال بروكلمان: (منه قطعة في موانح الأنس).

(٨) سلك الدرر ١٨٠/١، وأعيان دمشق ١٢/ ٣/ ٢١٣ وقال بروكلمان (منه نسخة في المتحف البريطاني برقم (١/١٠٨٨).

(٩) سلك الدرر ١٨٠/١، وأعيان دمشق ٢١٣/٣/١٢.

٥- سحّ سحب الأدب البديع المعاني بسوح روض الآداب البديع الرضواني[١].

٦- شرح ورد الأستاذ شيخه الصديقي[٢].

٧- لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل[٣].

٨- مختصر كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت القدس والخليل[٤].

٩- المدامة الأرجوانية في المقامة الرضوانية التي مدح بها الأمير رضوان كتخدا عزبان الحلفي[٥].

١٠- نشر نفحة الصفاء ببشر الصحة والشفاء التي مدح بها الأمير رضوان نفسه[٦].

وأما تلاميذه فقد كانوا على الشكل التالي:

إخوته عمر ومحمد سعيد والشيخ عثمان الذين تخرّجوا على يديه في سائر الفنون[٧]، ومحمد الكزبري الذي ذكره في إجازته لابن بدير في مجموع الأثبات الحديثية[٨]. فقال: (ومن أفاضل مشايخي الإمام الفهامة الأريب الفرضي الحيسوبي اللوذعي الأديب مصطفى أسعد اللقيمي قرأت عليه كثيراً من الفرائض والحساب وغير ذلك وأجازني رحمه الله تعالى).

---

(١) الجبرتي في عجائب الآثار ٣٨٩/١.

(٢) سلك الدرر ١٨٠/١.

(٣) الأعلام ١٣٠/٨، وقال عنه بروكلمان (منه نسخة في برلين، برقم ٦١٠٢، وأخرى في كمبردج برقم ٩٧٨).

(٤) سلك الدرر ١٨٠/٤ وأعيان دمشق ٢١٣/٣/١٢.

(٥) الجبرتي ٣٩٧/١ وأعيان دمشق ١٢/ ٣/ ٢١٣.

(٦) الجبرتي ٣٨٤/١.

(٧) سلك الدرر ١٨٠/٤.

(٨) مجموع الأثبات الحديثية ٤٠٢.

وفاته:

وأخيراً حط به الرحال في مدينة دمشق حيث وافته المنية يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومئة وألف، هذا ما ورد عند المرادي في سلك الدرر [١]، وأما ما ورد عند الجبرتي [٢] فهو سنة ثلاث وسبعين ومئة وألف للهجرة.

ويبدو أن الأول هو الأشبه وذلك لأنه رثى نفسه قبل موته بساعات بأبيات جعل آخرها تأريخاً لها [٣]:

قبرٌ بـــه مَـــنْ أوثقتْـــهُ ذنوبـــه	**وغدا لـــسوء فعالـــه فتخوّفـــا**
قد ضاع منـــه عمـــره ببطالـــة	**والعيش فيه بالتكدر مـــا صـــفا**
ماذا ثوى قبر اللقيمي أرّخـــوا	**«مستمنح للعفو أسعد مصطفى»**

فالشطر الأخير جعله تأريخاً لتلك الحادثة، ومات اللقيمي بعدها بساعات سنة ١١٧٨ هـ، وهي السنة التي ذكرها أكثر من ترجموا له.

ودفن اللقيمي في تربة مرج الدحداح في مقبرة الذهبية تجاه الشيخ أبي شامة رضي الله عنهما.

علومه:

كان اللقيمي مشاركاً في أكثر علوم عصره، من المناسخات إلى المقاسمات إلى الفرائض والحساب [٤]، ففي قائمة كتبه رسائل في الحساب والفرائض.

---

(١) سلك الدرر ٤/١٩٢.

(٢) ١/٣٨٤.

(٣) سلك الدرر ٤/١٩٢. وحساب جُمَّلِه: مستمنح = ٦٩٨ - للعفو =٢١٦ - أسعد = ١٣٥ - مصطفى = ٢٢٩ - والمجموع: ١١٧٨

(٤) سلك الدرر ١/١٨٠، وأعيان دمشق ١٢/ ٣/ ٢١٣.

وكان أيضاً أديباً شاعراً، وأسلوبه فيهما أسلوب عصره.

وستجد في رحلته هذه عدداً من مقاماته ورسائله الأدبية والعلمية، كما أن الجبرتي[١]أورد له المقامة الرضوانية ومقامة نشر نفحة الصفاء ببشر الصحة والشفاء[٢].

وأما شعره فله ديوان أسماه (تحائف تحرير اليراعة بلطائف تقرير البراعة)[٣]، ويكفيه ما ورد في هذه الرحلة من أشعار تعدّ بمئات الأبيات، كما أورد له المرادي والجبرتي ومن ترجموا له عدداً من المختارات الشعرية التي تشمل أكثر الأغراض الأدبية التي عالجها، وسأفرد فقرة خاصة في هذه المقدمة للحديث عن شعره إن شاء الله.

ثناء العلماء عليه:

وقد أثنى على اللقيمي كل الذين ترجموا له أو ذكروه.

فهذا المرادي في سلك الدرر قال[٤]: (الشيخ العالم الفاضل الفرضي الحيسوب الكامل الأديب الناظم الجهبذ النَّقاد الماجد الأوحد الزاهد العفيف).

والجبرتي أيضاً أثنى عليه قائلاً[٥]: (أفضل النبلاء، وأنبل الفضلاء، بلبل دوحة الفصاحة وغرّيدها، من انحازت له بدايعها: طريفها وتليدها، الماجد الأكرم).

وقال كراتشكوفسكي[٦]: (ويحسّ [المرء] خلال العرض بأجمعه اهتمام المؤلف الكبير بالجانب الأدبي فهو كان شاعراً ومن أصحاب المقامات، وقد حاز هذا الفن الأخير تقديراً عالياً بين معاصريه).

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٣٦٧/١.

(٢) عجائب الآثار ٣٨٤/١.

(٣) انظر ما تقدم في تعداد كتبه.

(٤) الجبرتي ٣٦٧/١، وأعيان دمشق ١٢/ ٣/ ٢١٣.

(٥) الجبرتي ٣٨٤/١.

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٨٢٨.

وكذلك فإن تلميذه محمد الكزبري[١] قال: (ومن أفاضل مشايخي الإمام الفهامة الأريب الفرضي الحيسوب اللوذعي الأديب الشيخ مصطفى أسعد.. قرأت عليه كثيراً من الفرائض والحساب وغير ذلك).

الشعر في القرن الثاني عشر

امتاز هذا الشعر عصرئذ بكثرة شعرائه فقد بلغ عدد الشعراء الذين أحصيتهم في دراستي الأدبية عن هذا القرن أكثر من مئة شاعر ولأكثرهم دواوين شعرية مطبوعة أو مخطوطة.

وفي كتابي «شعر دمشق في القرن الثاني عشر الهجري الثالث العشر الميلادي» الذي طبع في وزارة الثقافة بدمشق عام ٢٠٠٨م تعداد لهؤلاء الشعراء ودواوينهم، وما طبع منها وما لم يطبع، ومكان وجود مخطوطاتها.

وعلى سبيل المثال يمكننا أن نذكر أن شاعراً مثل الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله له سبعة دواوين، ومع ذلك فقد أحصيت له في رحلته (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) حوالي ثلاثة آلاف بيت من الشعر، ولا تخريج لأكثرها في دواوينه السبعة.

واللقيمي واحد من شعراء ذلك القرن، وينسحب عليه ما ينسحب على شعراء عصره، وهو كثرة الشعر، فقد جمعت ما نقل له مترجموه من شعر فبلغت ثمانين مقطعة تضم ما ينوف عن ست مئة وستين بيتاً.

هذا عدا ديوانه المخطوط في المتحف البريطاني، وعدا ما ورد في هذه الرحلة من شعر.

وقد ضم هذا الشعر موضوعات مختلفة كما هي الحال في شعر ذلك القرن، والموضوعات أكثرها تقليدي وبعضها مستحدث على الشكل التالي:

أول موضوع يلفت النظر في شعره هو الغزل الذي يضم حوالي ثنتين وعشرين مقطعة.

والثاني: المديح وهو يضم ثلاثاً وعشرين مقطعة.

---

(١) مجموع الأثبات الحديثية ٤٠٢، وفيه صورة عن نسخة الظاهرية رقم ٣٨٧٠ عام.

والثالث: الوصف في ثماني عشرة مقطعة.

والرابع: الحكم والوصايا أربع مقطعات.

والخامس: التأريخ الشعري خمس مقطعات.

والسادس: العتاب والشكوى ثلاث مقطعات.

ومقطعات أخرى في التضمين واللغز ونظم الأثر.

ثانياً: الكتاب

مصورة هذه المخطوط أهدانيها الأستاذ الصديق عمر النشوقاتي لتكون مشاركة لي في احتفالية القدس عاصمة الثقافة الإسلامية، وقد دأب على ذلك في كثيرمن المرات حفظه الله وجزاه عني كل خير، فهو نعم الصديق الصدوق؟

والمخطوط عبارة عن رحلة قام بها المؤلف من دمياط في القرن الثاني عشر، وصاغها بعد عشرين عاماً بلغة أدبية جميلة وصف بها رحلته هذه: قال كراتشكوفسكي[١]:

«... هذا وترك لنا الدمياطي وصفاً لرحلته من دمياط إلى القدس في مصنف خاص يحمل عنوان (موانح الأنس برحلتي لوادي القدس) واستغرقت الرحلة نفسها ستة أشهر من عام (١١٤٣هـ/١٧٣١م) ولكنّ وصفه لها لم يدوّنه إلا بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ في عام (١١٦٤هـ/ ١٧٥١م) معتمداً في أغلب الظن على مذكرات سابقة. ويجهد المؤلف في وصف ما رآه من غريب في طريقه، ومن التقى بهم من العلماء، وأهل التصوّف، ويسوق خلال ذلك مقداراً كبيراً من الأشعار له ولغيره.. ولسنا في حاجة بالطبع إلى أن نستدرك مرة أخرى بقولنا: إن المصنفات من هذا الضرب ليست بذات أهمية بالنسبة للجغرافيا بقدر ما هي مهمة بالنسبة لتصوير الوسط والعصر اللذين ظهرت فيهما».

---

(١) تأريخ الأدب الجغرافي العربي ٨٢٨.

فالرحلة بدأت يوم الثلاثاء من ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وأربعين ومئة وألف[1] حين انطلق اللقيمي من دمياط إلى القدس، ثم إلى بلاد الشام، ثم إلى لبنان، فالعودة إلى دمياط.

ففي البلاد المصرية زار البحيرة بعد دمياط أي بحيرة تنيس، ثم فم أم الفرج، ثم قلعة الطينة، ثم الرماني منزل بني هشيم، ثم بئر العبد، ثم العريش، ثم وادي الخروبي.

وفي البلاد الفلسطينية بدأ برفح، وهي أول منازل أرض الشام، ثم غزة، ثم يبنى، ثم الرملة، ثم ميناء يافا، ثم القدس الشريف، ثم طور زيتا، ثم الخليل، ثم القدس الشريف مرة أخرى، وظلّ فيها إلى غاية شهر المحرم. ورحل بعدها إلى نابلس، ثم دير قديس، ثم قرية سبطارة أو بسطارة، ثم قرية يازور، ثم إلى يافا مرة أخرى، ثم إلى كفر سابة، ثم إلى جبلة، ثم إلى خربة، ثم إلى قرية كور، ثم إلى نابلس مرة أخرى، ثم خان المنية على شط بحيرة طبرية.

وبدأ البلاد الشامية بسعسع، ونهر الأعوج، ثم دمشق المحروسة، ثم إلى المزة، ثم إلى ضمير، فالديماس، فخان الضهر الأحمر.

وزار في لبنان النباطية، ثم صيدا، ثم بيروت.

ومن هناك ركب سفينة في البحر إلى دمياط فوصلها يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى من سنة أربع وأربعين ومئة وألف.

مصادر النقول في هذه الرحلة:

١ - الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني ٩٤/ب.
٢ - الإعلان في تفسير ما أبهم من القرآن للسهيلي ٥٨أ، ٦٨أ.
٣ - أنس الجليل للعليمي ١٩ب، ٢٩أ، ٣٠أ - ٣٠ب، ٣٥أ، ٤١أ، ٥١أ، ٥٧أ، ٦٨ب، ٧٢ب، ٧٨أ، ٨٢ب، ٨٥ب.
٤ - تاج العروس لابن عطاء الله السكندري ٥٧ب.

---

(١) وهي تقابل سنة ١٧٣١ م.

٥- تاريخ القدس ٥٠أ.
٦- تذكرة الصلاح الصفدي من ٨١ب إلى ٩٩أ.
٧- تفسير البغوي معالم التنزيل ٣/أ، ٦٢أ.
٨- تفسير الخطيب ١١٣أ، ١١٥أ.
٩- تفسير القرطبي ٨٩أ.
١٠- جامع تاريخ دمياط ٧/ب.
١١- الجامع الصغير للسيوطي ٩٦/ب
١٢- الحكم العطائية ٧٠أ.
١٣- حلية الكميت للنواجي ٨٣أ.
١٤- حلية الأبدال لابن عربي ٦٥/أ.
١٥- خطط المقريزي ٣/أ، ٤/ب.
١٦- ديوان عبد القادر الكيلاني ٣٤/ب.
١٧- ديوان ابن النبيه ٦/ب.
١٨- الرحلة العراقية للصديقي ٣٠/أ.
١٩- الرحلة القدسية للصديقي ٣٠/أ.
٢٠- رحلة الهروي ٤/ب.
٢١- رسالة الجاحظ ٩٩/أ.
٢٢- الرسالة القشيرية ٦٣ أ، ٧٠أ.
٢٣- رسالة النيرين ٩٩/ب.
٢٤- الرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي السرور البكري ٨/ب.
٢٥- ريحانة الألبا للشهاب الخفاجي ١١٤ب.
٢٦- سنن أبي داود ٨٠أ، ٩٥ب.
٢٧- شرح الشمائل للمناوي ٦/أ.
٢٨- شرح الأسماء الإدريسية للحافظ الدمياطي ٣/أ.
٢٩- شرح المناوي للجامع الصغير ٩٦أ.

٣٠- شرح القسطلاني لصحيح البخاري ٧/ب.
٣١- الشمائل للترمذي ٦/أ.
٣٢- صحيح مسلم ٣٤ب/ ٤١ب.
٣٣- الصحيحان ٥/٩٥.
٣٤- الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ١٠٧/ب.
٣٥- طبقات ابن سعد ٩٦/ب.
٣٦- طبقات الشافعية للسبكي ٥/ب، ٩٨أ.
٣٧- طبقات المناوي ١٨/ب، ٩١/أ، ٩٧/ب، ١١١/أ.
٣٨- العسجد الوارد لهذه المشارب لأحمد بن الصاحي تاج الدين ٢٦/ب.
٣٩- العهود للشعراوي ٢٣/أ.
٤٠- عوارف المعارف للسهروردي ٢٩/ب.
٤١- فضائل دمشق لأبي الحسن الربعي ٩٧/أ.
٤٢- الفلاحة ١٢/أ.
٤٣- كتاب الشيرازي.
٤٤- كتاب ابن العربي ٣٣/ب.
٤٥- كتاب ابن عساكر ٤٠/أ.
٤٦- كتاب الشمس الرملي في التفسير ١١٣أ.
٤٧- كتاب أبي الفرج ١١١/أ.
٤٨- كتاب النووي ١١١/ب.
٤٩- كتاب أبي هلال العسكري ١٠٣ب.
٥٠- لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل للقيمي ٢٦/ب.
٥١- الأحباب ١١٠/ب.
٥٢- محكم القرآن ٥٦/أ.
٥٣- مختصر التهذيب لابن حجر.
٥٤- المغني لابن هشام ٩٠/ب.
٥٥- مروج الذهب للمسعودي ٧/أ.

٥٦- النزهة البهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة لداود الأنطاكي الحكيم ٨٣/أ.

٥٧- نفحة الريحانة للمحبي ١٠٩/ب.

٥٨- نهاية التقريب ٩٥/أ.

٥٩- وصايا ابن عربي.

مخطوط الكتاب

ذكر بروكلمان نسختين مخطوطتين لهذه الرحلة:

إحداهما في برلين ورقمها فيه (١٦١٥).

والأخرى في كمبردج ورقمها فيه (١١٤٠).

ولكنه لم يذكر نسخة الظاهرية التي اعتمدت عليها في تحقيق هذا الكتاب وحدها لأن لها ميزات عديدة: أهمها أنها كتبت بعد وفاة المؤلف بخمس سنين، وأن ناسخها من أقارب المؤلف، وأنها نسخة دمشقية حيث توفي اللقيمي.

ورقمها في هذه المكتبة (٥٢٤٨) وتقع في ١٢٢ ورقة من القياس الوسط وناسخها اسمه محمد أمين القادري ابن الحاج محمد العطار نسيب مؤلف الرحلة ورمزت لها بالحرف م أو بالأصل.

وكتبت الرحلة بخط نسخ جميل واضح. وأما إملاؤه فقد كان مخالفاً لإملائنا في العصر الحاضر بعدة أمور هذه أهمها:

١- إهمال ألف التفريق كما في قوله (اهبطو فاعترضو) في ق ١٥/٥٥.

٢- لافرق فيه بين التاء المربوطة والتاء المبسوطة (الفراة في ق ٦٠/أ).

٣- الهمزة المتوسطة بلا قاعدة مثل (فكانت فراشَه وغطاؤَه) ٤٦/أ.

٤- أما تسهيل الهمزة فكان أمراً شائعاً معروفاً مثل (ساير) ٦٦ أ.

٥- والأعداد دائماً هي بلا قاعدة أيضاً، وهذه أمثلة على ذلك:

ثمانية عشرة سنة ٣٩/ب   إحدى عشر ٦٦ أ

ستة سنين ٤٨/ب   ثلاثة ساعات ٦٧ ب

ستة وستين سنة ٥٣/ب   ستة وعشرون سنة ٥٦/أ

٦- بعض الأخطاء النحوية من مثل قوله (أوصيني) ٥٨/أ

وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وما ذكرته أمثلة ولو عددتها جميعاً لأملأت الصفحات، ولذلك فقد اكتفيت بنماذج منها.

في **لوحة الغلاف** وفوق عنوان الكتاب بيتان من الشعر لم أقرأ منهما إلا البيت التالي:

يكون زنديق (؟) لا يعرف له نسب   ولو قــرا ألــف إنجيــل وقــرآن

وإلى جانب عنوان الكتاب من الجهة اليسرى تمليك لكاتبه (محمد أمين ابن محمد بن محمد بن علي العطار) سنة ١١٨٣.

وتحت هذا التمليك تمليك آخر باسم (محمد سنان) سنة ١٢٠٢ وتحت التمليك ما يلي:

(نظر وتأمل وقرأ وفهم الحاج خليل بيك سنة ١١٩٨ ربيع الثاني).

وتحت هذا العنوان مجموعة من الأشعار لأكثر من شاعر على النحو التالي: (ولمؤلفها:

وافتح رحلة أنــس جــل موقعهــا   لرحلة القدس تدعو الناس أفواجــا

فشدَّ عيسَ السُّرى بالسير مــستبقاً   واسلك بها من سبيل الحق منهاجا

وللأديب مصطفى أفندي اللقيمي الدمشقي:

لله درُّكِ مـــــــن رحلـــــــة   يرحــل إليهــا مــن مكــان بعيــد

لا ســـيما للقـــدس دار الوفـــا   لمصطفى المولى الهمــام الــسعيد

وللبليغ الشيخ عبد الله الطرابلسي:

لأسعد مولانا اللقيمي رحلة — تفوق نظام الدر من نفحها القدسي

فقم واحتبي درَّ ألفاظها التي — غدت نزهة للطرف والقلب والنفس

وللأديب البارع الشيخ محمد التافلاتي المغربي:

حوت رحلة المولى اللقيمي عوارفاً — مناهل للوارد من فتحه القدس

تحلّى بها جيد الزمان وأفصحت — عن الجوهر المكنون في صدف الطرسِ

ولا عيب يروى غير أن عقودها — مكللة بالظرف والطرف والأنسِ

والسطر الذي يلي الأبيات يبدأ بكلمتي (وقد ألف) وينتهي بسنة (١١٤٣) وبينهما لا يقرأ لأن التصوير لا يظهر الحروف المكتوبة بالحمرة. ويلي ذلك عدة أسطر وفيها: (وتوفي رحمه الله تعالى في ختام ذي الحجة الحرام سنة ألف... وشهرته تغني عن ترجمته..).

وفي الورقة الأخيرة ما يلي:

وقد وافق الفراغ من تبييض هذه الرحلة اللطيفة في نهار الأحد المبارك رابع عشر شهر صفر الخير سنة ثلاث وثمانون(؟) ومابة من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم السيد محمد أمين القادري بن الحاج محمد العطار نسيب مؤلف هذه الرحلة عفا الله عنهم أجمعين بمنه وكرمه ولطفه آمين وصلى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والحمد لله ربِّ العالمين. تم).

* * *

وثمة نسخة أخرى في ظاهرية دمشق من هذه الرحلة ولكنها مختصرة عنها، أو أن ناسخها اختار منها القسم المتعلق بالزهور.

في صفحة الغلاف العنوان التالي: (رحلة الشيخ مصطفى القيمي (كذا) لوادي القدس).

وفي الورقة الأولى ما يلي:

هذه نبذة من كتاب منحة الأنس بالرحلة لوادي القدس. تأليف العالم الفاضل المحقق فخر النجار، وقدوة الأخيار، ومولانا الشيخ مصطفى القيمي القاطن بثغر دمياط سبط العلامة نور الدين علي بن غانم المقدسي السعدي الخزرجي، وقد اصطحبت معه في قدومي لثغر دمياط في شهر سفر (؟) الخير في ١١٥٣، وصرت نزيل (؟) في أوضته (؟) الذي (؟) في جامع البحر، واستفدت منه دنيا وأخرى، فمن ذلك طالعت في تأليفه المذكور فانتخبت منه مقالات في أحوال الزهور، لأن ذلك منعش للقلب والصدور..

وتنتهي هذه النبذة في الورقة ٩ بقوله:

وقد انتهى ما نقلناه وانتخبناه من الرحلة المذكورة في حق الزهور وخواصهم مما حرره الفاضل المذكور، وفي أثناء ذلك أطلعناه على إجازتنا الذي (؟) أخذناها من الشيخ الفاضل محمد حلبي سلطان في طريقة سيدي أحمد البدوي قدس تعالى أسراره وضاعف أنواره، فانشرح صدره لنظم كم بيت فنظمها في ساعته وحررها على الإجازة المذكورة، وضمن الأبيات مدح لنا وبشرى..

تروي مشارق ضوئها شمس الضحى	**تتلو مطالع نورها الأنوار الأقمـار (كـذا)**
فـوح الـشذا متمـسك بحـديثها	**إذ فـاح منهـا الـم.. المعطـار**
لم لا ومطلع سعدها الشهم الشريـ	**ـف الـسكري محمـد الـسيار**

قلت وفي هذا البيت ذكر الشاعر اسم من يمدحه وهو الذي كتب هذه النبذة واختار منها ما اختار وهو صديق المؤلف واسمه محمد السيار السكري.

تهذيب الرحلة:

بعد أن انتهيت من تحقيق الرحلة لاحظت أن هناك نصين لا يناسبان العصر، ويثيران بين الناس اللغط والجدل.

فأما النص الأول فهو حديث عن فئة من فئات المجتمع فيه شيء من مثالبها ومخالفاتها.

وأما الثاني: فهو نص يتحدث عن علم الأوفاق مما يدخل في علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، باستخدام حساب الجُمَّل، وهذا مخالف للشرع وللعلم الحديث.

وكنت تجاه هذين النصين أمام خيارات:

الأول: إبقاء النصين على حالهما كما ورد في المخطوط، وهذا خيار مرفوض عندي أصلاً.

والثاني: إهمال الكتاب كله وإلقاؤه جانباً في الرفوف العليا.

والثالث: تهذيب الكتاب، وهذا ما هداني الله إليه أخيراً، ووافقني عليه أخي الدكتور محمد مطيع الحافظ حفظه الله وجزاه كل خير ومدّ في عمره. ولم ألزم نفسي بشروط تهذيب الكتب سوى حذف هذين النصين، فهما اللذان ألجأاني إلى التهذيب، فالرحلة على ذلك تامة ما عدا هذين النصين اللذين ذكرتهما.

طريقة التحقيق

طريقتي في تحقيق هذه الرحلة لا يخرج عما تعارف عليه المحققون من أمور يتبعونها في تحقيق النصوص:

١- منها مراجعة النقول في مواضعها وقد نقل المؤلف في رحلته هذه من مصادر كثيرة وهي بحاجة إلى مراجعة هذه النقول في أصولها المطبوعة، ورغم أني وجدت فروقاً بين الأصل والنص المنقول فلم أُضف على النص شيئاً واكتفيت بإشارة إلى هذا النقص.

٢- تعريف البلدان التي زارها اللقيمي بقدر الاستطاعة، وحسب إمكانية وجود هذه الأماكن فيما توافر من كتب البلدان.

٣- تخريج الأشعار حسب الطاقة والإمكان مع أن أكثر ما ورد من شعر في هذه الرحلة هو للمؤلف ورغم أن له ديواناً مخطوطاً لكن الحصول عليه أمر صعب.

٤- وكذلك فهناك عدد ليس قليلاً من أسماء الأعلام الذين يصعب التعرف عليهم.

٥- وقد حاولت أن أضع وزن كل بيت من الشعر بتسمية بحره بين معقوفتين [ ]، فإذا اختل وزن بعض هذه الأبيات أشرت إلى ذلك في الهامش.

٦- ورسمت مخططاً لرحلة الشاعر ضمن مقدمة عامة ترجمت فيها للمؤلف وتحدثت فيها عن المؤلف ومشايخه وعلومه وكتبه ثم عن الكتاب ومخطوطاته.

٧- أثبت صوراً من مخطوطتي هذا الكتاب في آخر المقدمة.

مصادر المقدمة مرتبة على نسق الحروف الهجائية:

١- الأعلام تأليف خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

٢- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تأليف أغناطيوس يوليا نوفتس كراتشكوفسكي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، الترجمة العربية الثانية.

٤- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تأليف محمد خليل المرادي، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٥- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تأليف عبد الرحمن حسن الجبرتي، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨م.

٦- علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري، د. محمد مطيع الحافظ ود. نزار أباظة. دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر في دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧- مجموع الأثبات الحديثية لآل الكزبري الدمشقيين وسيرهم وإجازاتهم، تحقيق عمر بن موفق النشوقاتي، دار البشائر الإسلامية ودار النوادر، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٨- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، الناشر مكتبة المثنى، ببيروت، ودار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

نماذج
من صور المخطوطات

مخطط الرحلة





الورقة الأولى من نسخة م

الورقة ١٢٣ / ب من نسخة (م)



الورقة ١٢٣ / ب من نسخة (م)

الورقة الأخيرة من النسخة م



الورقة الأخيرة من النسخة م



ورقة الغلاف من النسخة الأخرى ن



الورقة الأولى من النسخة ن



نهاية النسخة ن في الورقة ٩/أ

إجازة بخط الشيخ إسماعيل العجلوني لمصطفى اللقيمي[١]



(١) أخذتها عن كتاب (أعيان دمشق وعلماؤهم في القرن الثاني عشر) للدكتور نزار أباظة والدكتور محمد مطيع الحافظ.




الهيئة العامة
السورية للكتاب


الهيئة العامة
السورية للكتاب

[١/ب] بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ للهِ الملكِ القدوسِ، باعثِ لطائفِ النُّفوس؛ شوقاً لزيارة القدس المحروس، وأثارَ لها بالوجد **أشجاناً**.

جَدّوا بالعزم المسير، وشمَّروا عن ساق الجدِّ من غير تَقْصير، واتخذوا التوكُّلَ أحسنَ سمير، يطؤون الفدافد رجالاً **وركباناً**.

فقابلتهم العواطف السَّبوحية، ومبشّرات اللطائف الرحمانية، بمشاهدة المآثر القدسية، فَتَلَوْا من لوح القبول **فرقاناً**.

والصلاة والسلام على من فضائله لا تُحصى، ومعجزاته لا تعدّ ولا تُسْتَقْصى، المُنَزَّل عليه **(سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)** [الإسراء: ١٧/١] ليريه من آياته الكبرى **برهاناً**.

وعلى آله وعترته[١] الطاهرين بنصّ الكتاب، وأصحابه القادة الهُداة[٢] الأنجاب[٣]، ما شُدّت إلى أحد المساجد الثلاثة الركاب، ليحتظي[٤] زائرُها أجراً و**غفراناً**.

---

(١) عترة الرجل: أخصُّ أقاربه، وعترة النبي r بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون، وهم أولاده وعليٌّ وأولاده، وقيل: عترته الأقربون والأبعدون منهم. (النهاية: عتر).

(٢) لفظ (الهداة) مستدرك في هامش م .

(٣) الأنجاب: جمع نجيب وله جمعان آخران وهما: نُجباء ونُجُب (اللسان: نجب).

(٤) حظي واحتظى به بمعنى (اللسان: حظا).

وبعد هذا فقد جعل الله المسجدَ الحرام الأقصى ثالثَ حرم يُقصد، وإليه رحال السائرين تُشَدّ، كما روينا في الصحيح المسند[1] سنداً يُقلِّد جيدَ الزمان **عقياناً**.

فمنه تمدّ إمدادات العوارف، وتجتني ثمرات موانح اللطائف، وتهبُّ [٢/أ] بالقبول نسمات العواطف، يشاهِدُ ذلك أهلُ الكشف **أعياناً**.

خصَّهُ الله تعالى بمظهر الجمال كما خصَّ حَرَمَيْ مكة والمدينة بالكمال والجلال، وقد أُثِر ذلك عن أهل الكمال، مظهراً يفيض عليه السرور **طوفاناً**.

فمن وفد إليه وافَتْه منحُ السعادة، ونُشرت عليه ألويةُ السيادة، وبشّره لسان الحال بالحسنى وزيادة، أن قد مُنح من جناب الرحمن **أماناً**.

فيا لها بقعةً من أفضل البقاع، ضاع نَشْرُ محاسنها وما ضاع، وتحمّلت محاسنَ ذكرها الأفواهُ والأسماع، أحاديث تُشَنّف جواهرُ درِّها **آذاناً**.

وحسبُك ما اختصَّ به من ليلة المعراج والإسرا، بصلاة مَنْ رأى من آيات ربه الكبرى، وقد دنا من ربه قاب[2] قوسين أو أدنى، لمستوىً سمع فيه صريف[3] الأقلام **إيقاناً**.

جمع الله له فيه الأنبياء والمرسلين، والملائكة الكرام المقربين، فأمّهم به والمبلِّغ الأمين، فكان دليلاً لفضله عليهم **إعلانًا** [من البسيط]

قَد خُصِّص المسجدُ الأقصى بمانحةٍ فكان كالشمس حلَّت ذروةَ الشرفِ

صلَّى الملائكُ والرسل الكرام به وكونه مبدأ المعراج غير خفي

---

(١) يقصد قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : للمسجد الحرام ومسجد رسول الله r ومسجد الأقصى». رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (الحديث ١١٩١). كما رواه مسلم في باب فضل الصلاة بمسجد مكة والمدينة (الحديث ٣٣٨٤).

(٢) قاب قوسين: قدر قوسين (النهاية واللسان: قوب).

(٣) صريف الأقلام: صريرها أي صوت جريانها بالكتابة (النهاية واللسان: صرف).

[المؤلِّف والكتاب]

هذا فيقول الفقير مصطفى أسعد اللُّقَيْمي سبط العلامة نور الدين علي بن غانم المقدسي الحنفي السّني[(١)]:

طالما كنتُ كثيرَ الوجد والولوع، لمشاهدة هاتيك الربوع، ناثراً من الأجفان لآلئ الدموع، فتنتظم على الخدّين عقيقاً **ومرجاناً**.

أتشَوَّفُ حنيناً لرؤياها، وأتشوّق لاجتلاء حسن مُحيّاها، لأنشق شذا عبير ريّاها، عَرْفاً يتضمن روحاً **وريحاناً**.

فكم روينا في فضلها من حديثٍ وأثر، هذا وأبيك، ليس الخُبْر كالخَبَر[(٢)]، فيُعَوِّضني عن السعي إليها سابقُ القدر، والعاقلُ يعلم أن لكل شيء **إبّاناً**[(٣)]: [من الوافر]

إليها الشوقُ ما عنه مزيدُ	**فما يُبدي المَشُوق وما يُعيدُ**
وعنها الصبرُ ينقص كلَّ يومٍ	**وتلك صبابتي أبداً تزيدُ**
إذا روت النُّهاة لنا حديثاً	**لسانُ الحال قال لهم: أعيدوا**

[٢/ب] ولما أن جاء البشير، ويسَّر الله في المسير، وعلامة الإذن التيسير، استنهضتُ للسُّرى من نجائب العيس **أظعاناً**.

وشرعتُ في تحبير رحلة بهيّة، تتضمن ما أشاهده من المآثر الزهيَّة، ومن أُلاقيه من السادة العلماء والصوفيَّة، الحائزين من مظاهر الحقيقة والشريعة **عرفاناً**.

---

(١) بعد هذا اللفظ كلمة لا تتضح في الأصل بسبب التصوير.

(٢) المثل في معجم الأمثال العربية برواية (ليس الخبرُ كالمعاينة) ومصادره فيه: الفاخر ٢٦٨، ومجمع الأمثال ١٨٢/٢، والمستقصى للزمخشري ٣٠٣/٢، وأمثال القاسم بن سلام ٢٠٧.

(٣) في م: (إيانا) وهو تحريف. وإبّان كل شيء - بالكسر والتشديد - : وقته وحينه الذي يكون فيه. (اللسان: أبن).

وسمَّيْتُها **موانح الأُنْس برحلتي لوادي القدس**، فكان عددها كالآس إذا وافق ذلك تأريخاً **بياناً**.

فلاح من ذلك بارقة المدد، وغادقةٌ من فيض وَبْلها يُستمدّ، وحقيق لمثل هذا أن يقتصد، فهاكها درراً تكلل من معاقد العزّ **تيجاناً**: [من البسيط]

لما ثَنَيْتُ عِنــانَ العــزم مُنْتَــضِياً	**جوادَ عَزْمٍ سَرى نحو الحِمى القُدُسي**
وليس يخفاك ما في السَّيْر من خطرٍ	**تلوتُ للحفظ فيــه آيــةَ الكرســـي**
لعلَّ أبلغَ مــا أرجــوه مــن أمــلٍ	**برحلة أشــهدتني منحــة الأنـــسِ**

[بداية الرحلة عام ١١٤٣هـ من دمياط]

ففي يوم الثلاثاء من ذي القعدة الحرام، عام ثلاثة[١] وأربعين ومئة وألف[٢] من هجرته عليه الصلاة والسلام، سِرْتُ من ثغر دمياط[٣] باسم المبدىء المعيد، سائراً على قدم التوكل والتجريد، وقد تلهفت بالتصعد أنفاساً، وأشعل الوجد بطور القلب نبراساً، فصليت الظُّهر بجامعه الجامع، ودعوت الله بالتسهيل إذ هو خير سامع؛ وسرتُ نحو أحياء الأموات، وقرأت لهم الفاتحة، ولا سيما جناب سيدي فاتح لتكون رحلـتي ناجحة، وتوجهت إلى البحيرة، وركبت من السفن أجراها، ثم تلَوْتُ **(بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيها)** [هود: ١١/٤١]، فعند ذلك هاجت بلابلُ الأشواق، حيث لم أودّع حبيباً يوم الفراق. [من الطويل]

دعاني النّوى قهراً علىً حين غَفْلَةٍ	**فلم أستطع أني أرى مــن مــودِّع**
مخافةَ يغشى الدمعُ عيني فلا أرى	**ويذهل عقلي بالوداع فــلا أعــي**

---

(١) في الأصل: (ثلاث) وما هنا للسياق النحوي.

(٢) وهي تقابل سنة ١٧٣١ م.

(٣) دمياط، قال ياقوت: «مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل». (معجم البلدان). قلت: وهي ورشيد مصبّا فرعَيْ نهر النيل في البحر الأبيض المتوسط.

[زيارات عديدة في دمياط]

ومررت بسيدي شطا[1]، والقرشة[2]، والبغدادي، والتفاحي، والدائر. وقرأت لهم الفاتحة رجاء إمدادي.

وأهديت [٣/أ] الفاتحةَ لسيدي عبد الله تونا، وأبي الوفاء، وسكان البحيرة الذين هم من أهل الولاية والوفاء.

[التعريف بدمياط][3]

قال المقريزي في «خططه»[4]:

اعلم أنّ دمياط كورة من كور أرض مصر، بينها وبين تِنِّيس[5] اثنا[6] عشر فرسخاً، سُمِّيتْ بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر[7] بن حام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن إدريس عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت: أنا الله [مدين] المدائن، الفلك[8] بأمري وصنعي، أجمع بين العذب والملح، والثلج والنار[9] وذلك بقدرتي، ومكنون علمي.

---

(١) هو شطا بن الهاموك ابن خال المقوقس صاحب بلبيس في مصر، وكان شطا صاحب دمياط، فلما فتح عمرو بن العاص بلبيس انضم إليه شطا مع رجاله. واستشهد في معركة بتنيس سنة ٢١ للهجرة. (خطط المقريزي ٢٢٦/١).

(٢) لم أجد تراجم هؤلاء جميعاً في ما بين يدي من كتب التراجم.

(٣) مكان هذا العنوان لفظ لا يتضح بسبب التصوير.

(٤) خطط المقريزي - دار صادر - ٢١٣/١.

(٥) تِنِّيس: بكسرتين وتشديد النون، وياء ساكنة، والسين مهملة: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر بين الفَرَما ودمياط، والفَرَما في شرقيها. اندثرت (معجم البلدان والقاموس الجغرافي للبلدان المصرية ١٩٧/١).

(٦) في الأصل (اثنى).

(٧) في م: (ينصر) والمثبت عن الخطط مصدر المؤلف.

(٨) في الأصل: (أنا الله المدائن الفلكية) والتصحيح عن خطط المقريزي.

(٩) في الخطط المقريزية (النار والثلج .. ويكون علمي ..).

الدال والميم والألف والطاء، قيل: هم بالسريانية دمياط، فتكون دمياط كلمة سريانية، أصلها (دمط) أي القدرة، إشارة إلى مجمع العذب والملح. انتهى.

قال الحافظ الدمياطي في ((شرح الأسماء الإدريسية))

نسبة لإدريس عليه السلام لأنه كان كثيراً ما يلهج بها، فقد بنى إدريس عليه السلام اثنتي[1] عشرة مدينة، رابعها دمياط، ومنها ارتفع. انتهى.

ولذلك سميت: (باب السماء الرابعة).

تذييل

قال البغوي[2] في قوله عزّ وجلّ: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ)** [مريم: ٥٦/١٩]:

«وهو جدُّ أبي[3] نوح - واسمه - أخنوخ، سُمي إدريس لكثرة درسه للكتب[4]. وكان خيّاطاً، وهو أول مَن خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وكانوا[5] من قبله يلبسون الجلود، وأول من اتَّخذ السلاح، وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم النجوم والحساب[6].

(وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً) [مريم: ٥٧/١٩] - يعني: الجنة، وقيل: هي الرفعة بعلوّ الرتبة في الدنيا، وقيل: هو أنه رُفع إلى السماء.

وروى أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي r:

أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج.

---

(١) في الأصل (اثني عشر) والمثبت للسياق النحوي.

(٢) تفسير البغوي معالم التنزيل ٢٣٧/٥.

(٣) في الأصل (إلى) تحريف.

(٤) في معالم التنزيل: (درسه الكتب).

(٥) في الأصل: (وكان) وما هنا عن البغوي.

(٦) في الأصل: (علم الحساب والنجوم) وما هنا عن البغوي.

وكان سبب الرفع - على ما قال كعب الأحبار وغيره[1] -:

أنه سار ذات يوم في حاجة، فأصابه وهج الشمس، فقال: يا ربّ، أنا مشيتُ يوماً، فكيف بمن يحملها [٣/ب] مسيرةَ خمس مئة عام في يوم واحد؟ اللهم خفِّف عنه من ثقلها وحرّها. فلما أصبح المَلَكُ وجدَ من خفّة الشمس وحرّها ما لا يعرف؛ فقال: يا ربّ، ما الذي قضيتَ فيه؟ قال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملَها وحرَّها، فأجبته . فقال: ربّ اجعل بيني وبينه خُلَّةً[2]، فأذن له، حتى أتى إدريس، فكان يسأله إدريس، فقال له: أُخبرتُ أنك أكرمُ الملائكة وأمكنُهم عند مَلَكِ الموت، فاشفع إليه ليؤخّر لي أجلي فأزداد شكراً وعبادة، فقال المَلَكُ: لا يؤخِّر اللهُ نفساً إذا جاء أجلها، وأنا مكلِّمُه، فرفعه إلى السماء، ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملَك الموت، فقال: لي حاجة إليك، صديق لي من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخّر أجله. قال: ليس ذلك إليّ، ولكن إن أحببت أعلمه أجله فيتقدم[3] في نفسه. قال: نعم، فنظر في ديوانه، فقال: إنك كلمتني بإنسان ما أراد[4] يموت أبداً. قال: كيف ؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك. قال: انطلق، فلا أراك تجده إلا وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملَك فوجده ميتاً.

واختلفوا في أنه حيٌّ في السماء؟ أو ميت؟

فقال قوم: هو ميتٌ.

وقال قوم: هو حيٌّ.

وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء: اثنان في الأرض، واثنان في السماء.

ففي الأرض: الخضر وإلياس.

---

(١) في البغوي: (سبب رفع إدريس على ما قاله كعب وغيره).

(٢) الخُلَّة: الصداقة المختصّة التي ليس فيها خلل (اللسان: خلل).

(٣) في البغوي: (أعلمته أجله فيقدم لنفسه).

(٤) من تفسير البغوي: (ما أراه يموت).

وفي السماء: إدريس وعيسى.

وقال وهب: كان يُرفع لإدريس كلَّ يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه، فتعجب منه الملائكة، واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربَّه في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة بني آدم، وكان إدريس يصوم الدَّهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليالٍ، فأنكره إدريس، فقال له في الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم [٤/أ] مَنْ أنتَ؟ قال: أنا ملك الموت، استأذنت ربي أن أصحبك قال: فلي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قال: تقبض روحي، فقبض روحه، وردّها الله عليه بعد ساعة. قال له ملَك الموت: ما سؤالك في قبض الروح؟ قال: لأذوق كرب الموت وشدّته، فأكون أكثر استعداداً له. ثم قال له إدريس: إني لي إليك حاجة أخرى. قال: وما تريد؟ قال: تَرْفَعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار. فأذن الله له في رفعه. فلما قرب من النار قال: لي إليك حاجة، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكاً حتى يفتح لي أبوابها فأوردها، ففعل. فقال: كما أريتني النار، فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة، فاستفتح، ففتحت أبوابها، فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: اخرج، لتعود إلى مقرّك، فتعلّق بشجرة، وقال: لا أخرج منها. فبعث الله تعالى ملكاً حكماً بينهما. فقال الملَكُ: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: **(كُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ الْمَوْتِ)** [١٨٥/٣، و٣٥/٢١، العنكبوت /٥٧]، وقد ذقته. وقال: **(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها)** [مريم: ٧١/١٩] وقد وردتُها. وقال: **(وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ)** [الحجر: ٤٨/١٥] ولست أخرج. فأوحى الله تعالى إلى مَلَك الموت: بإذني دخل الجنة، وبإذني يخرج[1]، فهو حيٌّ هناك، فذاك قوله تعالى: **(وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً)** [مريم: ٥٧/١٩].

[الجامع الفتحي العمري بدمياط]

قلت: وبدمياط بالجامع الفتحي[2] العمري بالحائط المقابل للباب البحري جناحان مصوران من الخشب، والدعاء فيما بينها يستحب، فيقال

---

(١) في الخطط: (وبأمري لا يخرج).

(٢) سيرد الحديث عنه بعد صفحات في ص٤٦

إنه كان له مرقاة ومعراج، فلذا يرى تجاهه بالدجى مجرة ذات ابتهاج: [من الوافر]

قد اختار العلا إدريسُ عبداً ... رسولاً بالهدى برّاً تقيّا

وخصَّصه خصائصَ بعد شيثٍ ... خصائص منه كان بها وصيّا

فأول من أقام الخط شكلاً ... وخط الرمل كاد يكون وَحيا

وأول مُرْسَل تخذ السِّلاحا ... وقاتل من ذوي الكفر شقيا

وفي علم الحساب رقى رقيا ... وأول ناظر في النجم حكما

وأول خائط لبس المخيطا ... بهاتيك الخصائص قد تزيّا

ورام الرفع للفردوس جسما ... فرقاه العلا مرقىً عليّا

ولما أن رقى جسماً وروحاً ... ومات به أُعيد الجسم حيّا

حياة لا فناء بها فيبقى ... إلى ما شاء ربُّك فهو يحيا

ومن دمياط كان له ارتفاع ... فمرقاه نشاهده بَهيّا

عليه الله بالتسليم صلّى ... ورسل الله مع آلٍ وحيّا

[فتح مصر]

قال المقريزي[1]:

لما افتتح عمرو بنُ العاص مصر امتنع الملك الهاموك ابن أخت المُقَوقس ملك دمياط[2] بها، فأنفذ لها عمرو بن العاص المقدادَ بن الأسود في طائفة من المسلمين، فحاربهم الهاموك وقُتل ابنه في الحرب، وكان له ابنٌ آخر [عارف] عاقل يقال له شطا، له دار ملاصقة للسور[3]، فخرج إلى المسلمين ليلاً، ودلّهم

---

(١) خطط المقريزي ٢١٣/١ بتصرف والزيادة منه.

(٢) في الخطط: (امتنع الهاموك ملك دمياط).

(٣) لا تتضح الكلمة في متن م ولذلك استدركها الناسخ في الهامش.

على عورات البلد، فاستولى المسلمون عليها، وتمكنوا منها، وبرز الهاموك للحرب، فلم يشعر إلا وهم يكبّرون على سور البلد، وقد ملكوه، فعند ذلك لما رأى شطا المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه عدة من أصحابه من خواص أبيه نحو العشرة، واستأمن للمقداد، فتسلّم المسلمون دمياط، واستخلف المقداد عليها وسار بهم مع المسلمين لفتح تنّيس، فبرز شطا إلى أهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله تعالى في المعركة شهيداً بعدما أَنْكأ فيهم[1]، وقَتل منهم.فحُمل من المعركة، ودفن في مكانه المعروف به الآن خارج دمياط، وكان قتله في ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسماً يجتمع الناس فيه من النواحي عند شطا، ويعتنون به إلى هذا اليوم. انتهى.

قال الهروي في (رحلته)[2]:

وعند شطا أربعة من الصحابة مدفونون، لم يُعْلم أسماؤهم.

ثم قال المقريزي[3]:

ودمياط الآن بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومساجد ومدارس، ودورها تشرف على النيل الأعظم ومن ورائها البساتين وهي أحسن بلاد الله منظراً.

وقد أخبرني الوزير المشير الأستاذ [٥/أ] يلبغا السالمي[4] رحمه الله تعالى: أنه لم ير[5] في البلاد التي سلكها من سمرقند[6] إلى مصر أحسن

---

(١) نكأت العدوَّ أنكؤهم هزمتهم وغلبتهم (اللسان: نكأ).

(٢) الإشارات إلى معرفة الزيارات ٤٦ بتصرف.

(٣) خطط المقريزي ٢٢٤/١.

(٤) يلبغا أبو المعالي السالمي الظاهري، برقوق الحنفي: استلم عدة مناصب تدريسية وعلمية وسياسية في دولة المماليك بمصر ، ثم حبس، وقتل في حبسه سنة ٨١١ هـ (الضوء اللامع ٢٨٩/١٠ - ٢٩٠).

(٥) في الأصل م: (لم يرى) خطأ.

(٦) سمرقند - بفتح أوله وثانيه - وهي قصبة الصغد على جنوبي وادي الصغد. وقال كي لوسترنج: إنها تقع على نحو ١٥٠ ميلاً من شرق بخارى. قلت: وتقع اليوم جنوب غربي طشقند. (انظر معجم البلدان (سمرقند)، وبلدان الخلافة الشرقية ٥٠٦ - ٥٠٧).

منها أي دمياط هذه. فظننتُ أنه يغلو في مدحها إلى أن شاهدتُها، فإذا هي أحسن بلد وأنزهه.

وفيها أقول: [من الطويل]

سقى عهد دمياط وحيّاه من عهدِ — فقد زادني ذكراه وجداً على وجدِ

ولا زالتِ الأنواءُ تسقي سحابها — دياراً حكَتْ من حُسنها جنة الخلدِ

فيا حُسنَ هاتيك الديار وطيبَها — فكم قد حَوَتْ حسناً يجلّ عن العدِّ

فلله أنهارٌ تحفُّ بروضها — لكالصارم[1] المصقول أو صفحة الخدّ

وبشينها[2] الريان يحكي متيماً — يبدّلُ [3] من وصل الأحبّة بالصدّ

فقام على ساق وفي الدمع غارق[4] — يراعي نجوم الليل من وحشة الفقدِ

وظلّ على الأقدام يحسب[5] أنه — لطول انتظار من حبيبٍ على وعدِ

ولا سيّما تلك[6] النواعير إنها — تجدّد حزن الواله المدنف[7] الفرد

أطارحُها شجوي[8] وصارت كأنما — يطارح شجواها بمثل الذي أبدي

فقد خلتها الأفلاك فيها نجومها — تدور بكأس النفع[9] منها وبالسعد

وفي البركة الغراء يا حسن نوفرٍ — حكى وغدا بالزهر يسطو على الورد[10]

سماء من البلور فيها كواكب — عجيبة صنع اللون محكمة النضد

---

(١) في الخطط : (لكالمرهف).
(٢) في الخطط: (وبشنينها).
(٣) في الخطط: (تبدل).
(٤) في الخطط: (فقام على رجليه في الدمع غارقاً).
(٥) في الخطط: (تحسب أنه).
(٦) في الأصل م: (على تلك) وضرب الناسخ على لفظ (تلك).
(٧) في الأصل م: (الدنف).
(٨) في الأصل: (شجواي) ولا يستقيم بها الوزن.
(٩) في الخطط (بمحض النفع).
(١٠) في الخطط: (وفي البرك ... * ... وغدا بالزهو ..) وجاء هذا البيت في هامش الأصل.

وفي شاطئ النيل المقدس نزهة	**تعيد شباب الصبّ[١] في عيشة**
وتنشي رياحاً تطرد الهمَّ والأسى	**وتنسي[٢] ليالي الوصل من طيبها عندي**
وفي مرج البحرين جمٌّ عجائب	**تلوح وتبدو من قريب ومن بُعد**
كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا	**مليكان سارا في جحافل من جند**
وقد نزلا للحرب واحتدم[٣] اللقا	**ولا طعن إلا بالمثقّفة الملد[٤]**
فظلاّ كما باتا وما برحا بها	**كما[٥] من جليل الخطب في أعظم الجهد**
فكم قد مضى لي من أفانين لذة	**بشاطئها العذب الشهي بذي الورد**
وكم قد نعمنا في البساتين نزهة	**بعيش هنيء في أمان وفي سعد**
وفي البرزخ المأنوس كم لي خلوة	**وعند شطا عن أيمن العلم الفرد**
هناك ترى عينُ البصيرة ما ترى	**من الفضل والإفضال والخير والمجد**
فيا ربِّ هيئ لي بفضلك عودة	**ومُنَّ بها من غير بلوى ولا جهد**

وبدمياط[٦] حيث كانت المدينة التي هُدمت جامعٌ من أجلِّ مساجد المسلمين، [٥ /ب] تُسمِّيه العامة (مسجد فتح)، وهو المسجد[٧] الذي أسّسه المسلمون، عند فتح[٨] دمياط أول ما فتح الله مصر على يد عمرو بن العاص.

وفيه عدة من العمد الرخام[٩]، منها ما يعزّ وجود مثله.

---

(١) في الخطط: (شباب الشيب). وجاء البيت في هامش الأصل.
(٢) في الأصل: (ونسى). وهو تحريف.
(٣) في الأصل: (واخترم) وهو تحريف.
(٤) من الملَدِ وهو الاهتزاز (اللسان والتاج: ملد).
(٥) في الخطط: (.. كما * هما ..).
(٦) انظر خطط المقريزي ٢٢٤/١ - ٢٢٥ حيث يتصرف اللقيمي بنقوله حذفاً وتلخيصاً.
(٧) في الأصل (مسجد) والمثبت عن الخطط.
(٨) في الأصل م: (فتوح).
(٩) في الخطط: (عمد الرخام).

وإنما عرف بـ (جامع فتح)، لنزول[1] فاتح بن عثمان الأسمر التكروري، قدم من مراكش إلى دمياط على قدم التجريد، وسقى بها الماء في الأسواق احتساباً. وأقام في وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحداً.

وكانت[2] حاله أبداً اتصالاً في انفصال، وقرباً في ابتعاد، وأُنساً في نفار.

ولما نزل بالمسجد أخذ في ترميمه وتنظيفه بنفسه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلّط صحنه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه. وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط، لا يفتح إلا في يوم الجمعة. فرتّب به إماماً يصلّي الخمس، وكان يقول: لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت فيه، ولو علمت في الأرض بلداً يكون فيها الفقير أخمل من دمياط لرحلت إليها وأقمت بها.

وكان يؤثر الأرامل والفقراء في السرّ، ويترفّع على أهل الدنيا، ويتواضع للفقراء.

وكان من دعائه: اللهم بَعِّدْنا عن الدنيا وأهلها، وبَعِّدْها عنا.

وما زال كذلك إلى أن مات ليلة الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وست مئة، رحمه الله تعالى، ودفن بجوار الجامع، وقبره يُزار إلى يومنا هذا.

انتهى خطط

[من خرج من دمياط]

وقد خرج منها جماعة من المحدثين والفضلاء، والأدباء النبلاء. ترجم بعضهم الإمام السبكي في طبقاته، وأبان عن فضلهم برقيق عباراته:

---

(١) في م: (بنزول) وما هنا عن الخطط.

(٢) في م: (وكان) وما هنا عن الخطط.

فمن أجلّهم[١] **الحافظ عبد المؤمن بن خلف شرف الدين الدمياطي** : كان حافظ زمانه، وأستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب، وإمام أهل الحديث المُجْمَع على جلالته، الجامع بين الرواية والدراية بالسند العالي. تفقّه بدمياط على الأخوين الإمامين أبي المكارم عبد الله، وأبي عبد الله الحسين بن الحسن بن منصور السعدي. وسمع الحديث بها منهما، ومن الشيخ أبي عبد الله بن موسى بن النعمان، ثم انتقل [٦/أ] للقاهرة، واجتمع بحافظها زكي الدين عبد العزيز المنذري، ولازمه سنين، وبرّز في حياته. وسمع من الجمّ الغفير، والعدد الكثير بالإسكندرية ودمشق وحلب ومكة والمدينة وبغداد وماردين وحماة وغيرها.

وروى عنه من الأئمة تلاميذه: الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي المِزّي وقال: ما رأيت أحفظ منه، والحافظ أبو عبد الله الذهبي، والحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس، والحافظ أبو عبد الله محمد بن شانه الطائي[٢]، والحافظ التقي السبكي الكبير.

وهو أول من درَّس بالمدرسة المنصورية[٣] بالقاهرة. ولد سنة ثلاث عشرة وست مئة وتوفي فجأة سنة خمس وسبع مئة. ودفن بمقابر النصر من القاهرة.

ومن شعره رحمه الله[٤]: [من الطويل]

رَوَيْنا بإسنادٍ[٥] عن ابــن المُغَفَّــل ... حديثاً شهيراً صَحَّ من عِلَّة القَــدْحِ

بــأنّ رســولَ الله حــينَ مــسيره ... لثامنةٍ وافقه فــي غــزوة الفــتحِ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٠/١٠٢ - ١٢٣ بتصرف. وانظر: فوات الوفيات ٤٠٩/٢، والعبر الذيول / ٢٣٣، والدرر ٤١٧/٢، والشذرات ٢٣/٨ (وفي هامش الفوات قائمة طيبة بمصادر تراجمه).

(٢) جاء هذا الراوي في هامش م.

(٣) انظر في المدرسة المنصورية بالقاهرة: خطط المقريزي ٣٧٩/٢ - ٣٨٠.

(٤) الأبيات في طبقات الشافعية ١٢٣/١٠ للدمياطي.

(٥) في الأصل م: (روينا حديثاً ..) ولا يستقيم الوزن بهذه الرواية.

تلا خير مقروءٍ على خير مرسـلٍ   فرجَّعَ في الآيات من سورة الفـتح

[تذنيب]

الحديث الذي أشار إليه الحافظ ذكره الترمذي في (شمائله)[1] في (باب قراءة رسول الله r) وهو:

حدثنا محمود بن غيلان: [قال: حدثنا أبو داود]، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قُرّة قال: سمعت عبد الله بن مُغفَّل يقول:

رأيت رسول الله[2] r على ناقته وهو يقرأ[3]: **(إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً)** [الفتح: ٤٨/١-٢]، قال: فقرأ ورجَّع. قال وقال معاوية [بن قُرّة]: لولا [أن] يجتمع الناس عليَّ لأخذت لكم في ذلك الصوت. أو قال: اللحن. انتهى.

قال الشارح المناوي[4] عند قوله: ورَجَّع أي ردَّد صوته بالقراءة. ومنه ترجيع الأذان، أو قارب ضروب الحركات في الصوت. وقد فسّره عبد الله بن مغفّل بقوله[5] (أ ا ء)[6] بهمزة مفتوحة، بعدها ألف ساكنة، ثم همزة أخرى، وذلك ينشأ غالباً عن أريحية وانبساط، والمصطفى r حصل له حظ وافر يوم الفتح اهــ. بحروفه وقد أطال الشارح في هذا المقام، فليراجعه مَنْ رامَ نَشْقَ عَرْفِ ذاك البَشام[7].

---

(١) الحديث في الشمائل للترمذي ١٨٠ والزيادة عنه. وفي هامشه تخريجه عند البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم.

(٢) في الشمائل: رأيت النبي r ...

(٣) في الأصل م: (وهو يقول).

(٤) شرح المناوي على هامش جمع الوسائل وشرح الشمائل للقاري ١١٤/٢.

(٥) في م: (يقول).

(٦) في م: (أ أْ أ) وفي شرح المناوي (آاء) وما هنا طبق ما قال الشارح.

(٧) البَشام: شجر طيب الريح والطعم يُستاك به (اللسان: بشم).

[مدح الشعراء لدمياط]

قلت: وما زالت دمياط [٦/ب] ممدوحة للشعراء، ومشوقة للأدباء، والفصحاء لطيب معاهدها، وحسن مشاهدها، وبهجة منتزهاتها[١] ورياضها، وتمايل أشجارها، ورونق غياضها، وتأرُّج شذا أزهارها، وتعدد أنواع أسمائها وأطيارها، وناهيك قصبها السكري، وحالي موزها العنبري،

[ابن النبيه يمدح دمياط]

ومن أجلّ ما قيل فيها من التشابيه، ما أنشده الأديب **ابن النبيه** للملك الكامل[٢] حين افتتحها، فمدحه بذاك ومدحها[٣]: [من البسيط]

دمياطُ طورٌ ونار الحــرب موقــدةٌ ... وأنت موسى وهذا اليــوم ميقــاتُ

فَألْقِ عصاكَ تلقّفْ[٤] كلَّ ما صــنعوا[٥] ... ولا تَخَفْ ما حبــالُ القــومِ حَيّــاتُ

[مدح السيد محمد السعيد لدمياط]

ولقد مدحها فأبدع وأجاد، شقيق الروح والفؤاد، البارع المجيد السيد محمد السعيد بقصيدة طويلة بديعة الصفات، فاخترت منها هذه الأبيات: [من الطويل]

إذا ثغر دمياطٍ بــه ابتــسم الزهــرُ ... حكى ثغر معسول اللَّمى حينَ يفتــرُّ

أحاطت بها تلــك الريــاض كأنهــا ... فراديسُ حفّتها ســرادقُها الخــضرُ

بــساتينُها عُــدَّت كأيــام حولهــا ... فــأيُّ بــلاد زانهــا ذلــك القــدرُ

---

(١) كذا في الأصل م وهي لغة مفضولة والأصح (مُتَنَزَّهاتها) ولكنها لغة ذلك القرن.

(٢) هو محمد بن محمد العادل بن أيوب أبو المعالي ناصر الدين، من سلاطين الدولة الأيوبية. توفي سنة ٦٣٥ (الوافي ١٩٣/١، ووفيات الأعيان ٧٩/٥، والدارس ٧٧/٢، وترويح القلوب ٦٣ و ٧٨، والأعلام ٢٥٥/٧، ط ٣).

(٣) البيتان في ديوان ابن النبيه ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) تلقف: تتناوله بسرعة (اللسان: لقف).

(٥) في ديوان ابن النبيه: (فالق العصا تلقف كل ما أفكوا).

ومن تحتها الأنهارُ شبهُ أراقـمٍ[1] تجاري هبوبَ الريح أزعجها الزَّجْرُ
غَدَتْ بهجـةً للنّـاظرين ونزهـةً بألوانِ زهرٍ زانَـهُ الـنظمُ والنثـرُ
لها ظاهرٌ يزهـو برونـق بـاطنٍ فظاهرهـا زهـرٌ وباطنهـا نهـرُ
وحاكت لها الأنوا مطارف[2] سندسٍ مكللة بالطَّـل[3] زركـشها الزَّهْـرُ
نواعيرُهـا تبكـي بـسائل مـدمعٍ فتُضحك ثغرَ الروض إن أبطأ القطرُ
حكت حرفَ نونٍ خطَّه قلـمُ العُـلا بحسن اعوجاج يستقيم به المطـرُ
وتحكي إذا حققتَ رونـق شـكلها هلالاً وزهرُ الروض أنجمُه الزُّهـر
وقوساً بأطراف الـسهام مُفَوَّفـاً[4] وراميه بدرُ الـتَّمِّ إذ بـزغ البـدرُ
وكم يزدهي قصرٌ بـشاطئ نيلهـا على حسن ذاك القصر يُستحسن القـصر
ربوعٌ بها روحي وراحي وراحتـي بذكري لها والصبُّ يُطربـه الـذكرُ
تحنّ لهـا الأرواح شـوقاً كأنهـا هي الشامُ أو دارُ الخلافة أو مصرُ
[٧/أ] قد افتخرت من حيث إدريسُ خطَّها ومنها ارتقى رَفْعاً فحقّ لها الفخـرُ
وشكلُ جناحَيْ جبرئيـل[5] مُـصورٌ بجامعها الفتحي وما الخَبَرُ الخُبْـرُ
هنالك صار المـدّعي كـل جمعـةٍ بأكمـل آدابٍ إذا صُـلِّيَ العَـصْرُ
وينظر خطاً فـي الـسماء منـوّراً يوازيه جنحُ الليل إن أفـل البـدرُ
وفيهـا شـطا ذا التـابعيّ مقامـه على أيمن الوادي فغبـراؤه عطـرُ
وشرّف مَنْ صحب النبـيّ بـأربع لديه ولـم يُعْلَـم لأسـمائهم ذكـرُ

---

(١) الأراقم جمع أرقم وهو من الحيات الذي فيه سواد وبياض. وقيل هو المُرَقَّم الذي على ظهره رَقْمٌ، وهو النَّقْش بحمرةٍ وسوادٍ وكُدْرة ويُغثَة وهي بياض يضرب إلى الخضرة أو الحُمرة (اللسان: رقم وبغث)..

(٢) المِطْرَف والمُطْرَف: واحد المطارف، وهو رداءٌ من خزّ مربع له أعلام - وهي الرسوم (اللسان: طرف وعلم).

(٣) الطّلُّ: المطر الخفيف أو الندى (اللسان: طلل).

(٤) في م: (مفوقاً) تحريف.

(٥) في م: (جبريل) وما هنا للسياق العروضي.

فقَبِّلْ ثرى أعتابهم واستغِثْ بهم | لحادث هذا الدهر إن غَدَر الدهرُ
ولازمْ رحابَ الأولياء وثِقْ بهم | حريصاً على الحسنى إذا خُتم الأمرُ
وخذْ من سعيدٍ سِبْطِ[1] طه فرائداً | هي الجوهرُ المكنونُ في سمطه[2] الدرُّ
وبيتُ قصيدي مدحُ طه وآله | فإنهمُ القاداتُ والأنجم الزهرُ

[بحيرة تِنّيس]

وأما البحيرة[3] فيقال لها بحيرة تِنِّيس وكانت تنّيس[4] مدينةً كبيرة، فيها آثار للأوائل. فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب[5]:

تنّيس كانت أرضاً لم يكن مثلها استواء وطيب تربة، وكانت جناناً[6] ونخلاً وكَرْماً وشَجراً ومزارع. وكانت فيها مجاري على ارتفاع الأرض. ولم يرَ الناس بلداً أحسن من هذه الأرض، ولا أحسن اتصالاً من جنانها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة تشبهها إلا الفَيّوم[7]، وكان الماء منحدراً إليها، لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء، يسقون جنانهم وزروعهم إذا شاؤوا، وسائره يصبّ إلى البحر الملح من جميع خلجانه من موضع معروف بالأُشْتوم[8]. وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم [وكان فيما بين العريش[9] وجزيرة قبرس

---

(١) السبط: واحد الأسباط، وهم أولاد البنات، وقيل غير ذلك (اللسان: سبط).
(٢) السمط: الخيط ما دام فيه الخرز، وإلا فهو السلك (اللسان: سمط).
(٣) في م: (البحيرا).
(٤) تنّيس - بكسرتين، تقدمت في ص من هذا الكتاب.
(٥) مروج الذهب - كتاب التحرير - ٢٦١.
(٦) في م: (جناتاً) خطأ.
(٧) الفيّوم: ذكرها ياقوت في معجم البلدان والمقريزي في خططه ٢٤١/١، وتقع اليوم بين القاهرة وبني سويف، غربي النيل.
(٨) الأُشتوم - بالضمّ، ثم السكون، وتاء مثناة مضمومة، والواو ساكنة، وميم: موضع قرب تِنيس، وبينهما ستة فراسخ ، ومنها إلى الفَرَما في البر ثمانية أميال، وفيها مصب ماء البحيرة إلى بحر الروم (أي البحر الأبيض المتوسط) (معجم البلدان).
(٩) العريش: أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (الأبيض المتوسط) في الرمل، ومنها إلى رفح ستة أميال (معجم البلدان).

طريق مسلوك إلى قبرس تسلكه الدواب يبساً.. حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وقبرس][1]. فلما مضت لدقلطيانوس[2] من ملكه مئتان وإحدى وخمسون سنة هجم[3] الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى الآن بحيرة تِنّيس، فما كان من القرى التي في قرارها غرقت، وما كان منها على ارتفاع من الأرض بقيت كتونه وبورة، وكان استحكام غرق هذه [٧/ب] قبل أن تفتح مصر بمئة سنة.

وقال في **جامع تاريخ دمياط**[4]:

وكان أهلها مياسير[5] - أي أصحاب ثروة - وأكثرهم حاكة[6]، وكان يُصنع فيها ثوبٌ للخليفة، يقال له البدنة لا يدخل فيه من سُدى[7] ولحمة غير أوقيتين، وينسج[8] باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار، وكان يعمل منه ستر الكعبة.

وما زالت تِنِّيس مدينةً عامرةً إلى أن خرّبها الكامل[9] محمد بن العادل في سنة أربع وعشرين وست مئة، فاستمرت خراباً، ولم يبق منها إلا رسومها وسط البحيرة وبحيرتها الآن يصادُ بها السمك، وهي قليلة العمق، وتلتقي السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح وقلع، كل واحد منه مملوك بالريح مسيرها في السرعة مستو، وبوسط هذه البحيرة عدة جزائر تعرف بالعزب يسكنها الصيّادون وماؤُها ملح. وقد يحلو أيام النيل. انتهى.

---

(١) ما بين المعقوفتين مستدرك عن الخطط، وهذا الاستدراك ضروري من جهة، وهام من جهة أخرى، وغريب من جهة ثالثة، ويلقى ضوءاً على باقي النص من جهة رابعة.

(٢) دقلطيانوس: أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة، وامتد ملكه إلى مدائن الأكاسرة وإلى بابل، واتخذ أنطاكية تختاً لملكه (خطط المقريزي ٢٦٢/١).

(٣) في م: (حكم) وما هنا عن الخطط.

(٤) اللفظ في هامش م. والنقل مستمر عن الخطط ١٧٧/١ بتصرف.

(٥) في م: (مياسيراً) وما أثبته للسياق النحوي.

(٦) حاكة جمع حائك وله جمع آخر شاذ وهو حَوَكَةٌ (اللسان؛ حاك).

(٧) السُّدى خلاف لحمة الثوب واحدته سُداة. قلت وهو تداخل خيوط الثوب من بعضها.

(٨) م: (نسج) وما ها هنا عن الخطط.

(٩) تقدم تعريفه في ص ٥٠(هـ٣) .

[جماعة من علماء تِنِّيس]

وقد خرج منها جماعة من العلماء والمحدثين:

١- فمنهم عبد الله بن يوسف التنيسي[(١)] المحدّث. أخذ عن مالك بن أنس. وعنه أخذ البخاري وخَرَّج له في جامعه الصحيح.

قال القسطلاني في شرحه: ظهر من تنّيس جماعة من العلماء، منهم: عبد الله بن يوسف التنّيسي شيخ البخاري.

ومنهم: الحسين بن عبد الله الجروي منهم، نسبته إلى جروى - بفتح الجيم وسكون الراء قريبة من قرى تنيس وهو من مشايخ البخاري أيضاً.

ومنهم شيخ مشايخ البخاري يحيى بن حسان التنيسي[(٢)]، وبشر بن بكر التنيسي[(٣)]. انتهى.

[شعر للمؤلف]

وفي عام خمسة وثلاثين ومئة وألف وقفت في بعض زياراتي عليها، ونظرت بعين الاعتبار إليها، فلم أرَ بها إلا رسومَ أطّلال وآثار، إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار [من البسيط]:

تلك المعاهد من تِنّيس قد مُحيت	**لم يَبْقَ منها سوى آثار أطلالِ**
كأنها لم تكن من قبل دوحتها	**من تحتها قد جرى أنهار سلسالِ**
يبكي عليها غراب البين من أسفٍ	**كأنما نسفتها ريح زلزال**
فكم بها لأولي الأبصار من عبرٍ	**فانظر إليها بعين الناقد السالي**

---

(١) ترجمته في تاريخ البخاري ٢٣٣/٥، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٤٩/٣٩ من طبعة مجمع دمشق واسمه فيه (عبد الله بن يوسف أبو محمد الدمشقي نزل تنيس) وسير أعلام النبلاء ٣٥٧/١٠ وتهذيب التهذيب ٨٦/٦.

(٢) ترجمته في تاريخ البخاري ٢٦٩/٨، وتاريخ دمشق - طبعة دار الفكر - ١١١/٦٤، والجمع بين رجال الصحيحين ٥٥٩/٢ وكناه بأبي زكريا مات سنة ٢٠٨.

(٣) ترجمته في تاريخ البخاري ٧٠/٢، وتاريخ دمشق ١٧٣/١٠، والجمع بين رجال الصحيحين ٥٣/١ مات آخر سنة ٢٠٥.

[متابعة الرحلة]

(٨/أ] ثم بعد ركوبنا البحيرة على متن السفين، نتلو **(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)** [الفاتحة: ٥/١] وصلنا ثاني يوم فم أم مفرج، فركبنا متون الصافنات[١] على **قلعة الطينة**[٢] نعرج، فوردناها قربَ الغروب، فنزلنا بها، وقد زالت عنا الكروب، وأكلنا ما حضر من العشاء، وسرينا منها بعد صلاة العشاء، حتى نزلنا آخر الليل نحن والقوم، وطلبنا الاستراحة فاضطجعنا للنوم، إلى أن هزم الصبح جيش الليل البهيم، فسرنا بعد الإسفار إلى **الرماني منزل بني هشيم**، فتلقونا بالبشر والإكرام، وبثغور زاهية الابتسام، من كل مولى حميم، وجواد كريم: [من البسيط]

لا تعجبوا من نداهم إنهـم عـرب ... والجود بالطبع فيهم غيـر مبتكـرِ

إني نزلت لـديهم نحتظـي بنـدى ... من راحتيهم وليس الخُبْر كـالخبرِ

[المريح وبئر العبد]

ثم ركبنا من الجياد الظهور، والسعد يبشرنا بتيسير الأمور، فوصلنا إلى المريح قبال **قطية**[٣] قرب الزوال، فاستقينا، وعزمنا على الرحيل والسير في الحال، وما زلنا سائرين مع ذلك الوفد إلى أن وصلنا قرب الغروب **بئر العبد**، فإذا ماؤها مرٌّ المذاق، وإن فيه كؤوس دهاق[٤]، ولونه يداني الحبر البراق، ولا يخفى ما بين الاسم والمسمى من الطباق: [من الوافر]

---

(١) في م: (الصفانات) تحريق واستدركت الرواية الأخرى في هامشها.

(٢) الطِّينة - بلفظ واحدة الطين - بكسر أوله، وسكون ثانيه، ونون: بليدة بين الفَرَما وتنّيس من أرض مصر (معجم البلدان).

(٣) قَطْية - بالفتح، ثم السكون، وياء مفتوحة: قرية في مصر في وسط الرمل قرب الفَرَما (معجم البلدان).

(٤) دِهاق: ملأى أو فارغة فهي من الأضداد (اللسان: دهق).

وردنا نحــو بئــر العبــد روّى[1] فــؤادٌ ذاب مـــن حـــرّ الأُوامِ[2]
فطــابق اســـمه عـــين المـــسمّى ولا يخفـــى التجـــانس بالمقـــامِ

فتناولنا ما تيسر من الزادْ، وجعلنا ظهور الخيل للاستراحة مهادْ.

[العريش]

وما زلنا سائرين حتى عجزنا عن الاستطاعة. فوصلنا **العريش** يوم الجمعة قبيل المغرب بساعة، وقد لاحت منها بوارق البناء، ولوامع أنوار الضياء كيف وقد نقل كعب الأحبار أن بها عشرة من الأنبياء الأخيار، لم تُعلم أسماؤهم الشريفة، ولا [٨/ب] ضرائحهم السامية المنيفة، فيقصد الزائر زيارتهم على الإجمال، فتحصل نفحات إمداداتهم على كل حال.

[مقام محمد الدمياطي]

وبها مقام سيدي محمد الدمياطي[3] كعبة الزوار، صاحب المنظومة الدمياطية ذات الأسرار. والعريش تيسّر لي في الخطوة الأولى زورته، وسرّني من ذلك العهد رؤيته.

[مصر زمن نوح]

بلدة قديمة. قال أبو السرور البكري في كتابه الرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة:

إنها - أي مصر - كانت قبل[4] تسمى **جزلة** وكان لسكانها معرفة في العلم، وكان من جملتهم أقليمون الكاتب، ولما اتّصل به خبر نوح عليه السلام

---

(١) في الأصل: (زوى) وما أثبته للسياق.

(٢) الأُوام: العطش، وقيل: حَرُّه، وقيل: شدة العطش (اللسان: أوم).

(٣) هو محمد بن أحمد بن عيسى أمين الدين أبو الجود توفي سنة ٩٢١ نظم قصيدته الدمياطية في نحو مئة بيت. (الكواكب السائرة ٣٣/١، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٦٠/٨).

(٤) اللفظ مستدرك في هامش الأصل.

علم بما يؤول إليه الحال من الطوفان، فخرج من مصر، ولحق بنوح وآمن به، هو وولده وأهله وتلامذته، وركب معه في السفينة، وزوّج ابنتَه من بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. فلما خرج نوح من السفينة، وقسَّم الأرض كانت ابنة أقليمون قد ولدت من بيصر ولداً سمّاه مصر، وقيل مصرايم، قالت لنوح: ابعث معي ولدي حتى أمضي به إلى بلدي، وأوقفه على علومي ورموزي، فأنفذه معها مع جماعة من أهل بيته، وكان غلاماً فنزلوا على العريش أولاً، ولهم فيها آثار بها، وسمى العريش عريشاً، ثم انتقل إلى مصر، وسبق أباه وإخوته - وكان هو أكبرهم - إلى هناك، وكانت[1] إقامتهم بسفح الجبل، ونقروا هناك منازل كثيرة، ومغاور[2] مديدة مهولة، حتى قيل: إن بعض المغاور نفذ نقره إلى ساحل السويس، وغرس مصرايم الأشجار بيده، وكانت أشجاراً عظيمة بحيث تشقّ الأُتْرُجّة الواحدة نصفين، فيكونان حملي[3] جمل، وكان طول كل واحدة من القثّاء أربعة وعشرين شبراً إلى آخر ما أطال به إلى أن قال:

وسميت الأرض باسم مصرايم المذكور. انتهى.

[الإقامة خارج العريش]

وقد مَنَعَنا أكابرُ العريش وحماها، أن نحلَّ ذروة حِماها، خوفاً من الطاعون يناديهم، أو يحلَّ بساحة ناديهم، لكوننا من [٩/أ] الديار المصرية، وكان الوباء بها إذ ذاك وهذه سليقة غير مرضية، وولوا عن المقابلة معرضين، وهيهات أن يدفع المقدور حصن حصين [من البسيط]:

فرّوا مخافةَ طاعونٍ وما علموا ... أن المُقَدَّر محتوم من القدرِ

وكيف يدفع مقدوراً بحيلته ... من قد تحفظ بالأحجار والمدرِ

---

(١) في الأصل (وكان) وما هنا للسياق.

(٢) في الأصل (مغاير) في كل مكان ورد فيها.

(٣) في م (حملا) وما هنا للسياق النحوي.

فنزلنا ظاهرها بدوحٍ روضةُ تقرّ به العيون، وينشرح بطيب شذاه القلب المحزون، ويشفي نسيم أرجه العليل، ويروي سلسال زلاله الغليل(١) [من المتقارب]:

نزلنـــا بـــدوح وادي العـــريش	**يـــسرّ العيـــون ويـــشفي الغليـــلْ**
ينثـــر(٢) الزهـــور بلـــوح النهـــور	**وحـــسن المقيـــل بظـــلٍّ ظليـــلْ**

[خان يونس]

وأقمنا بذلك البستان البسّام إلى أن حان يوم السبت الختام، فسرينا قاصدين **خان يونس**، وعين العناية لنا تؤنس، ممتطين ظهور الخيل، إلى أن غرسنا **بوادي الخروبي** آخر الليل، وهو وادٍ متسع أفيح بهيج، يفوح عبير شذاه الأريج.

[رفح]

وبه صلينا الصبح قبل الإسفار، وسرنا فوصلنا **رفح** وسط النهار، وهو أول أرض الشام، كما ذكره صاحب مثير الغرام.

وبه بئر يقارب النيل في عذوبته، صلينا عنده الظُّهر وسرنا في ساعته، فوصلنا إلى الخان، وكان وقت العصر قد حان؛ فامتطينا صهوته الرفيعة، وبتنا بقلعته المنيعة، نكحّل العيون بميل النهر، وندير ما بيننا كؤوس السمر؛ مستبشرين بدنوّ المزار، وقرب هاتيك الديار: [من البسيط]

بخان يونس نجم القرب قـــد لاحـــا	**وطيب عرف الشذا من عرفه فاحا**
إذ كان مبتدأ القدس الـــشريف بـــه	**والقرب ينـــشئ للأفـــراح أفراحـــا**
في ليلـــة أذكرتنـــي ليلـــة بمنـــى	**أجلو بها من شراب الأنس أقـــداحا**

---

(١) اللفظ مستدرك في هامش م.

(٢) في البيت ثَلْمٌ وهو حذف فاء فعولن.

[غزة]

فلما انقضت تلك الليلة التي كليلة القدر، وكاد أن يفجأنا ضياء الفجر؛ قصدنا **غزة**، فوافيناها ضحوة النهار، وقد فاح شذا نسيمها المعطار؛ فأطلقت عنان الطرف في ناديها، وصلت بصولجان الفكر في واديه؛ عندما [٩/ب] كشفت عن نقابها، وتجلّت للناظرين من حلل إعجابها؛ فإذا هي بحبوحة حنان، وللحمائم بروض زهورها ألحان؛ فأسرعت إلى نحوها المسير، وكدت من فرحي إليها أطير: [من البسيط]

سِرْ بي إلى غزَّة الفيحاء إنّ بهـــا	**رياض زهرٍ تحــاكي جنــة الخلــدِ**
مرَّ النسيم عليها والــصبا ســحراً	**يروي حديثاً لنا عن ســاكني نجــدِ**
فهاجني بلبل الأفراح حــين شــدا	**بلحن معبد فوق الأغــصن الملــد**

فلما وصلت لحانها، ساقتني يد التقدير إلى خانها؛ فنزلت بها مصاحباً لبعض الرفاق، وأنا مما به من عسكر الدولة في غاية الإشفاق؛ فبتُّ بليلة ملسوع، ودهر[١] مفجوع؛ أروي عن السُّها حديث السهاد، من وثبات براغيثها ومخافة تلك الأوغاد؛ أقول مخاطباً للنفس، حيث أزعجت عند ذلك الحواس الخمس[٢]: [من الطويل]

كليني لهــمٍّ يــا أميمــة ناصــبِ	**وليــلٍ أقاســيه بطــيء الكواكــبِ**

وقد تذكرت قول القائل، من الشعراء الأوائل: [من البسيط]

عندي براغيث سوء كلها اجتمعــت	**قد بيتوني بأنواع مــن الغــصصِ**
يروح هــذا يجــي هــذا فأقتــصه	**فتنقضي ليلتي في الصيد والقــنصِ**

ولا يخفاك ما للناموس أيضاً من السطوات، وترقيص النائم بنغم تلك النايات؛ وللأخ السعيد في هذا المقام، ما يحكي اللآلئ في حسن النظام: [من الوافر]

---

(١) اللفظ في الأصل المصور (دهرت) وما أثبته للسياق.

(٢) البيت مطلع معلقة النابغة الذبياني، انظر ديوانه - بتحقيق أستاذي الدكتور شكري فيصل رحمه الله.

عـــدتك لُوَيْلَـــةٌ قَـــصُرتْ وطالـــت   بها الناموس محتفيـــاً وســـادي[1]

أثار النـــوم قهـــراً عـــن جفـــوني   بلـــسع قـــد حكـــى شـــرر الزنـــادِ

ولما كثرت وثباتها عليَّ من كل جانب، وضاقت لديَّ المسالك والمسارب؛ ارتجلت منشداً، حيث لم أجد لي منجداً؛ وكدت أن أشتفي بذمّها في النظام، لكن نهى عن سبّها سيّدُ الأنام:[من الطويل]

براغيثُ هذا الخان أسهَرْنَ ناظري   بلسعٍ كسقط الزند ما خلتُه يـــصفى

لها وَثَباتُ الليثِ مع ضعفِ جسمِها   ولكنَّها قد أورثـــتْ جثّتـــي ضـــعفا

وقد كدتُ أهجوها بحـــسنِ تلطُّـــفٍ   ولكنَّ[2] جاء النهي عن سبّها كفّـــا

[صديقه محمد مكي]

[١٠/أ] ولمّا جَرَّد عن اللَّيْل بَرْدَه المسكي، أقبل علينا صديقنا محمد مكي؛ وحيّانا بأحسن الخطاب، وعاتبنا بألطف عتاب؛ ثم أقسم علينا بالنزول بداره، أو بقصر ببستان له بجواره؛ فأجبته بالامتثال، وسرت معه في الحال؛ فلما وصلت إلى بستانه البديع، وروض حماه المريع؛ قابلني خطباء طيوره فوق منابر الأغصان، تروي أحاديث السرور ببديع الألحان؛ فصبوت مما شاهدته من الجمال، وأنشدت على الارتجال: [من الكامل]

قصرٌ زها فـــروى عليـــلُ نـــسيمه   خبـــرَ الـــشفا لحـــدائق الأزهـــارِ

صَـــدَحتْ بلابلُـــه علـــى أغـــصانه   وتلا[3] حـــديثَ العـــود والمزمـــارِ

فلكٌ بـــه المكـــيُّ شـــمسُ نهـــاره   وبنـــوه تحكـــي بهجـــةَ الأقمـــارِ

---

(١) في الأصل:(محتف) والمثبت لإقامة الوزن.

(٢) تشديد النون ضرورة عروضية.

(٣) في م: (تلى) بلا واو، فأضفتها للسياق العروضي.

انعم بقصر يستطيل إلى السُّها فاح الشذا من عَرفه المعطارِ

مَنْ أمَّهُ يلقى[1] لديه مسطّراً كنز الصفا ومشارق الأنوارِ

[الأديب الشهاب أحمد الخرش الحكيم]

وقد وفد عليَّ المولى الأديب، والطبيب الرئيس اللوذعي الأريب؛ الشهاب أحمد الخرش الحكيم، فتَلَقَّيتُه بالإجلال والتكريم؛ إذ هو في حُذَّاق الأطباء معدود، فكأنما بعث الله لنا داود؛ فكانت محادثته النزهة البَهجة، في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة؛ منحني من مفرداته بكل غريبة، وأتحفني من منهاجه بكل عجيبة؛وأنشدني لصاحب النفس القدسي، مولانا العارف الشيخ عبد الغني النابلسي[2]: [من الطويل]

سقى الله غزَّا[3] وابل السحب إننا وجدنا بها ما لا بمصر وجلّقِ

بدوراً وغزلاناً وماءً وخضرةً وكثبانَ من رملٍ على بحر أزرق

وطلب مني تشطيرهما مرتجلاً، فأجبت قوله ممتثلاً: [من الرجز]

وأين نظمُ الدرّ والياقوتْ ممن ينحت في الجبال بيوتْ

فقلت[4]:[من الطويل]

سقى الله غَزَّا وابلَ السُّحبِ إننا نَحِنُّ لها وجداً بفرطِ تشوُّقِ

نزلنا بواديها الأريج بروضة وجدنا بها ما لا بمصر وجلّقِ

[١٠/ب] بدوراً وغزلاناً وماءً وخضرةً وألحان أطيارٍ بأفصح مَنْطقِ

---

(١) في م: بإثبات الألف المقصورة رغم الجازم قبل الفعل، وذلك للضرورة العروضية.

(٢) من هنا تبدأ النبذة التي اختارها السكري، وهي تمثل بعض النسخة م لا كلّها وهي كثيرة الاختلاف مع الأصل حذفاً وإضافة وتغييراً مما لا فائدة من إثباته خوفاً من إثقال الحواشي إلا في الضرورة.

(٣) يقصد غزة ولكنه قلب التاء المربوطة ألفاً للضرورة.

(٤) ليس اللفظ من الأصل واستدركته عن النبذة.

وطيب نسيم مـع زهـور تـدبجت وكثبان من رمل على بحـر أزرقِ

وأنشدني بيتين لابن طاهر[١]، على مثلها تعقد الخناصر؛ يزريان بالأغاني، والمثالث والمثاني[٢]: [من الطويل]

إلى كم تطيلي[٣] العَتْبُ في كلِّ سـاعة فَلِمْ لا تَلمِّـين القطيعـةَ والهجـرا

رويـدكَ إنَّ الـدهر فيـه كفايـةٌ لتفريقٍ ذات البَيْنِ فانْتَظري الدَّهرا

ثم استروحت النفس لرؤية رياضها، والتملّي بمحاسن غياضها؛ فوافيت روضة أظهرت يد الغيث آثارها، وأبدى الربيع للعين أنوارها؛ فهي كالعروس في حليها وزخارفها، والقينة في وشيها ومطارفها؛ تنافحت بنوافح المسك أزهارها، وتعارضت بغرائب النطق أطيارها: [من البسيط]

أنهارهـا بميـاه الحـسن دافقـةٌ كأنهـا لـذوي التنعـيم جنـاتُ

أزهارهـا بعبيـر المـسك نافحـةٌ أطيارُهـا ببـديع النطـق قينـاتُ

ذات ظل وظليل، وماء عذب من السلسبيل؛ نعوتها وأوصافها متناسقة، وأشجارها كالمحبين متعانقة، وفرشت أرضها بالسندس والديباج، وازدهت بمرجها الأريج، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ فكأنها روضة ابن المعتز البديع حيث مدحها إبّان الربيع[٤]: [أرجوزة]

وروضـة[٥] كحلـة[٦] العـروس وقـدم[٧] كهامـة الطـاووسِ

---

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زُرَيق بن أسعد أبو العباس الخزاعي الأمير. شاعر توفي سنة ٢٣٠، قال أبو الفرج: وله في الأدب المحلّ الذي لا يدفع انظر تاريخ بغداد ٤٨٣/٩، والأغاني ١١١/٢، وتاريخ دمشق - مجدمع - ٢٠٥/٣٤.

(٢) البيتان في رتاريخ دمشق ٢٢٢/٣٤.

(٣) في النبذة (تطيل) وفي تاريخ دمشق: (يكون).

(٤) الأبيات في ديوان ابن المعتز - دار المعارف ٣١/٢ ودار صادر ٤٧٤ ، ٤٧٥.

(٥) في الديوان بطبعتيه: (في روضة).

(٦) في م: (كحيلة).

(٧) في الديوان - دار المعارف: (وخُرّم) ودار صادر (وخدم).

فالسرو[١] مثــل قُــضُبِ الزبرجــد ... قد استمدّ الماءَ مــن تُــرْبٍ نَــدِي

والأُقْحـــوان كالثنايـــا الغُـــرِّ ... قـــد صُـــقلت أنـــواره[٢] بـــالقَطْرِ

وياســـمينٍ فـــي ذرا الأغـــصانِ ... مُـــنَظّمٍ[٣] كقطـــع العقيـــان

فيــضحك الــورد إلــى الــشقائقِ ... فاعتنق الورد اعتنــاق الوامــقِ[٤]

والسوسن الآزر[٥] منشور الحلــل ... كقطــنٍ قــد مــسَّهُ بعــض البَلَــلْ

وفرّج[٦] الخشخاش جيبــاً وفتَــقْ ... كأنــه مــصاحف بــيض الــورقْ

[١١/أ] تُبْصِرُهُ عند[٧] انتشار الوردِ ... مثــلَ الــدبابيس بأيــدي الجُنْــدِ

أو أنها الروضة الغنا، التي بلبل ابن حبيب بأرواحها غنى؛ حيث يقول:

جَدَّ بي الوجدُ إبان الربيع، إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع؛ فسرت أُحدّق في جوانب الحدائق، وصحبتي من الشوق وثائق؛ يتلوهن حادٍ وسائق، فإذا أنا بروضة أرضة، عيون أزهارها مريضة؛ قد فاح أرجها وأضاءت شرحها، وبرز إبريزها، وحسن تطريزها، وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت، ونثرت على الزمرّد أصناف الدرّ والياقوت؛ وتحلّت بما يروق إنسان كل إنسان؛ وتجلّت في رفرف خضر وعبقري حسان؛ أعلن السحاب أسرارها، وهتك النسيم أستارها[٨]: [من المتقارب]

---

(١) في الديوان - بطبعتيه - : (والسرو).

(٢) في الديوان - دار صادر - : (نوارها).

(٣) في الديوان - دار صادر - : (منتظما).

(٤) في الديوان - دار صادر -

واعتنق القطر اعتناق الوامــق ... وضحك الورد علــى الــشقائق

وفي هامشه الوامق: المحب. وفي طبعة دار المعارف: (واعتنق الغصن اعتناق وامق).

(٥) في ط دار المعارف: (والوسن الآزاذ ..) وفي هامش طبعة دار صادر: (السوسن الزنق والآزر الأبيض).

(٦) في طبعة دار صادر: (وفرش ...*).

(٧) في الديوان بطبعتيه: (تبصره بعد ..*).

(٨) بعد هذا اللفظ في م كلمة: (شعر).

كـــأنّ تفتُّحهـــا فـــي الـــضحى   عـــــذارى تحلّـــــلُ أزهارهـــــا

حكت الخنساءَ لا في الحزن بل في الحسن والفخر، ولها عيون تجري على الديباج لا على صخر؛ يضوع عرفها على الآفاق ولا يضيع، ويبز الظرف من صنع صنعائها كل بز رفيع؛ تنهار جدالها وأنهارها، ويضحك في وجه منه أب لها(١) وأم لها نوارها(٢) [من الوافر]

وما غربــتْ نجــومُ الليــل لكــن   نُقلنَ من الــسماء إلــى الريــاضِ

فمنه ورد أحمر الإهاب، عنه في الخضاب؛ ومنه الأبيض المذهب المفضض، ومن نرجس باسم، عرفه ناسم؛ ومن ياسمين يجلو البصر، كأنه أقراط منه الدرر؛ ومن نسرين جوهره عقد ثمين ومن خلاف، ليس في طيب عرفه خلاف؛ ومن بنفسج حسُنَ لباسُه، وطابت أنفاسُه؛ ومن نيلوفر(٣) صفَّره السَّقام وعذّبه، وغرَّ به الأمل وغَرَّبَه ومن آس، ما لجرح مُحبّه آسي؛ ومن ريحان، يقول: إنّ وقت الريّ حان؛ كأنه أطواق الحمام، أو سلال سوالف الغمام؛ ومن منشوره منظوم جوهره منثور، ومن سوسن، [١١/ب] تعالى الله ما أحسن؛ ومن خزامى، قدره لا يسامى؛ ومن أقحوان، جمع في مفرده القلمان؛ ومن آذريون(٤) أظهر القطر سره المكنون؛ ومن بهار، بهر بحسنه الأبصار؛ ومن شقيق، أين منه المرجان والعقيق؛ ومنه ومنه ومنه إشارة فمن، بالعجز عن الحصر فتن انتهى.

[مقامة الأزهار]

فروَّحتُ الروحَ في أرجاء مغانيها، وشرحت الصدر بمتن بهجتها ومباهج حواشيها؛ وتمتعت بمحاسن بدائع حدائقها، واقتطفت من وردها

---

(١) في الأصل: (أبلها) وفي النفس من هذه السجعة شيء.

(٢) بعد هذا اللفظ كلمة : (شعر).

(٣) النَّيْلُوفَر: ضرب من الرياحين (القاموس المحيط: نفر).

(٤) الآذريون: زهر أصفر في وسطه خمل أسود (القاموس أذن).

الزاكي وشقائقها؛ وكنا جمع سلامة بمجمع الأحباب، الحائزين آداب الظرف وظرف الآداب؛ فتجارينا في مضمار المسامرة بميدان الأشعار، على نجب البراعة وكرائم الأفكار؛ فابتدرني منهم ذو حُسْن وزكا، سما في المعارف الأدبية وزكا؛ وقال: أيحضرك بعض ما ورد في الأزهار، من التشابيه البديعة والمنافع والأسرار؟؛ فقلت: إنه على الخبير سقطت[١]، وصدق حدسك[٢] فيما تفرست؛ فألقيت[٣] الدواة وخرقت القلم، وكتبتُ مستعيناً باسم من أقسم بنون والقلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن أنْشَقَنا من الأزهار نوافح[٤] عَرْفها، وأشهَدَنا لطائف خواصّها وموانح نفعها؛ ونفث في روع ذوي البلاغة أسرار البديع، فنطقت ألسنتهم في تشبيهها بكل وجه بديع؛ والصلاة والسلام على أفصح العرب والعجم، من أوتي جوامع الكلم والكلام المحكم؛ وعلى آله وأصحابه زهور روضه المحظور؛ ومن تحلّى بحسن مدائحهم المنظوم والمنثور.

وبعد فيا ذا الأدب واللطافة، والرقة والظرافة؛ قد صدقت طلبتك، وتحققت[٥] رغبتك؛ مقتنياً[٦] من مقامات السيوطي طَرفاً، ومن[٧] دوحة الدفاتر طُرفاً، فإن عثر القلم في الخُطا، فعليَّ لا عليه الخَطا؛ فاقرأ:

---

(١) المثل في معجم الأمثال العربية (خبر - سقط) ومجمع الأمثال ٢/٢٤ و ٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢ و ٤٦، والمستقصى في الأمثال ٢/١٦٤، وأمثال القاسم بن سلام ٢٠٦ واللسان (سقط).

(٢) في م: (حرسك) تحريف.

(٣) في م: (فألقت).

(٤) نوافح: من النَّفْح وهو الأرج. (اللسان: نفح).

(٥) في م: (حققت).

(٦) في النبذة: (مقتفياً).

(٧) في النبذة: (ومجتنياً من دوحة ..).

[الورد]

فأما الورد فهو سيّد الرياحين، والمنعش للأرواح في كل حين؛ نديم الخلفاء، وحليف الظرفاء؛ [١٢/أ] العادل[١] المزاج، الصالح في العلاج؛ فَشَمُّهُ يسكّن حرارة الصفرا، وماؤه يبرد من المعدة حرّا؛ وينفع من الغثاء والخفقان، والصداع الحار في كل آن؛ وشرابه يطلق الطبيعة القوية، لاسيما من صاحب الأمراض الصفراوية؛ وبزره نافع للثة والفم، وأقماعه تقطع الإسهال ونفث الدم؛ ودهنه شديد النفع في الجراحات، وفيه مآرب كثيرة لذوي الحاجات.

قال صاحب كتاب الفلاحة:

الحيلة في وجوده متى طلب أن تُـؤخَذ أزرارُه[٢] الخضرُ التي لم تُفَتِّح يملأ جرّة فخار جديد، ويطين رأسها بطين محكم، لا يتخلله الهواء[٣]، وتدفن في الأرض، فإذا احتيج منه شيء أخرج ورشّ عليه ماء، ويترك في الهواء، فإنه يفتّح ورداً رطباً كالذي يقطف من شجرة.

وقد أنشد فيه، مَنْ راعى حُسْن التَّشبيه[٤]: [من الخفيف]

دَوْحُ وَرْدٍ يَمـيسُ فيـه غُـصونٌ فتحـاكي مُهَفْهَفـاتِ القُـدودِ

زَهْرُها وفـوقَ مـا تفـتَّح منهـا كَـشِفاه ضُـمَّت لِلَـثْمِ الخُـدودِ[٥]

وقد أنشد مَنْ له شغف بمعانقات القدود والمعاطف، ولثم وجنات ورد الخدود والمراشف[٦]: [من الكامل]

---

(١) اللفظ مستدرك فوق السطر الأول من م.

(٢) في م والنبذة: (إزاره) وهو تحريف صححته عن النبذة.

(٣) في م والنبذة: (الهوى) في المرتين.

(٤) البيتان في ديوان الرياض والأزهار والأثمار ٢٢٥/٢ بلا نسبة.

(٥) في ديوان الرياض: (خدود).

(٦) البيتان في ديوان الرياض والأزهار والأثمار ٢٤٣/٢ وفي هامشه إشارة إلى مصادر أخرى وهي: خزانة الأدب للحموي ١٧٦، والغيث المسجم ٧٢، ونزهة الأنام ٦٥.

وردَتْ إليكَ مـن الحديقـة وردةٌ[1] وأتتـكَ قبـلَ أوانها تَطْفيلا
طَمِعتْ بلثمكَ إذ رأتـكَ فجمَّعَتْ فمها إليكَ كطالبٍ تقبيلا

ومنه ما حُكي أنَّ رجلاً أهدى إلى أبي عامر الكاتب وردة قبل أوانها، فأخذها وكان بعض شعرائه بالمجلس، فأشار إليه أن يقول ما عنده، فأنشد[2]: [من المتقارب]

أتتـكَ أبـا عـامرٍ وردةٌ يُحاكي لـك[3] المِسْكُ أنفاسَها
كعـذراءَ أبصرها مُبْصرٌ فغطَّت بأكمامها راسَها

فلهذين[4] البيتين مكانة طنانة، أودعها الشهاب في كتابه الريحانة[5].

ولما استغاث الوردُ الجنِيُّ واستنجد، رقَّ له السّامع وأنشد[6]: [من الطويل]

[١٢/ب] ولم أنْسَ قولَ الوردِ حين جَنَيْتُه والنـار لاستعطاره تتَسعَّرُ
ناشَدْتُكم نفسي الفداءُ وإنما لا تَعْجبوا في قَبْضٍ[7] روحي واصبِروا

[النَّرْجس]

وأما النَّرْجس[8] فهو فريد الزمان، الكامل في المحاسن والإحسان؛ المشبه بعيون الملاح، المعروف في الأدوية بالصلاح.

---

(١) في ديوان الرياض: (سيقت إليك من الحدائق وردة *).
(٢) البيتان في ديوان الرياض ٢٣٥/٢ منسوبين إلى أبي العلاء صاعد بن الحسن الأندلسي، وفي هامشه إحالة إلى نهاية الأرب ١٨٩/١١ ونزهة الأنام ٦٣ بلا عزو.
(٣) رواية البيت في نهاية الأرب وديوان الرياض: (ودونك يا سيدي وردة * يذكرك ...).
(٤) في م: (فلهذه) والمثبت للسياق.
(٥) نفحة الريحانة ٤٣/٢.
(٦) البيتان في ديوان الرياض ٢٢٨/٢، وفي هامش إحالة إلى نزهة الأنام ٧٠.
(٧) في ديوان الرياض:
... نفسي خذوه وإنما لا تعجلنَّ بقبض روحي ..
(٨) انظر نهاية الأرب ٢٢٩/١١-٢٣٥، والبرق المتألق في محاسن جلق ١١٨-١٢٠، وديوان الرياض والأزهار والأثمار ١٦٥/٢-١٩٧، ونزهة الأنام في محاسن الشام ١٢١- ١٣٣.

وقد ورد فيه خبر عن سيد البشر[١]: شموا النرجس فإن في القلب حبةً من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شمّ النرجس.

وقد روي عن بقراط[٢] أهل النقل، أنه غذاءٌ للروح والعقل.

وأنَّ الحسن بن سهل نبَّه على فضله من غير حيف، فقال: إنَّ مَنْ أدمن شمَّه في الشتاء أمن البِرْسام[٣] في الصيف.

وفيه منافع طبية، ظاهرة غير خفية:

فشمّه نافع للزكام البارد، وبه تحليل قويّ الموارد.

ودهنه نافع لأوجاع العصب والأرحام، والأذن والصلب من الأورام.

وأصله يلحم الجراحات العظمية، وينفع ذكَرَ العنّين، ويجيد تقويمه، ومن الدليل على صلاحه أنه غفر[٤] لأبي نواس بأبيات قالها في امتداحه[٥]: [من الوافر]

تأمَّلْ في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ

عيون من لجين شاخصاتٌ ... بأحداقٍ كما[٦] الذهب السَّبيكُ

على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ ... بأنَّ اللهَ ليس له شريكُ[٧]

---

(١) الخبر في ديوان الرياض ١٦٥/٢ برواية أخرى، وهو بهذه الرواية في البرق المتألق ١١٩.

(٢) الخبر في البرق المتألق ١١٩، وديوان الرياض ١٦٦/٢ بخلاف الرواية.

(٣) البرسام: المُوم هو الزكام وقيل الحمى وقيل الجدري (اللسان: برسم ، موم).

(٤) في ديوان الرياض: (روي عن أبي نواس أنه رئي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر الله لي وأدخلني الجنة بأبيات قلتها في النرجس: تأمل في رياض ..).

(٥) الأبيات في البرق المتألق ١١٩، وديوان الرياض ١٩٣، وفي هامشهما: المحب والمحبوب ١٧٥/٣، ومحاضرات الأدباء - دار صادر ٤٦٦/٤ وسكردان السلطان ٤٧٠، وخلاصة الأثر ٤٢٣/٤.

(٦) في ديوان الرياض: (هي).

(٧) بعد هذا البيت في ديوان الرياض:

وأن محمداً عبدٌ رسولٌ ... إلى الثقلين أرسلهُ المليكُ

وقد تشوّق أديب للقاء الحبيب، فضمّه مع الأقاح، فضاع نشرهما وفاح[1]: [من الكامل]

لو كان مَنْ أحببتــه فــي روضــة أطيارُهــا صــاحت بــه تتــرنّمُ[2]

لرأيت نرجـسها يغـضُّ جفونــه عنـــا وثغــر أقاحهــا يتبــسَّم

وقد أنشدني لنفسه الشقيق السعيد،[3] مضمناً المثل السائر في لحظ الغيد: [من الكامل]

أهدى الحبيبُ إلــيّ باقــةَ نــرجسٍ وجُفون أعينهــا المريــضة تَبْــسمُ

حاكــتْ عيــونَ معــذّبي فلثَمتُهــا من أجل عينٍ ألــفُ عــينٍ تُكْــرَمُ

[الياسمين[4]]

وأما الياسمينُ فهو زين الرياض، وموسوم في الوجه بالبياض؛ [١٣/أ] وجاء في حديث يفوح بنشره، أن قارئ القرآن يُؤْتى بياسمين الجنة في قبره؛ونفعه مشهور بلا خفا، فكم له من أنموذج في قانون الشفا؛ ينفع من الأمراض الباردة، ويحلل الرطوبات الجامدة؛ وينفع الشقيقة والزكام، ويقطع نزف الأرحام؛ وينفع من الفالج، ووجع المفاصل، ويجلب العرق الفاضل؛ وإذا وضع في الكتب لم يقربها أرضة، وإن كان فيها كالجملة المعترضة؛ وقد أنشد الصاحب بن عباد[5]، فأحسن في التشبيه وأجاد[6]: [من البسيط]

---

(١) البيتان في ديوان الرياض ١٩٥/٢.

(٢) روا ية البيت في ديوان الرياض:

لو كنت إذا نادمت من أحببتــه في روضــة أطيارهــا تتــرنَّمُ

(٣) انظر نهاية الأرب ٢٣٦، ونزهة الأنام ١٣٧، والبرق المتألق ١١٠، وديوان الرياض ٢٦٣.

(٤) انظر نهاية الأرب ٢٣٦، ونزهة الأنام ١٣٧، والبرق المتألق ١١٠، وديوان الرياض ٢٦٣.

(٥) هو الصاحب إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم الوزير كافي الكفاة. وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر. توفي سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م (معجم الأدباء ٦٦٢، والأعلام ٣١٢/١).

(٦) أخلَّ بهذين البيتين ديوانه المطبوع، وهما في البرق المتألق ١١١.

**وياسـمينٍ علـى قُـضْبٍ مُنعَّمـةٍ		قد قدَّرتـه يـدُ الخَـلاّق مقـدورا**

**ما خلتُ من قبله سُـبْحان خالقـه		قضبَ الزُّمُرُّد أن يحملْـنَ كـافورا**

وقد بعث ابن النقيب النبيه، إلى ابن الحمامي النصير ملغزاً فيه[1]: [من السريع]

**يا مَنْ يَحُـلُّ اللُّغْـزَ فـي سـاعةٍ		كلمحــةٍ مــن طرفــةِ العَــينِ**

**ما اسمٌ إذا أنقصتَ مـن عَـدِّه[2]		في الخطِّ حرفـاً صـار اسـمينِ[3]**

[البان][4]

وأما ابان فهو ذو اسمين، والقريب من البان بلامين؛ المشبّه قده الرطيب، بقامة الحبيب؛ أزهاره عالية، وأدهانه غالية؛ شمُّه نافع لذوي المزاج الحار، ومسكن الصداع الكائن عن البخار؛ ودهنه نافع لكل وجع بارد، وتحت ذلك صور خالية الموارد؛ من الأذن والضرس والراس، والكبد والطحال بلا التباس؛ وحسبك في عبوق نفحه، قول ابن الوردي الوردي[5] في مدحه[6]:

**تجادلنـا: أمـاءُ الزهـر أذكـى		أم الخَـلاّف أم ورد القطـافِ**

**وعُقبـى ذلـك الجـدلِ اصـطلحنا		وقد وقع الوِفـاقُ علـى الخـلافِ**

---

(١) البيتان في ديوان الرياض ٢/٢٦٩.

(٢) في هامش ديوان الرياض: (خلاصة الأثر إذا أسقط حرف الياء من (ياسمين) صار اسمين.

(٣) بعد هذين البيتين في ديوان الرياض: (فأجابه:

**كعـرض مولانـا وأنفاسـه		ألغزتَ لـي حقـاً بـلا مـينِ**

**لكنـه يغـدو سـميناً إذا		أسـقطت مـن أولاه حفـين**

وفي هامشه قوله: (وفي الجواب: إذا أسقطت الياء والألف من (ياسمين بقي (سمين).

(٤) انظر نهاية الأرب ١١/٢١٥، ونزهة الأنام ١٧٩، والبرق المتألق ١٢٧، وديوان الرياض ٢/٧٤، وفي هامش نهاية الأرب أن البان هو شجر الخلاف وهو صنف من الصفصاف.

(٥) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الأديب الشاعر زين الدين أبو حفص الوردي المعري توفي سنة ٧٤٩ هـ، انظر أعيان العصر للصفدي ٣/٦٧٧، وفوات الوفيات ٣/١٥٧.

(٦) البيتان في البرق المتألق ١٢٧ - ١٢٨.

لوما رأيت البان ماس عجباً[1] وتاه، أنشدته محذراً سوء عقباه[2]:

[الطويل]

أيا غصنَ بانِ الروضِ إن كنتَ معجباً   بقامتك الحسنا فما أنــت منــصفُ

لقد ملتَ كلَّ الميــل تيهــاً وغــرّةً   ومن تاه عجباً بالمحاسن يقــصفُ

[النسرين][3]

وأما النسرين فهو زين البستان، وفيه من الذهب والفضة لونان؛ العابق نشره بين الأزهار، العزيز وجوده في جميع الأمصار؛ [١٣/ب] اللطيف مزاجه، الظريف علاجه؛ ينفع من برد العصب ووجع الأسنان، ومن الدويّ والطنين في الآذان؛ شرابه يقتل الدود ويسكن القيء والفواق، ويقوي القلب والدماغ على الإطلاق؛ ويحلل من الصدر الرياح، وفيه لأصحاب المرة السوداء غاية النجاح؛ وإذا لطخ به الجبهة أذهب الأرق، والتدلك به يطيب البشرة والعرق؛ فكم له من فضيلة ونشرها فائح، وخصوصية نورها لائح.

وقد أنشد بعضهم فيه وأتحف، حيث اللفظَ صُحِّف: [من السريع]

ما أحسنَ النــسرينَ عنــدي ومــا   أملَحَــهُ مــذ كــان فــي عينــي

زهــر إذا مــا أنــت صــحفتَه   وجدتَــه بـــشرى ويُـــسْرَيْنِ

ولا التفاتَ لمن عليه اعتصب، وللورد انتصر وانتصب، ولا تنس قول الورد: لا تركنوا إلى معاهدة النسرين، فهو دين؛ لاتنظروا منه بناناً مخضباً، وليس لمخضوب البنان يمين.

---

(١) ليس اللفظ في م، واستدركته عن النبذة.

(٢) البيتان في نزهة الأنام ١٧٩، وديوان الرياض ٨٧ منسوبين إلى الشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ).

(٣) انظر: نهاية الأرب ٢٢٦/١١، والبرق المتألق ١٢٩، وديوان الرياض ٨١/٢، ونزهة الأنام ١٣٣.

[البنفسج][1]

وأما البنفسج فهو اللطيف الذات، الشريف الحُسن والصفات؛ به تعطّرت الجيوب، وبه يُشبَّهُ عذار المحبوب؛ المحاكي لزرق اليواقيت، وأعناق الفواخيت؛ منافعه لا تحصى، وفوائده لا تستقصى؛ ويكفيه ما ورد عن سيد ولد عدنان، أن دهنه سيد الأدهان؛ فهو بارد في الصيف، حار في الشتاء، صالح للأمزجة في أي زمن أتى شمه، يولِّد دماً في غاية الاعتدال، وينفع من الرمد الحاد والسعال؛ ويسكّن الصداع والصفراء، ويلين من ضمد به صدراً، وشرابه لذات الجنب والكُلا، ولدرّ البول حقاً محللا؛ والمربى منه بالسكر يفسخ الحمى الدموية، ويلين البطن والحلق بلا مرية؛ ودهنه إذا قُطِّر في الإحليل، سكّن حرقة المثانة، ويُصلح ما فسد من الشعر إذا أدمن في دهانه، وإذا تحسّى منه في الحمام وزن درهمين، نفع من ضيق النَّفَس بلا مين؛ وكفاه شرفاً بين الندمان، ما أنشده حين إهدائه بعض الإخوان[2]: [من المنسرح]

يا مُهدياً لي بنفسجاً أرجاً ... يرتاح صدري[3] له وينشرحُ

بشرني عاجلاً مصَحّفُهُ ... بأنَّ ضِيقَ الأمور ينفسِحُ

ومما يشنّف الأسماع ويُشيِق، ما أنشده الشاعر اللبيب ابن رشيق[4]: [من السريع]

---

(١) انظر: نهاية الأرب ٢٢٦/١١، والبرق المتألق ١٢٩، وديوان الرياض ٨١/٢، ونزهة الأنام ١٣٣.

(٢) البيتان في نهاية الأرب: ٢٢٨/١١، وديوان الرياض ٨٤/٢ وفي هامشه إحالة إلى خاص الخاص ٢٢٧.

(٣) في نهاية الأرب: [*يرتاح قلبي له ..).

(٤) البيتان في ديوان الرياض ٨٥/٢.

بنفسجٌ جاءكَ في حين لا حَرٌّ[١] يُرى فيه ولا فرطُ بَرْدِ
كأنّما لمّا أتَيْنا به منغمس الأثواب في اللازوردِ

[النيلوفر][٢]

وأما النيلوفر فهو نزهة النُّظّار، وبهجة النفوس وجلاء الأبصار؛ اللطيف الغواص، الكثير الخواص؛ شمُّه يسكن حاد الصداع، وبه لإذهاب الأرق غاية الانتفاع؛ شرابه شديد الإطفاء، بعيد عن الاستحالة للصفراء بلا خفاء؛ صالح للحميّات الحادة، نافع من السعال ويبس المادة؛ وقد أنشد من ارتاح لنشقه، وهاجت به بلابل عشقه[٣]، [من الكامل]

يرتاح للنيلوفر القلب الذي لا يستفيق من الغرام وجهده
والورد أصبح في الروائح عبده والنرجس المسكين خادم عبده
يا حسنَهُ في بركة قد أصبحت محشوةً مسكاً يُشابُ بندِّهِ

ومنه صنف يسمى البشنين،[٤] يشابهه في التكوين لا في التلوين؛ يحدث عن انطباق النيل، وله في مجملات الطب أحسن تفصيل؛ دهنه محمود في البرسام، إذا تسعط به ذوي الأسقام؛ وأصله يجبر الباه الكسير، ويسخن المعدة، ويقطع الزحير؛ قد صاغ وصفه فأحسن سبكه، من قال فيه حين شاهده في بركة: [من البسيط]

وبركة بغدير الماء قد طفحت بها عيون من البشنين قد فتحت

---

(١) في ديوان الرياض: (جاء في حين لا حر * يرى فيه ..) ولا يستقيم الوزن بها.
(٢) في م: (اللينوفر)، والنيلوفر في نهاية الأرب ٢١٩/١١، ونزهة الأنام ١٧٢، والبرق المتألق ١٣٠، وديوان الرياض ٢٠٤/٢.
(٣) الأبيات سبعة في نهاية الأرب ٢٢٣/١١ منسوبة لابن الرومي وكذلك هي في ديوان الأزهار ٢٠٨/٢، وثلاثة أبيات منها في نزهة الأنام ٧٨ وبيتان منها في البرق المتألق ١٣٨.
(٤) البشنين: نبات مائي من الفصيلة النيلوفر، ينبت عادة في الأنهار والمناقع وقد يزرع في الأحواض (معرب) (المعجم الوسيط: بشن).

كأنها وهي تزهــو فــي جوانيهــا   مثل السماء وفيها أنجــم ســبحت

[الآس][1]

وأما الآس فهو سيّد الرياحين، لوجوده في كل وقت وحين؛ وكم له فضائل بلا التباس، تثبتها الأدلّة والقياس.

فقد أخرج ابن السني، عن ابن عباس[2]: أُهبط آدم من الجنة بسيدة [١٤/أ] رياحين الجنة الآس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، بسند أجاد تحسينه:

أول شيء غرس نوح الآس، حين خرج من السفينة.

وله خواص كثيرة محمودة، وفي قانون الطب معدودة؛ شمُّه مقوٍّ للأبدان، حابس للإسهال وكل سيلان؛ مُنَشِّف للرُّطوبات ومسكِّن للأورام، نافعٌ للشربة والسعال على الدوام؛ وإذا دُقَّ ورقُه الغضّ وعُجن بالخلّ، ووضع على الرأس قطع الرعاف وإن جل؛ ودهنه لإشقاق المقعدة وحرق النار، والبثرة وجميع ما في البدن من الآثار؛ وشرابه يدفع للسعال، وينفع الرئة بلا محال.

وقد أنشد المستهدي أمير المؤمنين حين أهداه حبيبه غصناً من المرسين[3]: [من الكامل]

أهــديك شــبه قوامــك الميّــاس   غصناً رطيباً مائساً[4] مــن آس[5]

فكأنمــا تحكيــه[6] فــي حركاتــه   وكأنمــا يحكيــك فــي الأنفــاس

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضيّ الورق، أبيض الزهر أوورديّه، عطريّه، وثماره لبِّيَّة سود تؤكل غضَّة، وتجفّف فتكون من التوابل (من الدخيل) وقد تحدث عنه النويري في نهاية الأرب ٢٣٩/١١، والبدري في نزهة الأنام ١٥٣ وابن الراعي في البرق المتألق ١٠٤ وخير الدين في ديوانه الأزهار ٥٠/٢.

(٢) انظر نزهة الأنام ١٥٤.

(٣) اليونان تسمي الآس مَرْسينى وتسميه العامة مرسيناً (نهاية الأرب ٢٣٩/١١).

(٤) في م: (مائس) وما هنا عن النبذة ورواية ديوان الرياض: (ناعماً).

(٥) البيتان في ديوان الرياض ٥٥/٢.

(٦) في الديوان (يحكيك).

وقد مدح بطيبه الأريج، وأزهى منظره البهيج؛ منبهاً بطول بقائه، وحسن وفائه[1]: [من الكامل]

لـــلآس فَـــضْلُ بقائِـــه ووقائـــه ودوامِ منظـــره[2] علـــى الأوقـــات

قامـــت علـــى أغـــصانه ورقاتـــه كنصول نبـــل جـــئن[3] مؤتلفـــات

[الريحان][4]

وأما الريحان فقد آن نشرُ عرفه وحان، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: **(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ)** [الواقعة: ٥٦/٨٩][5]؛ وحسبك في شرفه[6] الحديث المُفَوّه فيه بالأمر الحثيث: عليكم بالمَرْزَنْجُوش[7]، فإنه جيد للجُثام[8]، وأنه من أنواعه الجُسام[9]؛ وفيه منافع جليّة، في القوانين الطبيّة:

- ينفع لمن يشتكي أرقاً، أو مغصاً أو استسقا.
- ويحلِّل النفخ.
- ويفتح المسدد.
- ويدفع الرطوبة والبرودة إذا عليه العليل اعتمد.

---

(١) البيتان ثلاثة في نهاية الأرب ٢٤١/١١ - ٢٤٢، وديوان الرياض ٥٢/٢.

(٢) في المصدرين السابقين : (نضرته).

(٣) في المصدرين السابقين: (قامت على قضبانه ورقاته * كنصال نبل جد).

(٤) الريحان: جنس من النبات طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيب الرائحة (المعجم الوسيط: روح). وانظر في الريحان من كتب التراث: نهاية الأرب ٢٤٧/١١، وفيه (الحبق)، والبرق المتألق ١٠٣، وديوان الرياض ١٠٧/٢.

(٥) في م: (روح) بلا فاء.

(٦) في م: (شرف الحديث).

(٧) المَرْزَجوش والمَرْزَنْجوش والمَرْدَقوش: مما يطلقه العرب على الريحان (نهاية الأرب ٢٤٩/١١).

(٨) الجُثام والجاثوم والجُثَم: الكابوس (المعجم الوسيط).

(٩) الجُسام: البدانة (المعجم الوسيط).

- وإذا مزج بالحنّاء وطلي به الرأس في الحمام، أذهب البخار والأوجاع على التمام.

- وإذا ضُمِّد بشيء من خلّ الخمور أبرأ من [١٥/أ] لسعة العقرب وقرص الزنبور.

- ودهنه ينفع في اختناق الرحم والانضمام، ويسكّن وجع الظهر، ويخرج مشيمة الأرحام، ويحلل من الأنثيين الورم، ويفتح في الآذان الصمم.

وقد أنشد الأصفهاني أبو سعيد، فكان في التشبيه أحسن مجيد(١): [الطويل]

وباقـــة ريحـــانٍ كعقـــد زبرجـــد   حَـــوَتْ منظـــراً للنـــاظرين أنيقـــا

إذا شَمَّهُ المعشوق خِلْتَ اخـضراره(٢)   ووجنتـــه فيروزجـــاً وعقيقـــا

[السَّوْسَن]

وأما السوسن(٣) - فبفتح السين والضم أحسن، فهو زينة الرياض والفراديس، المشبَّه بأذناب الطواويس؛ لونه يحاكي الذهب، مُسَدَّس الشكل ولا عجب؛ فقد ثبت له في قانون العلاج، منافع صرح بها صاحب المنهاج.

- فشمّه يقوّي ضعيف الأنفاس، ويحلل الرياح من الراس.

- ودهنه ينفع برد الدماغ، طلاء وسُعوطاً(٤) بعد الاستفراغ.

---

(١) البيتان: في نهاية الأرب ٢٥٤/١١، وديوان الرياض ١١١/٢.

(٢) في نهاية الأرب: (وشمامة مخضرة اللون غضة)، وفي ديوان الرياض: (وباقة ريحان لعقد زبرجد). والأخيرة فيها تحريف إذ لا معنى لها.

(٣) السَّوسَن - في الكتب الحديثة - والسُّوْسَن في التراثية القديمة: وهو جنس الأَيْرِس من الفصيلة السوسنية، تسمو إلى نحو ٦٠ سم، وتنتهي بزهرة أو عدة زهور جذابة تخرج كل منها من غلف حرشفية، يختلف لونها باختلاف نوعها، فمنه الأبيض، والأزرق، والأصفر، والأحمر، وهي نباتات معمَّرة تنبت في أوربة وبلاد البحر المتوسط وتعرف أصنافها بجذور الطيب لأنها عطرية (المعجم الوسيط: سوس).

(٤) سعطه الدواء سعطاً وسعوطاً: أدخله في أنفه (اللسان: سعط).

- وإذا شرب منه خمسة دراهم بلا مراء، أسهل المرارة الصفراء.

وقد ترنّم بغياصه أبو نواس، وجاء فيه بالتشبيه أبدع قياس[1]: [من البسيط]

سقياً لأرض إذا ما نمتُ نبّهنــي[2] بعد الهدوء بها صـوت النـواقيس

كأنّ سوسنها في كـل شــارقة[3] على الميادين أذنــاب الطــواويس

ونسج آخر على منواله، فأحسن وأجاد في مقاله[4]: [من البسيط]

وسوســن راق مــرآه ومخبــرُهُ وجلّ في[5] أعين النظــار منظـرُهُ

كأنه أكؤس البِلَّـوْر قـد صُـبِغتْ مُـسَدَّساتٍ تعــالى الله مُظْهِــرُهُ

وأنشد البليغ ابن المعتز، حين تمايل غصنه واهتز[6]:

يـــا رب سوســنة قبَّلْتُهـــا كَلِفــاً وما لها غيرُ نَشْر المسك مِنْ ريقِ

---

(١) أخلّ بهما ديوان أبي نواس - بطبعتيه - : طبعة الغزالي، وطبعة دار صادر، وهما في نهاية الأرب ٢٧٥/١١، منسوبين للأخيطل الأهوازي، وهما أيضاً في نزهة الأنام منسوبين لابن المعتز وهي في البرق المتألق ١٠٧ منسوبين لأبي نواس وكذا نسبته في ديوان الرياض ١٢٦.

(٢) في نهاية الأرب: (إذا ما نمت أرقني * ... قرع النواقيس)، وفي نزهة الأنام (إذا نبهت بنهى * .. قرع النواقيس)، وفي البرق المتألق: (سقياً لروض .. * بعد الهجوع به ضرب ..) وفي ديوان الرياض: (إذا ما نمت أرقني * .. الهجوع بها ضرب ..).

(٣) في البرق المتألق: (كأن سوسنه ..) . والشارقة هنا: المشرفة من الأرض أي العالية المرتفعة كما في هامش نهاية الأرب.

(٤) البيتان في البرق المتألق ١٠٧ منسوبين لأبي عامر بن مسلمة وفي ديوان الرياض ١٢٥/٢.

(٥) في م: (من) وما هنا عن النبذة وباقي المصادر.

(٦) البيتان في نهاية الأرب ٢٧٦/١١، وفي البرق المتألق ١٠٨ منسوبين لابن المعتز، وديوان الرياض ١٢٧/٢.

[١٥/ب] **مصفرة الوجه مبيض جوانبهـــا كأنها عاشق في حجــر معــشوق**

[المنثور][١]

وأما[٢] المنثور فلواء عرفه منشور؛ وهو أنواع عديدة، ذو صفات حسنة حميدة؛ فأرفعها الذهبي الأصفر اللون، الحسن العرف في الكون؛ لأنه ضاع عرفه وفاح، في الغدوّ و في الرواح؛ وأدناها الأبيض الأشهب، لعدم عرفه عنه يرغب؛ وأوسطها الخمري والبنفسجي والأكحل، فلا يفوح عرفه إلا بالليل الأليل؛لأن في الليل خلوة العشاق، وراحة كل مشتاق؛ وغيبوبة الرقيب، وحضور الحبيب؛ وله عطرية غريبة، ورائحة عجيبة؛ يشابه القرنفل المصعد بماء الورد، كأنما بينها مواصلة وعهد؛ وقد ثبت له في الطب فوائد جمة، أجمعت عليها حكماء الأمة:

- فشمُّه يحلّل من الدماغ البلغم والرياح.
- ودهنه يسود الشعر ويصلحه غاية الإصلاح.
- وإذا شرب منه ثلاثة دراهم على التحقيق، أدرّ الطمث، وأخرج المشيمة بلا تعويق.
- وإذا أُخذ من حبّه مثقالان بالتمام، وتحمل به أخرجت الأجنة من الأرحام.

ودخل بعضهم روضاً مسطورْ، فأنشد حين رأى تبسم المنثورْ[٣]: [من الكامل]

دوح[٤] عليه من الــسماء سُــتورُ ونسيم نَشْر الــروض فيــه يَــسيرُ

---

(١) المنثور - في المعجم الوسيط - جنس من الفصيلة الصليبية، ذو رائحة ذكية، وهو كثير في مصر، واحدته منثورة. وانظر نهاية الأرب ٢٧١/١١، ونزهة الأنام ١٣٨، والبرق المتألق ١٠٥، وديوان الرياض ١٥٣/٢.

(٢) هذا النص اقتبسه الراعي في برقه المتألق ١٠٦.

(٣) البيتان في ديوان الرياض ١٥٧.

(٤) في ديوان الرياض: (يوم عليه ..).

نشر السَّحاب به[1] بدائع وشيه ببكائه فتضاحكَ المنثورُ

وأنشد عرقلة الدمشقي[2] الشاعر المشهور بين يدي شمس الدولة حين أحضر له شيء من المنثور:[من السريع]

قد أقبل المنثور يا سيدي كالدر والياقوت في نظمه

نسيم أنفاسك من عطره وراس من عاداك مثل اسمه

[الأُقحوان]

وأما الأُقحوان فشرفه شائع عند الإخوان، وهو بالبابونج عند أهل مصر مشهور، وله عندهم خصوصية حديث فضلها مسطور؛ يزعمون أن من قطعه بالذهب، يوم تاسع عشر الحمل يرى العجب فلا يعدم الذهب؛ بقيّة عامه، من جود مولاه وإنعامه؛ [١٦/أ] وفيه خصوصيات شريفة، يعرفها ذو الأمزجة اللطيفة، يسقط الأجنة، ويفتح السدد، ويفتت الحصا حيث ما انعقد، وينفع من الاستسقاء والنفخ، والسعال، والقراقر، ونفث الدم، والربو المودي، إلى أسوأ حال.

- وإذا طلى به الساقين، حلل أورامها بلا مين.
- وشربته إلى ثلاثة دراهم عن يقين، وفيه تصديع لكن يصلحه لأالسكنجبين[3].

وحين ابتسم من ثغره الحالي الشنب، أنشد فيه بعض أهل الأدب، فلله درُّه من نبيه، لاختراعه هذا التشبيه[4]: [من البسيط]

---

(١) ليس الجار والمجرور (به) في ديوان الرياض مما أخلّ بوزنه.

(٢) عرقلة الأعور هو حسان بن نمير بن عجل الكلبي أبو الندى، شاعر نديم كان من سكان دمشق، واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي فمدحه ونادمه. توفي سنة ٥٦٧ هـ ، انظر الخريدة - قسم الشام ١٧٨/١، وفوات الوفيات ٣١٣/١، والأعلام ١٩١/٢.

(٣) السَّكَنْجَبين: سراب مركب من حامض وحلو، فارسي معرب (المعجم الوسيط: سكن).

(٤) البيتان برواية أخرى في نهاية الأرب ٢٨٩/١١، ونزهة الأنام ١٤٨، والبرق المتألق ١٢٦.

والأقحوانة هيفا وهي ضاحكة ... من غير واضح ذي ظَلم ولا شنبِ

كأنها شمسة من فضة حرست ... خوف الوقوع، بمسمار من الذهب

ولما أن لاح زهره وماس في الدوح، أنشد بعضهم بما ينعش النفس والروح[١]: [من الطويل]

وقد لاح زهر الأقحوان كأنه ... يميس به خضر رقاق من القضب

رؤوس بسامير من التبر رُصّعتْ ... دوائرها أضوا من اللؤلؤ الرطبِ

[الجلّنار][٢]

وأما الجلنار فكم أهاج في القلب الشجي جلنار، المشبه به خدود القيان، ووجنات وجوه الحسان، فإذا هي في الوجنات والخدود، بشر المحب برمان النهود.

وقد أنشد ابن خلوف[٣]، وهو بزرورة حبيبه مشغوف، حين احمرّت وجنتاه وترفّع على عشاقه وتاه[٤]: [من الوافر]

أرانا الوردُ في حُمْر الخدودِ ... وقد حَمَلْته باناتُ القُدودِ

ولاحَ الجُلَّنارُ بوَجْنَتَيه ... فبشَّرَنا برُمّانِ النُّهودِ

وله فضل في الطبّ محمود، نبّه عليه بتذكرته داود[٥] أنه يحبس الدم ويقطع الإسهال، ويُذْهِب الحكّة والجرب والنار الفارسي بلا محال، وإذا دُلك

---

(١) البيتان في نزهة الأنام ١٤٨، والبرق المتألق ١٢٦، وديوان الرياض ٦١.

(٢) الجلّنار هو زهر الرمان كما في المعجم الوسيط(جلنار)، وانظر نهاية الأرب ١١/١٠٠، ونزهة الأنام ٢١٥، والبرق المتألق ١١٥، وديوان الرياض ٢/٩١.

(٣) ابن خلوف أحمد بن محمد بن عبد الرحمن شهاب الدين الخلّوف، قال الزركلي: شاعر تونسي أصله من فاس ومولده بقسطنطينة سنة ٨٢٩ هـ ، وتوفي سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م (الضوء اللامع ٢/١٢٢، والأعلام ١/٢٢١).

(٤) البيتان في البرق المتألق ١١٦، وفي هامشه إحالة إلى ديوانه.

(٥) تذكرة داود الأنطاكي ١/١٠٦ برواية مقاربة.

به البدن دفع الصنان وطيب العرق، وشدّ مسترخي الأعضاء بحق، ومع الخل يشدّ اللثة، وينفع الأسنان، ويذهب قروح الفم من الإنسان.

ولحسن شكله ولونه الباهر، أنشد فيه اللبيب ابن عبد الظاهر[1]: [من المنسرح][2]

[١٦/ب] كأنما الجلّنار حين بدا ... مُفتَّحاً في زبرجد القُضُب

كوزُ عقيقٍ مشرفٌ حسنٌ ... قد أودعوه برادة الذهب

وقد أنشد الأخ السعيد النبيه، مشيراً إليه مع حسن التشبيه[3]: [من الطويل]

وما احمرّ ذاك الجفنُ من لحظ شادنٍ ... سقاماً فيُقْضى في الهوى باتّضاعهِ

به جُلَّنارُ العِشقِ في شِرْعةِ الهوى ... ويحلو من التَّشبيه حُسْنُ اخْتِراعِهِ

[شقائق النعمان][4]

وأما شقائق النعمان فقد حماها ابن المنذر[5] وصان، لنضرة بهجته، ورونق حمرته، وأنه وإن لم يكن له في العرف زكا، فقد حاكى في الحسن ابن ذُكا، فكم ترنّم شاعر بذكره، ورفع له في موكب الزهر راية نصره، فلله درّ الشاعر النبيه، حيث يقول فيه[6]: [من الكامل]

---

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن نجدة الجذامي السعدي: قاضٍ أديب مؤرخ، من أهل مصر، فيها ولد وفيها مات سنة (٦٩٢ هـ/ ١٢٩٣م) انظر فوات الوفيات - دار صادر ١٧٩/٢، والأعلام للزركلي، الطبعة الثانية ٢٣٢/٤.

(٢) البيتان في البرق المتألق ١١٥، وديوان الرياض ٩١.

(٣) شقائق النعمان أو الشُّقارى: وهو نبات أحمر الزهر، مبقع بنقط سود، وله أنواع وضروب، بعضها يزرع، وبعضها ينبت برياً في أواخر الشتاء ومن الربيع، وهو عشب حَوْلي من الفصيلة الشقيقية (المعجم الوسيط: شق) وانظر نهاية الأرب ٢٨١/١١ (الشقيق)، ونزهة الأنام ١٦٠، والبرق المتألق ١١٤، وديوان الرياض ١٢٩/٢.

(٤) شقائق النعمان أو الشُّقارى: وهو نبات أحمر الزهر، مبقع بنقط سود، وله أنواع وضروب.

(٥) في م (ابن المذر) والمثبت عن النبذة، والمقصود النعمان بن المنذر.

(٦) البيتان في البرق المتألق ١٣٧.

هذا الشقائق قد أتانا زائراً من بعد غيبته وطول مزاره

وكان أحمره وأسوده معاً خدّ الحبيب ملاصقاً لعذاره

ولقد بالغ وتفنن، من أنشد فيه فأحسن[1]: [من البسيط]

حمراءُ من صَنعة[2] الباري وقدرته مصقولة لم ينلها قطّ صقالُ

كأنما وَجناتٌ أربعٌ جُمعتْ وكل واحدة في وسطها[3] خال[4]

وحسبك ما فيه لذة للسمع وشفاء، ما أنشده العلامة الدماميني[5] من بديع الاكتفاء[6]: [من السريع][7]

شقائق النعمان ألهو بها إذ غاب من أهوى وعَزّ اللقا

والقرب بالخدّ نعيمي وإن غاب فإني أكتفي بالشقا ئق

وصاغ الصاحب بن عباد حلياً من الزهور فأجاد[8]:

---

(١) البيتان في ديوان كشاجم - مكتبة الخانجي ٣٣٦ - ٣٣٧ في مقطعة من خمسة أبيات، وهي من أربعة أبيات في نهاية الأرب ٢٨٥/١١، وديوان الرياض ٣٧/٢، وهما ختامها في هذه المصادر، وهما اثنين كما هنا في البرق المتألق ١١٥.

(٢) رواية ديوان كشاجم، ونهاية الأرب، وديوان الرياض (صِبْغة) وهي الأشبه.

(٣) في النبذة (حسنها) وفي نهاية الأرب وديوان الرياض (صحنها) وهي الأشبه.

(٤) في م: (خالي) وهو تحريف.

(٥) ابن الدماميني هو محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد المخزومي القرشي بدر الدين المعروف بابن الدماميني، عالم بالشريعة وفنون الأدب، لازم ابن خلدون بالقاهرة، مات في الهند في سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م الضوء اللامع ١٤٨/٧، والأعلام ٢٨٢/٦.

(٦) الاكتفاء: أن يكتفي الشاعر ببعض قافيته تاركاً بعضها الآخر لأنه مفهوم من سياق الكلام، وقد يكون المحذوف كلمة أو بعض كلمة (الشامل ١٥٥)، وخزانة الأدب للحموي ١٢٦، ونفحات الأزهار ٨١، وأورد النابلسي ٨٤ هذين البيتين كشاهد على القسم الثاني حاذفاً (ئق) ومعلقاً على البيتين بقوله: (وما أحسن قوله: اكتفي بالشقا عند أهل الذوق).

(٧) البيتان في نزهة الأنام ١٦٥، وديوان الرياض ١٣٩.

(٨) البيتان في نهاية الأرب ٢٨٢/١١، منسوبين لابن الرومي، وفي نزهة الأنام ١٦٧ منسوبين للميكالي، وفي ديوان الرياض ١٤٢ منسوبين لابن الرومي أيضاً.

يصوغ لنا كـفّ الربيـع حـدائقاً كعقْر عَقيـقٍ بـين سِـمْطِ لآلـي
وفيهن أنـواع الـشقائق أشـبهت خدودَ عذارى نُقّطَـت بغـوالي[١]

[الفاغية][٢]

وأما الفاغية[٣] المُفَضَّلة، على الرياحين الزاهية، فقد ثبت لها عليهم السلطنة، وأُقيم على ذلك الدلائل المُبَرْهنة.

فقد روى البيهقي[٤]، عن ابن عمر مرفوعاً للحضرة السامية: سيد رياحين الدنيا [١٧/أ] والآخرة الفاغية.

وروى البزار، المنعقد على فضله الإجماع، حديث:

اختضبوا بالحناء، فإنه يزيد في شبابكم، ونكاحكم - يعني الجماع.

وتسمّى أيضاً بالتمرحنا لأن شجرتها حَنّت على آدم حين أُخرج من الجنة.

ومن منافعه المشهورة الذي في كتب الطب مسطورة:

أن شمَّه ينفع من الصداع، وأوجاع الجنب والطحال.

وإذا وضع في ثياب الصوف منع فسادها بكل حال.

ودهنه يلين العصب، ويحلل الإعياء والنَّصَب، ويوافق الخنّاق وكسر العظام، والشّوصة[٥]، وأوجاع الأرحام.

وإذا خضب بالحناء رجل المجدور، وحصل له أمان من المحذور.

وإذا شرب بذرها بمثقال من العسل، نفع الدماغ وأذهب الكسل.

---

(١) غوالي: جمع غالية، وهي نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن (اللسان).

(٢) الفاغية: نوْر (زَهْر) الحِنّاء خاصة، وهو تمر الحِنّا في لغة العامة (المعجم الوسيط وانظر الفاغية في البرق المتألق ١١٢، والتمرحنا في نزهة الأنام ١٨١، وفي ديوان الرياض ٨٩.

(٣) النص اقتبسه ابن الراعي في البرق المتألق ١١٢.

(٤) انظر شعب الإيمان ١٣١/٥.

(٥) الشُّوصة والشَّوْصة: وجع في البطن من ريح، أو اختلاج العرق (المعجم الوسيط).

ولما أن زهت بروضها الخصيب، وأنشد فيها الشاعر الأديب[1]: [من البسيط]

كأنّما دوحةُ الحنـــاء إذ[2] فُتحــت ... أنوارُها وبدتْ في عــين مُرْتقِــبِ

عروسُ حُسْنٍ تجلَّتْ في غَلائلهــا ... خضراءُ قد حُلِّيتْ باللؤلؤ الرطــبِ

ولما اكتسب النسيم من طيّ طيبها نشراً، ومرَّ فعبق الأرجاء شذاً وعطراً، وانتشق الأديب من ريّا عبيرها المعطار، أنشد في محاسنها رقائق الأشجار[3]: [من البسيط]

رأيت في السمرة الحناء ذا عَجَــبٍ ... قد جاء في طيبها أنفــاس خمّــارِ

إن مرّتِ الريحُ بين الدوح تحسبها ... من طيب نكهتهــا مــرت بعطّــارِ

[قصيدة في الزهور للمؤلف]

ولما عبق مجلسنا بنشر عبير الأزهار، وتروّحت النفس بما ورد فيها من الآثار، سنح للخاطر الفاتر أن ينشئ قصيداً على حسن الأزهار قاصر، يهيج النفوس بحسن الطرب، ويحلّي الكؤوس بتاج الحبب:

انظر إلى الدَّوح قد فاحت أزاهــره ... عن مسك دارين[4] تروينا معاطرُهُ

يميس من بهجة الأزهار في حلــلٍ ... لمــا تحلّــت بتــشبيهٍ أزاهــرُهُ

والنرجس الغض أجفانٌ مــضاعفةٌ ... لنحو زهر الرُّبـا تَرْنــو محــاجرُهُ

فالوردُ وَجْنَةُ معشوقٍ بــه ضــرج ... حيث السوالف ما يبديــه ظــاهرُهُ

والياسمين خطيبٌ بالرياض علــى ... قُــضْبِ الزُّمــرُّد ترقيــه منــابره

---

(١) البيتان في البرق المتألق ١١٣.

(٢) في م والنبذة (الحنا إذا).

(٣) البيتان في البرق المتألق ١١٣، والبيت الأول في ديوان الرياض ٩٠.

(٤) لأالبلدان: دارين) وانظر المضاف والمنسوب.

والبان حاكى بنان الخود إذ خطرت ... تشير نحو الذي تهـوى تُـسارِرُه

نسرينُه العبقُ الزاهـي بنـضرته ... شكلاً لحق لجـين فـاح عـاطِرُه

وذا البنفسج أثوابٌ قد انغمـست[1] ... في اللازورد فـلا صـبغ ينـاظِرُه

زهر اللَّيْنَوْفر يحكي الزَّهْرَ في فَلَك ... لكنه ثابـتٌ فـي الـسير سـائِرُه

والآس لامُ عـذارٍ خطَّهـا قلـمٌ ... بها ابن مقلة[2] ما جادت محـابرُهُ

ريحان ذا الروض يحكي في تنظمه ... عقد الزَّبَرْجـدِ لا يخفـاك بـاهِرُه

كأنَ كأساً مـن البلَّـوْر سوسـنها ... مُسَدَّس الـشكل منقوشـاً دوائِـرُه

والروض منثوره مُـدَّت أصـابعُه ... يدعو على الورد إذ وافى يفـاخرُه

والأُقحوان ثغورٌ طالمـا ابتـسمت ... لما بكى من سحاب المزن نـاظرُه

والجُلّنـارُ كـأكواب العقيـق بهـا ... نِثـارُ تِبْـر أجـاد النَّثْـرَ نـاثِرُه

وذا الشقيق خـدود للحـسان بهـا ... خالٌ من المسك قد عمّت عـواطِرُه

واللؤلؤ الرطب مـا هدَّتْـه فاغِيـةٌ ... أو الجبانُ الذي تزهـو نواضِـرُه

فاسْعَ[3] له وانتشِقْ واسمع لطيـب ... فقد تـرنم فـوق الأيـك طـائِرُه

واغنم زمان ربيع بـالزهور أتـى ... محلقـاً[4] تمـلأ الـدنيا بـشائِرُه

---

(١) في ن : (جمعت) وضرب الناسخ عليها واستدرك الرواية الأخرى في الهامش.

(٢) ابن مُقْلَة هو محمد بن علي بن الحسين بن مُقْلة أبو علي: وزير من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطّه المثل. استوزره المقتدر العباسي والقاهر بالله والراضي وكان يتهم كل مرة ثم يسجن أو يُنفى ثم يأتي الذي يليه فيعفو عنه ويستوزره ثم يتهمه وهكذا إلى أن مات في سجنه سنة (٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) انظر: (وفيات الأعيان٥/١١٣، وثمار القلوب١/٣٤٥، والأعلام ٧/١٥٧).

(٣) في م ، ن : (فاسعى) وما هنا للسياق النحوي.

(٤) في م : (مخلقاً) وفي ن: (مخلق)، وما أثبتّه هو الأشبه.

ولا تُضِعْ فرصة مهما ظفرت بهــا   واصغِ[1] لمن قال والممدوح ناصِرُه

خذ من زمانك ما أعطــاك مغتنمــاً   وأنت ناهٍ لهــذا الــدهر آمِــرُه[2]

[مقامة زهرية]

ولما فاح عَرْف تمام هذه المقامة الزهرية، ولاح ضياء سنا نجومها الزهرية، وتجلّت بمنصّات الابتهاج، وبدا لامعُ حسنها الوهّاج، صبا الطالب لجمالها، وطلب الراغب في كمالها، واستجلى طيب مواردها، واستحلى حسن مشاهدها، وقال: ما على هذا الحسن منه مزيد، والله على ما أقول شهيد، ثم شدا بها صادحاً، وأنشد لها مادحاً[3]: [من الكامل]

للهِ درُّ مقامـــــــــــة زهريـــــــــــة   قد عطّرت أرواحَنــا مــن نــشرِها

وغدت بمسند حديثها وكمالهــا(؟)   تروي أحاديث الهنا عــن بــشرها

وهنا وقفت عند حدها الأقلام، لما طبعت المقامة بمسك الختام.

[مشاهد غزة]

[١٨/أ] ثم ثنيت العزم لزيارة ما بها من المشاهد، التي ينجح بها القصد وتطيب بها الموارد، فمنها البشير الذي بُشِّر يعقوب بولده يوسف عليهما السلام.

والدارقطني[4] أحد أئمة السُّنة الحافظ الإمام.

وسيدي علي بن مروان[5] ذي الكرامات الظاهرة.

---

(١) في م ، ن : (واصغي) وما هنا للسياق النحوي.

(٢) هنا تنتهي النسخة ن واختياراتها الزهرية. وانظر حديثاً عنها بالتفصيل في المقدمة.

(٣) في م بعد هذا اللفظ (شعر).

(٤) الدارقطني هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث، وأول من صنّف في القراءات، وعقد لها أبواباً، وله من الكتب: والمختلف والمؤتلف، وكلاهما مطبوع. توفي سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م (انظر تاريخ بغداد ١٢/ ٢٤، ووفيات الأعيان ، والأعلام ١٣٠/٥.

(٥) ذكره النابلسي في (الحقيقة والمجاز) ٤٣٥/١، ولم يزد عما هنا، ولم أجد له ترجمة في ما بين يدي من كتب تراجم الصوفية.

والشيخ أبو العزم صاحب الإمدادات الباهرة.

والشيخ أكرم الولي الهمام.

وسيدنا هاشم جدّ نبينا عليه الصلاة والسلام.

ومحل مولد نبيّ الله سليمان بن داود الملك العظيم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وحيث ولد إمامنا الشافعي بن إدريس صاحب المقام السامي، والعلم النفيس، وبه قبر والدته وأخته.

والشيخ عطية، عليهم الرحمة والرضوان والتحية.

ومآثر خلاف ذلك يقول مختصر شرحها، وتهدي الزائر إليها بطيب نفحها، فتباركنا بتلك الآثار، ورجونا إمداد أولئك الأخيار، وسرنا نتأمل في مشارعها، ونتملّى برؤية جوامعها، لاسيما جامعها الذي هو للمحاسن جامع، وفلك حسنها الذي به قمر المسرة طالع، فرأيت غالب البلدة خرابْ، من ظلم الأمراء وتحكم الأعرابْ، فرحلت عنها لهفا، وأنشدت أقول: وأسافا:[من البسيط]

يا ويح غــزة إذ أَوْهَــتْ مرابعهــا	**إلى الحضيض وقد ناحت سواجِعُها**
كانــت معاهــدها للأُنــس جامعــة	**من كل معنى سما والحسن جامعُها**
فأصبحت من سطا الأعراب خاوية	**على العــروش مخيفــات بلاقعُهــا**
فقل لعينــك تبكــي عنــدها أســفاً	**يحقُّ للعــين أن تهمــي مــدامعُها**
وقــل لقلبــك يبــدي مــن تلهفــه	**إن البروق دُجىً تخفــي لوامعهــا**
واستنجد الصبر إن ودعتها ســحراً	**فللنفــوس جــوى ممــن يودعُهــا**

[اليوم الثامن عشر من ذي القعدة في خان سدود]

فسرينا منها يوم السبت وقت الصبح بسلام، وهو الثامن عشر من ذي القعدة الحرام؛ قاصدين خان سدود[(١)]، لننهل من منهله المورود، فما زلنا بين

---

(١) سينقل المؤلف ترجمة المتبولي من طبقات المناوي بعد أسطر.

نغمات أطيار، ونفحات معطرات الأزهار، تستلذ بمحاسنها النفس، وتتنعم بها الحواس الخمس، [١٧/ب] فوصلنا إلى ذلك الخان، وكان وقت العصر قد حان، فبادرت إلى أداء الصلاة الوسطى، وشددت لزيارة سيدي إبراهيم المتبولي مِرْطاً[(١)]، لأنّ ضريحه من الخان ذو اقتراب، وعليه من المهابة والجلال جلباب، فوقفت خاضعاً على أبوابه، لائذاً برفيع جنابه، وحيث تَفَيَّأتُ بظلِّه الظليل، وطاب لي بذلك المقيل، أنشدتُ بلسان التوسل، مع حسن الأدب والتبتُّل:

بسدول وادي القدس طاب نزولــي	**فيها ضــريح العــارف المتبــولي**
عبقت لي النفحـــات مـــن أرجائـــه	**متمـــسكاً مـــن طيبـــه بـــذيولِ**
كم قد نشرت إليـــه مطــويّ الفـــلا	**وطويت نشر الطيب غِبَّ وصــولي**
وكحلت عيني مـــن ثـــرى أعتابـــه	**ولثمتهـــا بـــالجفن عنـــد دخـــولي**
ودخلـــت للحـــرم الـــشريف فإنـــه	**كمقـــام إبـــراهيم فـــي التمثيـــل**
ووقفـــت وقفـــة خاضـــع متـــذلل	**أرجو الوصـــول وبلغـــة المـــأمول**
فاسمح لأسعد مـــذ وفـــاك بلحظـــة	**وامنحـــه بالإســـعاف والتفـــضيل**

قال الشرف المناوي في طبقاته[(٢)] في ترجمة:

إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي الأحمدي الصوفي الخبير الناقد البصير:

كان ذا معرفة تامة بالتربية - مع كونه أُمياً - وعقلٍ راجحٍ، وتمكُّنٍ قويٍّ من نفسه حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسانية، وكان يجعل القرآن إمامه...

لم يلزمه غُسلٌ قط لا من احتلام ولا من جنابة ..

---

(١) المرْط: بالكسر - كساء من صوف أو خز، جمعه مروط (القاموس المحيط: مرط).

(٢) طبقات المناوي ١١٩/٣ ، والزيادة عنه، ووفاته فيه سنة نيف وسبعين وثمان مئة وفي الأعلام ٤٧/١ وفاته سنة (٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣ م).

أخذ عن الشيخ يوسف البرلسي الأحمدي، وفتح عليه في جامع الظاهر وكان مبتلىً بالإنكار عليه لكون لم يتزوج.

وكان كثير العطب لمن يؤذيه، [أو يؤذي جماعته]، أو ينكر عليه.

وكان كثير التعبُّد لا يفتُرُ ليلاً ولا نهاراً.

وبه مرض الحصا وعسر البول، وكان يجعر كالثور، ويقول: يا رب لا أسألك تحويل ما بي أردته، ولكن أسألك اللطف فيه.

وكان يصلّي المغرب كل ليلة بمكة[(١)] والظهر بالجامع الأبيض برملة[(٢)] لُدّ.

وقال: يقال في المثل: نظف القناة تجري المياه، وكذا الفقير إذا نظف قلبه من [١٩/أ] مكروهات الحق تعالى جرى ماء الإيمان في قلبه جداول.

وكان إذا رأى أنف إنسان عرف كلَّ ما هو مرتكبه من الفواحش ورماه أهل بيت من متبول[(٣)] باللواط بأولادهم، فقال: هتك الله ذراريهم، فصار أولادهم مخانيث وبناتهم زناة.

وكان يقول لأصحابه: من أدرك النصف الثاني من القرن العاشر فلا يشدِّد في إزالة منكرات الولاة إلا إن كان له نصيرٌ يعضدُه، أو حالٌ يَحميه، وقد قُتل خلق كثير ونُفوا بإنكارهم على الولاة بدون ذلك.

وقال: لا ينبغي لفقير أن يُظهر كرامة إلا بقدر حماية أصحابه، وإنّ من لا كرامة له لا يحمي له صاحباً.

---

(١) في الطبقات: (وكان لا يصلي المغرب إلا في مكة).

(٢) قال ياقوت: (سميت رملة لد لأن لد مدينة كانت قبل الرملة خربت بعمارتها)، وكان صلاح الدين الأيوبي خاف أن يحتلها الفرنج فخربها سنة ٥٨٣ لأنهم كانوا قد استولوا عليها سنين طويلة. (انظر معجم البلدان والمشترك وضعاً: الرملة).

(٣) متبول: مركز كفر الشيخ من محافظة الغربية بمصر كما ورد في هامش طبقات المناوي عن قاموس رمزي ٢/ ٢/ ١٤٦.

خرج إلى القدس، فمات في الطريق، فدفن بسدود عند سلمان الفارسي سنة ست وثمانين وثمان مئة عن نحو مئة وتسع سنين رضي الله تعالى عنه. انتهى.

وسيأتي أنّ سلمان الفارسي مدفون بطور زَيْتا[١] قريباً من رابعة العدوية وسنذكر ترجمتها إن شاء الله تعالى قريباً.

[يُبْنى[٢] والرملة]

ولما ذهب ثلثا الليل بتعيين، سرينا قاصدين برملة فلسطين، ومررنا على قرية يُبْنى وصلينا عندها الصبح، وسرينا على ظهر، وليس المدفون فيها أبو هريرة الصحابي المشهور، وإنما هو بعض ولده كما في الكتب مسطور، وأبو هريرة هو بالبقيع مدفون، سقى ضريحه الوابل الهتون.

فوصلنا الرملة[٣] ضحوة النهار، وقد لاح من جامعها الأبيض مشارق الأنوار، فانشرح الصدر برؤياها، وانتعشت الروح بطيب حسنها ورياها، فنزلنا عند صديقنا السيد عبد الله نخلة، فقابلنا بمزيد من الإكرام وأكرمه الله ورفع محلَّه، وطاب لي بذلك المنزل السامي المقام، وعندما صليت الظهر بعد انتباهي من المنام، طلبت منه أن يوقفني على مآثرها المشهورة، ويمتع نظري بمشاهدة مشاهدها المأثورة.

---

(١) طور زَيتا: الجزء الثاني بلفظ الزيت. وفي بيت المقدس جبل بهذا الاسم (معجم البلدان والمشترك وضعاً: طور زيتا.

(٢) يُبنى - بالضم، ثم السكون، ونون مقصورة، بلد قرب الرملة فيه قبر الصحابي أبو هريرة ، وقيل هو عبد الله بن أبي سرح (معجم البلدان).

(٣) انظر ما قاله النابلسي عنها في الحقيقة والمجاز ٣٩٦/١.

فأول ما بدأنا بزيارة جامعها الأبيض[1] الأنيق، فأذكرني بمرآة الحرم الأسنى والبيت العتيق، فصليت ببقعته البيضاء صلاة العصر، على وجه الإتمام دون القصر.

وبصحنه مغارة بها عدد من الأنبياء، والشهداء الكرام.

وقريباً منها في صدر الجامع مغارة بها النبي صالح عليه السلام. فقرأت ما تيسّر حسب الاستعداد، ودعوت الله تعالى راجياً منه حسن الإمداد.

تذييل

سينا صالح عليه السلام نبي بين نوح وإبراهيم خليل الملك العلام، أرسله الله تعالى إلى ثمود، وكان مسكنهم بالحجر بين المدينة الشريفة والشام، فلم يؤمن منهم إلا قليل مستضعفون، ثم إن كبارهم عاهدوه إن أتى بما يقترحونه آمنوا به، فاقترحوا عليه أن يُخْرِج من صخرة معينة ناقة، فسأل الله تعالى في ذلك فخرج من تلك الصخرة ناقة وولدت فصيلاً فلم يؤمنوا وعقروا الناقة، فأهلكهم الله تعالى بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم فأصبحوا في دارهم جاثمين. فسار صالح إلى فلسطين، ثم انتقل إلى الحجر يعبد الله تعالى إلى أن مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

روي أنه توفي بفلسطين، وأن قبره بالمغارة التي بالجامع الأبيض بالرملة. انتهى.

---

(١) ذكر الحنبلي والنابلسي أن الجامع الأبيض بناه سليمان بن عبد الملك بن مروان سنة ست وتسعين من الهجرة، وأن فيه مغارة دُفن فيها سيدنا صالح عليه السلام. وجددت عمارة المسجد في زمن صلاح الدين على يد رجل من دولته اسمه إلياس بن عبد الله سنة ست وثمانين وخمس مئة ، ولما فتح الملك الظاهر بيبرس يافا سنة ستين وست مئة عمر القبة على المحراب. (الأنس الجليل ٩٦/٢، والحقيقة والمجاز ٤٤٠/١ - ٤٠١).

[شعر للمؤلف]

فلسطين منها العرف كالمسك فائحُ	ففيها نبيٌّ الله ذو الهَـدْي صــالحُ
مقـــام عليـــه للنبـــوة رونـــقٌ	يلوح علـــي الـــسرٌّ منـــه لـــوائحُ
سقى روضه المخضّل وَكْفُ غمائم	يسحّ عليـــه منـــه غـــادٍ ورائـــحُ
وقفتُ لديـــه أبتغـــي مـــن نوالـــه	عواطف منها أسعد المــدح نــاجح
عليه صلاة الله مــا هبــت الــصَّبا	وما قد شدا في منبر الدوح صادح

وبالمسجد المذكور منارة عجيبة، ظريفة في الشكل غريبة، لم ير السواح مثلها، ولا حسن صناعتها وشكلها، وكأنما فرغ المعمار الآن من بنائها، لحسن بهجتها مع قدم إنشائها.

وهي من بناء الملك الناصر محمد بن قلاوون(1)، سقى ضريحه وابل السحب الهتون .

قال صاحب أنس الجليل،في صفة الرملة وفضلها ما لخصه من غير تطويل.

عن [٢٠/ أ] ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **(بارَكْنا حَوْلَهُ)** [الإسراء: ١/١٧] فلسطين والأردن، أي نهر الشريعة.

وقال سعيد بن المسيب:

في قوله تعالى: **(وَآوَيْناهُما إِلَى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ)** [المؤمنون: ٥٠/٢٣]، قيل: هي الرملة، وهي أي الرملة واسطة بلد فلسطين، فإنها في أرض سهلة، وهي كثيرة الأشجار والنخيل، وحولها كثير من المزارع والمغارس، وفيها أنواع الفواكه، وظاهرها حسن المنظر، وهي من جملة الثغور، فإن البحر قريب منها نحو نصف بريد من جهة المغرب وكان لها سور محيط بها وقلعة واثنا عشر باباً وكان حولها أربعة آلاف ضيعة.

وقد هدم السلطان صلاح الدين قلعتها وقلعة لُدّ في سنة سبع وثمانين وخمس مئة.

---

(١) هو محمد بن عبد الله الصالحي أبو الفتح الملك الناصر. له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال، ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣ وهو صبي، ثم خُلِع منها ثم أعيد إليها في مصر سنة ٦٩٨، وقضى على بيبرس بعد طول صراع، وتسلَّم سلطته الثالثة التي واستمر فيها حتى مات سنة (٧٤١ هـ/ ١٣٤١ م) الوافي بالوفيات ٣٥٣/٤، وفوات الوفيات ٣٥/٤، والدرر الكامنة ١٤٤/٤.

وأما في عصرنا - أعني سنة تسع مئة - لم يبق أثر لتلك الأسوار والأوصاف لاستيلاء الإفرنج عليها نحو مئة سنة، ولم يبق من المدينة ثلثها ولا ربعها. وبنى فيها مساجد مستجدّة في أيام السلطان صلاح الدين الناصر محمد بن قلاوون. وقد صار المسجد القديم بظاهر المدينة، من جهة الغرب، وقد بنى فيه الملك الناصر المذكور منارة من عجائب الزمان في الهيئة والعلو سنة ثماني عشرة[(١)] وسبع مئة حكى المسافرون أنها من المفردات ليس لها نظير، ولم يبق حول الجامع من الأبنية القديمة سوى حارة بجواره من جهة الشمال حكم القرى، وأن المدينة يومئذ تقهقرت ونقصت جداً وقلّ ساكنها ومع ذلك فهي مقصودة بالبيع والشراء، ولا يخلو من بركة في معيشتها بالبركة أرضها وسكانها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء، فهذه في زمنه سنة تسع مئة فما بالك الآن فلم من تلك المحاسن والآثار وغالب أهلها تخطفتهم أيدي الأقطار لكن بركتها باقية على الدوام، يدرك ذلك الخاص والعام.

[مقام الفضل بن العباس]

فمن جملة من حلَّ بناديها، ومن دفن بروضة واديها الزكي الأصل والأنفاس، سيدنا الفضل بن العباس، مقامه في روضة ذات أفنان، يفوح شذاها بروح وريحان.

وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي[(٢)] [٢٠/ ب] المدني ابن عم r رديفه في حجة الوداع، وهو الذي غَسَّل النبي r حين وفاته.روى عنه أخوه عبد الله، وابن أخيه عباس بن عبيد الله، وابن عمه ربيعة بن الحارث، وأبو هريرة، وغيرهم، وهو أكبر ولد العباس، استشهد في طاعون عمواس بالرملة سنة ثماني عشرة[(٣)] من الهجرة .

---

(١) في م: (سنة ثمانية عشر) وهو خطأ.

(٢) ترجمة (الفضل بن العباس) في الاستيعاب ١٢٦٩، وتاريخ دمشق - دار الفكر ببيروت - ٤٨/ ٣١٩ - ٣٣٥، وأسد الغابة ٣٦٦/٤، وسير أعلام النبلاء ٤٤٤/٣، والإصابة ٣٠٨/٣، وتهذيب التهذيب ٢٨٠/٨.

(٣) في م : (سنة ثمانية عشر) وهو خطأ.

[شعر للمؤلف]

يمِّمْ فلسطين وانظر حسن معهــدها | فالفضل قد حلَّها بشرى لمن وفــدا
لــه مقــام بــه الأنــوار ســاطعة | تجلو العيون فلا تــشكو إذا رمــدا
مقامــه حــرم فيهــا ومحتــرم | عن حسن محتده يروي لنا ســندا
لا غرو وهو ابن عم المصطفى نــسباً | على علاه لواء المجد قــد عقــدا
عنه الحديث روى صحب لعهدتــه | مثل ابن عباس صنو الفضل معتمدا
في غزوة صحب الفاروق محتــسباً | بشراه بشرى تؤاخي زمرة الشهدا
فكان بالرملــة الفيحــاء مــشهده | سامي الذُّرا والعلا طوبى لمن شهدا
به استَغِثْ وتوسَّل واعتمــده تجــد | نجح المقاصد والإســعاف والمــددا
سَحَّت على سُوحه السّامي فيوض رضــى | ما زائر لرحاب القدس قــد قــصدا

[مشاهد كثيرة]

وبشرقي المسجد الأبيض غير بعيد، قبر الإمام المحدث ابن دُحَيْم أبي سعد(١) وقريب منه ضريح الإمام الحافظ النَّسائي(٢) صاحب السنن.

وبمقابله ضريحُ الشيخ أبي حجلة وهو الولي المؤتمن.

وهناك مقامٌ يُقصد لنجح المطالب، يقال له مشهد الإمام علي بن أبي طالب، وبقربه مسجدٌ لطيف الشكل والكون، به مقاما السّطوي والشيخ أبي العون(٣)،

---

(١) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو بن ميمون الدمشقي أبو سعد يعرف بدحَيْم اليتيم، كان قاضياً لمدينة طبرية، وهو شيخ البخاري وأبي داود والنسائي والدارمي والطبراني وغيرهم من كبار العلماء، توفي سنة ٢٤٥ بفلسطين (تاريخ دمشق - المجمع ١٢٠/٤، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٥).

(٢) النسائي هو أحمد بن سعيد بن علي أبو عبد الرحمن صاحب السنن، توفي سنة ٣٠٣ في فلسطين (وفيات الأعيان ٢٧٧/١، والوافي ٤١٦/٦، وغيرهما).

(٣) في الحقيقة والمجاز ٣٩٩/١ (الشيخ محمد أبو العون الغزي) وهو من أجداد الشيخ أبي الهدى المذكور (١٣/٢) ويتصل نسبه بالشيخ علي بن عليم (ت ٦٠١ هــ).

وبإزائه ضريحُ الشيخ العَلمي[١] صاحب الأسرار، عليه لوائح السنا وبوارق الأنوار، وبالمدينة عدةُ مزاراتٍ لسادة أنْجاب، وقد وردتِ الآثار بأن الدعاء عندهم مستجاب:

كالشيخ البطائحي[٢].

والشيخ محمد العَدَوي بحارة العنابة.

والشيخ أحمد الأشموني.

والشيخ موسى القبي ذوي الإنابة.

وثم جماعة صحابة وأولياء كانت ضرائحهم مشهورة، درست [٢١/أ] معالمها ولكن أخبارها في الكتب مسطورة.

ثم لما وقفنا بهاتيك الأبواب، ومرّغنا خدودنا على ثرى تلك الأعتاب، قرأنا ما تيسر من القرآن، ورجونا من الله تعالى حصول الغفران؛ واستهدينا منهم حصول المَدَد، واتخذناهم عدة عند الشدائد إذا فقد العدد.

وصرت أتأمّل في تلك المدينة وشوارعها، وأنظر إلى قصور قصورها، واندراسِ مدارسها وجوامعها، فتنفَّست تنفُّسَ الصُّعَداء من الحرق، وأنشدت عند ذلك والقلب في قلق: [من البسيط]

قفا على الرملة القافي[٣] معالمهـــا	**ثــم ابكيــا طلـــلاً منهـــا وآثـــارا**
محت محاسنَها مـــرُّ الـــسنين بهـــا	**وكم روينا لها في الكتـــب أخبـــارا**
حَـــوَت مـــشاهد للـــوُرّاد شـــارقةً	**كم أتحفـــت ســـائحاً منهـــا وزُوّارا**
قد حلَّ ساحتها العُبّـــادُ واقتبـــسوا	**من طور سينا سنا التقديس أنوارا**
زاروا مآثرَها اللاتي قد اشـــتهرتْ	**وأنبيـــــاء وأصـــــحاباً وأخيـــــارا**
وقد أنختُ بها نُجب المسير ضُحىً	**مستنشقاً من شَذاها النَّـــدّ معطِـــارا**

---

(١) في الحقيقة والمجاز ٣٩٩/١ (محمد العُلَيمي بالتصغير).

(٢) ذكره النابلسي في رحلته الكبرى ٤٠٢/١، وأسماه (عبد الله).

(٣) كذا رسمها في الأصل، ولم أصل فيها إلى رأي.

رَوّحتُ روحي برؤياها ومنظرهـا وقد شـهدت بهـا للأُنـس آثـارا
بهم وقفتُ عسى ألقَى بهـم مَـدَدا وقد جعلتهم في الحـشر أنـصارا
عليهم من رضى الـرحمن غاديـةٌ يسحُّ منها سحابُ المـزن مِـدْرارا

[إسْكلة[1] يافا]

ثم إننا بتنا ليلة الاثنين، بمنزل صديقنا السيد عبد الله قرة العين، بدوح أنس لاح به السرور، وكؤوس المسامرة فيما بيننا تدور، إلى لمع ضوء الصباح، وظهر لنا ضياء الشمس ولاح.

سرنا مع رفقة أعزّاء سالمين من النفار، فوصلنا إلى إسكلة يافا ضحوة النهار؛ فتلقانا شريكُنا وحبيبُنا سيدي أحمد النجار، لا زالت عواقبه بفعل الجميل تُحمد بالعشي والإبكار، وجعل ذلك اليوم ثالث العيدين، وأبدى لنا حسن المسرة والبشر بلا مين، وقد زال عني ما لقيته من النصب، وهزّني لرؤية أريج رياضها داعي الطرب، مذ تجلّت علينا بحسنها البديع، وكان ذلك أوان [٢١/ب] فصل الربيع: [من البسيط]

وافيتُ يافا وزهرُ الروض مبتـسم وللطيور علـى العيـدان نغمـاتُ
وكم قضيتُ بها والصحبُ من تَفَـثٍ[2] وقد حلمت لي وكم مرّت أُوَيقاتُ(؟)
بها اقتبستُ بطور القلب نور هدى كأنهـا لكلـيم القلـب ميقـاتُ

ويافا بلدة ظريفة على ساحل البحر، وهي إسْكِلة[3] للرملة والقدس ونابلس بظاهرها بساتين ذات أشجار وأنهار وفواكه وأزهار، فما زلت أردّ طرف الطرف في رياضها الأنيقة، وأروِّح الروح بلثم زهورها العبيقة،

---

(١) الإسكلة: ميناء السفن (المعجم الوسيط).

(٢) التفث: وهو ما يفعله المحرم بالحج إذا حل كقص الشارب والأظفار وما إليه (النهاية:).

(٣) مضى تعريفها في الصفحة السابقة وهو أن الإسكلة ميناء السفن (المعجم الوسيط: سكل).

إلى أن صليتُ الجمعة بجامعها اللطيف، وورد الإذنُ بالسير إلى القدس الشريف: [من الكامل]

جـاء البـشيرُ مُبـشِّراً بمـسيري نحـو الحمـى لأفـوزَ بالإسـعادِ

فثنيت طرفَ العزمِ غيـرَ مقـصِّرٍ وغدَوتُ أنشدُ سِرْ بنـا يـا حـادي

فعزمتُ على المسير في الوقت والحين، وقصدتُ رملة فلسطين مع رفيقين رقيقين وشقيقين شفيقين، فامتطينا متون خيل عتاق، وسرنا نتجارى بهم في حلبة السباق، فتذكرت أبياتاً في هذا المعنى، يطربن السامع ولو بدون معنى: [من الخفيف]

ربَّ طِـرفٍ مـن العِتـاق كـريم يـسبق البـرقَ حالـةَ الإيمـاضِ

لو سرى[1] والجنوب في الجوّ يـسري علَّم الريحَ كيفَ قطـعُ الأراضـي

أو سرى مع دعاءِ آصـفَ بـالعَرْ شِ لكـانَ البـشير بـالأغراضِ

ولله درُّ ابن القصار[2] حيث يقول[3]: [مخلع البسيط]

في أدهم اللون ذي حجول

[مشاهد أخرى في يازور]

ومررنا على سيدي حيدرة بقرية يازور[4].

وسيدنا لقمان بصرفند[5]، على ما هو مشهور.

---

(١) في الأصل: (لوى سري) وما هنا للسياق.

(٢) ابن القصار قابله النابلسي في بيروت أثناء رحلته الكبرى وأسماه الحاج مصطفى فلعله هو هو.

(٣) هذا الشطر لم أعثر عليه فيما توافر بين يدي من هذا القرن.

(٤) يازور: بالزاي والواو الساكنة، ثم راء: بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (معجم البلدان).

(٥) صرفندة: بالفتح ثم بالتحريك، وفاء مفتوحة ونون ساكنة، ودال مهملة، وهاء: قرية من قرى صورق سواحل بحر الشام، وأسماها موستراس سَرَفَنْد قرية في فلسطين تقع بين صور وصيدا قريباً من البحر على تلة علية (معجم البلدان: صرفندة، والمعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ٢٩٦-٢٩٧).

* تتميم *

هو لقمان[1] بن باعورا بن ناحور بن تارخ - وهو آزر - وقيل: كان ابن أخت أيوب، وابن خالته.

وكان قاضياً في بني إسرائيل.

واتفق العلماء على أنه كان حكيماً لا نبيّاً، خلافاً لما تفرّد به عكرمة من القول بنبوته، وروي أنه خُيّر بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة.

وروي أنه كان نائماً نصف النهار، فنودي: يا لقمان [٢٢/أ] هل لك أن يجعلك الله خليفة في أرضه، فتحكم بين الناس بالحق؟! فأجاب الصوت: إن خيّرني ربي قبلت العافية، ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليَّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلم إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.

فقالت الملائكة بصوت [من][2] لا يراه : لِمَ يا لقمان؟

قال: لأن الحاكم بأشرِّ المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان، إن يُعَنْ فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكون ذليلاً خيرٌ من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تَفُتْه الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فتعجبت الملائكة من حسن منطقه.

قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف كلمة من الحكمة، أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم. ومن حكمته:

---

(١) اختلف في لقمان هل هي عجمي أم عربي مشتق من اللقم؟ واختلفوا أيضاً هل هو نبيٌّ أم رجل صالح ، فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبيّ، وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي أنه كان نبياً والأول أرجح. فتح القدير ١٣٧٣ وفيه أنه ثمة خلاف في نسبه بين لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ ولقمان بن عنقا بن مروان، وفي مروج الذهب ٤١/١ (لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون) وفي البداية والنهاية ٣٣٩/٢ (لقمان بن عنفا بن سدون ويقال: لقمان بن ثاران).

(٢) زيادة للسياق.

قال خالد الربعي: كان لقمان عبداً حبشياً، فدفع إليه مولاه شاة، وقال: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها؟! فأتاه بالقلب واللسان، ثم دفع له شاة أخرى، وقال: اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها؟! فأتى باللسان والقلب، فسأله مولاه؟ فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وروي أنه كان نجاراً، وقيل خياطاً، وقيل راعي غنم.

روي أنه لقيه رجل وهو يتكلّم بالحكمة فقال: ألستَ فلاناً الراعي، فبِمَ بلغتَ ما بلغتَ؟! قال: بصدقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وتركِ ما لا يعنيني، انتهى.

وعابَ إنسانٌ صورتَه، فقال: أتعيبُ النَّقْشَ أو النَّقّاش؟

ومن حكمه قوله لابنه: يا بنيَّ إنك استدبرتَ الدنيا من يوم نزلتَها، واستقبلتَ الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب إلى دار تبعد عنها.

يا بني بِعْ دنياكَ بآخرتك تربحهما، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.

يا بنيَّ لا تحقرنَّ أحداً لخلقات ثوبه، فإن ربَّك وربَّه واحد.

[شعر للمؤلف]

ولما أن شاهدتُ ذلك الرحاب أنشدتُ موجِّهاً وجهي لهذا الجناب: [من البسيط]

٢٢/ب قد لاح لي من حمى لقمانَ أنوارُ ... ففاحَ من دَوْحه المخضلّ أزهارُ

كأنها الروضةُ الغنّاءُ زَرْكَشَها ... من راحةِ الوابلِ الهتّان نُوّارُ

من أُوتي الحكمةَ الغرّاء مُبتهجاً ... مواعظاً وهي بالتحقيق أسرارُ

من كل موعظة قد ضمنت حكماً ... قد أنبأتنا بها آيٌ وأخبارُ

فاسعَ إلى سوحه بالأمن محترماً ... لوائح الفيض وهو البحر زخّارُ

ترى به حرماً بالأمن محترماً ... وكعبةً كم بها قد طافَ أبرارُ

حلُّوا بساحته الفيحاءِ فانكشفت ... لديهم من خفايا الغيب أستارُ

وقام فيهم لسانُ الحال ينشدهم ... من السعادة ألا تبعد الدارُ

عليه من رحمة الرحمن غاديةٌ ... ما إن حدت نحوه بالعيس زوّارُ

[عودة إلى رملة]

فوصلنا إلى الرملة قرب الغروب، ونزلنا عند السيد عبد الله المحب المحبوب.

والمسافة بين يافا والرملة أربع ساعات عداد، وذاك بسير الصافنات الجياد.

وبتنا تلك الليلة بذلك المنزل الرحيب، نقتطف زهور المسامرة بالروض الخصيب، إلى أن لاح ضوء الصباح، وحيعل(١) المؤذن بالفلاح، فابتدرنا إلى صلاة الصبح بلا تواني، وأشفعناها بالأذكار وأوترناها بالسَّبع المثاني.

[قرية قليونة]

وحين طلعت الشمس وعم ضياؤها الآفاق، امتطينا متونَ الكرائم العتاق، وسرنا نقطع تلك المهامه الصعبة المرقبة، إلى أن أتينا قرية قليونة(٢) وصعدنا العقبة، فأنشدت مضمناً بيت الحافظ العسقلاني(٣)، سحّت على قبره سحب الرضوان والتهاني(٤): [من الوافر]

ولما أن دعانا الشوق يوما … وحرك لاعج(٥) الود القديم

قطعنا في محبتكم عقاباً … وما بعد العقاب سوى النعيم

---

(١) حيعل الرجل إذا قال: حيَّ على الصلاة (اللسان).

(٢) ليس لهذه البلدة ذكر فيما بين يدي من كتب البلدان.

(٣) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر. أصله من عسقلان فلسطين مولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ورحل وحصل وأصبح قبلة طلبة العلم، وله مؤلفات كثيرة. توفي سنة ٨٥٢ هـ (الضوء اللامع ٢٦/٢، والبدر الطالع ٨٧/١، والأعلام ١٧٤/١).

(٤) أخلَّ بهذين البيتين ديوان ابن حجر العسقلاني بتحقيق د. صبحي رشاد عبد الكريم وطبع طنطا ١٤١٠ هـ/ ١٩٩١ م، وأنس الحجر في أبيات ابن حجر شرح وتحقيق شهاب الدين أبو عمرو وطبع بيروت ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م. وهما في الأنس الجليل ٥٦/٢، ورواية البيت الأول:

إلى البيت المقدس جئت أرجو … جنان الخلد نزلاً من كريم

(٥) اللاعج: الهوى المحرق (اللسان: لعج).

فلاحت لنا مشارق الأنوار، وبشرت الزائر بقرب المزار، وفاح عرف نسيمها من جانب الربا، فتمايل المشوق شوقاً وطرباً، وأنشد لساني التهاني، ببلوغ المنى ونيل الأماني: [من البسيط]

بشراك بشراك وادي القدس قد لاحا … وطيّ نشر الشذا من دوحه فاحا
[٢٣/أ] ولاح من طوره الأسنى ضياء سنى … يهدي الهدى لكليم الروح إذ لاحا
وأشرقت من سما الصخرا[١] بوارقها … تروي حديث الشفا للسر إيضاحا
وطاب بالمسجد الأقصى مظاهره … ورداً لتتحف زوّاراً وسوّاحا
نصاً تشدّ رحال السائرين له … ليقرؤوا من سطور الفيض ألواحا
ناهيك من قبة المعراج حيث روت … معاهداً ذكّرتنا العهد إفصاحا
إذ ذكرتْ ليلة الإسراء وقد جمعت … أولى النبوة والأملاك أشباحا
صلَّى إماماً بهم إذ كان أحمدَهم … طه الرسول فحاز الحمد إمناحا
فارق إلى حانة التقديس مرتشفاً … من كأسه العذب ما تُزري به الراحا
وطف بكعبة ناديه ومشهده … وروّح النفس من مسراه أفراحا
واسع لدى عرفات الأنس مزدلفاً … واشرب به من سلاف القرب أقداحا
وسر إلى طور سينا وارتشف نهلاً … واستَجْلِ في دوحه المأنوس أرواحا
واستقبس النور في واديه ملتمساً … عواطف الأنس كي يهديك مفتاحا
واركب خيول غيوب نحو سعدٍ أيا … دار المنى تبتغي للسعد أدواحا[٢]
واصعد معارج فوزٍ نحو بارقةٍ … كم أوقدتْ لذوي الإصباح مصباحا
وغِبْ وطُفْ واشهد المغنى الشهيّ تجدْ … قوتَ القلوبِ وروحاً ثم أرواحا
والبس ملابسَ تيهٍ حيثما انبلجت … لك المواردُ إمساءً وإصباحا
واهْنَ على الدُّرَّة البيضاء في مرحٍ … فقد مُنحتَ من الرحمنِ إصلاحا

---

(١) يقصد (الصخرة) وغيَّرها للوزن.

(٢) في الأصل: (* دالمنى .... أوداحا) والمثبت للسياق.

واخلعْ لنعليك وادخل للـــستور فقـــد وافاكَ نورٌ ينادي القدس قـــد لاحـــا

[القدس الشريف]

فوافينا المدينة قبيل العصر، وقد قابلتنا بشائرها التهاني بالمسرة والنصر، فوقفنا وقرأنا الفاتحة عند الباب، واستأذنا في الدخول مَنْ بها من الأوتاد والأنجاب، فإن ذلك من حسن الأدب معدود، كما نص عليه الشعراوي في العهود.

وللمدينة سور محكم البنيان، بديع الشكل في الصناعة والإتقان. له ستة(١) أبواب منيعة، غريبة في الوضع بديعة، وهي:

١- باب الأسباط.

٢- باب الساهرة.

٣- باب العامود(٢).

٤- باب الخليل(٣).

٥- باب داود.

٦- باب المغاربة(٤).[٢٣/ب]

للقدس سور سما بالحسن رونقــه أبوابـــه ســـتةٌ فيهـــا مقاربـــةُ

أســـباط ســـاهرةٌ عـــامودُ ثالثُهـــا بـــابُ الخليـــلِ وداودٌ معاويـــةُ

---

(١) الأبيات عشرة في الحضرة الأنسية للنابلسي ٩٧ مضيفاً إليها الأبواب التالية:

٧- باب الداعية المتوصل إلى حارة زيد.

٨- باب دير السرب.

٩- باب الرحبة.

١٠- باب صغير بلصق دير الأرمن.

(٢) في الحضرة الأنسية (باب العمود).

(٣) في الحضرة الأنسية (باب المحراب المعروف الآن بباب الخليل).

(٤) في الحضرة الأنسية (باب حارة المغاربة).

[في ضيافة مصطفى البكري الصديقي]

ثم دخلنا المدينة من باب الخليل، وحاوي الأنس لنا بالسعد دليل، فنزلنا بمنزل قطب دائرة الأفلاك الحسية، واسطة عقد العصابة الهاشمية، خلاصة السادة الأشراف، وصفوة بني عبد مناف، من فاق بحسن سيرته النجوم الزواهر، وبجميل طلعته البدور النواضر الراسخ في العلم الإلهي، الكاشف عن أسرار الحقائق كما هي؛ أستاذ كل أستاذ، وملاذ كل ملاذ؛ مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي(١)، قدس الله سره الشريف وأسكرنا من كأس خمره الرحيقي؛ فبرويته وردت علي واردات السرور من كل جانب، وأيقنت ببلوغ المآرب والمطالب؛ وعند ذلك جاد الجفن بالدموع وسمح، لما اعتراه من المسرة والفرح:[من الكامل]

طفح السُّرور عليَّ حتى إنه ... من عظم ما قد سرني أبكاني

فتلقاني بوجهٍ طلق بسّام، وعذوبة لفظ تزري بالآلئ في النظام؛ فإن أستاذنا المذكور قدس الله سره الشريف، يظهر الجمال في أرفع محل منيف؛مع لطف بلغ غاية الكمال، وحسن خلق وفضل وإفضال؛ فوالنجم إذا هوى، إنه لجميع المحاسن قد حوي؛ وهو الذي يقتدي به المقتدون وبِسَمْته يهتدي المهتدون، وبمحاسن الصفات مُحَلَّى، رفع الله له في العلياء محلاً: [من الكامل]

مولىً تحلَّى بالفضائل والتُّقى ... وأشاد من طرق الحقيقة معهدا

ودُعي إلى النهج القويم مسلكا ... لطريقة منها شهدنا المشهدا

---

(١) هو مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري ولد بدمشق سنة ١٠٩٩ هـ. توفي سنة ١١٦٢ وله إجازة من جد اللقيمي محمد الدمياطي ابن الميت ، ولازم الشيخ النابلسي وقرأ عليه الكثير، ورحل إلى بلدان كثيرة وله مؤلفات كثيرة (سلك الدرر ٤/٢٢٠).

ثم استأذنته في التوجُّه إلى الحرم، والحمى الرفيع البديع المحترم؛ فتوجَّهت لذيّاك المقام، واحتظيت فيه بحسن المقام؛ الحالي الموارد، لكل وارد:[من البسيط]

يا حبذا المسجد الأقصى له الشرف ... من جاءه زائراً تهدى لـه التحـفُ

ناهيك من ثالثِ الحـرمين منزلـة ... طوبى لمن زاره أو فيـه يعتكـفُ

فيه تضاعف أعمال التقـى درجـا ... فالناسكون لهم فـي ذاك مزدلـفُ

[٢٤/أ] كأنه فلك والعـاكفون بـه ... بدور تم علاها الـسعد والـشرف

يا طالما ذكـرت عنـدي محاسـنه ... حتى بدا فبدا لي فوق ما وصـفوا

وما برحت في الحرم معتكفاً، ورجعت لبيت الأستاذ عمدة أهل الاصطفا؛ ثم لما أشرقت الشمس وانجلت، وتجلّت برونق حسنها وازدهت؛ توجَّهت لشيخ مشايخ الإسلام، وعمدة العلماء والأعلام؛ ذي الأخلاق الشريفة المرضية، مولانا الشيخ محمد الخليلي(١)، عمدة الأئمة الشافعية، فرأيت الأنوار منه تلوح، وروائح الأنس حول حماه تفوح:[من البسيط]

يـا سـائلي لمـا جئـت أمدحـه ... هذا هو الرجل العاري من العـاري

رأيته فرأيت النـاس فـي رجـل ... والدهر في ساعة والأرض في دار

ولما رآني مقبلاً، قابلني بوجه بالسرور متهللاً، فقبّلت يده الشريفة، واستمطرت سحب دعواته المنيفة؛ وتنزهت في روضته الأنيقة، مجتنياً من أزاهر علومه العبيقة، منتهلاً من جداوله الغديقة، كؤوس علوم جمعت بين الشريعة والطريقة والحقيقة؛ فأورد بعض أهل العلم في ذلك المجلس سؤالاً، مريداً له على الجميع استشكالاً؛ وهو أنه لما رجع الكليم من المناجاة، جعل على وجهه الشريف برقعاً لخوف العمى على من يراه؛ ونبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام، لما رجع من المعراج لم يتخلّق بهذا المقام؛ وهذا يوم

---

(١) محمد بن محمد بن شرف الدين الشافعي الخليلي الخليلي نزل القدس. ولد بالخليل ورحل إلى مصر ثم عاد فسكن بيت المقدس إلى أن توفي فيها سنة ١١٤٧ ودفن فيها (سلك الدرر ١١٢/٤ - ١١٤) ، يوميات شامية ٤٥٦).

التفضيل، وما الجواب عن ذلك بأحسن دليل؛فابتدر بعض من حضر مجيباً، بجواب لم يكن فيه مصيباً؛ فقال حضرة الشيخ:

إن مما يزيل ما في هذا الاستشكال من الأوهام ما في كتاب (حل الرموز) للعزّ بن عبد السلام[1]؛ فطُلب وفي الحال أحضر، وكشف عن هذا البحث وما فيه قد سطَّر؛ حيث قال ما نصّه:

فصل

ومن ها هنا عرف التلوين والتمكين، فالتلوين عبارة عن الانتقال من حال إلى حال وتحول من وصف إلى وصف، وترقّ من مقام إلى مقام، فهذا كله وصف من هو في الطريق لم يصل إلى الآن، فما دام في الطريق فهو متلون فإذا وصل إلى المنزل فهو متمكن. والذي يترجح عندي أن المتلون[٢٤/ب] قابل للزيادة، فالنقص في حاله ومقامه بحسب تقلبه مع بشريّته ورجوعه إليها والمتمكن آمن من النقص لخنوس إحساسه وانخلاعه عن نفسه، وفنائه عن جثمانيته لاستيلاء سلطان الحقيقة عليه، ومحوه في ثبوتها وفنائه في بقائها فهو متمكن في حالة لا يردّه الحق سبحانه وتعالى إلى معلومات نفسه، ومألوفات حسّه، بل هو متمكن من حاله بحسب ما يستحق من الحق تعالى.

*** نكتة ***

فعلى هذا التقرير كان موسى عليه الصلاة والسلام متلوناً إذ رجع من حضرة المناجاة والمكالمة وقد أثر حاله على وجهته، فلا ينظر إليه أحد إلا عمي لتمكن حاله فيه حتى أذن الله له أن يتبرقع.

---

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن العز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، عرف بجرأته حتى على الملوك. ولد سنة ٥٧٧ هـ، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ (انظر فوات الوفيات ٣٥٠/٢، وشذرات الذهب ٣٠١/٥، والأعلام - الطبعة الثانية - ١٤٤/٤ - ١٤٥).

ومحمد r كان متمكناً لأنه r رجع من حضرة المشاهدة ولم يؤثر فيه حاله، ولا تغيّر عليه أمر فهو متمكّن لأنه لم يزل في حضرة مشاهدة، فنقل من حضرة إلى حضرة، ومن رؤية إلى رؤية.

وهو معنى قوله r : « **لست كأحدكم** ».

وقوله: « **لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**».

ونظير هذا قصة زليخا وصواحباتها كن صواحباتها أصحاب تلوين فلذلك لم يطقن الشهرة عند تجلّي جمال سيدنا يوسف عليه السلام، بل دهشن لمشاهدته حتى أثَّر فيهن الحال، وأخرجن عن طور الإحساس، واعتراهن الالتباس، حتى قلن: ما هذا بشراً، وقطَّعن أيديهن، ولم يشعرن.

وأما زليخا فلتمكنها من حالها ما تغير عليها الحال، ولا أثر ذلك فيها لأنها لم تزل في مشاهدته r حاضرة.

وقد أنشد لسان حالها، مترجماً عن حالها، فقلت في ذلك: [من الطويل]

إذا لم يكن معنى حديثك لي يــروى	**فلا كبدي يشفى ولا مهجتي تروى**
نظرت فلــم أنظــر ســواك أحبّــه	**ولولاك ما طاب الهوى للذي تهوى**
ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضى	**وغيبت قال الناس ضلت به الأهوا**
ولو شاهدوا معنى جمالك مثل مــا	**شهدت بعين القلب ما أنكروا الــدعوى**
خلعت عذاري في هواك ومن يكن	**خليع عذار في الهوى سره نجوى**
[٢٥/أ]ومزقت أثواب الوقار تهتكــاً	**عليك وطابت في محبتــك الــسِّوى**
فما في الهوى شكوى ولو مــزق الحــشا	**وعارٌ على العشاق في حــسنك الــشكوى**
وما علموا للحبّ داء سوى الهوى	**وعنديَ أسباب الهــوى كلهــا أدوا**
وقد كنت من خوف الهوى أتّقــي الهــوى	**ولكنما حكمُ الهوى غلــبَ التقــوى**

فلما قرأت هذه السطور بتمامها، وبرزت أنوار الحقيقة بأعلامها، ألزم السائل السكوت بهذه الحجج[١]، وكشف له شمس المحجة.

---

(١) في م : (الحجم).

ثم فرض لي حضرة الأستاذ الصدّيقي خلوة سنيّة، على طرف سطح الصخرة مقابلة للمدرسة السلطانية، فلما نزلت بناديها البهيج، وحللت بحماها الأريج؛ وداخلني من رؤيتها الطرب، وزال عن القلب الوصب؛ استعطفت القلم أن يكتب ما أمليه، فقام على ساق الجد من غير تمويه: [من الكامل]

بالمسجد الأقصى حظيت بخلوة	**من أفقها شمس السرور تلوحُ**
من حلَّها يلقى بها كنز الصفا	**ولديه من شرح الصدور شروحُ**
بمشارق الأنوار ساطعة السنا	**وبنشرها أرج العبير يفوحُ**

[مشاهد ثلاثة]

وفي يوم الاثنين زرنا محلَّ ما رُبط البُراق، وعليه من المهابة والجلالة، أبهى رواق؛ ونزلنا إلى إصطبل سليمان عليه السلام.

ومنه إلى المسجد القديم ذي الاحترام،

ثم انعطفنا إلى مهد عيسى لنحيي برؤيته نفوسا

وقرأنا به سورة كهيعص، والمنقذات، والسبع المثاني، ودعوت الله لي ولإخواني، ببلوغ المنى والأماني.

[سور بيت المقدس]

ثم ارتقينا سور المسجد من جهة الصراط، المطل على وادي جهنم الذي ذكره يقطع من القلب النياط؛ فإذا به مقبرة طائفة من اليهود، ودليل الغضب عليها شاهد ومشهود: [من البسيط]

انظر إلى حكمة الأسماء إن لها	**سراً بديعاً وهذا القول مشتهرُ**
شهدت في القدس حقاً باب رحمته	**للمؤمنين قبوراً إذ بها ظفروا**
بشرى لهم فيها فازوا برحمته	**أما اليهود بوادي النار قد قُبروا**

ثم توجهنا إلى باب التوبة والرحمة، لعل بولوجهما يحصل لنا تمام [٢٥/ب] الرحمة، وقرأنا بينهما أم الكتاب وسورة[(١)] الحديد، لمناسبة قوله تعالى في القرآن المجيد: **﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾** [الحديد: ١٣/٥٧].

قال بعض المفسرين: هو سور بيت المقدس، باطنه باب الرحمة، وظاهره وادي جهنم[(٢)]. انتهى.

والسور المذكور محيط ببيت المقدس، وبالمسجد من جهة القبلة والشرق.

والمسجد المذكور متسع جداً، وطوله قبلة بشام من السور القبلي إلى صدر الرواق الشمالي ست مئة وستون ذراعاً، وعرضه شرقاً بغرب من السور الشرقي المطل على باب الرحمة إلى صدر الغربي أربع مئة وستة أذرع.

والصخرة على سطح بوسط المسجد طوله قبلة بشام مئتان وخمسة وثلاثون ذراعاً، وعرضه مئة وتسعة وثمانون ذراعاً، والصخرة في وسطه عليها قبة عظيمة بأربعة أبواب.

وللمسجد أحد[(٣)] عشر باباً، وأربعة منابر. وبه سبعة وأربعون صهريجاً للماء، وبركة كبيرة بوسطها كأس من المرمر، تجاه باب الأقصى. وبالمسجد عدة أشجار من زيتون، وغيره، ومآثر تنشرح بها الصدور، وتتجلي برؤيتها سحائب الهم عن القلب المصدور.

ومظهر هذا المسجد مظهر جمال، كما أن الحرم المكي والمدني مظهر جلال وكمال، فلا يحيط بما في المسجد الأقصى من حسن الأوصاف، إلا من حلّ حماه أو بأرجائه طاف؛ ولما ارتشفت من ثغر لما الكأس زلال، وطاب لي

---

(١) في م : (سورة) بدون واو العطف.

(٢) قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وركب القصاصون على هذه الآية تأويلات موضوعة في فضائل بلاد القدس بفلسطين عزوها إلى كعب الأحبار، فسمعوا بعض أبواب مدينة القدس، باب الرحمة، وسموا مكاناً منها وادي جهنم وهو خارج بلاد القدس، ثم ركبوا تأويل الآية عليها وهي أوهام على أوهام. (تفسير التحرير والتنوير ٣٨٤/١١).

(٣) في م : (إحدى عشر) خطأً.

مذاقة الجريال[1]؛ صبوت من حسن ذلك، وأنشدت بين هاتيك المسالك: [من البسيط]

كأسٌ به خمــرة الإينـــاس حاليــة   تحلو لمرتَــشفٍ منــه إذا ارتَــشَفَا

قد ارتوى قلبيَ الــصادي بمــورده   لما روى ابنُ معينٍ من حديث شفا

فعُجْ على حانـــة القدســـي إنّ بــه   من الأماني لمــن وافــاه مزدلفــا

[وما روي من هذا المسجد والآيات والأحاديث والآثار]

وهذا المسجد أحد المساجد الثلاثة التي تشدُّ إليها الرحال، الوارد في فضله كثير من الآيات[2] والأحاديث والآثار، حسب ما روته الثقات من الرجال:

فمن الآيات قوله سبحانه: **(سُبْحانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ [٢٦/أ] لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي باركْنا حَوْلَهُ)** [الإسراء: ١/١٧]

ومنها قوله تعالى: **(ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق)[يونس/٩٣]**

ومنها قوله تعالى: **(ونَجَّيْناهُ ولُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتي باركْنا فِيها لِلْعالَمِينَ)** [الأنبياء: ٧١/٢١].

ومن الأحاديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً[3]: **تشدّ الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا.**

وعن ابن عباس[4] مرفوعاً : **من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقاع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس.**

وعن أنس بن مالك[5]: إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس.

---

(١) في م : (مزاقة الجريال) والجريال والجريالة: الخمر، ولون الخمر (اللسان).

(٢) ثمة آيات أخرى ذكرها العليمي في أنس الجليل ٢٢٦/١ - ٢٢٧.

(٣) الحديث تقدم تخريجه، وهو في الأنس الجليل أيضاً برواية لا تشد الرحال إلا ٢٣٠/١ - ٢٣١.

(٤) الأنس الجليل ٢٣٨/١ - ٢٣٩.

(٥) الأنس الجليل ٢٣٩/١.

ومن الآثار ما جاء عن خالد بن معدان[١] أن حذو بيت المقدس باباً من السماء يُهْبط الله إليه كل يوم سبعين ألف مَلَك يستغفرون لمن يجدونه يصلي فيه.

وعن وهب بن منبه: أهل بيت المقدس جيران الله حق على الله ألا يعذب جيرانه.

وقيل لنعمان بن عطاء: ما تقول في بيت المقدس؟ قال: ما فيه موضع إلا وقد سجد عليه ملك أو نبي، فلعلَّ جبهتك أن توافي جبهة مَلَكٍ أو نبي.

وأما ما يُهْدى لزائره من اللطائف، ويحيي إليه من عوارف المعارف:

فمنها ما روى النسائي بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً[٢] أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً: سأل الله حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فراغه من المسجد أن لا يأتيه أحد إلا للصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه - زاد ابن ماجه في هذه الرواية فقال النبي r: أما اثنتان فقد أُعطيهما، وأرجو أن يكون قد أُعطي الثالثة.

قال بعض الشراح: ورجاؤه r محقق.

وعن أنس[٣] مرفوعاً: ومن زار بيت المقدس حرَّم الله جسدَهُ ولحمَه على النار.

وعن مكحول بن كعب رضي الله عنه[٤]: من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة[٥] إلا للصلاة، فصلى فيه خمس صلوات صبحاً[٦] وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه.

---

(١) الأنس الجليل ٢٣٩/١ برواية (إن حذو بيت المقدس باب ..).

(٢) الحديث برواية أخرى في أنس الجليل ٢٢٨/١ - ٢٢٩.

(٣) في م : (صبحٍ).

(٤) الحديث في الحضرة الأنسية ١٠٧، عن مكحول، وفي أنس الجليل ٢٢٩/١ عن مكحول أيضاً.

(٥) في الأصل : (بغير إلا الصلاة) وما هنا عن الحضرة الأنسية وعن أنس الجليل .

(٦) في م : صبحٍ).

وعن أنس من حديث[1]: وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في مسجد الكعبة بمئة ألف صلاة [٢٦/ب] وصلاته في مسجدي هذا بخمسين ألف صلاة.

أخرجه البخاري والطبراني وابن ماجة.

وعن كعب: من صام يوماً ببيت المقدس أعطاه الله تعالى براءة من النار.

إلى غير ذلك من الأخبار والآثار الظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار، وقد استوفينا جملة صالحة منها حسب التسهيل في كتابنا الموسوم بلطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل[2].

[تعظيم بيت المقدس]

وقد اجتمعت الطوائف كلها على تعظيم بيت المقدس، ما عدا[3] السامرية بزعمهم أن القدس هو جبل نابلس.

وقد كان[4] في زمن بني إسرائيل إذا نزل بهم خوفٌ من عدوّ أو جدبوا صوَّروا القدس وجعلوه هيكلاً، وصوروا أبوابه ومحاريبه، واستقبلوا به العدو فيهزم الله عدوّهم أو يستقبلون به السماء في الجدب فيُمطرون.

ولقد سمعت من بعض السادة القادة من لوحِظوا بالحسني وزيادته: أن هذا المسجد يُجْلي صدأ لهم عن القلوب ويشرح الصدور، ويذهب بالكروب، وأي مكان جلس فيه الإنسان، يجد نفساً من نفس الرحمن. وكم وكم أخبرني الثقات، وعندي لدعواهم بالشهود إثبات، وقد شاهدت هذا الشأن، وليس الخبر

---

(١) طرق الحديث في الحضرة الأنسية ١٠٦ : قال رسول الله ﷺ : «صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مئة صلاة، وصلاته ... إلخ» وهو برواية أخرى في أنس الجليل ٢٢٩/١-٢٣٠.

(٢) هذا أحد كتب اللقيمي مؤلف هذه الرحلة: انظر مقدمة المحقق.

(٣) في م : (معدا).

(٤) هذه الأسطر الخمسة لها ما يماثلها في الأنس الجليل ٢٤١/١ - ٢٤٢.

كالعيان[١]، فمن وافى سحراً هاتيك الأكناف، والتزم كعبة صخرتها وطاف، أدرك جمالاً وكمالاً يبهران العقول، كما تظاهر بذلك صحيح النقول، ومن تجلّت عليه واردات الطور، صعق من الهيبة والكتاب المسطور.

فلما قضيت التَّفثَ[٢] من هاتيك المحال، أنشدت مترنماً بلسان المقال: [من الكامل]

وافيتُ أقصى مسجداً تَنَسَّك ... وبذيل مسكِ عبيرِهِ أتَمَسَّكُ

وسلكتُ فيه للزيادة مسلكاً ... لقبوله أرجو فنعم المسلكُ

فهناك حقاً يحمدُ القومُ السُّرى[٣] ... لمآثرٍ إحياؤها لا يُتْرَكُ

استطراد جميل ذكره صاحب أنس الجليل

قال: قال تاج الدين أحمد بن الصاحب في كتابه: (العسجد الوارد لهذه المشارب):

وأما ما شاهدتُه عياناً، وعاينت منه برهاناً، أني جلست يوماً ببقعة [٢٧/أ] حوت أزاهر، مبتهجة بحلا محاسنها النواضر، وبقربي فقير ذو طمار[٤]، يبتسم ويعلن بالتسبيح والأذكار، ويقول: سبحان من جمع فيك المحاسن، وكساك الحل الفاخرة، وجعلك تحتوي على كنوز الدنيا والآخرة.

فقلت له: سيدي، أما بركة المسجد فقد تطابق فيه الخُبْر والخَبَر[٥]، وأما كنوز الدنيا فلم ندرها فشنف السمع وحلى النظر.

---

(١) أوردت هذا المثل في كتابي (معجم الأمثال العربية) في (خبر - عين) ومصادره هناك.

(٢) المثل العربي(عند الصباح يحمد القوم السرى) في معجم الأمثال العربية(حمد - قوم - سري - صبح)

(٣) تقدم شرحها قبل صفحات وهي التحلل من الجو.

(٤) في الأصل م : (الخير والخير).

(٥) في الأصل م : (الخير والخير).

فقال: ما من زهرة به إلا ولها خواص يعرفها أهل الذوق والاختصاص.

فقلت: أتحفني ببعض ذلك، وبصّرني بحقيقة ما هنالك، فأخذ بيدي فصار عسجداً، يطيب للناظرين مخبراً ومشهداً.

ثم قال: هذه بعض الكنوز، وكم فيه من خبايا ورموز، ثم رجع إلى نهجه الجميل من التسبيح والتهليل.

انتهى ما استطردته من المعاني، وسبكته في قوالب هذه المعاني.

تذييل

أول من فتح القدس الشريف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذو القدر المنيف، عام خمسة عشر، افتتحها صلحاً، وامتلأت من نصرة المسلمين بها نجحاً، وعلت لذلك كلمة الإسلام، ونكست بعد عن دماء الكنائس والأصنام، فتفجّع لذلك بعض شعراء النصارى وكتب تحت صورة من دماء الكنيسة أشعارا[(١)]:

أدمى الكنائس إن تكن عبثت بكم	**أيدي الحوادث أو تغيّر حالُ**
فلطالما سجدت لكنَّ شمامسٌ	**شمٌّ الأُنوف ضراغم أبطالُ**
بُعْداً على هذا المُصاب فإنّه[(٢)]	**يومٌ بيومٍ والحروبُ سِجالُ**

وقد كنت طلبت من الأخ المجيد، شقيق الروح السيد محمد السعيد، أن يُشَطِّر هذه الأبيات، ويجعل لها بمدحة الإسلام حسن التفات، فتوّجها وشطّرها، فأحببت أن أرقمها هاهنا وأسطرها: [من الكامل]

وبيوم فتح القدس نكست الدما	**في فتحه العمري فصار يقال**
أدمى الكنائس إن تكن عبث بكم	**سطوات صحب المصطفى مذ جالوا**

---

(١) الأبيات في أنس الجليل ٥٧/١، منسوبة لابن ضامر الضبعي بعكا.

(٢) في أنس الجليل: (لأنه).

أو ما تكن نسخت لكنّ مآثراً   **أيدي الحوادث أو تغيّر حالُ**

[٢٧/ب] فلطالما سجدت لكن شمامس   **سود القلانس شعبت أوجالُ**

واليوم نكّس رأسكن فوارس   **شم الأنوف ضراغم أبطال**

فأعزة كنتن صرن أذلةً   **يوم بيومٍ والحروب سِجال**

فلعمري لقد طهّرها بحسن التسبيع، حيث أخرجها بالشماتة بالكبار عن حيز التفجيع. انتهى.

[القلعة]

ثم في عصر هذا اليوم المبارك، الذي فيه الهناء شارك، توجهت مع بعض الرفقاء الأصحاب، اللابس من حلل اللطافة والآداب، إلى القلعة التي زاحمت بمناكبها الأفلاك، وكادت سكانها تسميع تسبيح الأملاك.

ولقلعة القدس الشريف تفاخرٌ   **إذ زاحمت شرفاتها الأفلاكا**

ويكاد من يرقى سماء سمائها   **بسموها أن يسمع الأفلاكا**

فصعدنا إلى محل بالزيارة مقصود، به محراب نبيّ الله داود، فتبركنا بآثاره السنية[1]، وانتشقنا عبير روائحه الزكية، وقرأنا سورة ص كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند فتحة، ودعونا الله تعالى راجين نفحة من نفحه. ثم ارتقينا إلى أعلى القلعة بشباك، كأنما هو لصيد النسيم أشباك، فتذكرت بيتين كجوهرتي العقد النضيد، لأخينا العمدة السيد محمد السعيد: [من الوافر]

وشباكٍ لرونقه ازدهى   **نصبناه شباكاً للرياحِ**

إذا ملنا إلى الصهبا سُحَيراً   **نصيد به الصبا وقت الصباح**

وبأرض ذلك الشباك البديع الأحكام حجر غاص في ذراع داود عليه السلام، فلثمت ذلك الأثر بجفون العيون، وتلوت **(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)** [المطففين: ٢٦/٨٣].

---

(١) في الأصل: (الثنية).

*** تكميل ***

ما أوتي نبي معجزة إلا وقد أعطي نبينا محمد r مثلها أو أعظم منها:

فمن مثل ما أُعطي داود عليه السلام في غوص ذراعه في الحجر بل أبلغ ما روى سمرة بن جندب قال: قال رسول الله r: **إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم [٢٨/أ] عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن.**

وجاء في بعض الروايات: إن هذا الحجر هو الحجر الأسود، أي وقيل غيره، وأنه الذي في زقاق بمكة يعرف بزقاق الحجر، ولعله غير الحجر الذي به أثر المرفق، ذكر أنه r اتكأ عليه بمرفقه بمكة بمحل يقال له زقاق المرفق.

وغير الحجر الذي أثر فيه الأصابع، وكان رسول الله r حين أراد الله كرامته بالنبوة كان إذا خرج لحاجة، أي لحاجة الإنسان أبعد حتى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب، وبطون الأودية، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله(١): [من الخفيف]

والجمادات أفصحت بالذي أخـــ ـــرس عنه لأحمد الفصحاء

[طور زيتا(٢) ومقبرة باب الرحمة]

وفي يوم الثلاثاء ختام ذي القعدة الشهر المذكور، المفتتح بالهنا والمختتم بالسرور، يممنا زيارة طور زيتا الأقدس، لنقتبس نور الضياء من مشكاة سناه المقدس، فطلعنا من باب الأسباط ونحن والرفقاء الرفاق في غاية الانبساط، وتواردت علينا عواطف المسرات الجمة، حين مررنا بمقبرة باب الرحمة، وزرنا مَنْ بها من السادة القادة، خصوصاً الصحابيَّيْن: هما شداد بن أوس

---

(١) البيت للبوصيري من همزيته التي مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

(٢) طور زيتا تقدم تعريفه.

وعبادة رضي الله عنهما وعن كل الصحابة أجمعين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

[ترجمة الصحابي عبادة بن الصامت[١]]

أما عبادة فهو ابن الصامت الأنصاري البدري، وجَّهه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام قاضياً ومعلماً، وأقام بحمص، ثم انتقل إلى فلسطين. وهو أول من ولي قضاءها. سكن بيت المقدس، ومات بفلسطين، سنة أربع وثلاثين من الهجرة، ودفن ببيت المقدس.

[شداد بن أوس][٢]

وأما شداد بن أوس رضي الله عنه، فهو ابن أخي حسان بن ثابت، نزل الشام، ناحية فلسطين، وكان ممن أوتي العلم والحلم، روي أنه لما دنت وفاة رسول الله **r** قام، ثم جلس، ثم قام، ثم جلس [٢٨/ب] فقال رسول الله **r**: ما سبب قلقك؟ فقال: يا رسول الله، ضاقت بي الأرض! فقال رسول الله **r**: ألا إن الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى.

فكان كما أخبره **r**: وكان ذا عبادة واجتهاد. توفي سنة ثمان وخمسين[٣] عن خمس وسبعين سنة. وقبره ظاهر ببيت المقدس يزار في مقبرة باب الرحمة تحت سور المسجد الأقصى. انتهى.

---

(١) ترجمة (عبادة بن الصامت) في الاستيعاب ٨٩٧/٢، وتاريخ دمشق لابن عساكر - المجمع - (عاصم - عايذ)، وأسد الغابة ١٦٠/٢، وتهذيب التهذيب ١١١/٥ - ١١٢، والإصابة ٣٢٢/٥، وتهذيب ابن عساكر ٢٠٩/٧.

(٢) لشداد بن أوس ترجمة في حلية الأولياء ٢٦٤/١، والاستيعاب ٦٩٤/٤، وأسد الغابة، ٥٠٧/٢، وتهذيب التهذيب ٣١٥/٤، والإصابة ٥٢/٥، وتهذيب ابن عساكر ٢٩٠/٦.

(٣) في الأصل: (خمس وثمانين وخمسين) مضروباً عليها، وكأن الناسخ قد ألغى مافيها من خطأ.

[شعر في الصحابيين عبادة وشداد]: [من الكامل]

يمم مقـام عبـادة بـن الـصامت ... والـشهمِ شـداد لِبـاب الرحمـةِ

فهمـا الإمامـان اللـذان تَفَيَّـأا ... من صحبةِ المختـار أينـعَ دوحـةِ

شهدا المـشاهدَ والمواقـفَ كلَّهـا ... بـشراهما فـازا بـأرفع رُتبـةِ

فإذا وصلتَ إلى الحمى فـانزل بـه ... متأدباً واجْـرِ[1] سـواكب عِبْـرهِ

والـثم ثـرى أعتابـه بتـذلُّل ... واهدِ[2] مع الرضوان حسن تحيـةِ

وارفع به كفَّ الـضراعة راجيـاً ... منح السعادة فهـي أعظـم طلبـةِ

فعـسى يوافيـك القبـول مُبَـشّراً ... بعواطـف فيهـا لطـائف منحـةِ

[مريم بنت عمران]

ثم اتجهنا[3] نحو الجهة الشمالية، ومررنا بذيل الجبل بالكنيسة الجثمانية المدفون فيها مريم ابنة عمران، فوقفنا ببابها، وقرأنا ما تيسّر من القرآن وأهديناه لجنابها.

[شعرفي مريم بنت عمران]:[من الطويل]

إذا حزب وادي القدس عرّج مُيَمِّماً ... لدى طوره تشهد سـقاماً معظمـاً

فأعْظِمْ بهـا صِـدِّيقَةً قـد تنبّـأت ... كفاهـا اصـطفاؤك فخـارٍ تَيَمَّـما

مقام بـه نـور النبـوة إذ حـوى ... كما قد روينا بنت عمـران مريمـا

ربيبـة محـراب خليفـة معبـد ... بقدس أبـو يحيـى تكفَّلهـا كمـا

ووافى إليها رزقَها الصيفَ والـشتا ... ووافَتْ ببُـشْراها ملايكـة الـسما

فجاءتْ بروح الله عيـسى مباركـاً ... وبَرّاً بها مـا دام حيـا أمائمـا[4]

---

(١) في م : (واجري) وما هنا للسياق،

(٢) في م : (واهدي) وما هنا للسياق.

(٣) في م : (ثم اخطفنا)، وما أثبته للسياق.

(٤) في م : (اما اما) ولم أصل فيه إلى رأي.

فـــواف حماهـــا مـــستغيثاً مـــصلياً　　　　عليهـــا فـــإن الله صـــلَّى وســـلما

[مصعد عيسى]

ثم صعدنا إلى جبل الطور، والوقت يلحظنا بعين السرور، فلما ارتقيت [٢٩/أ] ذروة ذراه، وشاهدت سين سناه، ودخلت مصعد عيسى وحبيت بمرآه ثانياً، سجدت لله شكراً، وأنشدت في ذلك شعراً:[من الكامل]

أمليت من لوح الـسرور سـطوراً　　　　حين ارتقيت من المقـدس طـورا

وشممت من أرجائه عرف الـشذا　　　　أرجـــاً بطـــيّ نـــسيمه منـــشورا

للأنبيـــاء بـــه مـــشاهد شـــوهدت　　　　أهدت قلـــوب الزائـــرين ســـرورا

منه المسيح لقد سما نحـــو الـــسما　　　　فسما مقاماً فـــي العـــلا مـــشهورا

وبـــآي الزيتـــون أقـــسم ربنـــا　　　　قـــسماً بـــذلك لـــم يـــزل مبـــرورا

ولقـــد روى كعـــب بـــأن بـــسفحه　　　　للأنبيـــا ألفـــاً تعـــدّ قبـــورا

لاحت به الأنـــوار ســـاطعة الـــسنا　　　　مـــلأت نواحيـــه الـــسنية نـــورا

فأكحل جفونك من ســـنا أنـــوارهم　　　　واجـــر المـــدامع لؤلـــؤاً منثـــورا

فـــانزل هنالـــك لائـــذاً متوســـلاً　　　　تُكْـــسى بـــذلك بهجـــة وحبـــورا

فَـــبِهِمْ نزلـــتُ مـــصليّاً ومـــسلماً　　　　فلعـــلّ أحظـــى بـــالقبول أجـــورا

فـــوفى لأســـعد بـــالقبول بـــشائر　　　　إذ كـــان فيـــه ســـعيه مـــشكورا

فكيف لا يكون هذا الجبل أنيساً، وقد رفع منه روح الله عيسى، وهو أحد الجبال التي أقسم الله بها في كتابه المبين، بقوله عزَّ من قائل: **(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)** [التين: ٩٥/١-٣].

روى صاحب أنس الجليل ما فيه شفاء الغليل:

عن أبي هريرة : أقسم ربنا بأربعة أجبل فقال: **(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ *)** [التين: ٩٥/١-٣] فالتين: مسجد دمشق، والزيتون: طور زيتا مسجد بيت المقدس، وطور سينين: حيث كلّم الله موسى، وهذا البد الأمين: مكة.

وقدمت صفيّة زوج النبي r بيت المقدس، فصلّت، وصعدت طور زيتا، فصلّت، وقامت إلى طرف الجبل، وقالت: من هاهنا يتفرّق الناس يوم القيامة، إلى الجنة أو إلى النار. انتهى.

[مشاهد أخرى]

وبجانب مصعد عيسى زاوية تُحيي برؤيتها نفوساً، وبأسفلها ضريح الشيخ العلمي[1] وزوجته وردناه لنستقي من مناهل حضرته، وقريب منه مكان مقصود للزوّار، فيحوزون به حلّ الرموز وكشف الأسرار.

[رابعة العدوية][2]

ولديه مغارة سنية بهية بها قبر العارفة بالله رابعة العدوية، وكنيتها أم الخير، من أعيان عصرها في الصلاح والعبادة مشهورة، كانت تقول في مناجاتها: إلهي [لا][3] تحرق قلباً يحبك، فهتف بها مرةً هاتفٌ: ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا الظن السوء.

ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون[4] سيئاتكم.

أورد لها السهروردي في عوارف المعارف: [من الكامل]

إني جعلتك فـــي الفـــؤاد محـــدّثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي[5]

---

(١) الشيخ العلمي هو محمد بن عمر بن محمد سعد الدين بن تقي الدين حفيد الأمير موسى العلمي: متصوف من أهل القدس مولداً ووفاة سنة ١٠٣٨ هـ/ ١٦٢٨م (خلاصة الأثر ٧٨/٤، والأعلام ، دار العلم للملايين ٣١٧/٦).

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية توفيت بالقدس سنة ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م، وقيل ١٨٠، وثمة خلاف بين رابعة المصرية ورابعة البصرية وقد أشار إلى ذلك المناوي حين ترجم لهما، انظر طبقاته ٢٩٣/١، وأظن أن الاثنتين واحدة لأن التصحيف وارد بينهما.

(٣) زيادة للسياق.

(٤) في الأصل م : (تكتموا) والتصحيح عن وفيات الأعيان حيث وردت الوصية.

(٥) البيت الأول وحده في سير أعلام النبلاء ٢٤٢/٨، والبيتان في الكواكب الدرية.

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد جليسي

[قبة الشهداء]

وبالجبل جماعة من الشهدا، بقبة عالية تجلي عن زائرها الصدى.

[قبر سلمان الفارسي][١]

وهناك قبر الصحابي الجليل الأسنى، من ورد في حقّه سلمان منا.

وقفنا بأعتابهم، ولذنا بجنابهم، وتملينا بدوح رحابهم، لعلنا نُكتب من أجناسهم، مستمطرين من فيض راحاتهم مدداً، والمرء مع مَنْ أحب قد وردا[٢].

وهذا هو سلمان الفارسي ابن الإسلام، رافع الولاية والأعلام، الحاكم الحكيم، والعابد العليم، أحد الرقباء والنجباء، ومن إليه تشتاق الجنة من الغرباء.

كان من أكابر الزهاد، وأفاضل العُبّاد، أصله من أصبهان عند قدوم المصطفى r المدينة، وكان عبداً لبني قريظة، أدّى المصطفى r كتابته وأعتقه، وهو عظيم المناقب، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول النبي r:

سلمان منا أهل البيت[٣]. وقوله: إنه أحد الذين تشتاق إليهم الجنة. وقوله: إن الله يحب من أصحابي أربعة[٤]. وذكره منهم، لكفى.

وكان إذا جنَّهُ الليل صلّى، فإذا أعيا ذكر الله بلسانه، فإذا أعيا بكى، فإذا أعيا تفكَّر في آيات الله وعظمته، ثم يقول لنفسه: استرحتِ فقومي، فإذا صلّى زماناً طويلاً قال للسانه: استرحت فاذكر، وهكذا طول الليل، وكان عطاؤه

---

(١) ترجمة سلمان الفارسي في حلية الأولياء ١/١٨٥ - ٢٠٨، والاستيعاب ٤/٢٢٢، وتاريخ بغداد ١/١٦٣ - ١٧١، وأسد الغابة ٢/٤١٧، وسير أعلام النبلاء ١/٥٠٥، والإصابة ٢/٢٢٣.

(٢) انظر هامش سير أعلام النبلاء ١/٥٠٥ فثمة تخريج لهذا الحديث.

(٣) أورد الذهبي هذا الحديث في سير أعلام النبلاء ١/٥٤٠ وتخريجه في هامشه.

(٤) في م: (أربعاً) تحريف صححته عن سير أعلام النبلاء ١/٥٤٠ وتخريجه في هامشه.

خمسة آلاف درهم، وهو أمير بالمدائن[1] على زهاء ثلاثين ألفاً، ومع ذلك يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن له بيت يظلُّه، وإنما يدور مع الظلّ حيث دار.

[٣٠/أ] وكان إذا خرج عطاؤه فرَّقَه، ولا يأكل إلا من كدِّ يده في عمل الياقوت.

ومن كراماته أنه خرج من المدائن ومعه ضيفٌ، فإذا بظباء في الصحراء كثيرة، وطيور في الهواء، فقال: ليأتني منكم طير وظبي، فقد جاءني ضيف، أحبُّ إكرامه، فأتياه، فقال الرجل: سبحان الله، فقال سلمان: أتعجب هل رأيت رجلاً عبداً أطاع الله فضَيَّعه.

ومن كلامه: العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاجه لدينك، ودع ما سواه.

ومن كلامه ووصاياه: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عابراً لمسجد ربّه فليفعل ولا يموت تاجراً ولا جابياً.

مات سنة ست وثلاثين عن مئتين وخمسين أو ثلاث مئة. انتهى.

وأنت خبير بما أسلفناه في هذا المسطور عن طبقات المناوي الإمام المشهور، بأن مقام سلمان الفارسي بسدود، وعنده مقام سيدي إبراهيم المتبولي مشهود.

هذا وقد ذكر شيخنا السيد الصدّيقي في (رحلته القدسية) في زيارة جبل الطور:

«وكنا بعدما نصلّي الصبح والإشراق، نذهب لزيارة سيدي سلمان الفارسي ذي الإشراق».

---

(١) المدائن: قرية عمها الخراب كانت على دجلة تبعد عن بغداد ستة فراسخ، وفي شرقيّها إيوان كسرى، وقربه قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه (معجم البلدان: مدائن وبلدان الخلافة الشرقية ٥١-٥٤).

وقال في رحلته العراقية بمناسبةٍ نقلاً عن الإمام الشعراني في ترجمة سيدي إبراهيم المتبولي إنه دفن عند سيدي سلمان الفارسي بسدود وقد خلع عليه شهرته. انتهى.

[إيوان كسرى]

وقال في الرحلة المذكورة في محلّ آخر:

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى إيوان كسرى وتوجهنا لنرى الشق الذي أوجب لظهرٍ كسراً، وعاينّا الآية الكبرى، وأنشدنا قول الأبوصيري[1] منحه الله جبراً[2]:

وبات إيوانُ كسرى وهو مُنْصَدِعٌ   كشمل أصحاب كسرى غير ملتئمِ

وقسنا عرض الإيوان فإذا هو سبعة عشر باعاً، وطول حائطه الشمالي ثلاثون باعاً، وطوله في الهواء[3] يقارب عشرين باعاً.

[عودة إلى قبر سلمان الفارسي]

وتعديناه إلى مرقد الإمام الهمام سيدي سلمان الفارسي المقدام، وجلسنا عنده هُنيّة يسيرة، ودعونا الله لنا ولأحبابنا أن ينيلنا الآمال الخطيرة. انتهى.

ولعمري ليس هذا باختلاف، لتمكن التوافق بين الأقوال والائتلاف، فمقامه بالمدائن واضح الدليل، لكونه كان أميراً بها، ولما ذكره صاحب أنس [٣٠/ب] الجليل: فيُحْمل المقامان الآخران على أنهما لجنابه مشهدان، بمراءٍ منامية أو كشفية، أو ظهوره بما بحكم البرزخية، فإن البرزخ حكم البحر الزاخر، كما روي ذلك عن بعض الأكابر، وعلى كل حال متى نُسب لولي محلٌّ أو مكان صار يتعهده بروحانيته في بعض الأحيان، كما أخبر بذلك أهل المكاشفات، ودلَّت عليه

---

(١) الأبوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبد الله: شاعر مشهور مليح المعاني، صاحب البردة والهمزية وغيرهما. توفي سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م (ترجمته في فوات الوفيات، والوافي بالوفيات ١٠٥/٣-٥١٣ والأعلام طبعة ٢ - ١١/٧.

(٢) البيت الثاني والستون من أبيات البردة في الصفحة١٠٤ من شرح الباجوريس.

(٣) في م : (الهوي).

الأنوار المشاهدات، فينبغي للإنسان إذا ورد أحد المقامات أن يتحلى بالأدب، بعد التخلي عن المخالفات، فقد ورد أن من زار ولياً وهو مُصِرٌّ على ذنب من الذنوب، أدركه المقت في الوقت من علاّم الغيوب، فيمّمْ بأدب وحسن استعداد تحظَ[1] منهم بالمدد وغاية الإسعاد: [من البسيط]

يمِّمْ هُـديتَ إلـى أمـنٍ وإيمـان ... واقصدْ مقامَ الصحابي الشهمِ سلمانِ

الفارسـيّ بـآل البيـت ملتحـقٌ ... بـنصّ سـلمان منـا آل عـدنان

الناسك العابد الصوفي مَنْ شـهدتْ ... له المشاهد في التقـوى بعرفـانِ

كل المـشاهد وافاهـا علـى قـدم ... من الثبات وعـزمٍ للـوغى ثـاني

تشتاقه جنةُ المـأوى كمـا وردتْ ... به الأحاديثُ يا بشراه مـن دانـي

وكم له من كرامـات شـهدن لـه ... عـن الثقـات رويناهـا بإيقـان

أتاه طيـرٌ وظبـيٌ إذ دعـا بهمـا ... من الفلاة ليُقري بعـضَ ضـيفانِ

فأعجبَ الضيفُ من هذا فقـال لـه ... إن المطيعَ مطاعُ الأمـر والـشانِ

مقامُـه حـرمٌ بـالأمن محتـرمٌ ... وجاره لم تَرُعْـه صـولة الجـانِ

وقد نزلـتُ حمـاه أبتغـي مـدداً ... لعل يمنحنـي الحـسنى بإحـسانِ

[قرية العازرية][2]

ثم توجَّهنا إلى قرية العازرية في الساعة، وهي قريبة من الطور بنحو نصف ساعة، وزرنا بها نبيَ الله العزير عليه السلام، بمسجدٍ سما بالمهابة

---

(١) في م : (تحظى) وهو خطأ في النحو.

(٢) في م : (العيذرية) بالذال، وهي العازرية في معجم البلدان والحضرة الأنسية، ٢٢٣ والمعجم الجغرافي للدولة العثمانية ٣٥٧، وأنس الجليل ٧٥/٢، وهي العزيرية والعيزارية والعازرية في الحقيقة والمجاز ٣٨٧/١، وهي قرية بظاهر القدس الشريف من جهة الشرق بالقرب من طور زيتا، وتقع اليوم على مسافة ٥ كم إلى الشرق من القدس.

والاحترام، هذا هو المشهور أنه العزير بلا دليل، لكن صاحب أنس الجليل[١] قال: لعله العيزار بن هارون عليه السلام وأما العزير فإنه بقرية عورتا[٢] من أعمال نابلس[٣]. انتهى.

*** تكميل ***

والعزير هو المراد بقوله تعالى: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها﴾** [البقرة: ٢٥٩/٢] على ما ذهب إليه قتادة [٣١/أ] وعكرمة والضحاك: والقرية قيل إنها دير هزقل[٤].

وذلك أنه لما خرب بخت نَصَّر المقدسَ، ورجع إلى بابل بسبايا بني إسرائيل كان فيهم عُزَير ودانيال وسبعة آلاف من بيت داود، فلما نجا عُزَير من بابل ارتحل على حمار، حتى نزل دير هزقل على شط دجلة، فطاف في القرية فلم ير فيها أحداً وعامة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة، واعتصر من العنب، فشرب منه، وجعل فضل الفاكهة في سلَّة، وفضل العصير في زقٍّ،

---

(١) أنس الجليل ٧٦/٢ وقد اقتبس هذا النقل النابلسي في رحلتيه: الحضرة الأنسية ٢٣٢، والحقيقة والمجاز ٣٨٧/١.

(٢) عَوَرْتا: بفتح أوله وثانيه وسكون الراء وتاء مثناة من فوق: بليدة بنواحي نابلس، على بعد ٨ كم جنوب شرقيها، وبها قبر العُزير النبي عليه السلام وكذلك قبر يوشع بن نون عليه السلام وغيرهما (انظر الزيارات للهروي ٢٤، ومعجم البلدان (عورتا) والحقيقة والمجاز ١٩٦/١ والحضرة الأنسية ٨٨ وهامش رقم ٣ فيها).

(٣) أضاف الحنبلي: (وقيل: إنه عازر الذي أحياه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بإذن الله ... والله أعلم).

(٤) في م : (دير هرقل) وهو تحريف. ودير هزقل - بكسر أوله، وزاي معجمة ساكنة، وقاف مكسورة: وأصله (حزقيل) ثم نقل إلى هزقل، وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر قدم قرب النعمانية ويقال: إنه المراد بقوله تعالى: **﴿أو كالذي .. عروشها﴾** ٢ /٢٥٩ انظر (معجم البلدان: دير هزقل، وبلدان الخلافة الشرقية ٥٦).

فلما رأى خراب القرية وهلاكها قال: **(أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها)** [البقرة: ٢٥٩/٢] تعجباً لا شكّاً في البعث.

وقال وهب : المارُّ هو إرْميا[(١)]، والقرية بيت المقدس، وهو أنه لما ارتحل بخت نصَّر راجعاً إلى بابل بسبايا بني إسرائيل أقبل إرمْيا على حمار له، معه عصير عنب في ركوة، وسلة تين، حتى غشى إيليا. فلما وقف عليها قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها، ثم ربط حماره بجبل جديد، فألقى الله عليه النوم، لما نام نزع الله منه الروح مئة عام، وأمات حماره، وعصيره وتينه عنده، وأعمى الله عنه العيون، ومنع الله السباع والطير عن لحمه، فلما مضى من موته سبعون سنة أمر الله ملكاً من ملوك فارس أن يعمر بيت المقدس، فعمرها، ورجعت سبايا بني إسرائيل إلى بيت المقدس وعمروها أحسن ما كانت في ثلاثين سنة، وكثروا حتى كانوا أكثر ما كانوا، فلما مضت المئة سنة أحيا الله منه عينه وسائر جسده ميت، ثم أحيا الله جسده، وهو ينظر إليه، ثم نظر إلى حماره، فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام البالية، إن الله يأمركِ أن تجتمعي، فاجتمع بعضها مع بعض، واتصل بعضها ببعض. ثم نودي: إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها مع بعض تكتسي لحماً وجعله فكان كذلك، ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيا، فقام بإذن الله، ونهق وبعث الله إليه مَلَكاً فقال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، وذلك [٣١/ب] أن الله تعالى أماته فحيي في أول النهار، وأحياه بعد مئة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس. فقال: لبثت يوماً، وهو يرى الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية الشمس. فقال: أو بعض يوم، فقال له المَلَك: بل لبثت مئة عام، وإذا التين كأنه قطف من ساعته، والعصير كأنه عصر من ساعته.

---

(١) ترجم له ابن عساكر في تاريخ دمشق - طبعة دار الفكر ببيروت - ٢٧/٨ - ٤١ فقال: (إرْميا بن حَلَقِيّا، من سبط لاوي بن يعقوب، من أنبياء بني إسرائيل، ويقال إنه الخَضِر عليه السلام وأنه جاء بعد يحيى بن زمريا. وذكر قصته مع بخت نصَّر).

وعَمَّر الله إرميا فهو الذي يُرى في الفلوات، وهو الخضر، انتهى: بغوي[1].

وفي (جمع الفوائد) لشيخ الإسلام شيخنا الإمام محمد بن سليمان المغربي محدث مكة عن ابن عباس:

لما بعث الله موسى وأنزل عليه التوراة قال:

اللهم إنك ربّ عظيم، ولو شئت أن تُطاع لأُطِعتَ، ولو شئت أن لا تعصى ما عُصِيتَ، وأنت تحبّ أن تُطاع، وأنت فيَّ تُعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون.

فلما بعث الله عُزَيراً وأنزل عليه التوراة بعدما كان رفعها عن بني إسرائيل حتى قال من قال منهم ابن الله. فقال: اللهم إنك ربّ عظيم مثل ذلك، فأوحى الله إليه: أني لا أُسأل عما أفعل، وهم يُسألون، فأبت نفسه حتى سأل أيضاً، فقال: أتستطيع أن تصرّ صرّةً من الشمس؟ قال: لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور؟ قال: لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا. قال: فهكذا، لا تقدر على الذي سألت عنه أني لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون، إني لأجعل عقوبتك الآن أمحو اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم، فمحا اسمه من الأنبياء، فليس يُذْكر فيهم وهو نبي.

فلما بعث الله عيسى، ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، والإنجيل، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، وينبئهم بما يأكلون وما يدخّرون في بيوتهم قال: اللهم إنك ربّ عظيم مثلهم، فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، وأنت عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتك إلى مريم، وروح مني، خلقتك من تراب، ثم قلت: إن كنت لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون [٣٢/أ] فجمع عيسى من يتبعه فقال: القدر سرٌّ الله، فلا تكلفوه . انتهى.

---

(١) انظر تفسير البغوي٤٣.

وبالجملة فبالمسجد المذكور نبيٌّ إما العزير أو العيزار[1] يشهد بذلك لواقح الأنوار، فلثمت ثرى الأعتاب، وتمسكت بذيل عبيره المستطاب، وقرأت ما تيسر من القرآن مع الخشية، لاسيما آي **(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ)** [البقرة: ٢٥٩/٢]، ودعوت الله لي ولإخواني، ثم طفق ينشد لساني:[من الوافر]

مقـــامٌ منـــــه لاحَ لنـــا الوقـــارُ	**ففيـــه يُـــرى العزيـــر أو العـــزارُ**
وأنـــوارُ النُّبـــوةِ منـــه لاحَـــتْ	**وعنـــه كـــاد ينكـــشف الـــستارُ**
ودوحـــة روضـــةٍ فاحَـــتْ عبيـــراً	**لهـــا داريـــنُ مـــسكتُها غُبـــارُ**
نزلنـــا سُـــوحَهُ نَبْغـــي نـــوالاً	**ومَرْجِعنـــا بـــلا مَـــدَدٍ يُعـــارُ**
فجد يـــا سـيدي بـــالفيض فـــضلاً	**فمـــن كفيـــك تمتـــد البحـــارُ**
ونـــادى أســـعدٌ أهـــلاً وســـهلاً	**لقد طـــاب القـــرى لـــك والجـــوارُ**
لـــك الإمـــداد منـــا كـــلَّ حـــين	**كمـــا تبغـــي وإن شـــطَّ المـــزارُ**
فلي فخـــرٌ إذا مـــا جئـــت ســـعياً	**إلـــى علياك حـــقٌ لـــي الفخـــار**
عليـــك الله صـــلّى مـــا ريـــاضٌ	**علـــى أغـــصانها ســـجع الهـــزارُ**

ولما أن وافت البشارة، بقبول تلك الزيارة، وحصل بذلك الأنس والسرور، انثنينا راجعين إلى جبل الطور، فأتممنا بقية ذلك اليوم نتسامر بذكر أخلاق القوم، وكان يصحبنا منهاج العابدين للإمام الغزالي، الذي هو في الحكم والطريق كنز اللآلي، فشنفنا الأسماع بدرر ألفاظه، والتقطنا الجواهر من سوق عكاظه، فمما أعجبني من حسن المعنى ولفظه، ما ذكره في الفصل الخامس في البطن وحفظه:

اغتنمْ ركعتين فـــي ظلمـــة الليـــ	**ـــل إذا كنـــت خاليـــاً مـــستريحا**
وإذ ما همـــتَ بـــالنطق فـــي البـــا	**طـــل فاجعـــل مكانـــه تـــسبيحا**

---

(١) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند (معجم البلدان).

وحسبك أن مقصودك العبادة، وأن الطعام والشراب بذر العمل وماؤه، منه يبدو وينبت، وإذا خبث البذر لا يطيب الزرع بل فيه خطر يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبداً.

ومن ذلك ما بلغنا عن [٣٢/ب] معروف الكرخي[١] أنه قال: إذا صمتَ فانظر على أي شيء تُفْطر؟! وعند من تُفْطِر؟! وطعام من تأكل؟! فكم من يأكل أكلة، فيقلب قلبه عما كان عليه لا يعود إليه أبداً. وكم أكلة حرمت قيام ليلة؟! وكم من نظرة منعت قراءة سورة؟! وأن العبد ليأكل الأكلة فيحرم بها قيام سنة، فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق والاحتياط البالغ الشديد في قوتك إن كان لك عناية بقلبك، وهمة في عبادة ربك هذا من أصل القوت حتى يكون من وجهه.

ثم عليك بالأدب فيه وإلا كنت حمالاً للطعام، مضيّعاً للأيام، إذ قد علمنا يقيناً بل قد رأينا عياناً أن العبادة لا يجيء منها شيء إذا امتلأ البطن، وإن أكرهت النفس على ذلك، وجاهدت بضروب الحيل، فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة.

ولذلك قيل لا مطمع بحلاوة في العبادة مع كثرة الأكل، وأي نور في النفس بلا عبادة، وفي عبادة بلا لذة ولا حلاوة، ولهذا المعنى قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى:

صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان، فكانوا يوصونني إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع، قل لهم: من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد في عمره بركة، ومن [طلب] رضى الناس فلا ينتظر رضى الرب، ومن يكثر من الكلام بفضول وغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام.

---

(١) هو معروف بن فيروز الكرخي وهو أستاذ السريّ السقطي. وكان مجاب الدعوة، قال الغزالي: كان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ولا يسألانه. توفي سنة مئتين وقيل وواحدة (انظر حلية الأولياء ٣٦٠/٨، وتاريخ بغداد ١٩٩/١٣، ووفيات الأعيان ٢٣١/٥، وسير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩، وطبقات المناوي ٧١٥/١).

وعن سهل[1] رحمه الله تعالى أنه قال:

جماع الخير كله في هذه الخصال الأربع، وبها صارت الأبدال أبدالاً، إخماص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق، وسهر الليل.

وقال بعض العارفين:

الجوع رأس مالنا، ومعناه أنه ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم نافع بسبب الجوع والصبر عليه.

وقال في مبحث القلب:

فصل:

وجملة الأمر أنك إذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت أن الدنيا لا بقاء لها وأن نفعها لا يفي بضررها وتبعاتها من كدّ البدن وشغل القلب في الدنيا والعذاب الأليم والحساب الطويل في الآخرة زهدت في فضولها، فلا تأخذ منها إلا ما لا بدَّ لك منه في عبادة ربك، وتدع [٣٣/أ] التنعُّم والتلذُّذ إلى الجنة دار النعيم المقيم في جارِ ربِّ العالمين، الملك القادر الغني الكريم.

وعلمت أن الخلق لا وفاء لهم، وأن مؤونتهم أكثر من معونتهم، فيما يعنيك تركت مخالطتهم إلا فيما لا بدّ لك منه، تنتفع بخيرهم، وتجتنب ضرهم، وتجعل صحبتك لمن لا تخسر في صحبته، ولا تندم على خدمته، وأُنسك بكتابه، وملازمتك لبابه، فيكون لك بكلّ حال، وترى منه كلّ جميل وإفضال، وتجده عند كل نائبة في الدنيا والآخرة. كما قال عليه السلام:

احفظ الله تجده حيث اتَّجَهْتَ.

وعلمت أن الشيطان خبيث قد تجرّد لمعاداتك، فاستعذت بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين، ولا تغفل عن مكائده ومصائده، فتطرده بذكر الله تعالى، ولا

---

(١) هو سهل بن عبد الله التُّسْتَري صحب خاله محمد بن سوَّار، ولقي ذا النون، وأخذ عن الأكابر طبقة بعد طبقة. مات سنة ٢٨٣ (انظر حلية الأولياء ١٠/١٨٩، وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٣٠، والوافي بالوفيات ١٦/١٦ ، وطبقات المناوي ١/٦٣٣).

تعبأنّ بذلك، فإنه يسير إذا ظهر منك علامة الرجال، وإنه كما قال تعالى: **(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** [النحل: ٩٩/١٦]. انتهى.

وقد أتى في هذا الكتاب بالعجب العجاب **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)** [ق: ٣٧/٥٠].

ولما بلغت النفس بالتداني منح الإسعاف، أنشدت بلسان التهاني عند الانصراف:[من الكامل]

للهِ يومٌ قد نعمتُ بأُنسهِ ... في طور زيتاء الأمين بقدسِهِ

أروي لنهج العابدين مآثراً ... تنبي الملوَّن عن حقيقة نَفْسِهِ

[نور الدين الجماعي والصديقي]

وفي يوم الأربعاء دعانا للنزهة داعي، وهو رئيس الخطباء بالأقصى الشيخ نور الدين الجماعي، فتوجهنا معه إلى بستان نفحت أزهاره، وخطبت على منابر أيكه أطياره.

فبينما نحن في لذة الأُنس نحتسي كأسه الرحيق، وإذا السعد يبشرنا بوفود أستاذنا الصديقي، فتبسم لنا من الزهور الثغور، وبدا لنا قمر المسرة وراء الستور:

روض به وافى الإمام محدثاً ... فيه تنزّه كالنواظر مسمعي

أجني زهور العلم من أدواحه ... داني القطاف بعرفه المتضوعِ

والسعد قال أقم هنالك مسعداً ... بالطالع المسعود غير مروعِ

فمما أداره علينا من كؤوس خمره الرباني، نبذة من كرامات شيخنا سيدي [٣٣/ب] عبد القادر الكيلاني[1]:

---

(١) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي مؤسس الطريقة القادرية، ومن كبار الزهاد والمتصوفين. توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م (انظر فوات الوفيات ٣٧٣/٢، والوافي بالوفيات ٣٨١/٨، وسير أعلام النبلاء ٤٣٩/٢٠، والكواكب الدرية ٢٥٣/٢ والأعلام ١٦٥/٤).

منها[1] أنه كان وهو طفل لا يرضع في رمضان، فكان الناس إذا شكّوا في الهلال رجعوا إليه.

وكان[2] الذباب لا يصيبه وراثة من جده المصطفى r.

ومن كلامه[3]:

من طابت نفسه أن يقرأ على أحد أقرانه، فتتلمذ له خرج من رعونات نفسه، وذلك من أعلى رياضة النفس، بل أعلى من السهر والجوع والعزلة.

وقال: النعم واصلة إليك اجتلبتها أم لا، والبلوى حالّة بك وإن كرهتها، فسلِّم لله في الكلّ يفعل ما يشاء فإن أتتك نعمة فاشتغل بالذكر والشكر أو بلوى فالصبر والموافقة أعلى منهما الرضى والتلذّذ بالقضاء.

ومن مناجاته رضي الله عنه:

إلهي إنك أمرتنا بالوصية عند حلول المنية، وقد تهجمت عليك، وجعلت وصيتي إليك، بقدومي عليك، فأول ما تبتدىء به من أمري إذا نزلت في قبري، وخلوت بوزري، وأسلمني أهلي في غربتي، أن تؤنس وحشتي، وتوسع حفرتي، وتلهمني جواب مسألتي، ثم تكتب على صحيفتي بقلم عفوك اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فإذا جمعت رفاتي، وحشرتني يوم ميقاتي، ونشرت صحيفتي، سيئاتي وحسناتي، فانظر في عملي، فما كان من حسن فاصرفه في زمرة أوليائك، وما كان من قبيح فمل به إلى ساحل عتقائك، وأغرقه في بحر عفوك ووفائك، ثم أوقف عبدك بين يديك فإذا لم يبق إلا افتقاره واعتماده عليك، فقِسِ اللهم بين عفوك وذنبه، وبين غناك وفقره، وبين حلمك وجهله، وبين عزّك وذلّه، ثم افعل ما أنت أهله فهذه وصيتي إليك، تلطفاً بفضلك عليك. وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك له، وأشهد أن

---

(١) طبقات المناوي ٢/٢٥٦.

(٢) طبقات المناوي ٢/٢٥٦.

(٣) طبقات المناوي٢/٢٥٨.

محمداً عبدك ورسولك، وأشهد أن الموت حق، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، والحمد لله رب العالمين.

وقال ابن العربي[١]: وكان سيدي عبد القادر يقول:

قدمي على عنق كل وليّ، من باب التحدث بالنعمة، فلما احتضر قال: يا ليت أمي لم تلدني.

وكان[٢] تحت رأسه وسادة، فقال: أنزلوا خدّي عنها [٣٤/أ] وضعوه على التراب لعل الله يرحمني، ثم قال: هذا هو الحق الذي كناعنه في حجاب. انتهى.

وأطلعنا حضرة الأستاذ روضة النفوس على حكم للسيد العيدروس، أوردها في رحلته العراقية الجامعة لكل فريدة سنّية، فأحببت اندراجها في هذا المرقوم، تبركاً بها، وبحسن درها المنظوم، وهي قوله رضي الله عنه: من أشغله حقُّ ربّه عن حقوق نفسه وحقوق إخوانه فهو عبد الحضرة، ومَن أشْغَله القيام بحقوق ربه، وحقوق إخوانه، عن القيام بحقوق نفسه فهو صاحب وراثة.

ومن ذلك:

من تيسّرت له الأُخروية، وتعسّرت عليه مطالبه الدنيوية فهو من ورثة النبيين. ومن تيسّرت له مطالبه الأخروية والدنيوية فهو من أصحاب اليمين. ومن تيسرت له مطالبه الدنيوية وتعسرت عليه الأخروية فهو من المستدرجين، ومن تعسرت عليه الأخروية والدنيوية فهو من الممقوتين.

ومن ذلك:

العلم أربعة أجزاء: العلم به يعرف حق الله تعالى، والعمل بالعلم، وهو القيام بأمر الله، والإخلاص في العلم، والعلم وهو تصفيته بالله، والبراءة من الحول والقوة هو والاعتماد على الله، فمن عرف حق الله، وقام بأمر الله، وصفا بالله، واعتمد على الله، فهو الإنسان المرتضى، الولي لله المجتبى.

---

(١) طبقات المناوي ١/ ١/ ٥٦١ ولم أجد هذا القول في ما عندي من طبعة الفتوحات.

(٢) طبقات المناوي ١/ ١/ ٥٦١.

وقال رضي الله عنه:

السماع يشفي السقيم، ويحيي الرسيم. إذا وقع من أهله مع أهله في الوقت القابل لذلك والمحل اللائق به وهو فتنة على المستمع بالحظ والهوى، وعلى المسمع على هذا الوجه.

وقال رضي الله عنه ونفعنا به:

الدنيا بمنزلة البادية المخوفة الكثيرة السُّراق والغصّاب، والآخرة بمنزلة المدينة الخصيبة الآمنة، والإنسان خرج إلى الدنيا ليأخذ مما فيها فيقدمه للآخرة. والعاقل كل ما حصل في يده شيء منه قدمه أمامه، ليحتفظ له ويأمن عليه، وينتفع به إذا وصل لمحلّ استقراره، وهي الآخرة، والجاهل يحتبس ما معه[1] عنده [٣٤/ب] بخلاً به، فإما أن يأخذه الغصاب من يده، وهي في المثال آفات الدنيا، وإما أن يسافر من البادية التي لا قرار لها بها على القهر منه ويكلف ترك ما معه، فأخذه من يبقى في المحلّ الذي انتقل عنه.

هذا مثال عجيب، فليفهمه العاقل اللبيب، قال الله تعالى: **(وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاّ الْعالِمُونَ)** [العنكبوت: ٤٣/٢٩].

ومن نظامه في ديوانه رضي الله عنه: [من الكامل]

لا تجـزعَنَّ إذا مـا بُليـتَ بـشدّةٍ ... إن الـشدائد لا يـدوم مقامُهـا

كم شـدة نـام الفتـى لورودهـا ... مـا هـب حتـى أدربـت أيامُهـا

فاصبر على نوب الزمـان فإنهـا ... تمضي ويبقـى بردهـا وسـلامُها

وأتممنا ذلك اليوم الهني، بهذا المجلس السني نلتقط دُرَّ الفوائد، بذكر أهل الإشارات والتوفيق، فإن بذكرهم تنزل الرحمات الإلهية، وتتوارد العواطف الرحمانية، فتنشرح بذلك الصدور وينجبر القلب المكسور!

شَنِّف بذكر ذوي المحبة مـسمعي ... فبـذكرهم تتنـزّل الرحمـاتُ

فبحـبهم ولـصحبهم فـي قـربهم ... وافى الـسرور وطابـت الأوقـاتُ

---

(١) في الأصل: (ما عنده)، وفوقها الرواية الأخرى.

وطالما كنت بالشوق غليل، بتزايد الغرام تشوقاً لزيارة الخليل عليه من الله السلام، والتحية والصلاة والسلام، لما ورد في ذلك من الأخبار وشهد بصحبته ذلك الأئمة الأخيار، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس عن النبي r أنه قال[1]:

من لم يمكنه زيارتي فليزُر قبر أبي الخليل عليه السلام.

وعن وهب بن منبه:

طوبى لمن زار قبر إبراهيم عليه السلام، يمحو الله ذنوبه كلها، ولو كانت مثل جبل أحد.

وعنه أيضاً قال:

من زار قبر إبراهيم عليه السلام في عمره مرة لا يعنيه إلا ذلك حشر يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر، ووقي فتّانَيْ القبر، وكان حقاً على الله أن يجمع بينه وبين إبراهيم في دار السلام.

وعن كعب الأحبار:

من زار بيت المقدس، وقصد إبراهيم، وصلى فيه خمس صلوات، ثم سأل الله شيئاً أعطاه إياه، وغفر ذنوبه كلها.

وعنه من زار قبر إبراهيم [٣٥/أ] وإسحاق ويعقوب ويوسف وسارة وربقة وليقة أُعطي بتلك الزيارة الكرامة الدائمة، والرزق الواسع، وبلّغه الله بذلك منازل الأبرار، ولا رجع إلى منزله إلا وقد غفر الله له ذنوبه كلَّها، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى إبراهيم عليه السلام يبشّره أن الله تعالى غفر له.

وعن النبي r:

ولن يتوسّل به أحد إلى الله عز وجلَّ ثناؤه في شيء إلا لم يبرح حتى يرى الإجابة عاجلاً.

---

(١) الحديث في الأنس الجليل ٥٦/١.

قال صاحب أنس الجليل[1]:

قلت: وهذا مما لا شكَّ فيه، فإني جرّبته بأمر وقع لي من أمور الدنيا، كنت أتوقع الهلاك منه، فتوجهت من بيت المقدس إلى بلد سيدنا الخليل عليه السلام في ضرورة اقتضت سفري فلما دخلت مسجده r دخلت إلى الضريح المشهور أنه قبر إبراهيم عليه السلام وتعلقت بأستاره، ودعوت الله تعالى، فما كان بأسرع من أن فرج الله عني كربتي ولطف بي وأزال عني ما أزعجني فله الفضل سبحانه. تم: [من الكامل]

الشوقُ حادٍ والغرامُ مقيمُ — والحبُّ بادٍ والفؤادُ يهيمُ

فليَ البشارةُ إن حللتُ بروضةٍ — فيها خليلُ الله إبراهيمُ

[الخميس ٢/ ١٢/ ١١٤٣ هـ]

ففي ضحوة يوم الخميس ثاني الأيام، من ذي الحجة شهراً من الحرام، ثنيت لزيارته عنان العزم، وبنيت همتي القاصرة على الجزم، فحدا بركابنا الحادي، وطفقت أطوي منشور ذلك الوادي، مع صحب من أعزّ الرفاق، ونحن سائرون على قدم الوفاق، نتدارس ما بيننا القرآن العظيم، فوصلنا عند دخول البلد إلى سورة إبراهيم، فما أحسن هذه الموافقة الظريفة والمناسبة الشريفة اللطيفة، فلاحت لنا تلك القباب، وأشرقت أنوار ساكني هاتيك الرحاب، وفاح لنا من عرْفها عبير الشَّمول، وبشَّرنا حادي الركب بالوصول [من الوافر]

جعلت الشوقَ في سَيري دليلاً — فأوْصَلني بمسراه الخليلا

وأشهدني به حرماً أميناً — جَليلاً في مظاهره جَميلا

سنا الأنوار تبدو من حماه — فتَهدي الزائرين له سبيلا

[٣٥/ب] بمنهله يروي كل ظامٍ — ويلقى عنده خيراً جزيلا

---

(١) هذا القول في الأنس الجليل ٥٦/١.

إذا مـــا الوافـــدون أتَـــوْا إليـــه أصـــابوا بـــالحمى ظـــلاً ظلـــيلا

فعندما وصلنا إلى الحرم، وشاهدنا الجناب المحترم، وقفنا على قدم الآداب، مقبِّلين ثرى تلك الأعتاب، فتذكرت أبياتاً لبعض أمراء الكلام، يليق إنشادها في هذا المقام: [من الطويل]

وقفنا بأقـــدام الرعايـــة والهـــوى على المقصد الأسنى فلاح لنا السنا

عشونا إليه كـــالفراش وكيـــف لا تحنُّ له الأرواح وهو لنـــا المنـــى

وحين رأينا النور طاشت عقولنـــا وصرنا إلى حـــال يلـــذّ لنـــا الفنـــا

قـــدمنا إليـــه باشـــتياق وذلـــة وفقـــرٍ وتـــسليم فجـــاد وأحـــسنا

ثم دخلت الحرم بالخضوع والانكسار، ساكباً على الخدين دموعي الغزار، بعدما توشحت بالآداب، المطلوبة لزوار هذا الجناب.

وابتدأت بزيارة السيد الخليل عليه السلام، ثم بزوجته السيدة سارة ذات الاحترام، ثم بابنه السيد إسحاق الغيور، ثم بزوجته ربقة ذات الحبور، ثم بولده السيد يعقوب، ثم بزوجته السيدة ليقا، وقد لانت القلوب.

ثم انعطفنا إلى جهة الكريم ابن الكريم ابن الكريم، السيد يوسف الصديق ذي القلب الرحيم، ثم ما بدأنا به جعلناه ختاماً، وأهدينا الجميع صلاة وسلاماً، واستمدينا منهم عواطف الإمداد، وموانح الهداية والإسعاد، فنزيلهم حقاً لا يضام، وجارهم جدير بالإكرام، لأنهم أول من سنّ القرى للأضياف، وقابلوهم بحسن البشاشة والإسعاف، ولما سما سنا تلك القباب، وفاح عبيرها وطاب، وسرّ القلب بذلك المشهد، وقف الصبّ وأنشد: [من الكامل]

هذا الحمى لي طاب منه المـــشهدُ فيـــه ســـنا ســـر النبـــوة يـــشهدُ

لاحت ضيا الأنـــوار مـــن أرجائـــه فكأنمـــــا هـــــو كوكـــــب يتوقـــــدُ

وبـــدا العبيـــر بعرفـــه متـــضوعاً نشر الكبا[1] مـــن طيبـــه يتـــصعدُ

---

(١) الكباء: ممدود، ضرب من العود المتبخر به (اللسان: كبا).

ما مسك دارين[١] العتيق وعطره ... عطراً إذا فاح الشذى المتصعدُ

[٣٦/أ]يسمو به الغار الشريف كأنه ... فلكٌ به كم لاح فيه فرقدُ

فيه الشموس مع البدور تقابلت ... ما مشهدٌ إلا ثناه مشهدُ

إسحاق يعقوب الخليل نساؤهم ... ليقا وربقا سارة إذ تشهدُ

ومشاهدٌ منها الجمال مشاهدٌ ... والحس يقضي والشواهد تشهدُ

بشرى لمن قصد الرحاب وزاره ... نعم الرحاب ونعم ذات المقصدُ

فله بغفران الذنوب بشارةٌ ... عظمى بها جاء الحديثُ المسندُ

فاركب لطرف العزم منك عزيمةٌ ... نحو الحمى فلك البوارق ترشدُ

وإذا وصلت لسوح دوحة روضةٍ ... وبدت به أعلامه والمعهدُ

فانزل عن الأكوار والتثم الثرى ... وَرِدِ الحمى فلنعم ذاك الموردُ

وادخل إلى الحرم الأمين وطف به ... حيث المنى في سوحه يتجدَّدُ

تلقى به حادي السرور منادياً ... أقبِلْ لكَ البُشرى تُعَزُّ وتَسعدُ

فارقَ[٢] به فلك السعادة والعلا ... فعلى معارجه السعيدة يصعدُ

ما زلت أحدو سير عزم تشوّقي ... سير إلى أن لاح منه المشهدُ

وطفقت أنثر من كنوز نواظري ... درر المدامع لؤلؤاً يتنضَّدُ

وحظيت من ذاك المقام بزورة ... تردي أحاديث القبول وتُسندُ

ووقفت فيه خائفاً مترجِّياً ... حسن النوال على البديهة أُنشدُ

يا أيُّها المولى الخليل إغاثةً ... من هول دهرٍ بالحوادث يقصدُ

قصدي بهدي أولي الحقيقة أهتدي ... فيعوقني سوء الحظوظ ويقعدُ

والنفس تُبدي لي زخارف نصحها ... ولكم تُمَنِّي بالسلوك وتوعدُ

أرجو الخلاص ولات حين تخلصٍ ... وأنا بقيد أولي الهوى مُتقيِّدُ

---

(١) دارين ومسكها تقدم التعريف بهما.

(٢) في الأصل: (فارقى) وما أثبته للسياق النحوي.

أُمسي وأصبح في البطالــة رافــلاً والعمــر يفنـــى والــشبيبة تنفــدُ
فاسعف وجُد لي من عُلاك بلمحــةٍ فعسى على درج الهدايــة أصــعدُ
بمقام خلَّتِــك التــي قــد حزتهــا بتخصُّصٍ[1] فلأنت فيهــا المفــردُ
وبجاه إسحاق الغيور وصنوه اســـــ ـــــماعيل ذاك المفتدى والأسعدُ[2]
وكذاك يعقــوب الــصفيُّ ونجلــه فهو الكريمُ ابــنُ الكــريمِ الــسيِّدُ
[٣٦/ب]وبأحمد طه الأمين المجتبى فهو الذي يــوم المخــاوف يحمــدُ
كُن منجدي عنــد الحِمــام لعلنــي أحظى بحسن ختــام عيــدٍ يُــسعِدُ
رَوتِ الثقاتُ لنــا حــديث بــشارةٍ عن كعبِ الأحبار المتــرجم يــسندُ
مَــنْ زار مولانــا الخليــل فإنَّــه يأتيــه عنــد الاحتــضار ويــشهدُ
وكما روينــا فــي زيــارة أحمــدٍ من زار قبــري بالــشفاعة يُنْجِــدُ
فعليه صلَّى الله مــا بــرق الــضيا والآل مع صــحبٍ بهَــدْيٍ أيَّــدوا
وعليــــك والآل الكــــرام تحيــــة أبداً علــى طــول المــدى تتجــدَّدُ
ما لاح أنــوار الرحــاب وأنــشدت هذا الحمى لي كاب منــه المــشهدُ

ثم صلينا العصر، وانتظرنا مغربه، مشاهدين لتلك المقامات التي تبهر الأنوار مذهبه، وبتنا بالحرم ليلتنا مع رفيق وصديق، نتلو بقية الختم بين الخليل وولده يوسف الصديق، فيسَّر الله لنا بتمامه، وفاح عبير مسك ختامه، ووافتنا من شرح صدورنا أعظم بشارة، ما يشير بقبول تلك الزيارة، فيا لها من ليلة بلغت فيها المنى، أذكرتني ليالي طيبة ومنى: [من البسيط]

يا ليلــة أذكرتنــي طيبــةً ومنــى قد بتُّ فيها قريــر العــين ذا أثــرِ
نتيجة العمر إذ جاءت علــى قــدر صحَّ القياس بها ما الخُبْر كــالخَبَرِ

مبحث: دليلٌ حسن النظام في ذكر سيدنا الخليل وأولاده الكرام

(١) في الأصل: (بتخصيص) ولا يستقيم بها الوزن.

(٢) في الأصل: (ذاك المفدى الأسعد) وما أثبتناه كي يستقيم الوزن.

أما سيدنا إبراهيم، فهو الموصوف بالخلة والتعظيم، وأبو الأنبياء الأصفياء، وأحد أولي الأتقياء، عليهم الصلاة والتسليم، والجلالة والتكريم: [من الطويل]

من الرسل خمس هم أولو العـزم فُـضّلوا بصبرهم فاصبر على البأس تغـنـمِ

محمـدُ نـوحٌ والخليـل كليمُـهُ وخامس روح الله عيسى ابن مريمِ

أنزل الله على إبراهيم عشر صحف، وجعل له لسان صدق في الآخرين، أي: ثناء حسناً، فليس أحدٌ من الأمم إلا يحبّه، وأكرمه الله بالخلّة، وأكثر النبيين من ذريته وختم ذلك نبينا محمد r .

روي [عن] ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

أول من سمّانا مسلمين إبراهيم [٣٧/أ] عليه السلام.

وهو أول من ضرب بالسيف من الأنبياء وكسر الأصنام.

واختتن، ولبس السراويل والنعلين، ورفع يديه في الصلاة في كل خفض ورفع.

وصلى أول النهار أربع ركعات جعلهن على نفسه فسماه الله وفياً. فقال تعالى: **(وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى)** [النجم: ٣٧/٥٣].

وهو أول من أضاف الضيف، وثرد الثريد، وفرق الشعر، واستنجى بالماء، وقلّم الظفر، وقصّ الشارب، ونتف الإبط.

وأول من استاك، وتمضمض، واستنشق بالماء، وحلق العانة.

وأول من صافح وعانق وقبّل بين العينين موضع السجود.

وأول من شاب . فقال: ما هذا؟ فقال الله تعالى: وقاراً. فقال: اللهم زدني وقاراً، فما برح حتى ابيضّت لحيته. انتهى.

ومن رأفته بهذه الأمة ما روى عنه النبي r قال:

لقيت إبراهيم ليلة أسري بي. فقال: مرحباً بالنبي الأُمي الذي بلَّغ رسالة ربّه ونصح الأمة، يا نبي الله إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفهم فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلّها في أمتك فافعل.

- وفي رواية: فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

- وفي رواية: فرأيت إبراهيم فرحّب وسهّل بي، ثم قال: مُرْ أمتكَ فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة، فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى.

والصحف المذكورة كانت أمثالاً ومواعظ منها:

أيها الملك المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ دعوة المظلوم، فإني لا أردها، وإن كانت من كافر.

ومنها:

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه ويفكر في صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدّم وأخَّر، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال من المطعوم [٣٧/ب] والمشروب وغيرها.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه، ومن علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه. انتهى.

وابتلاه الله بعشر كلمات فأتمهن أي أدّاهن تامات، وقام بها حق القيام واختلف في الكلمات، فقال عكرمة عن ابن عباس: هي ثلاثون[(١)] من شرائع الإسلام:

عشر[(٢)] في براءة **﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ﴾** [التوبة: ٩/١١٢] إلى آخره.

وعشر في (الأحزاب): **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾** [الأحزاب: ٣٣/٣٥] إلى آخرها.

وعشر في (المؤمنون) إلى قوله: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾** [المؤمنون: ٢٣/٩].

---

(١) في الأصل : (عشر ثلاثون) مضروباً على (عشر).

(٢) في الأصل : (عشرة) وما هنا للسياق.

وفي (سأل) إلى قوله: **(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ)** [المعارج: ٧٠/٣٣].

وقال طاوس، عن ابن عباس: ابتلاه الله بعشرة أشياء وهي:

الفطرة خمس في الوجه: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس.

وخمس في الجسد: تقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان والاستنجاء بالماء. انتهى.

فكانت سنة حنيفية في الملة السمحة المحمدية.[من الطويل]

وسنّ خليلُ الله للناس عشرة ... وبالشرعة الغرا تسامت بفطرة

سواك ختان، ثم نتف لإبطه ... وتاسعة استنجا فحلق لعانة

وتقليم أظفار وقص لشارب ... ومضمضة استنشاق تفريق جمة

بتلك ابتلاه الله مختبراً بها ... وذلك نص الذكر ثاني سورة

فلا تك عن نهج الخليل مقصراً ... وكن ناهجاً فيها بحسن طريقة

قال الخطيب: وفي الخبر أن إبراهيم أول من قص الشارب، وأول من اختتن، وأول من قص الأظفار، وأول من رأى الشيب فقال: يا ربّ ما هذا؟ قال: الوقار. قال: يا رب زدني وقاراً.

وقال قتادة:

هي مناسك الحج أي فرائضه وسننه كالطواف والسعي والإحرام والتعريف وغيرهن.

وقال الحسن:

ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لايزول.

وبالنار فصبر عليها.

وقال مجاهد:

الآيات التي بعدها في قوله تعالى: **(إِنِّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً)** [البقرة: ٢/١٢٤] إلى آخر القصة [٣٨/أ] . انتهى.

عاش إبراهيم مئة وخمساً وسبعين سنة، وقيل: مئة وتسعين، وقيل: مئتين من السنين، ولم يمت r حتى بعث الله ولده إسحاق إلى أرض الشام، ويعقوب إلى أرض كنعان، وإسماعيل إلى جرهم، ولوطاً ابن أخته إلى سدوم، فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وأما إسماعيل الذبيح عليه الصلاة السلام فقد روي أن إبراهيم الخليل لما سار إلى مصر ومعه زوجته سارة وهبها فرعون مصر هاجر، قدم إلى الشام وأقام بين الرملة وإيلياء، وكانت سارة لا تحبل، فوهبت هاجر لإبراهيم، فواقعها فولدت إسماعيل عليه السلام. وكان عمر إبراهيم إذ ذاك ستاً وثمانين سنة، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله تعالى إسحاق كما سيأتي، ثم غارت سارة من هاجر وابنها، وطلبت من إبراهيم أن يخرجها عنها، فسار بها إلى الحجاز، وتركها بمكة بإذن الله تعالى، وليس يومئذ بمكة أحد، ولا بها ماء، فوضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفا إبراهيم عليه السلام منطلقاً، فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء. وقالت له ذلك مراراً، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ فقال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا الله.

ثم رجع فانطلق إبراهيم عيه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل القبلة بوجهه، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال:

رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.

وقد تقبل الله دعاءه، وحقق رجاءه.. انتهى. إلى آخر ما كان من ظهور زمزم وبناء الكعبة الشريفة وقصة الذبيح، كما هو مفصل في كتب التفسير والسير بأفصح إشارة وأوضح عبارة.

واختلف في أيهما الذبيح: إسماعيل أم إسحاق؟

فالأول: قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، ومجاهد.

والثاني: قول علي، وابن مسعود، ومقاتل، وقتادة، [٣٨/ب] وعكرمة، والسدي.

فمن قال بالأول قال: إن موضع الذبح بمنى.

ومن قال بالثاني قال موضع الذبح بالشام، على ميلين من إيلياء.

وزعم اليهود أنه كان على صخرة ببيت المقدس.

قال القرطبي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أيُّ ابْنَي إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم - معاشر العرب - على أن يكون أباكم هو الذي أمر الله بذبحه ويزعمون أنه إسحاق أبوهم.

عاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة ومات بمكة، ودفن عند قبر هاجر بالحجر. وكانت وفاته بعد وفاة أبيه إبراهيم بثمان وأربعين سنة تمام. عليه وعلى أبيه الصلاة والسلام.

[إسحاق بن إبراهيم]

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم خليل الرحمن، حملت به في ليلة خسف الله بقوم لوط.

روي أن الله تعالى لما أراد هلاك قوم لوط أمر رسله من الملائكة أن ينزلوا بإبراهيم فيبشروه وسارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت سارة وقالت: **(يا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنا عَجُوزٌ وَهَذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)** [هود: ٧٢/١١]، وكان سن إبراهيم إذ ذاك مئة وعشرين سنة، وعمر سارة تسعين سنة. فقالت الملائكة: **(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)** [هود: ٧٣/١١].

ومن ولد إسحاق الروم، واليونان، والأرمن، ومن يجري مجراهم، وبنو إسرائيل.

عاش إسحاق مئة وثمانين سنة. ومات بالأرض المقدسة، ودفن عند أبيه إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

[يعقوب عليه السلام]

وأما يعقوب فهو ابن إسحاق بن إبراهيم، نبيٌّ ابنُ نبيٍّ ابن نبيٍّ، وهو الذي يُسمّى إسرائيل. قيل معناه: صفوة الله، مولده وعمر إسحاق ستون سنة.

وقد روي أن والده إسحاق عليهما الصلاة والسلام، أوصى إليه أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأن ينكح من بنات خاله.

وكان مسكن يعقوب القدس، فتوجَّه إلى خاله، فأدركه الليل في بعض الطريق وبات متوسداً حجراً، فرأى فيما يرى النائم أن سُلَّماً منصوباً إلى بابٍ من أبواب السماء عند رأسه، والملائكة تنزل عليه، وتعرج منه، فأوحى الله إليه أني إلهك وإله آبائك [٣٩/أ] إبراهيم وإسحاق، وقد وَرَّثْتُك هذه الأرض المقدسة لك ولذريتك من بعدك، وباركتُ فيكَ وفيهم، وجعلت لكم الكتاب والحكم والنبوة، ثم إني معك أحفظك حتى أردّك إلى هذا المكان. فاجعله بيتاً تعبدني فيه أنتَ وذريتك، فهو بيت المقدس . انتهى.

[أول مسجد وضع في الأرض]

وقد تأوّل بعض العلماء معنى حديث أبي ذَرٍّ حين قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى. قال: أربعون سنة على بناء يعقوب المذكور بعد بناء إبراهيم الكعبة الشريفة، فيكون ر، وزبلون[١]، ويوسف، وبنيامين، ودان[٢]، ونفتالي[٣]، وكاد[٤]، وأشير[٥]. وسمّوا الأسباط، لأنه ولد لكل منهم جماعة.

---

(١) في الأصل (ريلون) وما هنا عن المحبر.

(٢) في المحبر (دينا).

(٣) في المحبر : (نفثالي).

(٤) في المحبر : (جاد).

(٥) في م : (أبشر) وما هنا عن المحبر.

عاش يعقوب مئة وسبعاً وأربعين سنة. ومات بمصر، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة، ويدفن عند أبيه وجدّه، فحمله ابنه يوسف إلى حبرون ودفن عند أبيه إسحاق، وقبره بحذاء قبر إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، من جهة الشمال بداخل الغار، كما روت بذلك الأخبار.

[يوسف الصديق عليه السلام]

وأما[١] يوسف الصديق فهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فهو نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله[٢]، وخليله صلوات الله عليهم أجمعين.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن سئل رسول الله r مَنْ أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله. قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله.

في رواية قال: قال رسول الله r : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، ثم جاءني الداعي لأجبت[٣].انتهى.

ولد يوسف [٣٩/ب] وعمر يعقوب إحدى[٤] وتسعين سنة، وفارق أباه وعمره ثماني عشرة[٥] سنة، وبقيا متفرّقين إحدى[٦] وعشرين سنة.

وكان سبب افتراقهما واجتماعهما ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز.

وقد أُعطي يوسف شطر الحسن، فكان إذا سار في أزقَّة مصر يتلألأ نور وجهه على الجدران، وأما حليته عليه الصلاة والسلام فكان أبيض اللون، حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، غليظ الساعدين

---

(١) الأنس الجليل ١/٩٦ - ٩٧.
(٢) ليست (نبي الله) الرابعة في الأنس الجليل.
(٣) هذه رواية الأنس الجليل وفيها: (لأجبته).
(٤) في م : (أحد وتسعون) وما هنا للسياق النحوي.
(٥) في م : (ثمانية عشر سنة) وما هنا للسياق النحوي.
(٦) في م : (أحد وعشرين) وما هنا للسياق النحوي.

والعضدين والساقين، أقنى[١] الأنف صغير السُّرة[٢]، بخده الأيمن خالٌ أسود، وكان ذلك الخال يزين وجهه، وبين عينيه شامة تزيده حسناً، كأنه القمر ليلة البدر. وكان إذا تبسم رأيت النور يبدو من ضواحكه، وإذا تكلّم رأيت شعاع النور يتفور[٣] من بين ثناياه r.

وكان عمره لما تُوفّي والده يعقوب ستاً وخمسين سنة، فلما دفنه عند أبيه كما تقدم عاد يوسف إلى مصر.

وتوفي يوسف وعمره مئة وعشرون سنة. ونزل عليه جبريل أربع مرات. ولما توفي بمصر دفن بها. حتى كان زمان موسى، عليه الصلاة والسلام.

فبينه وبين موسى أربع مئة سنة.

روي أنه لما سار موسى من مصر ببني إسرائيل إلى التيه أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن احمل يوسف إلى بيت المقدس عند إيابه، فلم يدر أين هو، فسأل بني إسرائيل فلم يعرف أحد منهم أين هو. فقال له شيخ عُمِّر ثلاث مئة سنة: يا نبيَّ الله، ما يعرف قبر يوسف إلا والدتي. قال: قم معي إلى والدتك، فقام معه ودخل منزله، فأتاه بقفَّة فيها والدته. فقال لها موسى عليه السلام: ألك علم بقبر يوسف؟ قالت: نعم، أدلّك عليه على أن تدعو الله أن يردّ لي شبابي إلى سبع[٤] عشرة سنة، ويزيد في عمري مثل ما مضى، فدعا الله موسى لها. وقال لها: كم عشتِ؟ قالت: تسع مئة سنة، فعاشت ألفاً وثمان مئة سنة، وأرته قبر يوسف عليه السلام، وكان في وسط نيل مصر في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاجر عليه الناس، كلٌّ يحبُّ أن يدفنه في محلّته، لما يرجو[٤٠/أ] من بركته عليه السلام، فاجتمعوا على ذلك، حتت

---

(١) أقنى الأنف: القَنا: ارتفاع في أعلى الأنف من غير قبح (اللسان: قنا).

(٢) في م : (الصرة).

(٣) في الأنس الجليل ٦٨/١ (يثور).

(٤) في الأصل:(سبعة) وهو خطأ، والمثبت للسياق النحوي.

هموا أن يقتتلوا، فرأوا أن يدفن في النيل، فيمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر، فيكونوا كلهم شركاء في بركته، ففعلوا ذلك، فلما علم موسى مكانه أخرجه منه، وهو في التابوت، فحمله على عَجَلٍ حديد إلى بيت المقدس.

وقبره بالبقيع خلف الحيّز السليماني حذاء قبر يعقوب، وجوار جَدَّيْه إبراهيم وإسحاق عليهم السلام. انتهى.

وبما تقدم وبما سيأتي من قصة العيص علم بالتواتر أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم من داخل الغار، وأن يوسف خارج الغار، كما روى الخلف عن السلف.

وقد قال مالك بن أنس رضي الله عنه: إن نقل الخلف عن السلف أصحّ الحديث، لأن الحديث ربما يقع فيه الخطأ والنقل، لا يقع فيه خطأ ولا يطعن في ذلك إلا صاحب بدعة مخالف. انتهى.

ويؤيد ذلك ما رواه ابن عساكر في قصة أبي بكر الإسكافي والصعلوك، وبما رواه الحسن بن عبد الواحد، عن أبي زرعة قاضي فلسطين، وبالحرم من المهابة والجلال ما يحقق صدق هذه الأقوال: [من الكامل]

حرمُ الخليلِ من المهابةِ قد كُسي	**أعظم به حرماً شريفاً أقْدَسِ**[١]
سرُّ النبوة لاح من أستاره	**وسما علا فوق الأثير الأطلسِ**
إذ حله الرسل الكرام وأهلهم	**سبعاً رقوا هام الجواد المكنسِ**
فبِسرِّهم ضاء الوجود ونورهم	**كالسبع إلا أنه لم يُطْمَسِ**
يعقوبُ إسحاقُ الخليلُ ويوسفٌ	**ليقا وربقا سارة المستأنسِ**
من حانة التقديس فيه سلافةٌ	**تُنْشي النفوسَ فما سلافُ الأكؤسِ**
فاسْعَ[٢] **إلى أدنانها مُسْتَنشِقاً**	**عَرْفَ الكبا**[٣] **وكؤوس معناها**

---

(١) في م : (أقدسي) ، والياء للإشباع، وقد لحقت بأكثر ألفاظ قافية هذه القصيدة.

(٢) في م : (فاسعي .. * ... فاحتسي).

(٣) الكبا هو العود المتبخَّر به (اللسان: كبا).

كي تحتظي بمعارفٍ وعوارفٍ وبحلة العز المؤثّل تكتسي

وبطور سينا القربُ لاحت جذوةٌ أقبل كموسى لا تخف واستأنسِ

واخلَعْ لنَعْلَيْكَ اللَّذين[1] يعوقا نِ عن المسير إلى الرحاب الأقدسِ

وادخُلْ إلى الحرم الأنيس وطف به واشهد لكعبة حسن ذاك المجلسِ

ثم اقتبس نورَ الهداية راقياً فلك العلا بمعارج من سندسِ

[٤٠/ب] ولك البشارة من {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} بزيارةٍ فيها حياةُ الأنفسِ

فيها احتظى وحوى المسرّة أسعدٌ بقبولها حلل العناية قد كُسي

يهدي الصلاة مع السلام تحيةً منه لسكان المغار الأنفسِ

وليوسف الصديق لوط المجتبى والعيص مع موسى الكليم ويونسِ

وكذا لداود المنيب ونجله والأنبياء الطاهرين القدسي

ما لاح بالأفلاك نجمٌ زاهر يهدي حُداة العيس جُنْح الحُنْدِس[2]

حسبي فقد وافيتهم مُتَرجّياً حسن الختام بسُوح بيتِ المقدِسِ

[لوط عليه السلام بكفر بريك]

ولما ارتفعت الشمس، وقرّت بمأمولها النفس[3]؛ وصليت الضحى بذلك المقام، سارعت لزيارة سيدنا لوط عليه السلام، وهو بقرية كفر بريك[4] بعيدة عن الخليل نحو فرسخ، والآن مسماة بقرية بني نُعَيم، والثاني للأول ينسخ؛

---

(١) في م: (الذين) وهو خطأ في الخط دون المعنى.

(٢) في م : (الحندسي). والحندس: الليل الشديد الظلمة. وجُنح الليل: جانبه، وقيل: أوله، وقيل: قطعة منه نحو النصف (اللسان: جنح، وحندس).

(٣) هذه العبارة مكررة في م.

(٤) قال النابلسي: «كفر بريك»: بفتح الكاف، وسكون الفاء، وفتح الباء الموحدة، بعدها راء مكسورة، ثم ياء مثناة تحتية، آخره كاف، والآن - أي زمن النابلسي - يقال لها: قرية بني نُعيم بالتصغير، (الحضرة الأنسية ٢٨٦) وفي الهامش أنها تقع على بعد ثمانية كيلو مترات شرق الخليل.

فوردنا رحابه الوسيع، وشربنا من كأس مدده المريع؛ ومرغنا على أعتابه الخدود، وفاضت العين بدمعها الموجود.

وزرنا المغارة التي بصدد مسجده الجليل، وإن بها سبعين نبياً ورسولاً كما قيل؛ وما يلوح بها من لوائح الأنوار، تشهد بصحبته هذه الآثار: [من البسيط]

تلك المعاهد قد لاحت لوائحها	**وفاح لي من عبير الند فائحها**
تزهو بمضجع لوط والكرام بها	**مآثراً يبهج الزوار لائحُها**
تخالها لخلاها الزائرون لها	**رياضَ أنسٍ بها تشدو صوادحُها**
مشاهدٌ بلسان الحال ناطقةٌ	**أبدت نتائج يغني القولَ راجحُها**
وافيتُها نضو شوق أبتغي مدداً	**لعلّ تمنحني فيضاً وأمنحُها**
زيارتي أبتغي حسن الختام بها	**عند التمام كما طابت فواتحُها**
أهديهم صلة التسليم أجمعهم	**ما إن شدا برياض القدس مادحُها**

[ترجمته عليه السلام]

ولوط[١] عليه السلام، هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، كان يحبّه عمُّه حباً شديداً، وكان ممن آمن بعمِّه، وهاجر معه إلى مصر، وعاد إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سدوم[٢]، وكانوا أهل كفر وفاحشة كما [٤١/أ] هو في القرآن العزيز، فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله تعالى. وكانت قراها خمس مدائن فيها

---

(١) انظر ترجمة سيدنا لوط عليه السلام في تاريخ دمشق - طبعة مجمع دمشق - ٦٠/ ٢٦-٢٨، ومختصر ابن منظور لتاريخ دمشق ٢/٢٣٦-٢٤٢، ونهاية الأرب ١٣/١٢٣- ١٢٧، والبداية والنهاية - دار ابن كثير ١/٢٥٨-٢٦٧، وفي الأنس الجليل ١/٧٠-٧٢.

(٢) سدوم - فَعول من السَّدَم وهو الندم مع الغم، وقيل: هي سذوم - بالذال المعجمة - وتكون على ذلك أعجمية وهي مدينة من مدائن قوم لوط (معجم البلدان).

أربع مئة ألف، وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع جبريل المدائنَ كلَّها حتى سمع أهل السماء صياحَ الديكة ونباحَ الكلاب، فلم يكف لهم آنية ولم ينتبه لهم نائم، فجعل أعاليها أسافلها. انتهى.

[مسجد اليقين]

ثم توجَّهتُ إلى مسجد اليقين[١]، وبه مرقد الخليل على اليقين.

قال صاحب الأنس الجليل[٢]:

وعلى فرسخٍ من حَبْرون[٣] جبل صغير مشرف على بُحيرة زُغَر[٤] موضع قريات لوط، ومن ثم مسجد [بناه أبو بكر محمد بن إسماعيل الصياحي] فيه مرقدُ إبراهيم عليه السلام، وغاص في الحجر نحواً من ذراع. يقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام لما رأى قريات لوط [وهي طائرة] في الهواء رق. ثم قال: أشهد أنّ [لا إله إلا الله وأن] هذا هو حق اليقين. فلذا سُمّي [ذلك المسجد] بمسجد اليقين، [وكان بناء المسجد في شهر شعبان من سنة اثنين وخمسين وثلاث مئة].

---

(١) الحقيقة والمجاز ٣٥٩/١ - ٣٦٠، والحضرة الأنسية ٢٨٤.

(٢) الأنس الجليل ٧٢/١، والزيادة عنه.

(٣) حَبْرون هو الاسم العبري لمدينة خليل الرحمن، ويقال لها حَبْرى أيضاً، وهي مركز ناحية في لواء القدس، من فلسطين، تقع على علو ٨٥٠ متراً فوق سطح البحر في واد ضيق (المعجم الجغرافي - للدولة العثمانية ٢٥٨ - ٢٥٩) (وانظر معجم البلدان: حبرون).

(٤) زُغَر: بضم الزاي، وفتح العين المعجمة، وبالراء ، كزُفَر، وهي في غور الأردن في وادٍ وخمٍ ردي، في أشأم بقعة، بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام باتجاه الحجاز (معجم البلدان: زغر، والحقيقة والمجاز ٣٩١/١).

[قبر فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب]

وبظاهر المسجد المذكور مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، مكتوب عند قبرها بالكوفي[١]: [من البسيط]

أسكنتُ مَنْ كان في الأحشاء مَسكنُهُ　　بالرَّغم منّيَ بين التُّــربِ والحجــرِ

أفديكِ فاطمةً بنــتَ ابــنِ فاطمــةٍ　　بنتَ الأئمّةِ بنــتَ الأنجــمِ الزُّهــرِ

[بنو تميم الداري وإقطاعهم]

وحولَ مسجد اليقين، قبور قوم صالحين؛ يغني عن تفصيل شرحها، ما يشرق من ضياء سفحها، وقفت بأعتابهم، ولُذتُ بجنابهم؛

وقد أكرمنا الشيخ صبيح التميمي الداري غاية الإكرام، وهو متشرف بخدمة سيدنا لوط عليه السلام؛ وهو من ذرية تميم الداري الصحابي المشهور، الذي وصفه في الكتب المعتمدة مذكور؛ أسلم سنة تسع من الهجرة لما قدم هو وإخوته على النبي r المدينة وسألوا المصطفى أن يقطعهم أرضاً من الشام، فأقطعهم حَبْرون وما حولها، وكتب لهم ذلك في قطعة أديم من خُفّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وصورته[٢]:

* بسم الله الرحمن الرحيم *

هذا ما أنطى[٣] محمد رسول الله r لتميم الداري وإخوته: حَبْرون، والمرطوم[٤]، وبيت عينون، وبيت إبراهيم، وما فيهن نطيّة بتٍّ بذممهم، ونفّذت وسُلّمت ذلك لهم ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله، فمن آذاهم لعنه الله.

---

(١) في أنس الجليل: (وعند قبرها رخامة مكتوب عليها بالكوفي: أسكنت البيتين).

(٢) كتاب النبي r في أنس الجليل ٨٢/٢، والتحفة الرضية ٢٧٦ - ٢٧٧ مروياً عن المستنجد وبخطه الذي نقله من نسخة الكتاب الأصلي بخف الإمام علي.

(٣) أنطى لغة في أعطيت وتسمى الاستنطاء ويجعلون فيها العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء. وعلى هذه اللغة قرئ شذوذاً (إنا أنطيناك الكوثر) (اللسان: نطا، وتاريخ آداب العرب للرافعي ١٤٢/١).

(٤) في التحف الرضية: (المرطون) ولم أهتد إلى صوابها.

شهد عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان.

وكتبه علي بن أبي طالب وشهد.

[١٤/ب] وهذا الإقطاع مستمر بيد ذرية تميم، يأكلونه إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد الخليل ونواحيها، وهم طائفة كثيرة، يقال لهم الدارية، وهذا ببركة النبي r .

[ترجمة تميم الداري][1]

وتميم الداري رضي الله عنه كان كثير التهجد، يختم القرآن في ركعة، فنام ليلة لم يقم فيها، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع، صلَّى ليلة بـــ **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ)** [الجاثية: ٢١/٤٥]، وجعل يرددها، ويبكي حتى أصبح.

وعن صفوان بن سليم أنه قال:

قام تميم الداري في المسجد بعد أن صلى العشاء، فمرّ بهذه الآية **(وَهُمْ فِيها كالِحُونَ)** [المؤمنون: ١٠٤/٢٣] فما خرج منها حتى سمع أذان الصبح.

واشترى حلة بألف كان يقوم فيها الليل.

ولقد قال عمر t لبعض من قدم: اذهب وانزل على خير أهل المدينة، فنزل على تميم. قال: فبينما نتحدث إذ خرجت نار الحرة فجاء عمر t إلى تميم. فقال: يا تميم اخرج، فصفر نفسه ثم قام، فحاشها، حتى أدخلها الباب الذي خرج منه، ثم اقتحم في إثرها، ثم خرج، فلم تضره.

وهو أول من قصَّ في المسجد بإذن عمر t .

وأول من أسرج المساجد.

وقد روي المصطفى r عنه حديث الجسّاسة[2]، وتلك منقبة شريفة، لم يشاركه فيها غيره، وهي من رواية الأكابر عن الأصاغر.

---

(١) ترجمة تميم الداري في الاستيعاب ٥٨/٢، وتاريخ دمشق - المجمع - ٤٤٦/١٠، وأسد الغابة ٢٢٦/١، وسير أعلام النبلاء ٤٤٢/٢، وتهذيب التهذيب ٥١١/١، والإصابة ٣٠٤/١.

(٢) الجسّاسة: الدابة التي رآها تميم الداري في جزيرة البحر وإنما سميت بذلك لأنها تجسّ الأخبار للدجال (النهاية في غريب الحديث: جسس).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه[1]، عن بنت قيس، قالت:

سمعت منادي رسول الله r ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، فصلَّيت مع رسول الله r فلما قضى صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال:

ليلزم كل إنسان مُصَلاه. ثم قال: هل تدرون لم جمعتكم؟ لم أجمعكم لرهبة ولا رغبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً[2] الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء وأسلم، وحدثني حديثاً، وافق[3] الذي كنت أحدثكم به عن المسيح الدجال، حدثني أنه ركب البحر في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْمٍ وجُذامٍ، فلعب بهم المَوْجُ شهراً في البحر فأَرْفَؤوا[4] إلى جزيرة - أي قاربوها - حين مغرب[5] الشمس، فجلسوا في أَقْرُب[6] السفينة - بضم الراء: جمع قارب بكسرها، سفينة صغيرة، يقال لها سنبوك.

فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب[7] - كثيرة الشعر - وهو تفسير لما قبله [٤٢/أ] لا يدرون ما قُبُلُه[8] من دُبُرِه من كثرة الشعر.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم (باب قصة الجساسة) (٧٣٨٦ (٢٩٤٢) وثمة خلاف بينهما في الرواية والزيادة عنه).

(٢) في م : (تميم) والمثبت عن صحيح مسلم.

(٣) في م : (حديثاً وأقول الذي) وما هنا عن صحيح مسلم.

(٤) في م : (فأرشو) تحريف صححته عن مسلم. وأرفأت السفينة إذا قربتها من الشط، والموضع الذي تشدّ فيه: المَرْفأ ، وبعضهم يقول: أرفينا بالياء، والأصل الهمز (النهاية في غريب الحديث: رفأ).

(٥) في م : (حتى تغرب) وما هنا عن الصحيح.

(٦) في م : (قُرب) والمثبت عن الصحيح، والأَقْرُب هي سفن صغار تكون مع السفن الكبار البحرية كالجنائب لها، واحدها قارب، وجمعها قوارب، فأما أقرب فغير معروف في جمع قارب إلا أن تكون على غير قياس. وقيل: أقرب السفينة أدانيها أي ما قارب إلى الأرض منها (النهاية: قرب).

(٧) انظر النهاية في غريب الحديث: (هلب).

(٨) قبال كل شيء وقُبُلُه: أوله وما استقبلك منه (النهاية: قبل).

قالوا: ويلكِ ما أنتِ ؟

قالت: أنا الجسّاسة.

(قالوا: وما الجسّاسةُ ؟

قالت: أيها القوم)[١] سميت بذلك لتجسسي الأخبار للدجال، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لَمَّا سَمَّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها[٢] أن تكونَ شيطانة.

(قال): فانطلقنا سِراعاً، حتى دخلنا الديرَ، فإذا فيه أعظمُ إنسان رأيناه[٣] قَطُّ (خَلْقاً)، وأشدَّه وثاقاً، مجموعةً يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد.

قلنا: ويلك ما[٤] أنتَ ؟

قال: قد قدرتُم على خبري. (فأخبروني) ما أنتم ؟

قالوا: نحن أناسٌ من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، (فصادفنا البحر حين اغتلم[٥])، فلعب بنا الموج شهراً، (ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقْرُبها)، فدخلنا الجزيرة، فلقينا دابةً أهْلَبَ (كثير الشعر، لا ندري ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر فقلنا: ويلك ما أنتِ ؟).

فقالت: أنا الجساسة !!

(قلنا: وما الجساسة ؟

قالت: اعمدوا إلى هذا (الرجل في) الدير.

فأقبلنا إليك سراعاً، (وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة،

فقال: أخبروني عن نخل بيسان ؟

---

(١) في الأصل:(سميت الجساسة لتجسسها)

(٢) في م : (منه) وما هنا عن صحيح مسلم.

(٣) م : (ما رأيناه).

(٤) في م : (من أنت) والمثبت عن الصحيح.

(٥) اغتلم أي هاج، واضطربت أمواجه (النهاية: غلم).

قلنا: (عن أي شأنها تستخبر ؟

قال: أسألكم عن نخلها) هل يثمر[1]؟

قلنا (له) : نعم.

قال: أما إنها يوشك أن لا تثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة طبرية ؟

(قلنا: عن أي شأنها تستخبر ؟)

قال:) هل فيها ماء ؟

قالوا[2]: هي كثيرة الماء.

قال: أما إن ماءها يوشك[3] أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زُغَر ؟

(قالوا: عن أي شأنها تستخبر ؟

قال): هل في العين ماء ؟ وهل يزرعُ أهلها بماء العين ؟

قلنا (له): نعم، هي كثيرة (الماء)، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبيّ الأُمِّيين ما فعل ؟

قالوا[4]: قد خرج من مكة، ونزل يثرب.

قال: أقاتله العرب ؟

قلنا: نعم.

قال: كيف صنع بهم ؟

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

---

(١) في م : (تمثر) والمثبت عن صحيح مسلم.

(٢) في م : (قلنا)، والمثبت عن صحيح مسلم.

(٣) في م : (يشيك) وهو تحريف صححته عن مسلم.

(٤) في م : (قلنا خرج).

(قال: قال لهم: قد كان ذاك ؟

قلنا : نعم)

قال: أما إن ذاك[1] خير لهم أن يطيعوه، وإني مُخْبركم عني:

(إني) أنا المسيح الدجال، وإني أوشك[2] أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا أهبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما[3] مُحَرَّمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة (أو واحداً) منهما، استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صلتاً[4] يصدّني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قالت: قال رسول الله r وطعن بمخصرته[5] في المنبر:

هذه طيبة، هذه طيبة ، هذه طيبة ، يعني: المدينة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك.

فقال الناس: نعم. انتهى.

والنقب: الطريق بين الجبلين[6].

وسكن تميم بيت المقدس بعد قتل عثمان، ومات سنة أربعين، ودفن ببيت جبريل[7] من أرض فلسطين رضي الله عنه وعن كل الصحابة أجمعين.

---

(١) في م : (ذلك).

(٢) في م : (المسيخ الدجال يوشك).

(٣) في م : (هما محرمان).

(٤) صلتاً: أي مجرداً (النهاية: صلت).

(٥) المِخْصَرة: وهي ما يختصره الإنسان بيده، فيمسكه من عصاً ، أو عُكّازة ، أو مِقْرعة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه، (النهاية: حضر).

(٦) انظر اللسان: (نقب).

(٧) بيت جبريل سماها ياقوت (بيت جبرين) بالنون وقال: هي لغة فيه، وأضاف أنه بليد بين بيت المقدس وغزة، بينه وبين القدس مرحلتان، وبين غزة أقل من ذلك. فيه قلعة حصينة خرّبها صلاح الدين، وبينها وبين عسقلان واد يزعمون أنه وادي النملة التي خاطبت سليمان عليه السلام (معجم البلدان: بيت جبرين وجبرين، والمعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ١٨٣).

[شعر في تميم الداري] : [من الكامل]

[٤٢/ب] روَتِ الأُلى في مسند الآثار ... لمناقب خَصَّتْ تميمَ الداري

فالمصطفى عنه حديثاً قد روى ... يُعْزى إلى جسّاسة الأخبارِ

أنطاهُ أرضاً مع ذويه نَطيَّة ... بحمى الخليل لآخر الأعصارِ

والنارُ لما أُوهجَتْ في حرّةٍ ... وافى لها فأعادها للغارِ

بإجازة الفاروق ثم بمسجدٍ ... أضحى يقصّ مناقبَ الأبرارِ

واستَنَّ مبتدئاً سراج مساجد ... في الليل فهو مطالعُ الأنوارِ

كم ليلةٍ أمسى يردّد آيةً ... من ركعة في ظلمة الأسحار

وبطيبة الغراء طاب مقامه ... بالمصطفى والصحب والأنصار

فطوى بساط القرب عنها عندما ... سيف الرَّدى أردى شهيد الدارِ

وانحاز للقدس الشريف تحوّلاً ... واختاره عن سائر الأمصار

وأقام فيه للعبادة سالكاً ... نهج الهدى في فتية الأخبار

وببيت جبريل السنى ضريحه ... عبق الشذا من عرفه المعطار

فاقصد جناب رحابه وانزل به ... وارِو[١] الظما من بحره الزخّار

تلقَ[٢] شموس معارف وعوارفٍ ... لاحت له من صحبة المختارِ

لا زال مخضلّ الثرى عطر السنا ... سحَّت عليه رحمة الغفّار

[الفيوضات الإبراهيمية]

ثمّ رجعنا إلى الحرم بسرعة، حرصاً على إدراك صلاة الجمعة، فأدركنا الخطيب قبل صعود المنبر، والمؤذن على المنارة قائلاً: الله أكبر، فصلينا في ذلك المشهد العظيم، وحصل لنا من الأنس الحظ الجسيم، ولم نزل في تلك الرحاب

---

(١) في م : (اروي) بإثبات الياء.

(٢) في م : (تلقى) بإثبات الألف المقصورة.

إلى العصر معتكفين، نصلّي ونسلّم على جميع الأنبياء والمرسلين؛ فألهمتُ صلوات سنيّة، ووسمتها «بالفيوضات الإبراهيمية» فأحببت إيداعها ضمن هذه السطور، عسى أن تكون ذخيرة إلى يوم النشور، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي المواهب السنية، والصلاة على صاحب المراتب السنيّة،

وبعدُ فهذه صلاة قدسية، على الذوات الأقدسية؛ تُتْلى عقب الصلوات المرضية، تحصيلاً للأخلاق الرضية؛ يتحلى الظمآن من [٤٣/أ] كؤوسها الشهية، ويتملّى ذوو العرفان بشموسها البهية، وردت الإشارات الشريفة الربانية، من خزائن الغيوب الرحمانية بإبراز هذه الدُّرة النورانية، في الروضة الخليلية، ومقام الخلّة الإبراهيمية، فعليهم من فيوض الحضرة العلية، أو في صلاة وتسليمات زكية، تتوالى بفتوحات مكية، ونفحات خواتمها مسكية، ما سَرَتْ نسمةٌ يمانية مدنية.

اللهم صلِّ وسَلِّم على سيِّدنا ومولانا محمد صلاة وسلاماً توصلني بهما إلى أرفع مقام يُحْمَد.

وصلِّ وسَلِّم على سيِّدنا ومولانا آدم صلاة وسلاماً أقدُم بهما على الله أحسن مقدم.

وصلِّ وسَلِّم على سيِّدنا ومولانا شيث صلاة وسلاماً أسير بهما إلى الله السير الحثيث.

وصلِّ وسَلِّم على سيِّدنا ومولانا نوح صلاة وسلاماً يبتهج بهما القلب والسر والروح.

وصلِّ وسَلِّم على سيِّدنا ومولانا إبراهيم صلاة وسلاماً تكسوني بهما حلل التكريم والتعظيم.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إسماعيل صلاة وسلاماً تتحفني بهما بمظاهر التبجيل والتكميل.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إسحاق صلاة وسلاماً تورثني بهما في الفردوس أوفى استحقاق.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا العيص صلاة وسلاماً تخلّصني بهما من الأغيار أحسن تخليص.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يعقوب صلاة وسلاماً تكشف بهما عن بصيرتي أستار الغيوب.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يوسف الصديق صلاة وسلاماً تدخلني بهما ميادين التحقيق والتصديق.

[٤٣/ ب]وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا لوط صلاة وسلاماً تزيل بهما عن القلب اليأس والقنوط.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا موسى الكليم صلاة وسلاماً تشفي بهما القلب المُعَنّى الكليم.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا هارون صلاة وسلاماً توجب لي بهما الرحمة والغفران.

وصل وسلِّم على سيِّدنا ومولانا شعيب صلاة وسلاماً تنهلني بهما عن موارد الغيب.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إدريس صلاة وسلاماً ترفعني بهما إلى مقام التقديس.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا أيوب صلاة وسلاماً تجلي بهما عنا غمام الهموم والكروب.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يونس صلاة وسلاماً وتجعلهما في القلب يؤنس.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا عيسى صلاة وسلاماً أجد بهما بطور قلبي أنيسا.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا داود صلاة وسلاماً تورثني بهما كل خلق محمود.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا سليمان صلاة وسلاماً تشهدني بهما مقام الإيمان والإحسان.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إلياس صلاة وسلاماً تحفظ بهما علي الأوقات والأنفاس.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا صالح صلاة وسلاماً يلوح بهما بمرآة قلبي اللوائح.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا هود صلاة وسلاماً [٤٤/أ] توردني موارد الشهود.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يوشع صلاة وسلاماً بهما غيم الران عن القلب يتقشّع.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إليسع صلاة وسلاماً تجعل بهما القلب للحق مُتَّسع.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا ذي الكفل صلاة وسلاماً يكون بهما[١] لخلاصي أوثق كفل.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا العزير صلاة وسلاماً تكشف بهما عني كل هم وضير.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا أشماويل صلاة وسلاماً توضح لي بهما أسرار التنزيل والتأويل.

---

(١) في م : (بها) وهو تحريف.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا زكريا صلاة وسلاماً تسقني بهما من الحب كأساً رويا.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يحيى صلاة وسلاماً تسعدني بهما بها مماتاً ومحيا.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا شعيا صلاة وسلاماً أسعى[١] بهما إلى الحق سعياً.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا أرْميا صلاة وسلاماً تفتح لي بهما البصيرة العميا.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا الخضر أبي العباس صلاة وسلاماً ترقيني بهمام دارج السعادة بتعدد الأنفاس.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا لقمان صلاة وسلاماً تخلع بهما عليّ خِلَعَ الأمان.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا طالوتا صلاة وسلاماً تمنحني بهما من المعارف قوتا.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا جرجيس صلاة وسلاماً وتحبوني بهما التطهير والتقديس.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا رابين صلاة وسلاماً يكونان سبباً للسعادة والتأمين.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا بنيامين صلاة وسلاماً تكشف بي عن الغيب العيان.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا روبيل صلاة وسلاماً تشهدني بهما معرفة الإجمال والتفضيل.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا(.....) صلاة وسلاماً يبرق لي بهما من أستار القرب بريق.

---

(١) قبل هذا اللفظ في م كلمة مشطوباً عليها.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا(......) صلاة وسلاماً ترفعني بهما إلى مراتب الأصفيا.

وصلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا يهودا صلاة وسلاماً توردني بهما المعهد المشهودا.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا شمعون الصفا صلاة وسلاماً تجعلني بهما من أهل الولاية والاصطفا.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا حزقيل صلاة وسلاماً أتحلَّى بهما بكل خلق حسن جميل.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا(.....) صلاة وسلاماً ترفعني بهما في المعارف تراقيا.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولاتنا مريم وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة وسلاماً أحوز بهما من السعادة أوفر مقسم.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا(.....) وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة وسلاماً يطمئن بهما القلب القاسي ويلين.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا جبريل صلاة وسلاماً [٤٥/أ] تكسوني بهما المهابة والتبجيل.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا ميكائيل صلاة وسلاماً تروي بهنا ظمأ فؤادي العليل.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا إسرافيل صلاة وسلاماً تحبوني بهما الشهادة إذا آن الرحيل.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا مالك صلاة وسلاماً تنجيني بهما في الدارين من نار المهالك.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا رضوان صلاة وسلاماً أحظى بهما في الفردوس بالرضوان.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا ومولانا بقية الملائكة والصحابة الكرام صلاة وسلاماً تمنحني بهما عند الوفاة حسن الختام.

[مشاهد وزيارات]

ثم بعد صلاة العصر مع الجماعة، قصدنا زيارة ما بالمشاهد لاسيما الولي ابن زُقّاعة(١)، وكذلك الجَعْبَري(٢)، والشيخ البَكّا(٣)، ومآثر عليها يُناح ويُبكي.

وزرنا الأربعين(٤) الشهداء بمغارة في الجبل، الذين كانوا شهدوا للخليل بشرى الغار، ولهم الملك ظلماً قتل.

وجلسنا تحت شجرة البطم، في غاية البسط والإيناس، وقد قيل: إن لها أربعةَ آلاف سنة من الغراس. وكم جلس تحتها من نبيٍّ ورسول، وولي جليل، سيّما(٥) أبو الأنبياء إبراهيم الخليل كما هو في الكتب مذكور، وعند أهل تلك الناحية مشهور.

---

(١) في م : (ابن رفاعة) وهو تحريف. وهو إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد بن عبد الله برهان الدين القرشي النوفلي الغزي الشافعي، ويعرف بابن زُقّاعة - بضم الزاي، وتشديد القاف، ثم مهملة، ومنهم من يجعل الزاي سيناً مهملة. ولد بغزة سنة ٧٤٥ هـ، ويتقن علوماً كثيرة. توفي سنة ٨١٦ وقيل ٨١٨ هـ، وله ديوان شعر مطبوع (الضوء اللامع ١٣٠/١، والمنهل الصافي ١٥٢/١).

(٢) هو إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجَعْبَري الشافعي، زاهد عالم عابد. ولد بجعبر سنة ٥٩٩ هـ. سمع الحديث من السخاوي وأخذ عن الكمال عبد الظاهر، وكان مقيماً بزاويته خارج باب النصر وبها دفن سنة ٦٨٧ هـ، وله نظم ونثر كثير (الوافي ٣٥٣/٥، وطبقات السبكي ١١٥/٨، وطبقات المناوي ٣٣/٢، والأنس الجليل ١٥٠/٢).

(٣) في الحقيقة والمجاز ٢٥٧/١ (علي البكار)، وما أثبته هو الأشبه وهو علي البكاء المقدسي، صوفي اشتهر بصلاحه وزهده، استوطن زاوية في الخليل. مات سنة ٦٧٠ هـ، ودفن بزاويته بقرب الخليل (طبقات المناوي ٤٩١/٢، ٢٧٤/٤، وأنس الجليل ١٤٩/٢).

(٤) انظر في مغارة الأربعين التحفة الرضية: ٢٩٠، ٢٩١.

(٥) كذا في الأصل ، والأصح (ولا سيما).

وزرنا بقربها في الجبل غار لقون، وفيه كما قيل جمع أنبياء ومرسلين[1].

ومررنا على عين سارة[2]، وعين قشقلة وشربنا من مائها المعين، وأطلقنا النظر في تلك المآثر التي هي بهجة للناظرين:[من البسيط]

تلك المآثر يجلو العـينَ مَنْظَرُهـا … فمن صَبَوْتُ إليها سـالفَ الـزمنِ

حتى بدت ولسانُ الحـال ينـشدني … بُشراك بشرى بهذا المنزل الحـسنِ

[صديق وشعر]

وبعد صلاة العصر بالحرم الشريف، دعانا إلى المبيت عنده ذو القدر [٤٥/ب] المنيف؛ الشيخ سليمان الذرو أحد خدّام ذلك المقام الكريم، وسامرنا تلك الليلة بسامرة[3] مع الإجلال والتكريم، وأتحفنا بكرامة عن الخليل وأولاده الكرام الأبرار، ولا يدع إذ هم بيت النبوة ومعدن الأسرار، فيا لها ليلة ما كان أهنأها، مع حسن ذلك السمر، وأويقات ما أحلاها لو لم يشنها القصر. [من البسيط]

يا طولَ ليلِ[4] الجفا إذ كنتُ أَسْهَرُهُ … وليلةَ الوَصْلِ مبناها على القـصرِ

فحالُ دهري على الإغراء منتصبٌ … كما علمت وهـذا مبتـدا خبـري

[السير إلى بيت المقدس]

فلما أن هزم الصبحُ جيشَ الليل، نادى أميرُ الركب: أسرعوا يا خيل؛ فودعنا ذلك المقام بالسلام، وقد وهج في الحشا الغرام، وسرنا في الحال مسرعين، ولبيت المقدس طالبين؛ فما زلنا نقطع المهامه، وكل واد أغبر،

---

(١) في م : (ومرسلون) والمثبت للسياق.

(٢) ذكرها النابلسي في التحفة الرضية / ٢٤٨.

(٣) انظر الإشارات في أماكن الزيارات للهروي ٢٤.

(٤) في م : (يا طول ليلة ...) ولا يستقيم الوزن بها.

مارّين على سيدنا يونس بحَلْحُول[١] والعيص بسعير[٢]، ومَتّى ببيت أمَّر، فقرأنا ما تيسّر من القرآن العظيم، وأهديناه لجنابهم السامي الكريم، وتوجهنا بجاههم لدى الملك العلاّم، أن يبلّغنا المنى وحسن الختام، ولم نتمكن من الولوج إلى رحابهم السامية، مخوفاً من قطاع الطرق الفئة الباغية، واعتذرنا لهم من عدم الوصول، والعذر عندهم لا شكَّ مقبول: [من الكامل]

عـذراً فمـــالي للحِمـــاء وصـــول	**من خوف أعرابٍ هنـــاك تـــصولُ**
سلكت على نهج الغوايـــة منهجـــاً	**وغـــدت بميـــدان الـــصيال تجـــولُ**
وقفت بأفواه الطريـــق فمـــن يـــرُمْ	**فيها الـــسلوكَ فمـــا إليـــه ســـبيلُ**
أضْحَتْ تصدّ الزائرين عن الحمـــى	**ولهـــم ظبـــاءُ أرهفـــت ونُـــصولُ**
منعت شهود مشاهد قد حلَّها الـــ	**ـــعيصُ النبيُّ ويـــونُس المرســـولُ**
ذو النون وهو المجتبى والمرتضى	**وبمدحـــه قـــد أنبـــأ التنزيـــلُ**
ناهيك دعوتـــه المجابـــة جرّبـــت	**وبهـــا لتفـــريج الكـــروب دليـــلُ**
والعيص إن أمدحه أنشد خـــاطري	**حـــسبي فمـــاذا بالمـــديح أقـــول**
هـــم آل بيـــت أشـــرقت أنـــوارهم	**وبهم لعمـــري يحـــسن التوســـيل**
[٤٦/أ] فيهم توسل أسعد مترجيـــاً	**فعـــسى يـــوافي للرجـــاء قبـــولُ**
شـــملتهم صـــلة الـــصلاة تحيـــة	**ما هبَّ في جـــنح الظـــلام شـــمولُ**

استطراد

يحسن بهذا المقام أن نشير[٣] إلى قصة يونس عليه السلام:

---

(١) في م : (بحلحولة) وهو تحريف. وحلحول - بالفتح ثم السكون، وضم الحاء الثانية، وسكون الواو ولام: قرية بين البيت المقدس، وقبر إبراهيم الخليل، وبها قبر يونس بن متى عليهما السلام (معجم البلدان: حلحول، والإشارات ٢٩، والحقيقة والمجاز ١٨٤/١، والحضرة الأنسية ٢٩٤).

(٢) انظر الحقيقة والمجاز ١٨٤/١، والإشارات إلى أماكن الزيارة ٢٩ (هـ).

(٣) في م : (يحسن بهذا المقام يشير). وما هنا للسياق.

هو ابن متّى، ومتّى أبوه، بدليل قولهم: إن متّى كان رجلاً صالحاً من أهل بيت النبوة، وعليه الأكثرون، وقيل أمه، بدليل ما نقله صاحب حماة[1] لم يشتهر نبي بأمه، غير عيسى ويونس عليهما السلام.

أرسل الله تعالى يونس إلى أهل نَيْنوى قرية قبال الموصل، فنهاهم عن عبادة الأصنام، وأوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ويتوبوا، فلما أظلَّهم العذاب آمنوا، فكشف اللهُ عنهم، وجاء يونس ذلك اليوم، فلم ير[2] العذاب حلّ فيهم، ولا علم بإيمانهم، فذهب مغاضباً، فدخل في سفينة من سفن دجلة، فوقفت السفينة، ولم تتحرك، فقال رئيسها: أفيكم من له ذنب؟ فتساهموا على من يلقوه في البحر فوقعت المساهمة على يونس، فرموه في البحر، فالتقمه الحوت، وسار به إلى الأيكة، فكان يونس يسجد على قلب الحوت، والحوت يقول: يا يونس أسمعني تسبيح المغمومين وهو يقول: **(أَنْ لا إِلَهَ إلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ)** [الأنبياء: ٨٧/٢١]، قال تعالى: **(فَنادَى فِي الظُّلُماتِ)** [الأنبياء: ٨٧/٢١] - يعني ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. قال تعالى: **(فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)**[١٤٣/٣٧] فقالت الملائكة: إلهنا نسمع تسبيح مكروب، كان لك شاكراً، اللهم فارحمه من كربته وغربته. واعلم أنه ما قرأ الآية مكروب إلا أزال الله كربه.

ومكث في بطن الحوت أربعين يوماً وقيل ثلاثة أيام، ونبذه بالعراء - أي بالساحل - فخرج مثل الفرخ المنتوف لا يقدر على القيام، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين لها أربعة آلاف غصن، فكانت فراشه وغطاءه، وأمر الله تعالى ظبية فجاءته فأرضعته حتى قوي وأوحى الله تعالى إليه بإيمان قومه حين رأوا العذاب، وأهبط الله تعالى له حلتين مع ملك وقال [٤٦/ب] وقال له: سِرْ إلى قومك فإنهم يتمنونك[3]، فاتَّزَر بواحدة، وارتدى بالأخرى، فلما بلغ ملكَ قومه الخبرُ نزل

---

(١) انظر المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء صاحب حماة ٣٢/١.

(٢) في م : (لم يرا) بإثبات الألف التي يجب أن تحذف للسياق النحوي.

(٣) في م : (يتمنوك).

عن سريره، وخرج هو وقومه إلى يونس عليه السلام، وسلموا عليه، وفرحوا به، وحملوه إلى المدينة، وأقام يونس فيهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن مات الملك. ومات يونس بعد ذلك ٨١٥ سنة من وفاة موسى عليه السلام، ودفن بقرية حلحول[١] قريباً من بلد الخليل في طريق بيت المقدس في طريق بيت المقدس بمسجد بناه الملك المعظم عيسى والناس يقصدونه بالزيارة r.

وأما العيص عليه السلام وهو أخو يعقوب عليه السلام، كان هو وأخوه توأمين وجثة العيص مدفونة بقرية سعير، وأما رأسه فبالمغارة التي فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم الكرام عليهم السلام.

وسبب ذلك أن جبرائيل وميكائيل لما أتيا إبراهيم في صفة ضيف، وأراد أن يذبح لهما العجل انفلت منه ولم يزل حتى دخل مغارة حبرون فنودي يا إبراهيم سلّم على عظام أبيك آدم فوقع ذلك في نفسه، ثم ذبح العجل، وقرّبه إليهم، وكان من أمرهم ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم، ثم اشترى إبراهيم عليه السلام المغارة من عفرون الملك، فلما ماتت صار[٢] دفنها فيها.

ثم مات إبراهيم عليه السلام، فدفن بحيالها، ثم ربقة زوجة إسحاق، فدفنت بحذاء سارة من جهة القبلة.

ثم توفي إسحاق عليه السلام، فدفن بحيال زوجته من جهة الغرب.

ثم يعقوب عليه السلام فدفن عند باب المغارة، بحيال قبر إبراهيم الخليل من جهة الشمال.

ثم ليقا زوجته، فدفنت بحياله من جهة الشرق.

فاجتمع أولاد يعقوب والعيص وإخوته وقالوا: ندع باب المغارة مفتوحاً، وكل من مات منا دفناه فيها فتشاجروا، فرفع أحد إخوة العيص أو أحد أولاد يعقوب يده ولطم العيص لطمة فسقط رأسه في المغارة فحملوا

---

(١) في م : (حلحولة) وقد تقدم تصحيحها.

(٢) في م : (سار).

جثته ودفن بغير رأس بقرية [٤٧/أ] سعير، وبقي الرأس في المغارة، فحوطوا على المغارة، وعلموا عليها علامات القبور في كل موضع. انتهى. [من البسيط]

تلك القبور من القدس الشريف بدت ... تبدى سناء الضيا كالصبح إذ وضحا

كم ذا أردد طرفي في مرابعها ... من الغرام الذي في القلب ما برحا

فلي بها لوعة الشاكي صبابته ... ودمعة الناظر الباكي إذا سفحا

أبغي الوصول إلى من حلّ ساحتها ... من النبيين كي أحظى بذا منحا

مستمطراً من على عليائهم مدداً ... فبابهم لذوي الحاجات قد فتحا

[بيت لحم]

ثم سرنا، فوصلنا بيت لحم وقت الزوال، ولنا بدوحة الأنس اتصال، فنزلنا ببيت الضيافة المعدّ للخاص والعام، فأسرعوا بإحضار الفاكهة والطعام؛ وبعد الانتباه من النوم، وصلاتنا الظهر نحن والقوم، توجَّهنا لمحل مولد عيسى عليه السلام، بلا توانٍ ومهده ومحل النخلة المذكورة في القرآن، فيا له محل صدق من مآثر البررة، إلا أنه في أيدي المشركين الكفرة، وأن الشرك فيه بادٍ وظاهر للعيان، بما اجتمع فيه من الناقوس والتصاوير والشمامسة والرهبان، فحصل للقلب من رؤية ذلك ما أقلقه وأدهاه فلا حول ولا قوة إلا بالله . [من الكامل]

أسفي على تلك المعاهد حيثما ... أضحى لها بيد اللئام ذمامُ

سترت لوامع نورها وضيائها ... مُذْ حلَّ في عرصاتها الأصنامُ

فاجرِ[1] المدامع من عيونك حسرة ... فعلى المكان تحية وسلامُ

* تذييل بتهذيب *

لما وضعت مريم عيسى عليه السلام، وظهرت براءتُها بنصّ الملك العلاّم، سارت بولدها عيسى إلى مصر مع ابن عمها يوسف بن يعقوب بن

---

(١) في م : (فاجري) وما أثبته للسياق.

ماهان النجار، وأقاموا هناك اثنتي عشرة سنة، وعيسى عليه السلام من جملة من دخل مصر من الأنبياء كما أشار إليه السيوطي في قوله:[من البسيط]

قد حلَّ في مصر فيما قدروا زمــرٌ　　　من النبيــين زادوا مــصر تأنيــسا

فهاك يوسف والأسباط مــع أبهــم　　　يعقــوب ثــم خليــل الله إدريــسا

لوطاً وأيوب ذا القرنين مع خــضر　　　فأرميا يوشعاً هارون مــع موســى

وأمــــه ســــارة لقمــــان آســــية　　　ودانيــال شــعيباً مريمــاً عيــسى

شيثاً ونوحاً وإسماعيل قد ذكــروا　　　لا زال من[1] أجلهم ذا المــصر محروســا

ثم عاد عيسى وأمه إلى الشام، ونزلا بالناصرة، وبها سميت النصارى.

فلما بلغ ثلاثين سنة أرسله الله تعالى إلى الناس وظهرت على يديه المعجزات من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي على الماء، وجعله من الطين طائراً، قيل: هو الخفاش. وكان الحواريون اثني عشر رجلاً، وهم الذين سألوه نزول المائدة، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها، وغمامة تحتها، وهم ينظرون مغطاة بمنديل، فكشفها عيسى عليه السلام، فإذا فيها سمكة مشواة ليس فيها فلوس تسيل دسماً، وقد نصب حولها البقول ما خلا الكراث، وإذا عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وخمسة أرغفة، على كل واحد منها زيتونة، وخمس رمانات وخمس تمرات، فامتنعوا من أكلها خوفاً من أن تكون عقوبة. فدعا لها عيسى أهل الفاقة والزّمانة[2] من العميان والمجذومين والبرص والمقعدين وأصحاب الماء الأصفر فقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم، واذكروا اسم ربكم. ففعلوا، فصدر عنها ألف وثلاث مئة ما بين رجل وامرأة، كل إنسان منهم شبعان يتجشّأ[3]، فنظر عيسى إلى المائدة، فإذا ما عليها كهيئته حين نزوله، ورفعت السفرة إلى السماء وهم ينظرون إليها.

---

(١) في م : (عن) وما هنا للسياق.

(٢) الزِّمانة والزَّمانة: العاهة (اللسان: زمن).

(٣) جشأت المعدة وتجشّأت : تنفست عند الامتلاء (اللسان: جشأ).

واستغنى كل فقد أكل منها يومئذ، وبرئ كلُّ ذي عاهة، فلم يزل بريئاً حتى مات وندم الحواريون وشابت شعورهم حسرة، فكانت إذا نزلت عليهم بعد ذلك يتزاحم الناس عليها، ويركب بعضهم بعضاً.

فلما رأى ذلك عيسى جعلها نُوَباً بينهم، وكانت تنزل غِبّاً[١] يوماً بعد يوم، فلبثت كذلك أربعين صباحاً، حتى إذا فاء الفيءُ طارت صُعُداً (وهم) ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم، وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي رزقاً لليتامى والزمنى، دون الأغنياء.

فلما فعل ذلك عظم على الأغنياء وادّعوا القبيح حتى شكُّوا وشكّ[٢] الناس فوقعت [٤٨/أ] الفتنة في قلوب المدبرين، فمسخ الله ثلاث مئة وثلاثين خنازير من ليلتهم، فأصبحوا يأكلون القاذورات[٣] في الحُشوش[٤]، وكانوا باتوا أول الليل على الفراش عند نسائهم في أحسن صورة، وأوسع الرزق، ثم دعا الله عيسى، فماتوا بعد ثلاثة أيام ثم أعلمه الله بخروجه من الدنيا، فجمع الحواريين ليلة، وصنع له طعاماً. وقام يخدمهم بنفسه قائلاً لهم: لا يرد أحدكم علي من صنعي شيئاً، إنما فعلت ذاك ليكون لكم أُسوة بي في خدمة بعضكم بعضاً، وإن لي إليكم حاجة، فادعوا الله أن يؤخّر في أجلي، فلما أرادوا ذلك ألقى الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا الدعاء، وجعل المسيح يوقظهم، فلو يزدادوا إلا نوماً وتكسُّلاً، وعلم أنهم مغلوبون عن ذلك فقال المسيح: سبحان الله، يذهب بالراعي، وتتفرق الغنم، ثم قال لهم: الحقَّ أقول لكم، ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك، وليبيعنّي أحدكم بدراهم يسيرة ويأكلن ثمني.

وكان اليهود في طلبه، فذهب بعض الحواريين إليهم، وقال: ما تجعلون لي إن أدلّكم على المسيح، فدفعوا له ثلاثين درهماً، فدلهم عليه. فرفع الله المسيح إليه وألقى الشَّبه على الذي دلّهم، وأظلمت الدنيا، وظهرت الكواكب، فلذلك لم يتحققوا المشبه من شدة الظلمة، وانشقت الصخور وحصل الإرجاف[٥].

---

(١) انظر اللسان (غبب).

(٢) في م : (وشكوا الناس) وهي على لغة أكلوك البراغيث، والمثبت للسياق النحوي.

(٣) م : (القذرات) وما هنا للسياق.

(٤) الحشوش: جمع الحشّ وهو البستان (اللسان: حشش).

(٥) أرجف: خفق واضطرب اضطراباً شديداً (اللسان: رجف).

واختلف العلماء في موته قبل رفعه، فقيل: رفع ولم يمت. وقيل: توفاه الله ثلاث ساعات. وقيل: سبع ساعات، ثم أحياه الله بعد سبعة أيام، وذلك أحد تأويل قوله تعالى: **(إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)** [آل عمران: ٣/٥٥]، أي مستوفي أجلك، والمعنى أني أعصمك، أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم أو قابضك من الأرض من توفيت ما إلى أي قبضته أو متوفيك نائماً كما قال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهار)** [الأنعام: ٦/٦٠] أي ينيمك إذ روي أنه رُفع نائماً، أو ممسك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى الملكوت.

وقال محمد بن إسحاق الأول من زعم النصارى.

وقال الضحاك: إن الآيات تقديماً وتأخيراً. انتهى.

ثم أنزل الله تعالى المسيح [٤٨/ب] إلى أمه وهي تبكي. فقال لها: إن الله رفعني إليه، ولم يصبني إلا خيراً وأمرها فجمعت الحواريين فبثّهم في الأرض رسلاً عن الله وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمره الله تعالى به، ثم رفعه.

ثم إن أربعة من الحواريين: متّى وثلاثة معه اجتمعوا، وجعل كل واحد منهم إنجيلاً، وخاتمة إنجيل متى أن المسيح قال: أرسلتكم إلى الأمم كما أرسلني ربي إليكم فاذهبوا وادعوا الأمم.

وكان رفعُ عيسى قبل مولد النبي r بخمس مئة وخمس وأربعين سنة من طور زيتا، جبل شرقي بيت المقدس، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة.

وعاشت أمه ست سنين، وماتت وعمرها ثلاث وخمسون سنة، ودفنت بكنيسة الجثمانية بذيل جبل الطور عند أبيها عمران. وهي من أفضل نساء العالمين.

لما روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله r:

خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون. انتهى.

[نُبوَّة مَريم]

والاختلاف في نبوتها:

قال القسطلاني: قال القرطبي: الصحيح أن مريم نبية أُوحي إليها بواسطة الملك.

واستدلّ المانعون بقوله تعالى: **(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)** [يوسف: ١٠٩/١٢].

وأجيب بأنه لا حجة فيه لأن أحداً لم يدع فيهن الرسالة، وإنما الكلام في النبوة فقط.

وقال الأشعري: إن من النساء من نُبِّئ وهن ستٌّ[١]: حواء، وسارة، وأم موسى، وهاجر، وآسية، ومريم. انتهى. [من البسيط]

من أغرب النقل ما يرويه من أثـر ... القرطبيُّ إمام العـصر ذو الـشأن

تُنَبّي ستَّ نساء بالخصوص فخـذ ... أسـماءهن ببيـت مفـرد ثـانِ

فمـريمٌ سـارةٌ حَـوّا وآسـيةٌ ... فهاجرٌ أم موسـى ابـن عمـران

[عودة إلى بيت المقدس]

ثم قصدنا القدس الشريف لنجدد عهداً قديماً بالحرم المنيف. فمررنا بضريح راحيل أم يوسف الصديق، قريباً من بيت جبالية على قارعة الطريق، فأهديت لها من القرآن ما تيسّر، ورجوت منها المدد الأوفر، فوصلت [٤٩/أ] القدس وقت الصلاة الوسطى، وقد حزت من وافر الأُنْس قسطاً: [من الطويل]

ولمّـا وصـلنا والرفـاقُ عـشيةً ... إلى المسجد الأقصى أصبنا مغانمـا

فيوض غيوب أمكرت سحب رحمةٍ ... فأحيـتْ فـؤاداً بالتـشوّق طالمـا

[* داود عليه السلام *]

وفي يوم الأحد حرّكني داعي الغرام، لزيارة خليفة الله داود عليه السلام؛ فسعيت إلى وادي حماه الرحيب، ونزلت بسوح ربعه الزاهي الخصيب، ثم لثمت أعتاب تلك السدة المنيفة. ودخلت إلى روض تلك الحضرة الرفيعة، ووقفت متأدباً

---

(١) م : (ستة) خطأ.

خاضعاً، مذ شاهدت نور النبوة لامعاً، وحصل لي مزيد الأُنس والإيناس، فتلوت: **(يا داوُودُ إِنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ)** [ص: ٣٨/٢٦]، وختمت ما تيسَّر من القرآن بالسبع المثاني، ودعوت الله لي ولإخواني، واجتمعت بخدمة ذلك الجناب، فإذا هم من الموالي السادة الأنجاب؛ ثم لما ورد علي البسط في هذا المقام، امتدحت جنابه عليه الصلاة والسلام:[من الطويل]

مقام صدقٍ الوفا بالقدس مشهودُ — من أمه فهو بالتحقيق مسعودُ

فاحت به نفحات الطيب عابقةً — فما الغوالي إذا فاحت وما العود

وأشرقت من سنا مشكاة بهجته — بوارق البشر حيث الأنس مشهودُ

ناهيكه مشهداً تزهو بوارقه — إذ حلّ فيه نبيٌّ الله داودُ

خليفة الله في أحكامه وله — فيها كما نطق القرآن تسديد

كذا الزبور عليه الله أنزله — وملكه بانتصار الحق مشدودُ

قد أوتي الحكمة الغراء معجزة — فكان منها لدين الله تأييدُ

فصل الخطاب وتسبيح الجبال كما — لان الحديد وما في ذاك ترديد

وجدّد المسجد الأقصى وكمّله — عند سلمان والتكميل محمود

فانزل بساحته العلياء مغتنماً — عواطف الجود فالإمداد موجود

أهدي السلام له أوفى تحته — ما دام في كعبة التقديس توحيد

تذييل[١] بتلخيص:

هو داود[٢] عليه الصلاة والسلام، من ذرية يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، وقد آتاه [٤٩/ب] الله تعالى ما نصَّ عليه في كتابه من النبوة، والكتاب - أي الزبور، والملك، والحكمة، وفصل الخطاب، وتليين الحديد، وتسخير الطير، والجبال.

---

(١) مكان اللفظ في الأصل بياض. واستدركته عن مرات سابقة.

(٢) ترجمة (داود) عليه السلام وأخباره في تاريخ دمشق - دار الفكر ببيروت ١٧/ ٨٠ - ١٠٩، ومختصره ٨/١٠٥ - ١٤٣، والبداية والنهاية - دار ابن كثير - ٢/١٦٣ - ١٦٧، والحقيقة والمجاز للنابلسي ١/٣٤٨ - ٣٥٠، والحضرة الأنسية ١٧٤.

روى وهب بن منبه[١] أنه لما تاب الله عليه قسم دهره أربعة أقسام: يوماً للقضاء بين الناس، ويوماً لنسائه، ويوماً يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه، فيساعدونه على ذلك، ويوماً يسوح في الفيافي والجبال والساحل.

وإذا كان يوم سياحته يخرج[٢] إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير، فيبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والدوابُّ حتى تسيل الأودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فتبكي معه الحيتان ودواب البحر، وطير الماء، فإذا أمسى رجع، وإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى منادٍ[٣]: أن اليوم نَوْحَ داود على نفسه، فليحضر من يساعده فيدخل الدار التي فيها المحاريب، فيُبْسط له ثلاثُ فُرُش من مسوحٍ، حشوها ليف، فيجلس عليها، ويجيء[٤] أربعة آلاف راهب عليهم البرانس، بأيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب، ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنَّوْح على نفسه، ويرفع الرهبان معه أصواتَهم، فلا يزال يبكي حتى تَغْرَقَ الفُرُش من دموعه ويقع داود مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان عليه السلام، فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه، ثم يمسح بها وجهه ويقول:

ربّ اغفر لي، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الأرض لرجحهم لعدله. ومكث بقية عمره لا يشرب ولا يأكل طعاماً إلا ممزوجاً بدموعه[٥].

وعن الأوزاعي مرفوعاً[٦]:

---

(١) الخبر في مختصر ابن منظور ١٣٦/٨ والأنس الجليل ١١١/١ - ١١٢.

(٢) في الأصل: (فيخرج) وما هنا عن ابن منظور .

(٣) في الأصل (منادي) وما هنا للسياق النحوي.

(٤) في الأصل: (فيجلس) والمثبت عن ابن منظور.

(٥) للخبر بقية في مختصر ابن منظور ، ومقدمته على الشكل التالي: (قال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أنه كان إذا كان يوم نَوْح داود صلى الله على نبينا وعليه وسلم مكث ..).

(٦) الأنس الجليل ١١٢/١.

إن مثل عينَيْ داود كالقربتين ينطفان[١] ماء، ولقد خدَّتِ الدموعُ بخَدَّيه كخرير الماء[٢] في الأرض.

وأمره الله ببناء بيت المقدس، فشرع في بنائه، وأدار عليه سوراً، فلما تمّ السور سقط ثلاثاً، فشكا ذلك إلى الله عزّ وجل فأوحى الله إليه إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً. قال: يا رب ولم ؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء!! قال: يا رب، أو لم يكن ذلك في هواك ومحبتك؟! قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحم بهم منك، فشقَّ ذلك على [٥٠/أ] داود، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإني سأقضي بناءه على يد ابنك سليمان، فأوصى قبل موته بالملك لولده سليمان عليه السلام وأوصاه ببناء بيت المقدس، وعين لذلك عدة بيوت أموال من الذهب.

فلما مات داود ملك ابنه سليمان، وعمره ثنتا عشرة سنة، وابتدأ في عمارة بيت المقدس بعد مضي أربع سنين من ملكه، وكان من أمره ما هو مشهور،وفي تاريخ القدس مسطور.

وعن ابن عباس:

أوحى الله إلى داود عليه السلام أن قل للظلمة لا يذكروني، فإني أذكر من يذكرني، وذكري إياهم أن ألعنهم، فأقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وعن عبد الله بن الحارث:

أوحى الله إلى داود عليه السلام أن اذكرني وأحبّني وأحبّ أحبابي، وحبّبني إلى عبادي. قال: يا رب كيف أحببك إلى عبادك؟ قال: اذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

وتوفي داود وعمره سبعون سنة، ودفن بالكنيسة الجثمانية شرقي بيت المقدس في الوادي، وقيل إن قبره بكنيسته صهيون[٣] بظاهر البلد من جهة القبلة كما هو الآن معروف.

---

(١) نطف الماء: سال (القاموس).

(٢) في الأصل: (ولقد أخذت الدموع بخديه كخرير الماء) والمثبت عن الأنس الجليل.

(٣) صهيون: بكسر أوله ثم السكون، وياء مثناة من تحت مفتوحة، وواو ساكنة، وآخره نون، هي موضع معروف بالبيت المقدس محلة فيها كنيسة صهيون (معجم البلدان، والفيروزابادي، و فيه: صهيون كبرذون، والحضرة الأنسية ١٧٥).

وفي الكتب المعتبرة موصوف: قيل إن ولده سليمان عنده بصهيون. وقيل: بالمسجد الأقصى تجاه الباب الأوسط مدفون. وقيل: تحت البلاطة الخضراء التي بداخل قبة الصخرة تجاه باب الجنة، والله أعلم بحقيقة ما هنالك.

[شعر في داود وضريحه]

ضريحُ سليمانَ النبيِّ تعارضتْ — بتعيينه[1] الأقوالُ والوقفُ أجملُ

فقيل بصهيونٍ ضجيعاً لوالدٍ — أو المسجد الأقصى إذا أنت تدخلُ

وثالثها في قبة الصخرة التي — بضوء سنا أنوارها تتهلَّلُ

فلم يُلْفَ بالتحقيق قبرٌ لمرسلٍ — سوى قبرِ طه والخليلُ المفضَّلُ

فأهدي صلاةً مع سلامٍ ورحمةٍ — إلى روحهم طولَ المدى تتوصَّلُ

[انضمام المؤلف للطريقة الخلوتية]

وفي يوم الاثنين المفتتح بالسعد، والمختتم بالسعادة، بُشِّرتُ بنيل الحسنى وزيادة؛ وحصلت لي العواطف الرحمانية، بانتظامي في عقد أهل الطريقة الخلوتية؛ فلقنني حضرة الأستاذ الاسم الأول وقت الغروب عند باب الرحمة، وأمرني بالاشتغال به وبالاستعداد [٥٠/ب] لدخول الخلوة لتتم لي النعمة؛ فأدخلني الخلوة بمنزله ليلة الثلاثاء وقت العشاء، راجياً من الله الفتح وكشف الغشاء؛ فمكثت بها إلى غروب يوم الخميس، وطلعت منها ليلة عيد الله الأكبر الأنفس النفيس، لأشهد الجمع في هذا المقام، فيا حبذا تلك الليالي العظام، حيث كنت بالمسجد الشريف الأقصى، وعواطف الرحمة تترادف بروادف أُنسٍ لا يُحْصى؛ فأحييتُها وجمع الإخوان، بالذكر وتلاوة القرآن؛ وجلسنا نكبّر بعد صلاة الصبح، إلى طلعت الشمس وارتفعت بقدر رمح؛ وامتلأ المسجد بالخاص والعام، مستمنحين من موائد الفضل والإنعام؛ وصلّى الإمام صلاة العيد وبمنبر الصخرة خطب، فتحقَّقت النفوس هنالك ببلوغ الأرب؛ وقد قرّت بذلك العيون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون: [من الكامل]

---

(١) في الأصل: (بتعينه) وما هنا للوزن والسياق.

وَرَدَتْ علـــيَّ مـــواردُ الإســـعادِ وصـــفَت لـــديَّ مواســـمُ الأعيـــادِ

بالمسجد الأقصى المبـاركِ حولَــهُ المحتظـــــي بتـــــوارد الـــــورّادِ

من فاته تلك المشاهد مـــن منــى فله المنام البـــادي بهـــذا النـــادي

[بئر أيوب وعين سلوان]

وفي يوم السبت ثاني العيد، الذي صار فيه الهم خلقاً والأنس جديد؛ سرت إلى بئر أيوب وعين سلوان، مع أصدقاء يرتوي بحديثهم الظمآن؛ فانجلت عنا سحائب الكروب، مذ أشرفنا على بئر أيوب؛ المشار إليه محكم الكتاب، بقوله تعالى: **(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ)** [ص:٤٢/٣٨]، فشربنا من مائه المعين، وغدونا بآثار أيوب عليه السلام مُتَبَرِّكين.

ثم وردنا عين سلوان، والقلب من فرط السرور نشوان؛ ونزلنا بدوح ظلها، نروي القلب من نَهْلها وعَلِّها، واغتسلنا فيها مطهرين من[١] الأوزار، ممتثلين لما وردت به الآثار.

فعن أبي هريرة مرفوعاً[٢]:

إن الله اختار من المدائن أربعاً: مكة وهي البلدة.

والمدينة وهي النخلة.

وبيت المقدس وهي الزيتونة.

ودمشق وهي التين.

واختار من الثغور أربعة: إسكندرية مصر.

وقزوين خراسان.

وعبدان العراق.

وعسقلان الشام.

واختار من العيون أربعاً: عين بيسان.

---

(١) تكرر حرف الجر (من) في الأصل م.

(٢) أنس الجليل ٥٧/٢.

[٥١/أ] وعين سلوان.

وعين زمزم.

وعين عكا.

واختار من الأنهار أربعة: سيحان.

وجيحان.

والنيل.

والفرات[١].

وعن خالد بن معدان:

زمزم، وعين سلوان، التي ببيت المقدس، من عيون الجنة، فمن أتى بيت المقدس فليأت محراب داود المشرف على عين سلوان، وليصلِّ فيه وليسبح في عين سوان فإنها من الجنة. انتهى.

وأنشدني بعض الرفاق، بدوحها موجهاً مع حسن الطباق: [من الطويل]

أيا قُدْسَ آمالي وأقــصى مــآربي ... ويا حطّتي في حال سرّي وإعــلانِ

فؤادك صخرٌ ما بــه بــاب رحمــةٍ ... كما أن قلبي ما به عــين ســلوانِ

ثم أنشدني الثاني من حفظه، مع حسن صوته ورقة لفظه، بيتين رقيقَي المعاني، يزريان بالمثالث والمثاني: [من البسيط]

إن غاب شخصُك عن عيني فمسكنُه ... على الدوام بقلبي الوالــهِ العــاني

وهو المقدّس لمــا أن حللــتَ بــه ... لكنّه لــيس فيــه عــينُ ســلوانِ

فقلت للرفاق: لست أحفظ شيئاً في هذا المعنى، ولكن أرتجز حسن الإمكان بدون مغنى: [من البسيط]

ظنّ العذول بــأنّ اللــوم ألــواني ... وأنَّ بالقلب منــي عــين ســلوانِ

---

(١) في الأصل: (عن ابن سعد) والخبر مروياً عن خالد بن معدان في أنس الجليل ٥٧/٢، والتحفة السنية ١٨٨.

شربت بالمهد كأس الحب مترعـةً	**فتوبتي فيـه ليـست ذات إمكـانِ**
فطور قلبي به نار الخليـل زكـتْ	**فليته مثلُ موسى القـرب أدنـاني**
كأنَّ قلبَ عذولي صـخرة نُـصبت	**فما بـه رحمـةٌ للوالـه العـاني**
هـلاّ تخلّـص بالتقـديس مأملُـه	**أقصاهُ ربي مـن تعـذيب نيـران**

[قبرا زكريا ويحيى عليهما السلام]

ولما حصل الأنسُ بهذا المقام، وحان من ذلك اليوم التمام، سرنا فمررنا على قبري زكريا ويحيى عليهما السلام، بذيل جبل الطور بقبتين بديعَتَيِ الإحكام؛ المنقول فيهما طُرْطُور[1] فرعون وكوفية زوجته كما هو مشهور، وذلك خلاف ما هو في الكتب مسطور.

فقد حكى صاحب أنس الجليل[2]، بأنّ بهما زكريا ويحيى وأقام على ذلك الدليل.

[مشاهد أخرى]

وزرنا الزاوية الأدهمية[3] البديعة الإتقان، وأنها من العجائب [٥١/ب] وليس الخبر كالعيان.

ووردنا ضريح الشيخ جراح، فالتأم بزورته من القلب الجراح، وقرأنا الفاتحة لسيديَّ سعد وسعيد، ودخلنا مغارة الكتان إذ كانت غير بعيد، ثم رجعنا إلى الخلوة، لنجتلي بها حسن الجلوة: [من الطويل]

ويوم بوادي القدس شاهدتُ حُسنَه	**على عينِ سـلوانٍ وبئـرٍ لأيـوب**
وقد نفحت من جانب الطور نـسمةٌ	**فأهدت إلى البشرى بتيسير مطلوبي**

---

(١) الطُّرْطور: قلنسوةٌ للأعراب طويلة الرأس (اللسان: طرر).

(٢) أنس الجليل ٦٢/٢.

(٣) أنس الجليل ٦٣/٢.

[مقدمتان في التوحيد والمنطق]

وقد كنت يوماً بالحرم السني، والمعبد السامي الهني، إذ ورد علي بعض الظرفا، الذي راق مشرب وده وصفا،فرايت صحبته مجموعاً، قد طاب مرقاً ومسموعاً، فمما أعجبني من مستحسناته، وأطربني من مستظرفاته؛ مقدمتان: إحداهما من التوحيد، والثانية مختصرة في المنطق الحميد؛ فأحببت إثباتهما في هذه الطروس لترتاح بمعانيهما النواظر والنفوس:

[الرسالة الأولى : في التوحيد]

بسم الله الرحمن الرحيم [من البسيط]

شهدتُ معتقداً جزمـاً بغيـر مِـرا	**ألا إلــه ســوى اللهِ الــذي قَهَــرا**
ربي غنيٌّ عن الأشـياء أجمعهـا	**وكل شيء إلـى إحـسانه افتقـرا**
موجـــودُ بـــاقٍ ذو مخالفـــةٍ	**لخلقه ولمـا بالبـالِ قـد خطـرا**
بنفسه قـائمٌ أعنـي بـذاك غنـا	**عن فاعلٍ ومحـل لـيس مفتقـرا**
وواحـدٌ مـا لـه ثـانٍ يـشاركُه	**في الملك كلا ولا عـون ولا وزرا**
لـه الحيـاة دوامـاً والإرادة مـع	**علمٍ أحاط بما يخفى ومـا ظهـرا**
وقـدرة وتعـم الممكنـات فـلا	**تـشهد إذا لـسوى خلاقنـا إبـرا**
ربي بإيجاد جمـع الخلـق منفـردٌ	**لولاه ما كان شيء قـلَّ أو كثـرا**
ثم الكلامُ له والـسمعُ مـع بـصرٍ	**من غير كيفٍ وكـون الله مقتـدرا**
حيّاً سميعاً بـصيراً عالمـاً مُتَكَـلْ	**ـلِماً مريداً تعالى مـا أراد جَـرى**
فتلك عـشرون للـرحمن واجبـة	**ويستحيل عليـه ضـد مـا ذُكـرا**
في حقّه جاز فعل الممكنـات كـذا	**ترك لما كان خيراً ذاك أو ضـررا**
كذا شـهدتُ بـأن الله منـه أتـى	**كُتْبٌ ورُسْلٌ كرامٌ للـورى سُـفَرا**
[٥٢/أ] وواجب لجميع الرسـل عـصمتهم	**صدق وتبليغ ما المولى بـه أمـرا**
ويستحيل علـيهم ضـد ذا وأجـز	**في حقهم غير نقـص مـا اعتـرا**
من نحو كالأكل والأمراض ثم هُـمُ	**خير الورى وخيار الكل دون مِـرا**

نبينـــا أحمـــد المختـــار خـــاتمهم　　　صلى عليه إله العرش مـــا ذُكـــرا

[الرسالة الثانية]

الرسالة المنطقية المختصرة السنية وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده على الآية، ونصلّي على محمد وآله، الدلالة ثلاث: مطابقة وتضمن والتزام، ثم اللفظ إما مفرد، أو مؤلف.

والمفرد إما كلي أو جزئي: والكلي إما ذاتي أو عرضي.

والكلي ثلاثة أقسام: جنس ونوع وفصل.

والعرض قسمان: خاص[١] وعرض عام.

القول الشارح أربعة أقسام: حد تام، وناقص، ورسم تام وناقص.

القضية إما جملية أو شرطية، وكل منهما موجبة أو سالبة.

والجملية إما مخصوصة أو مسورة كلية أو جزئية أو مهملة.

والشرطية متصلة ومنفصلة: والأولى لزومية أو اتفاقية والثانية مانعة جمع أو خلو، أو هما.

التناقض اختلاف قضيتين بالكيف بحيث تصدق إحداهما وتكذب الأخرى ففي المخصوصتين يشترط اتفاقهما في الواحدات الثمان وفي المحصورتين لابد أيضاً من اختلافهما في الكمية.

فنقيض الموجبة الكلية سالبة جزئية، والسالبة الكلية موجبة جزئية.

العكس تصيير المحمول موضوعاً، والموضوع محمولاً مع بقاء الكيف والصدق والكذب، فعكس كل من الموجبة الكلية والجزئية جزئية والسالبة الكلية كلية والجزئية لا عكس لها لزوماً.

---

(١) يقصد: عرض خاص.

القياس إما اقتراني أو استثنائي والمكرر بين طرفيه حد أوسط وموضوع المطلوب حد أصغر، ومحموله حد أكبر، وما فيه الأصغر صغر، والأكبر كبُر.

أو هيئة التأليف يسمى شكلاً والأشكال أربعة لأن الحد إن كان محمولاً في الصغرى وموضوعاً في الكبرى فالأول، أو بالعكس فالرابع، أو محمولهما فالثالث، وموضوعهما فالثاني أو موضوعاً في الكبرى فالأول، أو بالعكس فالرابع

[٥٢/ب] والأول معيار العلوم وضروبه المنتخبة أربعة لاشتراطهم إيجاب صغراه وكلية كبراه.

والاقتراني : إما من جملتين أو شرطيتين متصلتين،أو منفصلتين أو جملية ومتصلة، أو جميلة ومنفصلة أو متصلة ومنفصلة.

والاستثنائي: فالمتصلة اللزومية استثناء عين مقدمها ينتج عين تاليها، ونقيض تاليها ينتج نقيض مقدمها. والمنفصلة فاستثناء عين أحد الجزأين ينتج نقيض الآخر ونقيضه ينتج عين الآخر.

البرهان : مقدماته يقينية، وهي أوليات ومشاهدات ومجربات وحدسيات ومتواترة وقضايا قياسها معها.

والجدل : مقدماته مشهورة.

والخطابة : مقدماته من شخص معتقد فيه.

والشعر : مقدماته تبسط النفس أو تقبضها.

والمغالطة : مقدماته كاذبة شبيهة بالحق أو بالمشهور أو مقدماته وهمية كاذبة والعمدة البرهان لا غير. وختمت بخير.

[شعر للحافظ الحميدي]

ومما نقلته من هذا المجموع الظريف، الحاوي لكل معنى لطيف، ما أنشده الحافظ الحميدي الإمام، عليه رحمة الملك العلام. [من الوافر]

لقاءُ النـــاسِ لـــيس يفيـــدُ شـــيئاً ... سوى الهـــذيانِ مـــن قيـــلٍ وقـــالِ

فأقلْ من لقاء الناسِ إلاّ لأخذ العلم أو إصلاح حالِ

[مقبرة ماملا]

وفي يوم الخميس ختام العام، ذهبت بعد العصر بصحبة أعزة كرام؛ إلى مقبرة ماملا مدفن الخلاصة الأبرار، الوارد في فضلها الأخبار والآثار.

فعن الحسن أن أصلها مأمن الله[١]، وأن من دفن فيها، فكأنما دفن في السماء، فزرنا من بها من السادات، ووقفنا بأعتاب تلك القادات.

كالشيخ [أبي] عبد الله القرشي[٢].

وابن رسلان[٣].

وابن الهمائم[٤].

---

(١) في أنس الجليل ٦٤/٢ (مقبرة ماملا: وهي بظاهر القدس، منجهة الغرب، وهي أكبر مقابر البلد، وفيها خلق من الأعيان والعلماء والصالحين والشهداء. وتسميتها بماملا، قيل: إنما أصلُه: حما من الله، وقيل: باب الله، ويقال: زيتون الملة. وروي عن الحسن أنه قال: من دفن في بيت المقدس في زيتون الملة فكأنما دفن في سماء الدنيا، واسمها عند اليهود بيت ملواء. وعند النصارى: بابيلا والمشهور على ألسنة العامة ماملا).

(٢) في الأصل: (عبد الله القرشي) والمستدرك عن الحقيقة والمجاز ٣٨٦/١.. وهو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي عارف زاهد صوفي نبيل، أستاذه أبو مدين. أصله من الأندلس ثم تحول إلى مصر فقطنها. وتوفي في بيت المقدس سنة ٥٩٩ هـ، وقيل غير ذلك (الأنس الجليلة / ١٤٥، وطبقا المناوي ٢٨٣/٢).

(٣) ابن رسلان هو أحمد بن حسين بن أرسلان - بالهمزة كما بخطه - الشهاب أبو العباس الرملي الشافعي، ولد برملة فلسطين سنة ٧٧٣ هـ، صوفي مفت مدرس له تصانيف كثيرة وله شعر أيضاً. توفي سنة ٨٤٤ هـ (الأنس الجليل ١٧٤/٢، وطبقات الصوفية ١٦٠/٣).

(٤) في م : (ابن الهمام) وهو تحريف ، والصحيح ما أثبتناه عن رحلتي النابلسي: الحقيقة والمجاز ٣٨٦/١، والتحفة السنية ٣١٦. وهو أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي الشافعي شهاب الدين أبو العباس، عالم بالفرائض والحساب والفقه والعربية. ولد بالقاهرة سنة ٧٥٦ هـ، وارتحل إلى بيت المقدس ، وانقطع للتدريس والإفتاء إلى أن توفي سنة ٨١٥ هـ به وله عدة مؤلفات (الأنس الجليل ١ /١١٠، والضوء اللامع ١٥٧/٢).

وابن جماعة(١) الكبير الشان.
والشيخ الدجاني(٢)،

والكمال ابن أبي الشريف(٣)، كما ذكره الحنبلي صاحب تاريخ القدس الشريف.

وغيرهم ممن محيت من قبورهم الآثار، ولم تزل تتلى في الكتب لهم الأخبار [٥٣/أ]، فقرأت لهم ما تيسّر من القرآن، وختمت بالسبع المثاني، ودعوت الله ببلوغ المنى وحصول التهاني، فانشرح بتلك الزيارة صدري، واستبشرت بنجاح قصدي وأمري: [من الطويل]

رعى الله وادينا المقدس إنه حوى روضة الفردوس أجداث
مآثر رضوان ومهبط رحمة أصبت به من عالم الغيب ما مُلاّ

[زيارة موسى الكليم]

الاثنين ١١/ ١/ ١١٤٤

وفي يوم الاثنين حادي عشر محرم الحرام، عزمت على زيارة السيد الكليم عليه الصلاة والسلام؛ فخرجت بعد صلاة الظهر مع رفاق رفاق، وإخوان ودٍّ لهم بنا مزيد اعتلاق، فوصلنا رحابه الوسيع، وروضة واديه الخصيب المريع؛ حين أذنت شمس النهار بالاحتجاب، وكادت أن تلثم الأرض

---

(١) ذكر ابن مجير الحنبلي عدداً كبيراً من آل ابن جماعة ممن دفن في مقبرة ماملا ومنهما أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن جماعة محب الدين أبو البقا، خطيب الأقصى ومشيخة الخانقاه الصلاحية الذي توفي سنة ٨٨٩ هـ وابنه محمد الذي تسلم وظيفته بعده وتوفي سنة ٨٩٧ هـ. (انظر أنس الجليل ١٤٢/٢).

(٢) الدجاني هو أحمد بن علي بن ياسين شهاب الدين الدجاني الشافعي، توفي سنة ٩٦٩ هـ (الكواكب السائرة ١٢٠/٣، وشذرات الذهب ٥١٨/١٠).

(٣) هو محمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي شريف المقدسي أبو المعالي كمال الدين ابن الأمير ناصر الدين: عالم بالأصول من فقهاء الشافعية من أهل بيت المقدس مولداً سنة ٨٢٢ هـ ووفاة سنة ٩٠٦ هـ. له مؤلفات عديدة منها: إتحاف الأخصّا بفضل المسجد الأقصى (الكواكب السائرة ١١/١، والشذرات ٤٣/١٠، والأعلام - الطبعة الثالثة - ٢٨١/٧).

من شدة الاقتراب، إذ المسافة إليه من بيت المقدس خمس ساعات، في جبال وأودية وعقبات؛ فمرّغنا الخدَّ بأعتابه، واكتحلنا بعبير ذاك الثرى، ورجونا منه الإمداد وحسن القرى؛ ووقفنا تجاه ذاك المقام، معلنين بالصلاة والسلام؛ ولما شاهدت جمال جماله، وورد علي البسط بكماله، تذكرت ما به شيخنا الخليلي أتحفني، أنّ بالمقام سرَّ **(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)** [طه: ٢٠/٣٩].

وأنشدت في تلك الرحاب، مشوقاً ومادحاً لذلك الجناب: [من الوافر]

إذا القلب المشوق غدا كليماً ... فيمم وادياً يحوي الكليما

وعج نحو الكثيب لعل تشفى ... فطيب نسيمه يبري السقيما

وشاهدت روضة فيها مقام ... على هام السماك لقد أقيما

مقام بالجلالة ذو جمال ... به التقسيم أضحى مستقيما

فمن {أَلْقَيْتُ} إذ تتلى المثاني ... به سرُّ المحبَّة قد أديما

وقبته بها الأملاك طافت ... كوفد طاف كعبة والحطيما

فمن وافى المقام رأى ابتهاجاً ... كما يلقى بساحته النعيما

فمرّغ في ثرى الأعتاب خداً ... وسحبُ الدمع أرسلها سجيما

وناديه فكم لبَّى المنادي ... بناديه وكان به رحيما

[٥٣/ب] أما لك عند ربك معجزات ... بها تتلو الكتاب المستقيما

فمنها تسع آيات عظام ... أتت بالنصّ قرآنا حكيما

مناجاة الجليل بطور سينا ... بها الله اصطفاك له كليما

يد بيضا بدت من غير سوء ... وضرب بالعصا حجراً صميما

تفجّر أعيناً بعداد سبط ... وكم عين روت جيشاً أويما

وإلقاء العصا في يوم جمع ... لدا السحراء ثعباناً عظيما

ضفادع قمل دم جرادٍ ... عليهم أرسلت رجزاً أليما

وفلق البحر إغراقاً لقوم ... لقد وردوا بكفرهم الجحيما

فـــويح الكـــافرين بـــه وبـــشرى	لقـــوم هـــدوا الـــدين القويمـــا
وموسمه الـشريف لـه اشـتهار	على مـرّ الزمـان قـد اسـتديما
فكم تـسعى الوفـود إلـى حمـاه	تصيب بـسوحه الفـيض العميمـا
فـإن أبـدى الإسـاءة زائـروه	أثـار علـيهم الـريح العقيمـا
وقد وافـاه أسـعد نـضو شـوقٍ	برحـب جنابـه أمـسى مقيمـا
له حق القـرى إذ صـار ضـيف	فيـا بـشراه إذ وافـى الكريمـا
يرجّي مـن ضـنا الأهـوا شـفاء	ولا بـدعاً إذا أضـحى سـليما
خـدمت جنابـه ببـديع مـدح	لأُكتَـب عنـد حـضرته خـديما
وأرجـو بالزيـارة نجـح أمـرٍ	به يـوم الجـزا أُكفـى الخـصيما
وحاشـا أن أُردَّ بـدون نجـحٍ	وفـيض نوالـه أضـحى عميمـا
فأُهديـه صـلاةً مـع سـلامٍ	يبـاري عَرْفـه المـسك الـشميما

* تكميل *

موسى(١) عليه السلام نبي الله وكليمه. وهو: ابن عمران بن قاهث(٢) بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم الصلاة والسلام.

ولد لمضيّ ألف وخمس مئة وست وستين سنة من الطوفان، أرسله الله تعالى وأخاه هارون إلى فرعون كما هو مذكور في القرآن في عدة مواطن ما بين إيجاز ومساواة وإطناب على مقتضى الحال.

وآتاه الله تسع آيات بينات أي [٥٤/أ] دلالات واضحات وهي: العصا واليدُ البَيْضاءُ، والعقدةُ التي كانت بلسانه فحلَّها، وفَلْقُ البحر، والجرادُ

---

(١) ترجمة موسى عليه السلام في تاريخ دمشق - دار الفكر ببيروت ١٥/٦١-١٨٦، ومختصره ٣٠/٢٥٥-٣٩٩، والبداية والنهاية ٢/٥-١٢٠ (دار ابن كثير)، والأنس الجليل ٧٤-١٠٠، والحقيقة والمجاز ٣٨٧/١، والحضرة الأنسية ٥٩.

(٢) في م : (قاهب) وفي أنس الجليل (فاهت) وكلاهما تصحيف والمثبت عن مصادر ترجمته عليه السلام.

والطوفانُ، والقُملُ، والضّفادعُ، والدمُ، والعصا، واليدُ والسنونُ، ونقصٌ من الثمرات.

وروي مرفوعاً أن يهودياً سأل النبي r عن الآيات التسع فقال: لا يشركون[(١)] بالله شيئاً، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ولا يأكلون الربا، ولا يسخرون، ولا يمشون بالبريء إلى السلطان، ولا يقذفون المحصنةَ، ولا يفرُّون من الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعتدوا في السبت: [من البسيط]

آيات موسى الكليم التسع قد روت	**على اختلاف بها جاءت رواياتُ**
فاخترت منها الذي يرويه عكرمة	**تضمنتها بهذا النظم أبياتُ**
عصاية، واليد البيضاء يخرجها	**من غير سوء لها بالضوء لمعاتُ**
طوفانهم وهو طاعون أحاط بهم	**ومحكم الذكر كم فيه كناياتُ**
ضفادع وسنون قُمَّلٌ ودم	**نقص الثمار جرادٌ هُنَّ آياتُ**

وكان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل، وهم بمصر، أن الله تعالى إذا أَهْلَك عدوَّهم أتاهم بكتابٍ فيه بيان ما يأتون وما يَذرون. فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربّه الكتابَ فأمره الله عز وجل أن يصوم ثلاثين يوماً فلما تمت الثلاثون أنكر خلوفَ فمه فتسوَّك بعود خرّوب.

وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة. فقالت له الملائكة: كنا نشمّ من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال: أما علمتَ أن خلوف الصائم أطيبُ عندي من ريح المسك، وكانت فتنتهم في العشرة التي زادها. فلما جاء للميقات الذي ضرب الله له أن يكلمه فيه تطهّر موسى، وطهّر ثيابه، وأتى طور سيناء، فأنزل الله تعالى ظلمة على سبعة فراسخ، وطرد عنه الشيطان، وطرد هوام الأرض، ونحَّى عنه الملَكيْن، وكشط له السماء، فرأى الملائكة قياماً في الهواء، ورأى العرش

---

(١) الأفعال الخمسة كلها في الحديث محذوفة النون في م، والمثبت للسياق.

[٥٤/ب] بارزاً، وكلمه الله تعالى، وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل معه، فلم يسمع ما كلمه ربه، وأدناه على صرير الأقلام، فاستحلى موسى كلام ربه، واشتاق إلى رؤيته، فقال: ربّ أرني أنظر إليك.

قال: - لن تراني، وليس لبشر أن يطيق النظر إليَّ في الدنيا، من نظر إليَّ في الدنيا مات.

فقال: إلهي سمعت كلامك، فاشتقت إلى النظر إليك، ولئن أنظر إليك ثم أموت أحبُّ إليّ من أن أعيش ولا أراك.

فقال الله تعالى له: انظر إلى الجبل وهو أعظم جبل بمدين يقال له: زَبير(١)، فإن استقرّ مكانَه، فسوف تراني.

قال وهب: لما سأل موسى ربه أرسل إليه الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربع فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السموات أن يعترضوا على موسى، فمرّت به ملائكة السماء الدنيا، كثيران البقر، تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا إلى موسى، فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه كأمثال الأسود، لهم زجلٌ بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعرّت كل شعرة في رأسه وجسده.

ثم قال: قد ندمت على مسألتي فهل ينحيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟

فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل منه كثير ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن يهبطوا إلى موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور، لهم زجل وصف ورجف ووجيب شديد، وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلب الجيش العظيم، ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى، وأيس من الحياة.

---

(١) في م : (زبيرة) وهو تحريف.

فقال له خير الملائكة: مكانك يابن عمران، حتى ترى ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الأرض مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر [٥٥/أ] خلفهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا قبلهم، فاصطكت ركبتاه، وارتعد قلبه، واشتدّ بكاؤه فقال له خير الملائكة ورأسهم: يابن عمران اصبر لما سألت، فقليل من كثير ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى، فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يُتْبِعهم بصره، لم يرَ مثلهم، ولم يسمع مثل أصواتهم، فامتلأ جوفه خوفاً، واشتدّ حزنه، وكثر بكاؤه، فقال خير الملائكة ورأسهم: يابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله تعالى ملائكة السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني، فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه، في يد كل واحد منهم مثل النخلة ناراً أشدّ ضوءاً[١] من الشمس، ولباسهم كلهب النار، إذا سبّحوا وقدسوا جاوبهم من كان قِبَلَهم من ملائكة السموات، كلهم يقولون بشدة أصواتهم: سبُّوح، قدُّوس، رب العزّة والروح، أبداً لا يموت، في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه.

فلما رآهم موسى رفع صوته يُسبِّح معهم حين يسبِّحون[٢]، وهو يبكي ويقول: ربّ اذكرني ولا تنسى عبدك، لا أدري أنفلت مما أنا فيه أم لا، إن خرجت احترقت، وإن مكثُت متُّ.

فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكتَ يابن عمران أن يشتدّ خوفك، وينخلع قلبك، فاصبر للذي سألت.

---

(١) في الأصل: (أشد ضوء) والمثبت هو الأشبه.
(٢) معجم البلدان : (ثبير).

ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل عن عظمة الرب عز وجل، ورفعت ملائكة السماء أصواتهم جميعاً يقولون:

سبحانَ القدوس، ربّ العزة، لا يموت بشدة أصواتهم، فارتجّ الجبل واندكّ، وكل شجرة كانت فيه، وخرّ العبد الضعيف موسى على وجهه، ليس معه روحه، فأرسل الله تعالى برحمته الروح، فتغشى، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى وجعله كهيئة القبة ليلاً، يحترق موسى، فأقامه الروح مثل الأم، فقام موسى يسبّح الله تعالى ويقول: آمنت بك ربي وصدقت أنه لا يراك [٥٥/ب] أحد فيحيى من نظر إلى ملائكتك ينخلع قلبه، فما أعظمكَ، وأعظمَ ملائكتك، أنت ربُّ الأرباب وإله الآلهة، وملك الملوك، لا يَعْدِلُك شيء. ربِّ تبتُ إليك، الحمد لكَ لا شريك لك، ما أعظمك ! وما أجلَّك، ربّ العالمين.

فذلك قوله تعالى: **(فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دكّاً)** [الأعراف: ١٤٣/٧].

قال ابن عباس: ظهر نور ربه للجبل زَبير.

قال الضّحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور.

وقال كعب: ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط.

وقال السُّدي: ما تجلّى إلا قدر الخنصر يدل عليه.

يدلّ عليه ما روى ثابت، عن أنس أن النبي r قرأ هذه الآية وقال: هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل.

وعن سهل بن سَعد أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم، فجعل الجبل دكّاً أي مستوياً بالأرض، وقيل: دكاً أي فتتة، وقيل: جعله تراباً، وقيل: رملاً هائلاً، وقيل: جُعل جبالاً صغاراً يدلّ لهذا ما وقع في بعض التفاسير: صار لعظمته ستة أجبل ثلاثة في المدينة: أُحُد، ووَرِقان[١]، ورَضْوى[٢].

---

(١) وَرِقان - على وزن فَعِلان - وهو من جبال تهامة جبل أسود بين العَرْج والرويثة بيمين المصعد من المدينة إلى مكة (معجم ما استعجم ١٣٧٧، ومعجم البلدان ورقان: ، القاموس: ورق).

(٢) رَضْوى: جبل ضخم من جبال تهامة وهو ينبع على ... (معجم ما استعجم ٦٥٥/٢، ومعجم البلدان: رضوى).

وثلاثة بمكة: ثَوْر[1]، وثَبير[2]، وحِراء.

وخرَّ موسى صعقاً أي مغشياً عليه أوميتاً. خرّ يوم الخميس يوم عرفة. وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

قال الواقدي: لما خرّ موسى صعقاً قالت ملائكة السماء: ما لابن عمران وسؤال الرؤية.

وفي بعض الكتب أن ملائكة السماء أتوا موسى وهو مغشيٌّ عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يابن نساء الحيض أطمعت في رؤية ربّ العزة.

فلما أفاق من صعقته وثاب إليه عقله، وعرف أنه سأل أمراً لا ينبغي له قال: سبحانك تبت إليك عن سؤال الرؤية وأنا أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا. انتهى. بغوي.

أخرج الطبراني والأصبهاني عن ابن عباس قال: قال رسول الله **r**:

إن الله تعالى ناجى موسى بمئة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فكان فيما ناجاه به أن قال: يا موسى إنه لم يتقنّع لي المتقنّعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرّب بي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم [٥٦/أ] ولم يتعبّد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي قال موسى: يا ربّ فماذا أعددت لهم؟ قال: أما الزهاد في الدنيا فإني أبحت لهم جنّتي يقيلون منها حيث شاؤوا. وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة فإنه لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون فإني أستحليهم وأجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب. وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه. انتهى.

---

(١) ثور - بلفظ الثور فحل البقر - اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه النبي **r** المذكور في القرآن، ويقال له أطحل (معجم ما استعجم ٣٤٨/١، ومعجم البلدان (ثور).

(٢) ثَبير بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة وراء: والأثبرة أربعة في الحجاز، وأشهرها جبل مكة وهو الذي وقف عليه **r** وقال له: اسكن ثبير، وهو من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة سمي ثبيراً برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف به (معجم ما استعجم ٣٣٥/١، ومعجم البلدان: ثبير).

غريبة من غريب المنقول في صحيح النقول

أنه لما تجلّى الله لموسى بن عمران كما ذكره في محكم القرآن، انطبقت صورته الشريفة، فيما بالوادي من المعاني اللطيفة، مواجهاً لشجرة العليق ممتثلاً، رافعاً يديه بالدعاء مبتهلاً، وقد شهدت على حجر صورة ذلك قبل اطلاعي من النقل على ما هنالك، فقلت فيه من غير تمويه: [من البسيط]

غريبةٌ من عجيب النقل ما نقلتْ	**لنا الثقات وفي تفصيله جمل**
موسى بن عمران حيث الله كلَّمه	**وخرَّ صعقاً ومنه دكدك الجبل**
تصورتْ باطنَ الأحجار صورتُه	**مواجهاً شجر العُلَّيق يبتهل**
وقد شهدت لفص فيه منطبع	**هذا المثال حقيقاً ما به خللُ**

[وفاة موسى عليه السلام]

وتوفي موسى عليه السلام لأحد عشر شهراً في سابع آذار لمضي ألف وست مئة وست[1] وعشرين سنة من الطوفان، قبل الهجرة بألفين وثلاث مئة وثمان وأربعين سنة عن مئة وعشرين سنة،

[قبره عليه السلام]

واختلف في قبره: فقيل بالتيه، وقيل: بباب لدّ، وقيل: ببيت المقدس، أو بدمشق أو بواد بين بصرى وبلقاء[2]، أو بمدين بين المدينة وبيت المقدس، أو بأريحا، وهي من الأرض المقدسة.

[المشهور قبره قرب أريحا]

والمشهور الآن أن مقامه عليه الصلاة والسلام بالقرب من أريحا، وعنده كثيب أحمر إلى جانب الطريق، يشهد لصحة ذلك ما ورد في الصحيح أن النبي **r** مرَّ به ليلة الإسراء، وهو قائم يصلّي في قبره عند الكثيب

---

(١) م: (وستة) خطأ.

(٢) كذا في الأصل ولم أهتد إلى صوابه.

الأحمر، ويشهد لذلك ما يري بداخل القبة من الأشباح التي ألوانهم مختلفة، منهم (٥٦/ب) الراكب، ومنهم الماشي، ومنهم من على كتفه رمح، ومنهم لابس أبيض، ومنهم لابس أخضر، يصافح بعضهم بعضاً، وغير ذلك من الصفات ينظرهم كل الناس من الرجال والنساء والأطفال، ولا يخفون علي وللناس فيهم أقوال مختلفة:

قال شيخنا صاحب النفس القدسي، مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي، في رحلته[١]:

فدخلنا[٢] إلى قبالة القبر الشريف، ووقفنا نقرأ الفاتحة مع الجماعة، [وندعو الله تعالى] في ذلك القبر[٣] المنيف؛ وإذا بالخيالات تلمع في داخل [تلك] القبة، بحيث تتحير فيها عيون الأحبة، وهناك من الحضور ما يشهد أنها خيالات الملائكة، تصعد وتنزل من حضرت الملكوت، على هاتيك التربة المباركة[٤]؛

وكان الملائكة عليهم الصلاة والسلام هم الذين يثيرون الأرياح والعجاج الشديدة، إذا وقع فساد في مولده الشريف، كما أنهم يتصورون في الصور الجثمانية فتظهر خيالاتهم في القبة، وإنما يفعلون ذلك تصديقاً للنبي **r** فيما أخبر عنه موسى عليه السلام، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل. انتهى.

[مقام الراعي]

ثم لما غربت الشمس من تلك الآفاق، وصلّينا المغرب نحن وأولئك الرفاق؛ طلعنا نشرح الصدر، برؤية هذا الوادي البهيج، ونُرَوِّح النفس

---

(١) الحضرة الأنسية ٢٠٩ والزيادة عنه.

(٢) في م: (قد دخلنا)، والمثبت عن الحضرة الأنسية مصدر المؤلف.

(٣) في الحضرة الأنسية : (المقام).

(٤) إلى هنا ينتهي النقل عن الحضرة الأنسية وما بعده لم يرد فيها.

بانتشاق عبيره الأريج، وإلى حسن محاسنه السنية نراعي، إلى أن وردنا مقام الراعي؛ فإنه قريب من المقام المذكور، وبه تلوح بوارق السنا والنور، وللناس فيه اختلاف في التعيين، وليس هناك دليل يرجع إليه بيقين، فيقال: إنه راعي صاحب المقام.

ويقال: إنه مرقده حين كان يرعى لشعيب عليه السلام.

وبعد إهداء الفاتحة إليه، توسَّلت بجنابه، وحاشا أن أُردَّ وقد وقفت بأعتابه، وقد كنت ابتدأت حال طلوعي من القدس في ختمة شريفة، هدية للحضرة الكليمية المنيفة، فيسَّر الله ختمها في تلك الليلة بالمقام، وقد حصل لي من الأنس ما أذكرني ليالي منى والمشعر الحرام.

ولما [٥٧/أ] كاد أن يبدو الصباح، عزمتُ على السير مستبشراً بحصول النجاح؛ فوقفتُ تجاه ضريحه، ودعوت الله بمكنى القول وصريحه، وورد على القلب أنسٌ أنعش الفؤاد، فأيقنت بحصول المنى ووفق المراد، ثم انثنينا بالمسرّة راجعين، مصلّين عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

[نبي الله العازر]

فوصلنا القدس عندما زالت الشمس، بعدما زرنا نبي الله العازر[1]، وقد بلغت مرامها النفس؛ فيالها من زيارة ما أهناها، وأويقات ما كان أصفاها، فليس يحسب العمر إلا هاتيك الأوقات، ومعداً ذلك فهو لهو وخيالات:

لحمى الكليم أتيت للإسعاف	**فمنحت من علياه بالإتحاف**
ورجعت منه للقبول متوجاً	**ومشرفاً فالتاج للأشراف**
وحظيت من ذاك الجناب بزورة	**فيها شهدت عواطف الألطاف**

---

(١) العازر ولعله العيزار بن هارون عليهما السلام، قبره بقرية العازرية بظاهر القدس من جهة الشرق بالقرب من طور زيتا على طريق المار إلى سيدنا موسى عليه السلام، ويقال: إنه بقرية عورتا من أعمال نابلس، وقيل: إنه عازر الذي أحياه عيسى عليه السلام (الأنس الجليل ٧٥/٢، والمجاز ٣٨٧/١).

فاصرف زمانك في الزيارة غانماً متحلياً بمحاسن الأوصاف
هذا هو العمر النفيس وغيره يمضي هباء في هوى وتلاف

[قرية المعمورة والمجاهد أبو ثور]

وفي يوم الأربعاء عشري شهر المحرم، دعانا شيخنا الشيخ الخليلي(١) الأكرم لزيارة ولي الله المجاهد أبي ثور، فسرنا قاصدين جنابه على الفور، فوصلنا إلى قرية المعمورة(٢) التي هي بأندية فيض إمداده مغمورة؛ فوقفنا بسوحه تجاه رحابه، وأهدينا ما تيسّر من القرآن لعليا جنابه.

قال صاحب أنس الجليل(٣):

هو الشيخ الإمام الزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن جمال الدين عبد الله(٤) بن عبد الجبار المعروف بالقدسي(٥) والمشهور بأبي ثور، كان من عباد الله الصالحين. وسبب تسميته بأبي ثور أنه حضر فتح بيت المقدس، وكان يركب ثوراً ويقاتل عليه في الغزاة، فسمي به. وأوقف(٦) - عليه الملك العزيز أبو الفتح عثمان بن الملك صلاح الدين أيوب القرية التي بالقرب من باب الخليل أحد أبواب مدينة القدس قرية صغيرة من بناء الروم قديماً تعرف الآن بدير أبي ثور [٥٧/ب] توفي ودفن بالقرية في القرن السادس وقبره بها ظاهر يُزار، وله ذرية مقيمون بها.

ومما يحكى عنه أنه كان مقيماً بالقرية المذكورة، وإذا قصد ابتياع شيء من المأكول كان يكتب ورقة بما يريد، ويضعها في رقبة ثوره، فيحضر الثور إلى القدس إلى أن يأتي حانوت رجل يتعاطى حوائج الشيخ، فيقف الثور عنده

---

(١) تقدمت ترجمته في ١٠٥هـ ١.
(٢) لم أجدها فيما توافر لي من مصادر بلدانية.
(٣) الأنس الجليل ٦٠/٢، ١٤٤، وطبقات المناوي - دار صادر - ٢٤٧/٢.
(٤) في م : (أبو عبد الله).
(٥) في م : (بالقرشي) وهو تحريف صححته عن أنس الجليل.
(٦) في أنس الجليل (فسمي بذلك وقد أوقف).

فيأخذ ذلك الرجل الورقة، ويقرأها ويأخذ للشيخ ما طلب، ويحمله الثور فيرجع به الثور وهي من جملة كراماته. انتهى.

[شعر في أرض البقعة]

ثم توجهنا إلى أرض البقعة بعد ذلك. وأقمنا بقية يومنا هنالك نحتسي كأسات الأنس والسرور، ونجتلي من روض رياض شيخنا المذكور؛ ما رقّ من ثمرات الفوائد، ويانعات الزهور، وهذا الوادي هو الذي رأى فيه النبي **r** ليلة المعراج الآيات، كما أخبر به شيخنا المذكور وهو من ثقات الرواة ورواة الثقات؛ وقد كان بهذا الوادي قصور وبساتين، محتها توالي الأيام وتعاقب السنين؛ فلم يبق سوى أخبارها، والتأسف على حسنها ورؤية آثارها: [من الطويل]

قفا على الوادي المقدس برهة ... لأندب أطلالاً وهت وقصورا

ولا تعذلاني إن بكيت تأسفاً ... فقد أورثتني قبل ذاك سرورا

سقى الله منها معهداً قد نزلته ... قرأت به للعارفين سطورا

[تاج العروس لابن عطاء الله]

وقرأت على شيخنا المذكور ذلك اليوم بقصره المأنوس كتاب ابن عطاء الله المسمى بتاج العروس الذي اشتمل على حكم عجيبة، وأمثال غريبة.

- فمنها: من أكثر مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله تعالى مثاله كمن جعل الحطب اليابس في النار ويريد ألا ينفذ فقد أراد محالاً لأنه قد ورد خُصَّ بالبلاء من عرف الناس وعاش فيهم من لم يعرفهم، فربما جالست غير متق وكنت أنت متق، فجرّك إلى الغيبة وقهرك في نفسك ما خرّب القلوب إلا قلة الخوف.

- القلب الحسن هو الذي لا يشغله حسن.

- إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء [٥٨/أ] وحَوّل حالك من الغيبة إلى الحضور والبس ثياب الذلة والمسكنة، فإن القلب يشفي، ولكنك

تحشو بطنك وتفاخر بالسِّمن فمثالك كالخروف الذي يربّى للسمن ثم للذبح، ألا فقد ذبحت نفسك وأنت لا تشعر.

ومنها في مبحث المناجاة: إلهي أمرتَ بالرجوع إلى الآثار، فأرجعني إليك بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السرّ عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها أنك على كل شيء قدير. انتهى.

[شعر في مقام داود]

ثم وصلنا سرور ذلك اليوم المشهود، بالمبيت بسوح خليفة الله داود، عليه وعلى جميع الأنبياء صلوات وتحية فواتحها مكية وخواتمها مسكية.

وجلسنا تجاه مقامه الكريم، نتدارس القرآن العظيم، إلى برق ضياء الفجر ولاح، وحيعل المؤذن بالفلاح؛ فوجدنا لوامع برق القبول لائحة، وعواطف الإمدادات بعطر رياض دوحه فائحة: [من الكامل]

بمقـــام داود النبـــيّ تـــواردت نحوي العواطف من فسيح رحابـــه

وتعطّرت روحـــي بفـــائح دوحـــه لمـــا وقفـــت تأدبـــاً فـــي بابـــه

[كتاب الإعلان للسهيلي]

وقد اطّلعت في تلك الليلة على كتاب (الإعلان في تفسير ما انبهم من القرآن) للعالم العلامة النبيل أبي القاسم السهيلي(١) الجليل فذكر في آخر سورة الكهف أنه لما حان للخضر وموسى عليهما السلام أن يفترقا قال له الخضر: لو صبرت لأتيت على ألف عجب كلها أعجب مما رأيت. فبكى

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير ضرير، ولد بمالقة سنة ٥٠٨ هـ، وهمي وعمره ١٧ سنة. نسبته إلى سهيل من قرى مالقة ، توفي سنة ٥٨١ هـ/ ١٨٥٠ م، الأعلام ٨٦/٤ ووفيات الأعيان ١٤٣/٣، ونكت الهميان ١٨٧، وإنباه الرواة ١٦٢/٢.

موسى على فراقه. فقال موسى للخضر: أوصني[1] يا نبيّ الله، قال: يا موسى اجعل همك في معادك، ولا تَخُضْ فيما لا يعنيك، ولا تأمن الخوف في أمنك، ولا تيأس من الأمن في خوفك، وتدبّر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك. فقال له موسى: زدني يرحمك الله. فقال له: يا موسى إياك والإعجاب بنفسك والتفريط فيما بقي من عمرك. فقال له موسى: زدني رحمك الله!! فقال له: يا موسى إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير أحداً من [٥٨/ب] الخطّائين بخطاياهم بعد الندم، وإبك على خطيئتك، يابن عمران، قال له موسى: قد أبلغت في الوصية، فأتمّ الله عليك نعمته وعمرك في رحمته، وكلأك من عدوّه. وقال له الخضر: أوصني أنت يا موسى، فقال له موسى: إياك والغضب، إلا في الله ولا ترض على أحد إلا في الله، ولا تحب لدنيا، ولا تبغض لدنيا فإنها تخرجك من الإيمان، وتدخلك في الكفر. فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية، فأعانك الله على طاعته وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله. قال له موسى: آمين. انتهى. [من الكامل]

الخضر مع موسى الكليم تواصيا	**حكماً ترقّ لها القلوبُ وتخشعُ**
فاصرف أمورك في المعاد ولا تخض	**في غير ما يعنيك فهو المقنعُ**
والعجب دعه لا تكون مفرّطاً	**فيما بقي فالعمر فيه مضيّعُ**
واحرص على الإحسان مقتدراً به	**فهو الذي يوم القيامة ينفع**
وابغض وحبّ لوجه مولاك الذي الـ	**حسنى له وبه المضرّة تدفعُ**
وارجُ وخَفْ من غير أمن عذابه	**واليأسَ دع في خوفه إذ تفزعُ**
فالقِ إليها السمع لا متغافلاً	**واعمل بها إن كنت ممن يسمعُ**

(١) في م : (أوصيني).

[الخلوة بالحرم المقدسي]

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر مع الجماعة، دعاني الأستاذ إلى باب الرحمة، فأجبت بالسمع والطاعة، ولقنني الاسم الثاني للسادة الخلوتية، فكان لي بذلك أوفى نعمة سنية، وأمرني بالمداومة عليه مكاناً وزماناً، مع ذكري الاسم الأول أحياناً، فتواردت علي بذلك المبشرات، وأيقنت بحصول المبرات والمسرات، ثم أمرني بالخلوة بالحرم المقدس الأنيس، فدخلتها ليلة الاثنين وطلعت ليلة الخميس، وكان حضرة الأستاذ يحضر عندي في بعض الأحيان، ويسألني عما حدث لي بهذا الشأن فأخبره بما يرد علي من الموارد، وما أشاهد في تلك الخلوة من المشاهد، فيبشرني تارة وينذر أخرى لأنه أعلم بذلك، وصاحب البيت أدرى: [من الطويل]

[٥٩/أ] ظفرت بليلي في اجتلائي وخلـوتي ولم أك مـشغولاً ببهجـة جلـوتي

لبست لها ثوب الخلاعـة راضـياً بذلي لـديها فهـي أبهـج حلتـي

[قبة السلسلة وقبة الصخرة]

ثم لم أزل في البيت المقدس، أرتع في روض حماه الأقدس؛ إلى غاية شهر محرم الحرام، وأنا في غاية الأنس وترادف الإنعام، أطوي الليالي بمسامرة الأذكار، وأنشر الأيام بمصاحبة الأخيار، وكنت غالب الأوقات أعتكف بالمسجد الأقصى، أجتني من رياضه ثمار عواطف لا تعدُّ ولا تُحَصى، ومتى سامت النفس مقامها بمعهد، أروحها بالانتقال من معهد إلى مشهد، وبين العشائين أجلس في قبة السلسلة محكمة داود، لوارد أنس ألفيه بذاك المقام مشهود؛ وفي بعض الليالي أنزل تحت الصخرة بذلة وخضوع، فأجد هناك خشية تُجْري من العيون الدموع. فأرفع كفي بالطلب وأرجو من الله بلوغ الأرب، وجدير أن الإنسان لا يستطيع أن يجلس بها بحالة الانفراد، لما يجد فيها من شدة جلال الوراد؛ و لقد حدثتني نفسي فيها ليلة بالمقام، لأجتلي الأنس من واردهن المقام؛ فاستأذنت في ذلك من بها من الخدم، الذي ثبت له في صحبته أوثق قدم، فأجابني هنالك قائلاً: لا قدرة لك على ذلك فبعد صلاة العشاء بهذه الرحاب، نزلت إليها وقد قفلت من قبة الصخرة الأبواب، وجلست تجاه القبلة

مستقبلاً، ولفيض فضل الله الكريم متأملاً، ثم استفتحت بتلاوة القرآن العظيم، راجياً ختمه في هذا المقام الكريم؛ فلما أن وصلت إلى سورة آل عمران، ورد عليّ وارد كاد[1] أن يطيش مني الجنان؛ فصعدت على السرعة من شدة الجزع، وكدت أن أسقط من توالي الفزع؛ فجلست ساعة حتى ثابت إلي النفس، واجتمعت لدي الحواس الخمس؛ وأقبل الخادم إلى نحوي مسرعاً، ولما رأى من حالتي [أقبل] عليّ فزعاً، فسألته عن ذلك السبب؟ فقال لي: هذا جلال من يرد إلى هذا المقام من أهل الرتب؛ فقضيت بقية ليلتي بقبة الصخرة السنية، مستبشراً بحصول المواهب [٥٩ /ب] اللدنية، فيالها من ليلة تحيا بها موات القلوب، ويتجلَّى ببوارقها سحائب الكروب: [من البسيط]

للهِ ليلــــةُ أنـــسٍ طـــاب واردهـــا	**بكعبـــةِ القـــربِ للأركـــانِ نَـــستلمُ**
أضاء نحوي بروقٌ مـــن لوامعهـــا	**فكدت أُصعقُ حيــث العقــل ينــثلمُ**
وأغدقت من سحاب الفيض غادقــةٌ	**غنمتهـــا ففيـــوض الغيـــب تُغتـــنمُ**

التحفة[2] المخيفة في حقيقة الصخرة الشريفة

فإنها صخرةٌ في وسط المسجد مقطوعة الجهات لا يُمسكها إلا الذي يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. وهي مائلة من جهة الجنوب، وفي الجهة الثانية أثرُ أصابع الملائكة التي أمسكتها حين مالت حين ركب النبي r البراق، وقد بُني تحتها بناء تطميناً لمن ينزل تحتها. وعليها قبة في غاية الحُسْن والإتقان، لا يدرك وضعها إلا من شاهدها بالعيان؛ وهي من الأماكن المأنوسة اللطيفة، والمحلات المأثورة المنيفة، وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار، وقد شاع ذكرها في جميع الأقطار.

فعن علي بن أبي طالب مرفوعاً[3]: سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس.

---

(١) في م : (كان) والمثبت للسياق.

(٢) في م : (تحفة المخيفة) والمثبت للسياق.

(٣) الحديث في أنس الجليل ٢٣٦/١، والحضرة الأنسية ١١٢.

وعن ابن عباس مرفوعاً[1]: صخرة بيت المقدس من صخور الجنة.

وعن كعب: الجنة في السماء بإزاء الصخرة لو وقع منها حجر لوقع على الصخرة.

وعن عبادة بن الصامت ورافع بن خديج قالا: إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء قال لصخرة بيت المقدس: هذا مقامي، وموضع عرشي يوم القيامة، ومحشر عبادي. وهذا موضع جنتي عن يمينها وموضع ناري عن يسارها، وفيه أنصب ميزاني أمامها وأنا[2] الله ديان يوم الدين ثم أستوي إلى عليين.

وعن الزُّهْري، عن وهب مرفوعاً: قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس[3]: فيك جَنَّتي وناري وفيك جزائي وعقابي، وطوبى لمن زاركِ. وقال: طوبى لمن رآكِ.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: المياه العذبة، والرياح اللواقح من تحت صخرة بيت المقدس.

وعن [٦٠ /أ] عبادة بن الصامت مرفوعاً[4]: الصخرةُ صخرةُ بيت المقدس على نخلة، والنخلة على نهرٍ من أنهار الجنة، وتحت النخلة آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران ينظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس مرفوعاً[5]: الأنهار أربعة: سيحان وجيحان والفرات والنيل: فأما سيحان فنهر بلخ، وأما جيحان فدجلة، وأما النيل فنيل مصر، وأما الفرات ففرات الكوفة، وكل ما يشرب ابن آدم من هذه الأربعة يخرج من تحت الصخرة.

---

(١) الحديث في أنس الجليل ٢٣٥/١.

(٢) في م : (وأن) والمثبت هو الأشبه.

(٣) الحديث في الحضرة الأنسية ١١٢.

(٤) الحديث بدون لفظ الصخرة الأول في الحضرة الأنسية ١١١.

(٥) الحديث مختصراً في الحضرة الأنسية ١١٠ - ١١١.

وعن كعب أنه قال[1]: ما من نقطة من نمير عذبة إلا ومخرجها من تحت صخرة بيت المقدس.

وعن مكحول[2] قال: من أتى بيت المقدس، فصلّى عن يمين الصخرة وعن شمالها، ودعا عند موضع السلسلة[3]، وتصدّق بما قلّ أو كثر استُجيب له دعاؤه وكشف الله حزنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه [وإن سأل الله تعالى الشهادة أعطاه إياها].

فينبغي[4] لمن أراد الدخولَ إليها أن يبدأ بالرِّجل اليمين، قائلاً: اللهم اغفر لي [ذنوبي] وافتح لي أبواب رحمتك، اللهم من أتاه من ذي ذنبٍ فاغفر ذنبه، أو ذي ضُرٍّ فاكشف ضُرَّه. اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وبكَ أصبحت وأمسيت، ذنوبي بين يديك، أستغفرك وأتوب إليك، يا حنان، يا منان.

ثم يدعو بعد ذلك بما شاء من الدعوات، فإنه من مواطن الإجابات [من الكامل]

ولصَخْرةِ الأقصى الرَّفيعِ فضائلٌ ... فَبِمدحها وردَ الحديثُ المُسْنَدُ

ولها افتخارٌ حيثُ كانتْ قِبْلةً ... وبها لأرباب المعارفِ مَعْبَدُ

وبليلةِ الإسرا الشريفة خُصِّصتْ ... بمزيةٍ حيثُ ارتقاها أحمدُ

نروي من الأخبارِ نصّاً أنها ... خيرُ الصُّخورِ بها المآثر تشهدُ

مَنْ زارَها تَمْحو جَميعِ ذُنوبهِ ... وكفى بذاكَ فضيلة لا تُجْحَدُ

فيها الحبورُ مع الأُجور مضاعفٌ ... وكذا القَبولُ لمن بها يَتَعَبَّدُ

فإذا وصلتَ إلى حماها فاغْتَنِمْ ... قَصْدَ الأجورِ فنِعْمَ ذاكَ المَقْصَدُ

---

(١) الحديث برواية أخرى في الحضرة.

(٢) الحضرة الأنسية ١٠٦، والزيادة عنه.

(٣) هذا الكلام متفرق في الصفحتين ٢٤٢/١ و٢٤٣ من الأنس الجليل .

(٤) تحدث عنها ذاكراً قصتها ابن الحنبلي في الأنس الجليل ١٤٢/١.

وكم بهذا المشهد النفيس، من مشهدٍ ومعهدٍ أنيس؛ فمنها قبة المعراج، ذات الضياء والنور الوَهّاج؛ ومحلّ رؤيته r الحور العين، عن أيمن الصخرة الشريفة بيقين؛ وموضعُ ما صلّى بالنبيين والملائكة، [٦٠/ب] في تلك القبة المباركة؛ ومحكمة داود عليه السلام، وهي قبة السلسلة ذات الإحكام؛ ومهد عيسى بن مريم، الذي نور سناه قد عَمَّ؛ والصخرة التي وقف عليها سيدنا سليمان، حين أتم بناءه[1] ودعا فاستجاب له الرحمن؛ ومحراب نبي الله داود، ذو الجلال المشهود؛ ومحراب نبي الله زكريا، إذ دعا الله به دعاءً خَفيّاً؛ وبئر الورقة المشهور، وسوق المعرفة غير المنكور، وموضع مُصلّى الخَضر عليه السلام، كما شاهد بذلك بعض الأئمة الأعلام؛ فلعمري لو شاهدتَ تلك المشاهد، ورأيتَ أنوار هاتيك المعاهد؛ لبكيتَ حسرة[2] وتأسّفاً، حيث كنتَ عنها في سالف الزمن متخلّفاً؛ ولقرعتَ سنَّ النَّدم، حيث فاتك ذلك المُغْتنم. فلقد قال بشرٌ الحافي[3] الولي الهمام[4]: لم يبق عندي من لذات الدنيا إلا أن أكون بالمسجد الأقصى والسلام: [من الكامل]

للأنبيـــاء مـــشاهدٌ مـــشهودةٌ ... بالمسجد الأقصى الرفيـع المعهـدِ

بيمينِ صخرتِهِ شـهودُ المُـصطفى ... للحـور ربّـاتِ الجمـالِ المفـردِ

ومحلُّ ما صـلَّى بـأملاك الـسَّما ... والأنبيا أعظِـمْ بـه مِـن مَـشْهدِ

ومحلُّ بدا عُروجـه نحـوَ العُـلا ... رَفْعـاً فـنِعْمَ المُبْتَـدا والمُبْتَـدي

محـــرابُ داود وقُبَّـــةُ حُكْمِـــهِ ... ومحـلُّ مهـدٍ للمـسيح الأزْهَـدِ

---

(١) بعد لفظ (بناء) في م كلمة أخرى مضروب عليها وفوقها حرف الهاء.

(٢) في م : (حسرتا).

(٣) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن أبو نصر، المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين، وله في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل مرو سكن بغداد وتوفي بها. ولد سنة (١٥٠ هـ/ ٧٩٧ م)، وتوفي سنة (٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م) تاريخ بغداد ٦٧/٧ - ٦٨ وحلية الأولياء ٢٣٦/٨، وطبقات المناوي الكبرى ٢/١/ ٥٥٧، والأعلام ٢٦/٢.

(٤) هذا القول في طبقات المناوي ٥٥٩/٢/١

ومــآثرٌ مــشهورةٌ بُــشْرى لمــن	وافى لهــا مــن مُــتهمٍ أو مُنجـدِ
لو شاهدَتْ عَينــاكَ منهــا مــشهداً	لوقفــتَ مُندهــشاً بــذاك المَــشهد
فعَسى تسيرُ بــك العِنايــةُ نحــوه	وتحلّ مــن عَلْيــاه أفــضلُ مَعبــدِ
وإذا وصلتَ إلــى حمــاهُ فــاغتَنِمْ	صَفوَ الزّمــانِ وفُرصــةَ المُتَعبِّــدِ
واكحلْ جُفونَك من ثَــرى أعتابــه	فهو الــشِّفاء لكــلِّ طــرفٍ أرمــدِ
وانظُــر لــــه ببَــصيرةٍ مَجلــوّةٍ	لترى الحقائقَ مــن عــلاه تَبْتَــدي
واشرَبْ من الكأس المروق مَشْرباً	كالسَّلْسبيلِ الصِّرْفِ عَذْبِ المَــوْرِدِ

١ -[اجتماعه بالسيد المصطفى البكري الصديقي]

ولقد اجتمعت حال مقامي بالقدس بأئمة سادة، فحصل لي بصحبتهم الحسنى وزيادة؛ فمنهم الإمام الكامل، صاحب النسب الباذخ، [٦١/أ] والحسب العالي الشامخ، فرع الشجرة العلوية، وثمرة الشجرة الشريفة البكرية؛ صاحب الذات اللطيفة القدسية، وكنز الخصال الحميدة السنية؛ أستاذنا الأعظم، وملاذنا الأكرم، مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي(١)، الشارب من كؤوس المحبة الشراب الحقيقي، فطالما اقتبست من مشكاة بهجته أنواراً، واجتنيت من حدائق روضه أسراراً؛ ومنحني من موانحه إمداداً، وأتحفني من سوانحه أوراداً؛ فمن ذلك ورد السحر والإشراق، وورد الضحى الذي عمّ سره الآفاق؛ وأفادني من غرر فوائده فوائد، هي في عقد جيد الزمان فرائد:

منها أنَّ الإنسانَ إذا خافَ من عدوٍّ فليأخذْ قبضةً من ترابٍ ويجلس ثم يقول: ساهوا، باهوا، تاهوا، الملجم، النحار الله، اللهم يا من ألجمتَ لسان كل متكبر بلسان قدرتك، سلِّمْ سلِّمْ سلِّمْ، ثم يَرُشُّه تجاه العدو، فإنه يُكْفاه.

قال: ولقد جربتُ ذلك فوجدتُه صحيحاً في الاختفاء من الأعداء.

---

(١) تقدمت ترجمته في ص ١٠٣ هـــ ٤.

ومنها أن الإنسانَ بعد صلاة الصبح والمغرب يضع يده اليمنى على قلبه ويقول (يا فتاح) إحدى وسبعين مرة، فإنه مجرب للفتوح.

ومنها: أن الإنسان إذا خاف شرّ إنسان أو غيره، أن يقرأ آية **(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلَى مَعادٍ)** [القصص: ٢٨/٨٥]، يكررها مراراً فإن الله تعالى يصرف عنه شرَّ من أرادَه بسوء[١]: [من البسيط]

روضٌ من الفضْل قد سحَّت غوادقُهُ	**وفاحَ من عَرْفِهِ كالــسّند عــاطِرُه**
حاولت أحصي الذي أبداه من حِكَمٍ	**فما استطعتُ وهل شَـــهْمٌ يُنَـــاظِرُه**
وكيفَ أُحصي الذي أمـــلاهُ ســـيدنا	**والروضُ إن جلَّ لا تُحْصَى أزاهرُه**

٢ - [وبالشيخ محمد الخليلي]

ومنهم مجمع بحر الشريعة والحقيقة، ومصدرُ أهل السلوك والطريقة، خلاصة أصحاب العلوم، مختار أهل الحدود والرسوم، العمدة الكامل الهمام، والعلامة الجهبذ الإمام، مولانا الشيخ محمد الخليلي[٢] الشافعي المذهب، من له في كل فن اجتهاد ومذهب، فكنت أَرِدُ لمجلسه كلَّ يومٍ بين العصرين، فأسمعُ منه فوائدَ تَقَرّ بها العين، وأجلس معه في حلقة [٦١/ب] الذِّكْر ليلة الجمعة بسطح الصخرة السنية، استشرافاً لتنزلات الفيوضات الربانية؛ فكانت تلوح علينا من هنالك مشارقُ الأنوار، وتبدو لنا بوارقُ لوامع الأسرار، وقد كتب لي إجازةً بجميع مَرْوياته؛ بخطِّه الكريم، وبدأها بخطبة وبحث عظيم، يشهد أنَّ له بفضله الجسيم، وفوقَ كلِّ ذي علم عليم، وأفادني صلوات نبوية، على أشرف خير البرية؛ وهي التي[٣] أهداها الفخر الرازي عمدة أهل العرفان إلى ابن العراقي[٤]،

---

(١) استدرك هذا اللفظ في هامش م.

(٢) تقدمت ترجمته في ص ١٠٥(هـــ١).

(٣) في م : (الذي) والمثبت للسياق.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله، فخر الدين الرازي الإمام المفسر مولده في الري سنة (٥٤٤ هــ/ ١١٥٠ م) رحل إلى بلاد كثيرة ، وتوفي في هراة سنة (٦٠٦ هــ/ ١٢١٠ م). له مؤلفات كثيرة (طبقات الأطباء، وذيل الوضتين، ووفيات الأعيان ٢٤٨/٤ - ٢٥٢، وطبقات الشافعية ٣٣/٥، والأعلام ٢٠٣/٧).

عليه الرحمة والرضوان؛ وذكر أن من قرأها كلَّ يوم مرةً كان تحت نظر القطب النافذ في الخلق أمره، الذي هو الكعبة الحقيقية، ومحل نظر من هذا العالم أعظم بذلك مزية ؛ وهي:

اللهم جدِّد وجرِّد من صلَواتكَ التامّات، وتحياتك الزاكيات، ورضوانك الأكبر، الأتم الأدوم، على أكمل عبدٍ لك في هذا العالم من بني آدم، الذي أقمته لك ظِلاًّ، وجعلته لحوائج خلقكَ قِبلةً ومَحلاًّ؛ واصطفيتَه لنفسكَ، وأقمتَه بحجتك، وأظهرته بصورتك واخترته مستوى لتجليك، ومنزلاً لتنفيذ أوامرك ونواهيك، في أرضك وسمواتك، وواسطة منك، وبين مكوّناتك. وبلّغ سلام عبدك هذا إليه فعليه منك الآن أفضل الصلوات، وأشرف التحيات، وأزكى التسليمات.

اللهم ذكِّرْه بي ليذكرني عند بما أنت تعلم أنه نافع لي عاجلاً وآجلاً على قدر معرفته بك، ومنزلته لديك لا على قدر علمي، ومنتهى فهمي، إنك بكل فضل جدير، وعلى كل شيء قدير. وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً.

وحضرة مولانا الشيخ المذكور، فضله في جميع الأقطار مشهور، وهو مقصدٌ لذوي الحاجات، وموصوف بإجابة الدعوات، فلو صليت خلفه وسمعت قراءته في المحراب، لأدركك من الخشوع ما لا يزيد عليه، ولظننت أنه نبي الله داود الأواب.

ومن كراماته أنه كلمه من قبره موسى عليه السلام، كما هو مستفاض ذلك بين يدي الخاص والعام، أمدَّنا اللهُ تعالى من إمداده، ولحظنا من عواطف إسعاده، [من الكامل]

[٦٢/أ] مولًى تَوَلّتْهُ العنايةُ قبلُ أنْ	**يبدو إلـى هـذا الوجـودِ مُمَجَّـدا**
فبدا على سَـنَنِ الهدايـة سـالكاً	**ومُسلِّكاً أهـلَ الطَّريقـة بالهُـدى**
سمْعُ الكلامِ مـن الكلـيمِ كرامـةٌ	**بمقامِـه أعظِـمْ بـذلكَ مَـشْهدا**

٣ - [وبالشيخ أحمد المؤقت]

ومنهم صاحب الطبع السليم، والحال المستقيم، والفهم الذي يسبق هبوب النسيم، جامع الأخلاق السَّنية، وحاوي الفضائل السُّنية؛ المتحلّي بمحاسن العفاف والشيم؛ ومن له في حل المشكلات أثبتُ قدم؛ مولانا الشيخ أحمد المؤقّت(١) بحرم القدس، المالكي المذهب المحيط ببقية المذاهب بلا لبس، فطالما كنتُ أجتمع بحضرته الشريفة، وتجري ما بيننا مباحث علمية لطيفة، وإنه يذعن للحق حيث ما دار، ويعترف به ويرجع إليه بلا إنكار.

وقد اتَّفق لي معه أنه صدر ذكر بناء سيدنا داود عليه السلام البيت المقدس البديع الإحكام، فقلت إنه بناه سنة خمسٍ وسبعين وأربع مئة لوفاة موسى عليه السلام، فقال لي: لا يصحّ هذا الكلام، وأجرى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، لمّا أمرهم الله تعالى بدخول الأرض المقدسة كما هو في محكم التنزيل، وأنه دخل من باب حطة مع المؤمنين، وأنه مكتوب عليه الاسم الأعظم بيقين، فقلت له: أنا ناقل صاحب الأنس الجليل(٢)، وإني على يقين من هذا النقل وعلى الدليل؛ فقال: لعلَّ ذلك تحريف من الكُتّاب، نقل خلافَ الصواب، ثم إنه فكر ساعة وقال: أنت على الحق اليقين، ولك دليل على ذلك بنص الكتاب المبين وهو قوله تعالى: **﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة: ٢/٢٤٨]، وذلك في زمن داود حين قتل طالوت جالوت فانظر إلى إقراره في الحال، خلافاً لما عليه بعض المتعصّبين الجُهّال.

---

(١) ذكره المرادي في سلك الدرر ٢/٥ لبدر الدين محمد بن بدر الدين بن جماعة المقدسي مفتي القدس سنة ١١٧٢ هـ، والذي توفي سنة ١١٨٧ هـ.

(٢) في الأنس الجليل ١٧٠/١ أنه فرغ من بناء بيت المقدس أواخر سنة ست وأربعين وخمس مئة مما يؤكد ما قاله اللقيمي فوق.

استطراد

الشيءُ بالشيء يُذْكر، والمناسبةُ لا تُنكر. اعلم أنَّ حقيقةَ التابوت قد كثرت فيه الأقاويل والنعوت.

[قصة التابوت]

قال البغوي[1] في قوله تعالى: **(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ)** [البقرة: ٢/٢٤٨]:

وكانت قصة التابوت أن الله تعالى أنزل تابوتاً على آدم فيه صور الأنبياء، وكان من عود الشمشار نحواً من ثلاثة أذرع في [٦٢/ب] ذراعين فكان عند آدم إلى أن مات، ثم بعد ذلك عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده، ثم عند يعقوب، ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه وكان عنده إلى أن مات، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت اشماويل.

وكان فيه ما ذكر الله تعالى: **(سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ)** [البقرة: ٢/٢٤٨].

واختلفوا في السكينة ما هي:

قال علي بن أبي طالب: ريح حجوج هَفَّافَة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان.

وعن مجاهد: شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة، وذنب كذنب الهرة وله جناحان.

وقيل له عينان لها شعاع وجناحان من زمرد أخضر وزبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته أيقنوا بالنصرة.

---

(١) تفسير البغوي(سورة البقرة٢٤٨)، وفي كتب التفسير:(الشمشار:بمعجمتين، أولاهما مكسورة، وبينهما ميم ساكنة، وهو خشب تعمل منه الأمشاط) انظر السراج المنيرللخطيب الشربيني ١/ ١٦١

وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت أمامهم فإذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا.

وعن ابن عباس قال: طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن منبه قال: هي روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون.

وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات، فيسكنون إليها.

وقال قتادة الكلبي: السكينة فعيلة من السكون أي طمأنينة من ربكم ففي أي كان التابوت اطمأنوا إليه، وسكنوا وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، يعني موسى وهارون نفسيهما كان فيه لوحان من التوراة ورضا من الألواح التي تكسرت وكان فيه عصا موسى ونعلان وعمامة هارون، وعصاه وقفيز من المن الذي كان ينزل بالحق على بني إسرائيل، فكان التابوت عند بني إسرائيل، وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون على عدوهم فلما عصوا وفسدوا سلط الله عليهم العمالقة، فغلبوهم على التابوت إلى أن كان منهم ما كان وملك عليهم طالوت وكان آية ملكه .. الآيتان بالتابوت تحمله الملائكة.

قال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت تحمل بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه عند طالوت إلى آخر ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز. انتهى.

٤ــ [وبالشيخ علي الداغستاني]

ومنهم المتجرد عما سوى الله في التوجيه إلى المناهج السنية اللابس من لباس [٦٣/أ] التقوى، أشرف حلة بهية، حاوي علوم الشريعة والحقيقة والآداب، السالك في طرقها مسالك الصواب، الإمام العالم الأوحد الرباني

العارف بالله مولانا الشيخ علي الدغستاني[1] الشافعي طالعت عليه جملة من الرسالة القشيرية بالمسجد الأقصى بالمدرسة السلطانية، وهو ممن له قدم في العبادة والزهد والصلاة والصوم، ذو معرفة تامة بآداب التصوف واصطلاح القوم، فلا يخلو مجلسه من حكمة يبديها، ووصية من وصايا القوم يرويها.

فمن حكمه: ثلاثة من الشدائد لا يجوز للعاقل نسيانُها؛ فناءُ الدنيا وانقضاؤُها، وتقلبُ أحوال الزمان، ومحنُ الدهور والأيام.

قيل لحاتم الأصم[2]: علامَ بَنيتَ أمرك؟ قال: على أربع خصال[3]:

علمتُ أنَّ رزقي لا يأكله غيري فلم أهتم به،

وعلمتُ أن عملي لا يهتمّ به غيري فأنا مشغولٌ به،

وعلمتُ أن الموتَ يأتيني بغتة فأنا مبادرُه،

وعلمتُ أني بعين الله تعالى في كلّ حال [فأنا مستحٍ منه].

وأنشدني لابن العربي الهمام وصيةً من بديع النظام[4]: [من الخفيف]

احذَرِ[5] الموتَ تنجُ من كلِّ همٍّ ... ودَعِ الافتكار في كل فاني

---

(١) هو علي بن صادق بن محمد بن إبراهيم بن محب الله حسين بن محمد الحنفي الطاغستاني الأصل والمولد. ولد في حدود سنة خمس وعشرين ومئة وألف وقرأ على جملة من علماء بلاده ثم رحل إلى الحجاز وأخذ بالمدينة عن محمد حياة السندي ثم قدم دمشق واستوطنها في سنة ١١٥٠ وتوجه له التدريس تحت القبة، وله مؤلفات، توفي سنة ١١٩٩ هـ (سلك الدرر ٢٢٨/٣).

(٢) حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم. زاهد اشتهر بالورع والتقشف من أهل بلخ، صحب شقيقاً البلخي، زار بغداد واجتمع بابن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح ، توفي سنة (٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م) تاريخ بغداد ٢٤١/٨، وحلية الأولياء ٧٣/٨، ووفيات الأعيان ٢٦/٢، وطبقات المناوي الكبرى ١/ ق١/ ٥٨٩، والأعلام ١٥١/٢).

(٣) القول بروايتين في حلية الأولياء ٧٣/٧.

(٤) ديوان ابن عربي.

(٥) في م : (احظر).

والزمِ الصَّمتَ ما استطعتَ وخُذ   بالصّدق واصبر في سائر الأحيانِ

وإذا عزّ أو تشابه أمرٌ   فتمسَّكْ بمحكم القرآنِ

من سوس النفس أنك كلما قتلتها بسيف المجاهدة أحياها الله تعالى ونازعتك وطلبت منك الشهوات فتقتلها[1]، ثانياً ثم تعود حية فيُكْتَب لك ثواب دائم، وهذا هو الجهاد الأكبر.ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: الدنيا مَزْرَعةُ الآخرة، ودارُ جهادها الجوعُ، وغايةُ جهادها مخالفةُ الهوى.

ومن وصايا ابن العربي قدس الله سره[2]:

اعلم أن جماع الخيرات رأس السعادات في التقوى، والتقوى هي عبارة عن ترك المخالفة، فالمتقي اتَّقى مخالفيه مولاه في أمر أو نهي ولهذا ضرب الله المثل بإبليس وآدم؛ فأمر إبليس ونهى آدم، فافهم هذا جيداً، وابسط في نفسك هذا المختصر، وطالعه طول أيام حياتك. واعلم أنك لا تقوى على تقوى إلا بالصبر فعليك به في كل آن واسأل الله إعانتك بالصبر على ما تكرهه وعما تهواه، واصبر وما صبرك إلا بالله. [٦٣/أ] [من المتقارب]:

سبيل النجاة وأقصى المرام   يكون بصبرٍ على المتعبِ

فأين النجاةُ وأين المرامُ   وكلٌّ يميل إلى الطيبِ

٥ - [العلامة أبو بكر العلمي]

ومنهم فخر المدرسين الأنجاد، السالك سبيل الإسعاد والإمداد، الفاضل البارع، والكامل المتواضع، وارث الفضل والمجد، عن أبٍ وجد، العلامة أبو بكر العلمي، مفتي السادة الحنفية، بالديار الشريفة القدسية، بيننا وبينه وصلة أرحام، من الجد الأعلى العز بن عبد السلام، وقد حصل ما بيننا وبينه من الصحبة كمال الألفة ومزيد المحبة.

---

(١) في م : (فنقلها) والرواية الثانية في هامشها.

(٢) لم أجد هذا النص في كتاب الوصايا لابن عربي.

وأفادني أن العلامة الشبرخيتي روى في شرحه للأربعين[(١)] أنه من كتب أسماء تسعةٍ من التابعين ووضعهم في كفن الميت أمن فتنة القبر، وهم أويس القرني، ومعروف الكرخي، وربيع، وهازم، والحسن، وعامر، وأبو مسلم الخولاني، ومسروق، وأسود.

فنظمتُ أسماءهم الشريفة على الترتيب في الذكر ليكون أقرب في استحضارهم وثبوتهم في الفكر: [من الطويل]

أويسٌ ومعــروفٌ ربيــعٌ وهــازمٌ	**كذا الحسن البصري يتلــوه عــامرُ**
أبو مسلمٍ الخولان مسروقُ أحمــدٌ	**فتسعتهم بالفيض ســحبٌ مــواطرُ**
إذا وُضعَت في درج ميــت بطاقــةٌ	**فذاك أمــان الميْــت ممــا يُحــاذرُ**

٦ - [الشيخ عبد المعطي الشافعي]

ومنهم العمدة الفاضل، والإمام الكامل، والمتقي العابد، الناسك الزاهد، مولانا الشيخ عبد المعطي الشافعي الهمام، السالك طريقة الأئمة السادة الأعلام، الملازم للمسجد بالمدرسة النحوية، فلا يخرج منها إلا لحاجة ضرورية مشتغلاً بنسخ الأحاديث والآثار، وأن له شهرةً بضبط الكتابة في تلك الأقطار.

ومما أوصاني به من بعض وصايا القطب الرباني، سيدي عبد القادر الجيلاني، إذا سألت ربّك حاجة فتعايى عن الجهات كلها حال طلبك ولا تنصّ عن جهة معينة فإن ربك غيور فلا يفتح لك بابَ فضله وأنت محجوب عن ناظر إلى جهة غيره أحد من عبيده، والاغترار بصفاء الأوقات في غفلتك آفات. انتهى.

وأنشدني أبياتاً لسيدي محيي الدين قدس الله سره العزيز آمين. [من السريع]

[٦٤/أ] يا مَنْ تَقَضَّى عمرُهُ فــي ضــلالْ	**ويَــدَّعي مــا يَدَّعيــه الرِّجــالْ**
يسيرُ ســيرَ القــومِ فــي زعمــه	**وحالُــه مــن غيــر شــكٍّ مُحــالْ**
عنــديَ واللهِ الــدواءُ الــذي	**يَشفي من الداء الــدويِّ العُـضالْ**

---

(١) الفتوحات الوهبية في شرح الأربعين حديثاً النووية.

افــرضْ بــأنَّ المــوتَ عاينْتَــه … وقــد تقَــضَّى كــلٌّ قيــلٍ وقــالْ

وعـــادةُ[1] الـــدنيا ولَـــذّاتها … حَقيقــةٌ بــالموتِ شِــبه الخَيــالْ

فكُــنْ علــى ذلــك واعمــلْ بــه … فــي كــلِّ آنٍ وعلــى كــل حــالْ

ولم أجتمع بالقدس بأحد إلا ببعض أفراد، من الذي له صدق محبة لنا وحسن وداد؛ فإنَّ في العزلة عزّاً دائماً[2] ونعمة، وهي الصمتُ من تمام الحكمة[3]. [من البسيط]

لما غَدوتُ عــن الأغيــار مُنْفــردا … أصبتُ في عزلتي عِزّاً كما شــهدا

وصنتُ طرفَ لساني أن يلــمّ بــه … لهوُ الحديثِ لكي أحظى بنهج هدى

وحكمةُ المرء عشرٌ قُــسِّمتْ وبــذا … جاءَ الحديثُ به نَروي لــه ســندا

في الصَّمتِ تِسْعةُ أجزاءٍ وعاشرها … في عزلةِ المرء مهما انحازَ وانْفردا

عليكَ بالصَّمت والزَمْ عزلــةً أبــداً … تستكملِ الحكمةَ الغــرا كمــا ورَدا

وهما من أركان الطريق لصناديد الرجال، وهما من الجوع والسهر من حلية الأبدال، فقد قال ابن عربي في حلية الأبدال[3]:

الصمتُ على قسمين: صمتٌ باللسان عن الحديث لغير الله تعالى مع غير الله تعالى جملة واحدة، وصمتٌ بالقلب عن خاطر يخطر في النفس في كون من الأكوان البتَّة.

فمن صمتَ لسانُه ولم يَصْمتْ قلبُه خَفَّ وِزْرُه، ومن صمتَ لسانه وقلبه ظهر سرُّه وتجلَّى له ربه.

ومن صَمَت قلبُه ولم يصمتْ لسانُه فهو ناطقٌ بلسان الحكمة.

---

(١) في م : (وعادت) والمثبت للسياق.

(٢) في م : (فإن في العزلة عز دائم ونعمة) وما هنا للسياق.

(٣) حلية الأبدال لابن عربي - تحقيق الأستاذ عبد الرحيم مارديني - (٥٠-٧٤) نقله اللقيمي بتصرف.

ومن لم يصمتْ بلسانه ولا بقلبه كان مملكةً للشيطان ومسخرة له.

فالصمت يورثُ معرفة الله تعالى.

والعزلة على قسمين: عزلة المريدين وهي بالأجسام عن مخالطة الأغيار، وعزلة المحققين وهي بالقلوب عن الأكوان، فليس محلاً لشيء سوى العلم بالله تعالى. وللمعتزلين نيّات ثلاث: نية أتقاء شر الناس، ونية أتقاء شره المتعدي إلى الغير وهو أرفع من الأول، فإن في الأول سوء الظن بالناس، وفي الثاني سوء [٦٢/ب] الظن بنفسه، وسوء الظن بنفسك أولى لأنك بنفسك أعرف، ونية إيثار صحبة المولى من جانب الملأ الأعلى، فأعلى الناس من اعتزل لنفسه إيثاراً لصحبة ربه.

فمن آثر العزلة على المخالطة فقد آثر ربه على غيره. ومن آثر ربه لم يعرف أحد ما يعطيه الله من المواهب [والأسرار].

فالعزلة تورثُ معرفة الدنيا.

والجوع جوعان: جوع اختياري، وهو جوع السالكين، وجوع اضطراري وهو جوع المحققين، فإن المحقق لا يجوّعُ نفسَه ولكن يُقَلِّل أكله إن كان في مقام الأنس، فإن كان في مقام الهيبة كثر أكلُه، وكثرة الأكل للسالكين دليل على بعده من الله تعالى وطردهم عن بابه، واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم. وقلة الأكل دليل على نفحات الجود الإلهي على قلوبهم فيشغلهم ذلك على تدبير جسومهم، والجوع بكل حال ووجه سبب داع إلى نيل عظيم الأحوال من السالكين والأسرار للمحققين. فالجوع يورث معرفة الشيطان، والسهر نتيجة الجوع فإنه المعدة إذا لم يكن بها طعام ذهب إلى النوم.

والسهر سهران: سهر العين، وسهر القلب. فسهر القلب انتباهه من نوم الغفلات طلباً للمشاهدات، وسهر العين رغبة في بقاء الهمة في القلب لطلب المسامرة. فالسهر يورث معرفة النفس وأحد أركان المعرفة إذ المعرفة تدور على تحصيل هذه الأربعة المعارف: معرفة الله والنفس والدنيا والشيطان، فإذا اعتزل الإنسان عن الخلق، وعن نفسه، وصمت عن ذكره بذكر ربه إياه،

وأعرض عن الغذاء الجثماني وسهر عند موافقة نوم النائمين، واجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة بدلت بشريَّته ملكاً وعبوديته سيادة، وغيبته شهادة وباطنه ظاهراً [من الكامل]

يـــا مَـــنْ أرادَ منـــازلَ الأبـــدالِ **من غيـــرِ قَـــصْدٍ منـــه للأعمـــالِ**

لا تطمعنَّ بها فلستَ مـــن اهلهـــا **إنْ لم تُـــزاحمهم علـــى الأحـــوالِ**

واصمُتْ بقلبكَ واعتزلْ عن كلّ من **يُدْنيكَ من غيـــر الحبيـــبِ الـــوالِي**

وإذا سهرتَ وجُعْتَ نلـــتَ مَقـــامَهم **وصَحبتَهم فـــي الحـــلِّ والتَّرحـــالِ**

[٦٥/أ] بيتُ الولايةِ قُسّمت أركانُـــه **ســـاداتُنا فيـــه مـــن الأبـــدالِ**

ما بـــين صـــمتٍ واعتـــزالٍ دائـــمٍ **والجوع والـــسهر النزيـــه العـــالي**

والله تعالى يوفقنا وإياكم لاستعمال هذه الأركان، وينزلنا وإياكم منازل الإحسان إنه الولي المنان. انتهى من حلية الأبدال مختصراً من غير تفسير بحسن الإعانة والتيسير.

[نابلس]

وفي يوم الأحد المبارك غرَّة صفر الخير عزم أستاذنا الصديقي على السفر والمسير إلى ناحية نابلس الفيحاء وواديها، وزيادة مَن حَلَّ من الأنبياء والأولياء بساحة ناديها، فطلعتُ معه مصاحباً وكنتُ إلى متابعته راغباً، وبصحبته جماعة من المسترشدين وهم إلى خدمته من السابقين، وهم الشيخ إبراهيم الرابي والشيخ إسماعيل النابلسي[(١)] والشيخ سلامة والشيخ مقبل، والشيخ رضوان ذو الصلاح والاستقامة، فصلَّيتُ ركعتين بالمسجد مودِّعاً، وأضحى الفؤاد بفراق هاتيك المآثر مروعاً.

---

(١) إسماعيل بن الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي. كان من المشايخ الموسومين بالصلاح والتقوى والعلم ولد بدمشق سنة ١٠٨٥ ونشأ في كنف والده الأستاذ وعليه قرأ علومه وعلى الشيخ الملا.. الكردي نزيل دمشق وإسماعيل الحايك وأبي المواهب الحنبلي وولده الشيخ عبد الجليل. درس بالسلمية في صالحية دمشق في دارهم (سلك الدرر ٢٩١/١).

وخرجتُ من المسجد الشريف باكياً، ولاعجُ الغَرام بالقلب أمسى زاكيا. [من الكامل]

سفحُ الجفونِ لذي الصبابة فاضِـحُ والعُذْرُ في سحِّ المـدامعِ واضِـحُ
غلبَ التَّشوُّفُ والتَّشوُّقُ والجَـوى فإذا العيونُ مـن الغـرامِ سـوافِحُ
إني أُلامُ وقـد تجـاذَبني الهَـوى والشَّوقُ للبيـتِ المقـدَّسِ طـافحُ
فارقـتُ واديـه المبـاركُ حولَـهُ وعُيون أشـجاني إليـه طـوامِحُ
أعظِـمْ بمسـجدِه الأنـيس فإنـهُ حـرمٌ بـه للوافـدينَ مـوانِحُ
لا أنْثَنـي مُتـشوِّقاً لعُهـوده فلَطالمـا نفـعَ المَـشوقَ مَطـامحُ
أرجو الإيابَ لـسوحِهِ الـسّامي فـي لِيَلوحَ لـي بالبِـشْر منـه لـوائِحُ

ولقد كنت أود لو طال بالقدس المقام، ولا قُوِّض لي عن ذاك الحمى خيام، كما كنت أجد منه الراحةَ والإيناس، وعدم الإضاعة وحفظ الأوقات والأنفاس، فيحقُّ لي أن أهيمَ شَوقاً وأترنَّم وَجْداً وأُشبِّب بمشاهده التي حلَّت مصادراً ووردا: [من الطويل]

وما زلتُ بالوادي المُقدَّس مُولَعـاً يشُوق فؤادي منه مُغْـنٍ ومعهـدُ
[٦٥/ب] ووجدي به ينمو لفـرط صـبابةٍ وبُرْءُ الأسى مـن ذِكْـره يتَجَـدَّدُ
وكنتُ أظنُّ القُرب يطفـي تَـولُّعي فزادَ هيامي فوقَ ما كنـتُ أعْهَـدُ
فحتّى متـى أحْظـى بمنهـلِ وِرْدِه لكيما حلا تلـك المـشاهد أشْـهدُ
ويُسْعدني دَهْـري بمـشهدِ نُـوره فذاك بـه منـه الـسعادةُ تـشهدُ

ثم امتطينا متون الجواد، مستبشرين بحصول المسرة والإسعاد، نؤمَّ مقامَ نبي الله اشماويل عليه السلام، نرتجي منه حسن القِرى ومزيد الإنعام: [من الوافر]

نبـيَّ الله إشـماويلَ سِـرْنا لنحـوكَ نَبْتغـي أسْـنى المَطالـبْ
وإنّـا فـي رحابـكَ إن نَزَلْنـا أَصَـبنا منـكَ إنجـاحَ المـآربْ

[مقام اشماويل عليه السلام]

فوصلنا ضَحْوة النهار إلى رحابه الشريف، وضريحه السامي الذُّرا المنيف، بحمى قرية رامة[١]، وقد بلغ كلّ منّا من المَسَرّة مرامه، فنزلنا بساحته العلية وروضته السامية الزكية، وقبّلنا ثرى تلك الأعتاب، واجتلينا كؤوس الإمداد، نحن وأولئك الأصحاب، وأهدينا لجانبه ما تيسَّر من القرآن، واستمطرنا من فيض جود وابله الهتان ودعونا الله بهذا المقام، بالتوفيق وحسن الختام: [الكامل]

بلغ المشوق من الوصـــال مرامَــهْ ... لما نحى بـــالعيس دوحـــة رامَـــهْ

وشذا العبير بـــسوحها متـــضوعاً ... يروي لـــه عنهـــا حـــديث تهامَـــهْ

وبـــدا لاشـــماويل نـــورُ نُبـــوَّةٍ ... أضْحى على ذاك المقـــام علامَـــهْ

فهو الصفيُّ المجتبـــى والمحتبـــى ... بنُبـــوّة رفـــعُ الإلـــهُ مَقامَـــهْ

وافى بني الأسباط حيـــث تفرّقـــوا ... إذ زال ملكهـــم أقـــام قَوامَـــهْ

فتَقَـــوَّمَ الـــدينُ الحنيـــفُ ببعثـــه ... وأشـــادَ طـــالوت بـــه أحكامَـــهْ

سَعدتْ بنو اسرائيل[٢] منه بحظـــوة ... لما اجتلـــى داعـــي المنـــى أيامَـــهْ

خُطَّتْ بِطِرْس الـــدَّهْرِ آيـــةُ مدحـــه ... مَدْحاً يرى حـــسن الثنـــا أقلامَـــهْ

مَنْ أَمَّ ســـاحتَه الفَـــسيحةَ منهجـــاً ... يَمْنَحْهُ من فيض الغيـــوب مرامَـــهْ

فَنَحوتُـــه قـــصدَ الزيـــارة راجيـــاً ... حُـــسنَ القَبـــول مـــؤمّلاً إنعامَـــهْ

مُهْدًى إليـــه مـــع الـــصلاة تحيـــةً ... ترويه عن مـــسك الختـــام ختامَـــهْ

[اشماويل]

[٦٦/أ] وأشماويل عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، تنبّأ وهو ابن أربعين سنة، عاش بعد النبوَّة إحدى عشرة سنة يدعو بني إسرائيل ويدبّر أمرهم.

---

(١) رامة: من قرى بيت المقدس بها مقام إبراهيم الخليل عليه السلام (معجم البلدان) وقال النابلسي في رحلة القدس إن حزقيل هو المدفون برامة ص ٧٠.

(٢) في م : (إسرائل) ولا يستقيم بها الوزن والمثبت للسسياق العروضي.

وتوفي سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة لوفاة موسى عليه السلام وهو المشار إليه بقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً﴾** [البقرة: ٢٤٦/٢]، ذهب إليه سائر المفسرين، وهو بالعبرانية إسماعيل، وهو من نسل هارون عليه السلام.

قال وهب بن إسحاق وغيرهما: كان سبب مسألتهم إياه، ذلك أنه لما مات موسى خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون، يقيم فيهم التوراة، وأمر الله حتى قبضه الله تعالى، ثم عظمت الأحداثُ في بني إسرائيل، ونَسُوا اللهَ حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبياً، فدعاهم إلى الله تعالى، وكانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يُبْعثون إليهم بتجديد ما نَسُوا من التوراة، ثم خلف بعده إلياس اليسع، وكان فيهم ما شاء الله تعالى حتى قبضه الله تعالى.

وخلف فيهم الخلوف، وعظُمت الخَطايا، وظهر لهم عدوٌّ يقال له البلشايا، وهم قوم جالوت، كانوا يسكنون ساحلَ بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة؛ فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم، وسبوا كثيراً من ذرياتهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعين وأربع مئة غلام، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، ولقي منهم بنو إسرائيل بلاءً وشدة، ولم يكن لهم نبيّ يدبّر أمرهم، وكان سبط النبوة، قد هلكوا، فلم يبق منهم إلا امرأة حُبلى فحبسوها في بيت رهبةً أن تلد جارية، فتُبدّلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً[(١)]، فولدت غلاماً، فسموه اشماويل فجعلت تقول: سمع الله دعائي، فكبّر الغلام فأسلمته يتعلم التوراة في بيت المقدس يعلمه شيخ من علمائهم وتبنّاه. فلما بلغ الغلام أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ فدعاه فانتبه وقال: يا أبتاه دعوتني فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فينام. ثم دعاه الثانية فقال الغلام: نعم، ثم قام فقال: ارجع، فنم، فإنّي دعوتك إلى قومك فبَلِّغْهم رسالةَ ربك فإن الله قد بعثك فيهم نبياً فلما [٦٦/ب] أتاهم كذبوه وقالوا: استعجلت بالنبوة ولم نُبلك،

---

(١) في م : (غلام) والمثبت للسياق.

وقالوا: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آية عن نُبوّتك، وإنما كان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملك هو الذي يسيّر الجموع، والنبيُّ يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخير من ربه.

وقال وهب: بعث الله اشماويل نبياً، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، ثم كان من أمر جالوت ما كان. وقالوا لأشماويل: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله.

فسأل اللهَ تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصا وقرنٍ فيه دهن القدس، وقيل لهم: إنَّ صاحبكم الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا وينشر الدهن الذي في القرن عند دخوله فادهن به رأسه وملكه عليهم وهو طالوت من أولاد بنيامين بن يعقوب عليهم السلام.

قيل: كان طالوت رجلاً دبّاغاً يعمل الأديم.

وقال السّدي: كان رجلاً سقّاء، يسقي على حمار له من النيل، فضلَّ حماره فخرج في طلبه.

وقال وهب: ضلّت حمر لأبيه فأرسله وغلام له في طلبهم فمرّا ببيت اشماويل، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمر فيرشدنا، ويدعو لنا، فدخلا عليه.

فبينما هما عنده يذكران له أمر الحمر إذ نَشَّ الدهن في القرن فقام اشماويل فقاس طالوت بالعصا، فكانت على طوله. وقال لطالوت: قَرِّبْ رأسَك فقَرَّبه فدَهَنَهُ بدُهْنِ القدس، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني اللهُ أن أملكك عليهم فملكهم، وكان من أمره ما قصد الله تعالى في القرآن العظيم من بقية القصة. انتهى.

[قبر اشماويل]

وقبره بقرية رامه[1] ظاهر القدس الشريف من جهة الشمال على طريق السالك، وقد كان هذا المقام تحت يد اليهود يتعبدون به، ويأتون إليه

---

(١) انظر ما تقدم قبل صفحات من التعريف برامة ١ه٢٢٠.

بالنذورات من الحلي والملابس والفَرْش ويضعونه في المغارة التي فيها قبر نبيّ الله اشماويل عليه السلام، ثم يحرقون تلك الأمتعة تقرُّباً بزعمهم في هذا المقام إلى أن ظهر بحضرة أستاذنا مولانا الشيخ محمد الخليلي بالقدس المحترم، ونفذت كلمته في تلك النواحي، وصار أشهر من نار على علم، فأمدّه الفيض الإلهي الرباني واستنقذه [٦٧/أ] من أيديهم بخط شريف سلطاني، وسد باب المغارة، وبنى منارة عليه، وأقام شعار المسجد، ومنع اليهود عنه بالكلية، فصاروا لا يأتون إليه إلا خفية، وهن خائفون، ويقفون خارج المسجد، وأما دخوله فلا يستطيعون، فجزاه الله تعالى أحسن الجزاء، وعامله بالإحسان، وبوّأه أعلى فراديس الجنان، فكم له من مآثر وخدمة قيام، بخدمة الأنبياء الذين بتلك النواحي عليهم الصلاة والسلام [من الطويل]

لقد حـــاز مولانـــا الخليـــل رتبـــةً	**ســـما قـــدرها إذ للنبيـــين يخـــدمُ**
فلاحت عليه من ســناهم بــوارق	**به ثغر هذا الــدهر لا زال يبــسمُ**
لـــه مظهـــر فيـــه جـــلال جمالـــةٍ	**به سارت الركبان من حيث تقــدمُ**
تودّ ملوك الصِّيد أن لـــو تـــشرّفت	**بخدمتـــه فهـــو الإمـــام المُقَـــدَّمُ**
إذا كان في الــدنيا تظـــاهر هكـــذا	**فلا غَرْوَ في الأخرى أعزُّ وأكْــرمُ**

ثم لما طاب هذا المقام، بهذا المقام، استروحت النفس للمنام، فصعدت إلى العليّة العالية التي يوافيها النسيم من كل ناحية، فمذ اضطجعت بجنبي إلى الأرض، تحكم الهوى فيّ بالطول والعرض، وأورثني داء القولنج(١) العضال، وصرت منه في أشد الأحوال، وبِتُّ تلك الليلة مسهَّدَ الأجْفان بمسامرة الكواكب، تجاريني الشدة والمشقة من كل جانب إلى [أن] نسخ الفجر آية الظلام، صلَّيتُ الصُّبح وودَّعْت المقام بسلام وركبت مسرعاً متنَ الجواد، وقد طغى الألم بي وزاد، وصرنا نهبط وادياً منخفضاً ونرقى جبلاً

---

(١) القولنج: - وقد تكسر لامُهُ أو هو مكسور اللام، ويُفْتَح القاف ويُضَمُّ -: مرضٌ معوي مؤلم، يَعْسُرُ معه خروجُ الثُّفْل والريحُ (القاموس: القولنج).

رفيع[١]، إلى أن وصلنا وقت الظهر كفر قريع، فتلقانا أهلها بمزيد من الإكرام، وأحضروا ما تيسّر من الفاكهة والطعام، ثم بعد ذلك اضطجعت في تلك الساحة طلباً ورغبة مني في حصول الراحة، فنهبوني قبيل الصلاة الوسطى، وما أصبت من الراحة قسطاً، وبعد الصلاة وتمام الأذكار ركبنا مسرعين مودعين تلك الديار.

[دير قديس]

وسرنا نقطع الأودية بالتسبيح والتقديس، إلى أن وصلنا قبيل المغرب دير قديس، فتلقانا أهلها بوجهٍ طلق وثَغْر ضاحك، مع أنهم همجٌ وقطّاع طريق هاتيك المسالك؛ فقضينا عندهم تلك الليلة الغريبة [٦٧/أ] يتحفوننا[٢] عن وقائعهم بكل عجيبة؛ لا يحفظون من القرآن إلا سورة القتال، ولهم بحديث الخوف سند صحيح الاتصال؛ فلما أن سطعت الشمس على الآفاق، أسرعنا بالسير محرصين على الفراق، نتلو عند تحقيق الرحيل، حسبنا الله ونعم الوكيل. [من البسيط]

عَرّج ركابَكَ عــن دَيْــرٍ لبلقــيسِ	**واسرعْ مَسيرك عنها حاديَ العيسِ**
فإن فيهــا بغــاةً طالمــا نَــسَخوا	**من الطريق بخــوفٍ بعــد تــأنيسِ**
لا أكثر اللهُ فــي الإســلام مــثلهم	**فإنهم قد غَدَوا مــن جُنــد إبلــيسِ**

وقال وهب : هو بأرض الأردن.

وقال قتادة: ببيت المقدس، جعلوه في دلو، وأرسلوه فيها حتى بلغ النصف ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماء، فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة، فقام عليها، وجعل يبكي، فنادوه، وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوا بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام، وأقام فيه ثلاث ليالٍ، إلى أن أتت السيارة، وكان ما قصَّه الله تعالى في كتابه العزيز.

---

(١) الأصل أن يقول: (رفيعاً) ولكنه سكَّن للسجعة، وقد تكرر ذلك أكثر من مرة.

(٢) في م : (يتحفونا) خطأ.

ويهوذا هو المُشارُ إليه في قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ﴾** [يوسف: ١٢/٩٦].

قال السُّدي: قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب، وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب بالقميص فأخبره أنه حيٌّ وأفرحه كما أحزنته.

قال ابن عباس: حمل يهوذا القميص، وخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة، لم يستوفِ أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة خمسين فرسخاً. انتهى.

فائدة

قال السُّهَيلي: لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام أعطاه في البشارة كلماتٍ كان يرويها عن أبيه، عن جدّه، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يقولونها في الشدائد، وهي:

يا لطيف فوق كل لطيف، الْطُف بي في أموري كلها كما أُحبّ ورضّني في دنياي وآخرتي. انتهى.

وقوله (يا لطيف) يجوز فيه[1] الرفع والنصب على أنه نكرة قصدت أو نكرة موصوفة.

قلت: وقد أجازني بعض مشايخي باستعمالها كل يوم مئة مرة وتسعاً وعشرين مرة، وقال أن لها نفعاً كبيراً معلوماً في اللطف في الشدائد وتفريج الهموم.

ومما يناسب هذا المقام ما ذكره بعض الأئمة الأعلام أنه مما يكتب ويعلق على من أصابه رمد، فيحصل له الشفاء بإذن الفرد الصمد: [من البسيط]

يا ناظريَّ بيعقوب أعيذكما — بما استعاذ به إذ مَسَّهُ الكمدُ

[٦٨/ب] قميص يوسف إذ جاء البشيرُ به — بحقِّ يعقوبَ اذهب أيها الرَّمدُ

---

(١) في م : (في).

ثم مررنا في الطريق على قبتين تحتهما قبران، كأنهما من حسن إشراقهما[١] النيرانُ، يقال إن بهما يوشعَ وذا الكفل عليهما الصلاة والسلام، يفوحان بعبير الشذا والخزام، غير أن لم أثق بذلك، لما ورد في النقول خلافاً لما هنالك.

فقد ذكرَ البغوي[٢] أن يوشع في جبل افرايتم، كما يأتي بيانه على وجه التتميم.

وذكر صاحب أنس الجليل[٣] أن قبر ذي الكفل في قرية كفر حارث من أعمال نابلس، فلعلَّ نسبة هذين[٤] القبرين برؤية منامية، أو مشاهدة بحكم البرزخية، فالزائر يحصل له الثواب على كل حال، كما نص على ذلك أهل الكمال، بحسن الانتظام، فيما ورد في يوشع وذي الكفل عليهما السلام.

قال البغوي[٥]: لما مات موسى عليه السلام[٦]، ومضت الأربعون سنة التي كانوا بها في التيه، ونبأ الله يوشعاً عليه السلام[٧]، أمره الله تعالى بقتال الجبابرة، فأخبر بني إسرائيل فصدقوه، فتوجه بهم إلى أريحا، ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة سور أريحا ستة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سورالمدينة فدخلوا فقاتلوا الجبارين وهزموهم، ودخلوا عليهم يقتلونهم، وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونه لا يقتلعونه، وكان القتال يوم الجمعة،

---

(١) في م : (اشتراقهما) ومت هنا للسياق.

(٢) تفسير البغوي٢٤٧

(٣) لم أجد هذا النص فيما طبع من كتاب(أنس الجليل)

(٤) في م : (هذه).

(٥) البغوي٢٨/٢

(٦) استدرك اللفظ بين سطري م.

(٧) هكذا وردت في الأصل م منونة وكأنها لفظ عربي سمي به رجل، وقد ورد في القاموس المحيط في مادة وشع.

وبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب، وتدخل ليلة السبت فقال: اللهم اردُدِ الشمسَ عليَّ، وقال: إنك في طاعة الله، وأنا في طاعته، فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت، فردت عليه الشمس، وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين. وتتبع ملوك الشام، فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً، حتى غلب على جميع أرض الشام، فصارت الشام كلها لبني إسرائيل، وفرّق عماله في نواحيها، وجمع الغنائم، فلم تنزل النار فأوحى [٦٩/أ] الله تعالى إلى يوشع أن فيها غلولاً، فمرهم أن يبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجواهر، كان قد غله فجعله في القربان، وجعل الرجل معه فجاءت النار وأكلت القربان والرجل.

ثم مات يوشع ودفن في جبل افراتيم، وكان عمره مئة وستاً وعشرين سنة وتدبيره بني إسرائيل سبعاً وعشرين سنة. انتهى.

وأما ذو الكفل عليه السلام قال صاحب الأنس الجليل: وهو بشر بن أيوب عليهما السلام، بعثه الله بعد أبيه، وسماه ذا الكفل، وكان مقامه في الشام، وقبره في قرية كفر حارث من أعمال نابلس.

وقال البغوي: قال عطاء:أن نبياً من بني إسرائيل، أوحى الله تعالى إليه إني قابض روحك فأعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفّل لك أن يصلّي بالليل حتى لا يفتر ويصوم بالنهار ولا يفطر ويقضي بين الناس، ولايغضب فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك فقام شاب وقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل، ووفى به، وشكر الله تعالى، فسمّي ذا الكفل.

وقال في محل آخر: واختلفوا في أنه هل كان نبياً أم لا؟ فقال بعضهم: كان نبياً. وقيل: هو إلياس. وقيل: هو زكريا.

وقال أبو موسى: لم يكن نبياً، ولكن عبداً صالحاً. انتهى.

والأول أولى لذكره مع النبيين في قوله تعالى: **﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنبياء: ٢١/٨٥]. انتهى.

فنزلت عند ذلك[1] القبرين، وجلست جلسة لطيفة، وقرأت ما تيسر وأهديته لحضرتهما الشريفة؛ ودعوت الله بدعوات أرجو بها القبول، فإنه خير مسؤول، وأعظم مأمول: [من الكامل]

وادٍ بــه طيــبُ الــشذا مَــضُوعُ إذ فيه ذو الكِفْــل النبــيُّ ويوشــعُ

أفــديهما مــن مَــشْهدين تَناســقا لولاهما الــوادي المبــاركُ بَلْقَــعُ

هذا على ما قيــل فــي قبريهمــا والنورُ أصــدقُ شــاهدٍ إذ يــسطعُ

ما بقعةٌ نُــسبت لــصاحب رتبــةٍ إلا وفيهــا منــه سِــرٌّ يوضَــعُ

فــانزل هنــاك لائــذاً بجنــابهم فــإليهمُ كــفُّ الــضَّراعة يُرفــعُ

ولقــد نزلــت ببــابهم متوسِّــلاً فعسى بهم عنــي الــشدائدُ تُــدفعُ

[٦٩/ب] أهدي الصلاة مع الــسلام تحيــة من عَرْفها أرجُ الــصّبا يَتَــضوَّعُ

[بسطارة]

ثم سرنا فوصلنا إلى بسطارة وقت الزوال، فنزلنا برحابها متفيئين تلك الظلال؛ فتلقانا أهلها بأحسن ملتقى يُرام، وقابلونا بالرحب والسعة ومزيد الإكرام؛ ورغبوا في مبيت حضرة الأُستاذ عندهم وبذلوا الرغبة في ذلك جهدهم،فتخلص الأستاذ منهم بسبب مرضي،واسترضى كبيرهم بذلك فرضي:

وسرنا نرتجي الشفاء وتيسير الأمور، فوصلنا وقت العصر إلى قرية يازور[2]؛ وأنا في شدة لا تفي بها الشكوى، ولا يحيط بها إلا من يعلم السرَّ والنجوى؛ وبحضرة الأستاذ، ونزلنا بجامعها الجليل، وورد علينا شيخها الشيخ خليل، فرحَّبَ بحضرة الأستاذ وبالجماعة، وقال: إن ليلة القدر حقاً هذه الساعة؛ ثم بذل لنا المجهود بالإكرام، وقام بواجب القرى أحسن قيام؛ ثم في ثاني الأيام وقت الصباح، ورد حضرة مولانا الشيخ الخليلي وصحبته جماعة من أهل الصلاح؛

---

(١) في الأصل:(تلك) والمثبت هو الأشبه .

(٢) تقدم تعريفها في ص٩٨/ هــ ٤.

قاصداً مينة[١] يافا بعزمه السَّديد، لإتمام عمارة مسجدها الجديد؛ فلما أن رأى حضرة الأستاذ بهذه القرية مقيم، نزل بها فحصل لنا بذلك الحظ الجسيم؛ ثم بعد صلاتنا العصر خلفه جماعة، جلس بالمسجد ودعا تلك الجماعة؛ وفرَّق الربعةَ الشريفة، فقُرِئت وخُتِمت في حصة لطيفة؛ ثم أهداها للنبيين والمرسلين والأصحاب، التابعين وأصحاب المذاهب والمحدّثين والعلماء فأتى بعجب عجاب؛ ودعا بدعوات تنسرح لها القلوب، فرجونا قبولها من علام الغيوب؛ وبعد صلاة العشاء وقراءة وردها والأذكار، استفتح مجلس الذكر فأدار فينا كأسه العقار فتواردت علينا العواطف بالمبشرات، ولطائف الرحمة الربانية بمزيد المسرات؛ وبعدما انقضى مجلس الذكر والختم، جلس هو وحضرة الأستاذ في ذلك المسجد المحترم؛ يتذاكرون سير القوم والسلف، فأتحفنا بتنكارهما غاية التحف؛ فأجريا ذكر [٧٠/أ] الحكم العطائية، وما فيها من المعارف الربانية، فقال الشيخ الخليلي[٢] الهمام، رحم الله تعالى العلامة ابن حجر[٣] الإمام، حيث قال:

الحكم العطائية

رحمَ الله ابنَ عطاءِ الله الإسكندري الذي لم يسمعْ بمثله الزمان، فإنه ترك فينا حكماً كادت تُتْلَى فيما بيننا كالقرآن، فابتدرت من دون الجماعة، وقلت: أسمعني منها شيئاً لأرويه عنك بالسند في هذه الساعة. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلامةُ أوحدُ وقته وزمانه تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله[٤] السكندري ثم الشاذلي، قدس الله روحه، ونوّر ضريحه:

---

(١) أي ميناء وهي من لغة العصر.

(٢) ترجمته قد تقدمت في ص ١٠٥ هـ ١.

(٣) تقدمت ترجمته في ص ١٠١ / هـ ٣.

(٤)غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية لابن عباد النفزي الرندي، بعناية محمود البيروتي، الحكم:٢،١،٣، ٤، ٥، ٦، برواية(فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك)في الأخيرة.

- من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزَّلل.

- إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية.

- سوابق الهمم لا تخرق أسوار القدر.

- أرح نفسكَ من التَّدبير، فما قام به غيرك عنك، لا تقم به لنفسك.

- اجتهادُكَ فيما ضُمِنَ لك، وتقصيرُك فيما طُلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك.

- لا يكن تأخُّر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد. انتهى.

فقد أجزت لكم بها وبأمثال ذلك سلك الله بنا وبكم أحسن المسالك.

ثم أخذ حضرة الأستاذ يحدّثُ عن السادة الصوفية، وما ورد في أوصافهم خصوصاً في الرسالة القشيرية، وقد قيل: إنها إذا كانت عند أحد في مكان، أمن من حوادث الحدثان، فقلت: أسْمِعْنا شيئاً من بعض صفاتهم ليكونَ لنا بها سنداً، وتعود علينا حسنُ بركاتهم فقال:

[ترجمة ذي النون من الرسالة القشيرية]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العارف أبو القاسم القشيري في رسالته[1] في ترجمة أبي الفيض ذي النون المصري قدس الله سرّه:

كان فائقاً في هذا الشأن وأوحد[2] وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً. سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر، فلما أدخل عليه وعظه: فبكى

(١) الرسالة القشيرية - طبعة مكتبة محمد علي صبيح - مصر ١٤،والزيادة عنه.

(٢) في الأصل: (سره فائق في هذا الشأن وأحد) والمثبت عن الرسالة القشيرية مصدر المؤلف.

المتوكل، وردّه إلى مصر. وكان المتوكل (بعد ذلك) إذا ذُكر بين يديه أهل [٧٠/ب] الورع [يبكي] ويقول: فحيعلا بذي النون رحمه الله تعالى.

وقال ذو النون: مدار الكلام على أربع:

حبُّ الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

ومن كلامه: من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله محمد r في أخلاقه، وأفعاله، وأوامره، وسننه.

وسئل عن السفلة فقال: السفلة من لا يعرف الطريق إلى الله عز وجلّ ولا يتعرفه.

وقال ذو النون: أنشدني أبو الحسن علي بن عبد الله الحراني لنفسه: [من الطويل]

وأعظمُ ما فينا مــن العيــب أننــا   نعيــب ســوانا والمعائــب عنــدنا

فماذا العمى عــن عيبنــا وكأننــا   بكأس حمام الموت فينا وقَــدْ دَنَــا

فيا ذا العــلا غيِّــرْ قَبــيحَ فِعالنــا   وهيِّئ لنــا فيمــا نؤمــل رشــدَنا

وكان ذو النون ينشد: [من الطويل]

يحولُ الغِنا والعِزُّ في كــلّ مــوطنٍ   ليستوطنا قلــبَ امــرئٍ إنْ تــوكَّلا

ومن يتوكّل كــان مــولاه حــسبه   وكان لــه فيمــا يحــاول معقــلا

إذا رضيت نفسي بمقــدار حظهــا   تعالت وكانت أكبر النــاس منــزلا

وكان ينشد: [من الطويل]

ألا أيها الوادي الذي فــاح طيبُــهُ   عسى لك عهد من ســعاد قريــبُ

فحُيِّيــت مــن وادٍ بكــل تحيــةٍ   لأنك مــن أجــل الحبيــب حبيــبُ

ثم قال: قد أجزأت لكم بها، وبما لنا من الرسالات الصوفية، سلك الله بنا وبكم الطريقة الحقيقية، ثم ختم ذلك المجلس بالفاتحة والصلاة على النبي r والأصحاب، وكل دعاء بما يرجو حصوله وقبوله من الملك الوهاب.

وبعد ذلك أخذنا[1] مضاجعنا للنوم، وسبحنا في بحره وعُمْنا أيَّ عوم، فتنبهنا من نومنا قبيل الفجر، فصلّينا الوتر، وقرأنا وِرْدَ الوتر، وقرأنا وِرْدَ السَّحر، ففُزنا بمزيد الأجر.

فلما أن طلعت الشمس بذاك الوادي، أطلقت ناظري متأملاً في حسن ذلك النادي، وإذا بشريكنا سيدي أحمد النجار، قد أقبل إلينا وجلس عندنا بعد أن سلم علينا، فسررنا بوروده في تلك الرحاب، وحصل لنا الأنس به [٧١/أ] لأنه من أعز الأحباب.

[مرض اللقيمي مؤلف الرحلة]

ثم لما حان وقت الظهيرة، واشتد حر ذلك اليوم وشهدنا هجيره، كادت الروح أن تزهق، فاغتسلت في بعض الآبار زعماً أن ذلك بي أوفق؛ فما فرغتُ من الغُسْل إلا وأنا في غاية الشدة، وازداد في الأمر إلى أن أتاني ما لاقيته من الأُنس في تلك المدة.

وبتُّ في ليلة ما طرق جفني فيها منام في شدة القولنج وترادف الآلام، وبات عندي تلك الليلة شريكنا المذكور، تأسفاً على ما نزل بي وماذا يفعل في المقدور، فلما ظهر ضوء الشمس على الآفاق وسطع، توجهنا مع حضرة الأستاذ إلى زيارة الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع، فدخلنا إلى ضريحه الرفيع، ومقامه السامي المنيع، وتوسّلت به وبجميع الأصحاب، أن يشفي الله تعالى ما أجده من الأوصاب، وقرأت له ما تيسّر من الآيات، وأهديت لجنابه أبياتاً لها بمدحته حسن التفات: [من الكامل]

فاحَ الشَّذا بعَبيره المُتَضوِّعِ ... من نحو دَوْحة سلمة بنِ الأكوعِ

السيّد المولى الجليل المُحتَبى ... والمُجْتَبى الشَّهم الصحابي الأورعِ

رُفعت بأعلى الأُفق رايةَ مَجْده ... فلهُ المكانةُ بالمقامِ الأرْفَعِ

طابَتْ مَوارِدُهُ الهنيّة مشرعاً ... طوبى لمن وافى لذاك المشرعِ

---

(١) في م : (أخذ).

**وافيتُـــه وتلـــوتُ آيـــاتِ الـــشِّفا		فلعلَّ أشْـفَى مـن سَـقامٍ مُوجـعِ**

**فوفى بشيرُ الأُنْـسِ يُعلـن قـائلاً		بُشْراك بـشرى بالـشّفا لا تفـزعِ**

**فهنـاكَ أهـديتُ الـسَّلام جنابـه		وكذاك سـكّان الحمـى والمربـعِ**

ولما اشتدّ بي الألم والأسقام، وأراد حضرة الأستاذ الإقامة بهذا المقام، استأذنته في الذهاب إلى مينة[1] يافا، فقال: سر على بركة الله، عسى بتغيير الهواء تتعافى، فثنيت بالعزم العنان، وسرت وبالله المستعان.

[العارف الشيخ مراد]

ومررت على الولي العارف بالله الشيخ مراد[2]، فقرأت له الفاتحة، ورجوت من مدده حصول المراد، فوصلت إلى يافا قُبيل الظهر بساعة، فكادت الروح أن تزهق في تلك الساعة، فأشار عليَّ بعض مَنْ له بعض معرفة في الحكمة، بدخول الحمام لعلّ أن يحصل بعض خفة وكشف غمَّة، فدخلتُ رجاء حصول الصحة، فاشتدَّ الأمر إلى حالٍ لا أصفُ شرحَه، فبتُّ [٧١/ب] بليلة أُسامر الكواكب، تجاذبني الشدة من كل جانب، فلما علمتُ تمكُّنَ العلَّة مني أي تمكين، لجأت[3] إلى جميل الصبر وحسن اليقين: [من الطويل]

**إلهي لقد جافَتْ جنوبي مـضاجعي		كما واصلَتْ سهد الجفون مـدامعي**

**وكلـتُ بتـدبير العـلاج أطبتـي		أُرجِّي شفائي منك يا خيرَ سـامعي**

ولما اشتدّت بي الأسقام والأمراض، وأعرضت الصحة عني غاية الإعراض، تحققتُ أنّ المرضَ في الغربة، فيه شدة شديدة وكربة، وعلمت سرَّ ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام، وهو من باب الرأفة بالأمة والتفهيم والإعلام؛ في قوله r: إذا سمعت المؤذن فكبّر أربعاً، ثم قل: اللهم إني أعوذ بك من المرض في السَّفَر، اللهم إني أعوذُ بك من الفقر عند الكبر، اللهم إني

---

(١) أي ميناء.

(٢) أسماه النابلسي في الحضرة الأنسية ٨٦ (الدرويش مراد الرومي).

(٣) في م : (لجاءت).

أعوذ بك من سوء الخاتمة، اللهم إني أعوذ بك من الفضيحة في الموقف، اللهم إني أعوذ بك من ألسنة السوء عند قضاء الحاجة، فلا شكّ أن هذه من الكلمات الجامعة، والدعوات النافعة.

وفي يوم الخميس السعيد، ورد إلى يافا أستاذنا المجيد، ونزل بدار شريكنا سيدي أحمد، حيث كنت فيه وله بذلك حسن مقصد، وصار يلاطفني ويؤانسني بالكلام؛ ليزول ما عندي من الشدة والأوهام، فتستروح نفسي بطيب كلامه، ويسكن من الجسم شدة آلامه، وكنت أتعلل في خلال تلك الأيام، بسماع رحلته العراقية البديعة النظام؛ فمن جملة ما أسمعني منها الشيخ إبراهيم الرابي، مما أهاج وجدي وحرك ساكن أوصابي، ما أنشده أبو عبد الله محمد بن الشهيد بن عبد الله بن موسى الجون بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما حبسه المتوكل في سرّ من رأى[1]: [من الكامل]

طربَ الفؤادُ وعاودتْ أحزانُه	وتلاعبت شغفاً[2] به أشجانُه
وبدا له من بعدما اندمل الهوى	برقٌ تألَّق مرجفاً[3] لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه	صَعبُ الذُّرا متمنعٌ أركانُه
فبدا[4] لينظر كيف لاح فلم يُطق	نظراً إليه ورَدَّه سَيحانُه
فالنار ما اشتملتْ عليه ضلوعه	والماء ما سحَّتْ به أجفانه

[٧٢/أ] ومن نظم الشريف تاج الدين محمد بن الشريف جلال الدين أبي جعفر بن الحسين الزكي: [من الطويل]

---

(١) الأبيات في الأغاني ٣٦١/١٦ - ٣٦٢، ومقاتل الطالبيين ٦٠١ - ٦٠٢، وهي خمسة الأولى من ١٣ بيتاً.

(٢) كذا في الأصل، وهي في المصدرين وهي الأشبه.

(٣) كذا في الأصل وهي في المصدرين (موهناً) وهي الأشبه،

(٤) في الأصلين : (فدنا).

ملكتُ عنان الفضل حتى أطــاعني وذللت منه الجــامح[1] المتــصعبا

وداريَتْ عن نيل المعالي وحَوْزهــا بسيفي أبطــال الرجــال فمــا نبــا

وأجريتُ في مضمار كــلِّ بلاغــةٍ جوادي فحاز السَّبق فيهم وما كبــا

ولكنَّ دَهْري جــامع مــن مــآربي ونجميَ في برجِ السَّعادة قــد خبــا

ومن غالب الأيــام فيمــا يرومــه تَيَقَّنَ أنّ الــدهر يــضحي مغالبــا

[يــافــا]

وإني لم أزل بيافا إلى يوم السبت تاسع شهر صفر الخير، وإنا من السقم في غاية الشدة والصبر، فضاقت عليّ بمينة يافا الرحاب، وقُفلتْ عليَّ من مسالك الحظ الأبواب، فقصد حضرة أستاذنا زيارة سيدي علي بن عليل[2]، فتوجَّهت معه، مع ضعف القوة والحيل، فوصلت إلى حماة، قُبيل الزوال. وقد حدث بي مرض الحما واشتد الحال، فنزلت برحابه السامي الذُّرا، مرتجياً إمداده فهو عندي أعظم القِرى، وجلست بإزاء قبره الشريف، وامتدحته بأبيات من البحر الخفيف، راجياً بذلك حسن الشفاء، وحصول المآرب والصفاء: [من الخفيف]

مشهدٌ طــاب فــي حمــاه المقيــلُ مربــعٌ أفــيحٌ وظــلٌّ ظليــلُ

وعليــلُ الــصَّبا بطيــب شَــذاه إن ســرى عَرفُــه يُــسرُّ العَليــلُ

منهــلٌ بالــصَّفا يطيــبُ ورودا منه يُرْوي الظَّمــا ويُطْفــا الغليــلُ

ســاطعاتٌ أنــوارُه حيــث فيــه صَــفْوةُ الأوليــا علــيَّ عليــلُ

ســيدٌ فــي الجهــادِ قــام رباطــاً صادق العزم فهو ســيفٌ صــقيلُ

---

(١) في م : (الجامع) وهو تحريف صححته للسياق.

(٢) ذكره مجير الدين الحنبلي في أنس الجليل وسينقل عنه في الصفحة التالية وانظر جامع كرامات الأولياء ١٥٩/٢.

ثابــتُ القلـــب لا يـــولّي فـــراراً ... وعـــن الحـــقّ نهجُـــهُ لا يَميـــلُ

إن نحـــا الزائـــرون نحـــو حمـــاه ... فـــسَناهُ للزائـــرين دليـــلُ

أو ثـــوى قاصـــداً لديـــه نـــزيلا ... قيل بُـشراكَ أنـتَ نعـم النزيـلُ

فاقتضيتُ الآثار شـوقاً وقـصدي ... بوفـــودي إليـــه قـــصدٌ جَميـــلُ

أبتغي مـــن عـــلاه منحـــة فـــيضٍ ... وشـــفائي فالجـــسم منـــي عليـــلُ

[٧٢/ب] فعليه السّلامُ ما لاحَ منـــه ... مشهدٌ طـــاب فـــي حمـــاه المقيـــلُ

قال صاحب أنس الجليل[(١)]:

[علي بن عُلَيْل]

ومن الأولياء المشهورين بناحية أرض فلسطين السيد الجليل الكبير سلطان [الأولياء، وقدوة] العارفين، وإمام أهل الطريقة المحققين، صاحب الفيوض والمواهب والكرامات، والخوارق الباهرات، المجاهد في سبيل الله، الملازم لطاعة الله، أبو الحسن علي بن عُلَيْل [وهو] المشهور عند الناس بابن عُلَيم [بالميم]، وأما نسبه الصحيح الثابت: عليل - باللام - وهو صاحب الكرامات المشهورة الباهرة، والمناقب السامية الظاهرة، وشهرته تغني عن الإطناب [في ذكره]، وعد الاستقصاء في ترجمته بلا ارتياب فإن صيته كضوء النهار، لا يخفى على أحد بلا أذكار، ونسبه متصل بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه، فهو عليُّ بن عُلَيل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن ابن السيد الجليل الزاهد العابد الصوام القوام الصحابي عبد الله بن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وضريحه بشاطئ البحر الملح بساحل أرسوف وعليه مشهد مأنوس وبه منارة مرتفعة، وأهل تلك النواحي كلها في خضرة وبركة سره.

---

(١) الأنس الجليل لمجير الدين الحنبلي ٧٢/١ والزيادة منه.

ومن مناقبه أن الإفرنج يعتقدونه ويعترفون بصلاحه، وقد أُخبرت أن الإفرنج إذا أقبلوا على ضريحه كشفوا رؤوسهم ونكسوها نحوه رضي الله عنه.

وكانت وفاته [في يوم السبت لاثني عشرة خلت من ربيع الأول] سنة أربع وسبعين وأربع مئة.

ولما نزل الظاهر بيبرس لفتح يافا وأرسوف زاره ونذره النذور والأوقاف ودعا الله تعالى عند قبره، فيسّر الله تعالى له فتح البلاد، وفي كل سنة له موسم زمن الصيف يقصده الناس من البلاد البعيدة والقريبة، ويجتمع هناك خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى، وينفقون الأموال الجزيلة، ويُقْرَأُ عنده المولد الشريف.

[حسن مقلد شيخ بني صعب]

وورد علينا في ذلك المقام الرحب، الشيخ حسن مثلد شيخ بني صعب تنزه عن المشيخة لأخيه باختيار وحسن طوية، وسلك على يد حضرة الأستاذ طريق السادة الخلوتية، فظهرت [٧٣/أ] عليه إمارات الصلاح، ولاحت عليه لوائح أهل الفلاح؛ وهو موصوف بتلك الناحية بالجود والكرم، وسيرته الحميدة أشهر من نار على علم(١)؛ فتحادثنا نحن وإياه في ذكر أهل الطريقة فوجدنا له بذلك معرفة جيدة دقيقة؛ وبعد صلاتنا العصر بهذا المنزل الرحيب، والروض الزّكي الزاهي الخصيب؛ ورد علينا العمدة الفاضل، المتحلي بحلل الفواضل؛ مولانا الشيخ أحمد السفاريني الحنبلي المذهب، المتقدم عند أهل تلك الناحية وفي قومه محبب؛ فتحلَّى الناظر بطلعته، واستأنس الفؤاد لمحادثته؛ فدخلنا روض المفاكهة بالحديث، واقتطفنا من ثمارها القديم والحديث؛ ورأيت معه مجموعاً للفؤاد جامع، تستلذّ به العيون والمسامع؛ وهو الأحق بقول القائل، من الشعر البلغاء الأوائل. [من الوافر]

ومجموعٍ حَوى عِقْداً بديعاً … وحاز لطائفاً من كل فنٍّ
إذا طالعتُه يوماً وعندي … هُموماً أبعدتْ في الحال عَنّي

---

(١) في معجم الأمثال العربية (أشهر من العَلَم) ومصادره فيه: الميداني ٣٩٠/١ ودرة الأمثال ٢٣٥/١، والمستقصى ١٩٩/١، وجمهرة الأمثال ٥٣٨/١.

فمما اقتطفته من هاتيك الحديقة، وأودعته هذه الرحلة الأنيقة:

فائدة:

قال داود الحكيم في النزهة والبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة البحث التاسع في تدبير يخصّ المسافر:

لا شكّ أنّ السفر غير طبيعي، فصاحبُه معرضٌ للآفات، لتغيير الماء والهواء[1]، ومفارقه كثير من المألوفات، فاحتجنا إلى العناية بإفراد الكلام عليه فنقول:

يجب تقليل الغذاء والماء كي لا يفسد بالحركة، وأن يكون تعاطيه وقت النزول فإن تعذَّر جَعْلُ الأكل تنقُّلاً شيئاً فشيئاً وأن ينقي بدنه عن السفر من كل ما كان غالباً من الفاسد أي خلط كان ويقلل من البقول والفواكه ما أمكن لسرعة التعفن فإن كان سفره براً أكثر من المرطبات المليئة خصوصاً في الصيف، وإن خاف كثرة الأكل، وكان شديد الشهوة، وخشي فروغ الزاد صحب معه ما يغني عن الأكل زماناً طويلاً مثل الكبود المجففة إن سحقت مع بزر الخشخاش واللوز وعجنت بالشحوم فإن قلها يكفي عن كثير من غيره فإن يصحب معه ما يمنع فساد الهواء كالبصل والنعناع والتفاح المرضوض مع [٧٣/ب] الزبيب والسُّماق، وقد عجنت بشيء من الخل تجعل في المياه فتطيبها، وتزيل تغيُّرها مطلقاً، وإن كان في البحر شرب من مائه أولاً، وتقيأه، ثم يطلي جبهته بالخل، ويؤخذ من الربوب الحامضة، وإن كان الهواء وبائناً صحب معه العنبر واللاذن أو دهن البنفسج، وإن كان في الشتاء صحب معه ما يمنع شقوق الأطراف مثل الزيت المغلي فيه الثوم ودهن الغوالي.

وفي القانون: شراب أربع أُواق من دهن البنفسج ممزوجاً بالشمع يكفي عن الأكل عشرة أيام.

ومما يعرض للمسافر قلة الماء فينبغي أن يصحب ما يمنع العطش كبزر الرجلة في الأقط، ومزج الماء بالخل، ويهجر الموالح والكوافح، وأخذ

---

(١) في م : (الهوى) هنا وفي كل مرة وردت بعد ذلك.

سويق الشعير والروع، ومن اشتدّ به الحرّ والعطش فلا يبادر إلى الماء الصرف، بل يشرب القليل ممزوجاً بدهن الورد والخل حتى يسكن العرض ثم يشرب ويحفظ أطرافه من الحرّ بعصارة الرجلة والاسفيداج وبياض البيض ودهن الورد وماء الكزبرة قيروطياً، وقد ذكرنا ما يمنع البرد أيضا.

لكن قال الشيخ: إن من تدبير منع البرد في السفر والحضر شرب درهم من الحلتيت في رطل من الشراب مطلقاً وكذلك دهن السوسن كيف استعمل قال: ويحذر من انكاء البرد والقرب من النار بل يتدثر ولا شيء للأطراف كالقطران والثوم والقثاء، وإذا بلغ البرد أعدم الحس فالتطول بطبيخ السلجم والشبث والبابونج والفوتنج والنمام فإن اسودَّ العضو شُرط وهو في الماء الحار ودثر، فإن تعفَّنَ عولج ولطخ المتعفن بما يأكله ليلاً يفسد غيره فإن التدابير العامة تصعيد الماء وتقطيره أو جرّه بالعلقة، ووضع بزر الكرفس فيه أو حبّ الآس أو الشب أو الطين الخالص فإن كان من طين بلده فهو الغاية وقد يصلح الماء بعض الإصلاح مزج ما كل محل بالذي يليه لدوام المناسبة. انتهى.

والتقطت درراً من وصايا القوم، وعقوداً منظمة عزيزة السوم:

فمن كلام الشبلي رضي الله عنه:

ألا شجنٌ بجنين، ألا رنة برنين، ألا قريحٌ حزين، ألا شاربٌ [٧٤/أ] بكأس العارفين، ألا غارقٌ في بحر المحبين، ألا هائم في ميدان العاشقين، ألا منتبه من رقدة الغافلين، يا مسكين ستُقدم فتعلم، سيكشف لك الغطا، فتندم كيف بك وقد كشف الغطا، وتجلي الجليل بفصل القضا، يا مسكين كم تبكي وتصيح، دع المعاصي تستريح، كم هذا البكاء والانتحاب، قف في الدياجي على الباب. انتهى.

ولبعضهم:

ألــذ مــن التلــذذ بــالغواني ... إذا أقـبلن فـي حلـل حـسان

منيـب فـر مـن أهـل ومـال ... يـسيح إلـى مكـان مـن مكـان

ليحمـل ذكـره ويعـيش فـرداً ... ويظفـر فـي العبـادة بالأمـان

تلـذذه الـتلاوة أيـن ولـى ... وذكـر بـالفؤاد وباللـسان

وعنــد المــوت يأتيــه بــشيرٌ **يبــشر بالنجــاة مــن الهــوان**

فيــدرك مــا أراد ومــا تمنــى **من الراحات فــي غــرف الجنــان**

ومن مناجاة الحلاج، الذي تلاطم بحرُ حبه وهاج:

يا من أسكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه، أنت المنفرد بالقدم، قيامك بالعدل والاعتدال، وبعدك بالعز لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبك بالاحتجاب لا بالارتحال، فلا شيء فوقك فيظلك، ولا شيء تحتك فيقلك، ولا أمامك شيء فيحدك، ولا وراءك شيء يدركك، أسألك بك. انتهى.

ومنه قول يحيى بن معاذ، في علامات المحب الذي من الهجر قد فاز: [من الكامل]

ومــن الــدلائل أن تــراه مُــشَمّراً **في خرقتين على شطوط الــساحل**

ومــن الــدلائل حزنــه ونحيبــه **جُنحَ الظلام فما لــه مــن عــاذل**

ومن الــدلائل أن تــراه مــسافراً **نحو الجهــاد وكــل فعــل فاضــل**

ومن الــدلائل زهــده فيمــا يــرى **مــن دار ذل والنعــيم الزائــل**

ومــن الــدلائل أن تــراه باكيــاً **أن قــد رآه علــى قبــيح فاعــل**

ومــن الــدلائل أن تــراه مــسلماً **كل الأمــور إلــى المليــك العــادل**

ومــن الــدلائل أن تــراه راضــياً **بمليكــه مــن كــل حكــم نــازلِ**

[٧٤/ب] ومن الدلائل ضــحكه بــين الــورى **والقلــب محــزون كقلــب الثاكــل**

[كفر سابة]

ولما انقضى ذلك النهار، وأُرخيت من الليل الحُجُب والأستار، وصلينا العشاء جماعة، سرنا فوصلنا كفر سابة(١) رابع ساعة، وبه ضريح بنيامين(٢) بن يعقوب عليهما السلام، فنزلنا بروضة السامي بجوار المقام، وفرق حضرة الأستاذ الربعة

---

(١) كفر سابة في معجم البلدان - بالسين المهملة والباء الموحدة - : قرية بين نابلس وقيسارية.

(٢) تقدم الحديث عن أولاد يعقوب.

الشريفة، فخُتمت في تلك الحضرة المنيفة؛ ثم دعا الأستاذ فأحسن، وكل منا على ذلك الدعاء أمَّن، ودعوت الله بزوال ما بي من الأسقام، وحصول الشفاء والفوز بدار السلام؛ ولما وقفت ببابه السامي، امتدحته بأبيات من نظامي: [من الكامل]

هذا الحمى خبر الشفا يرويني ... فليَ الهنا فحديثه يشفيني

لاحت بوارقُه السنية بالسنا ... وغدت لدوح جماله تهديني

دَوْحٌ به نُشر العبيرُ مضوعاً ... زاكي الشذا بالورد والنسرينِ

روضٌ سما زاهي البها حالي الحلا ... إذ قد حوى لمقام بنيامينِ

هو نجل يعقوب الصفي المجتبى ... صفو الكريم بمحكم التبيين

مولى نبي سيد متفضل ... سند عماد عدة التحصين

وافَيْتُه وبيَ السَّقام مُبرِّحٌ ... أجرى الدموعَ بزفرتي وأنيني

والصبر عَزَّ ولاتَ حين تصبُّر ... حيثُ الضَّنا بسهامه يَرْميني

يا بنَ الكرام ذوي الفتوة والندى ... والمرتقين بندوة التمكين

انظر إليّ بعين جود منجداً ... أرمي بها فَسُلافُها يَرويني

فعليك والرسل الكرام تحية ... ما فاح عرف المسك من دارين

[بنيامين]

وبنيامين هو شقيق الصديق يوسف النبي الأوّاه، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ**﴾ [يوسف: ١٢/٦٩].

[رسالة يعقوب ليوسف عليهما السلام]

روي عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة، أن يعقوب كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين:

من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر:

أما بعد فإنا أهل بيت وُكلَ بنا البلاء، أما جدي إبراهيم فشُدّت يداه ورجلاه [٧٥/أ] وألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشُدَّت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن

وكان أحبَّ أولادي، فذهب إخوتُه إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطَّخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي، ثم كان لي ابنٌ، وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلّى به وأنك حبَسته وزعمتَ أنه سرق، وإنّا أهلُ بيتٍ لا نَسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي، وإلاّ دعوتُ عليك دعوةً تُدركُ السّابع من ولدك.

فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك من البكاء وعيل صبره فأظهر نفسه على ما ذكره الله في كتابه العزيز. انتهى.

[قبر سراقة][1]

وبباب المسجد قبر أدركت نوره وإشراقه يقال إنه قبر سُراقة، فما أدري أوليٌّ هو؟ أو من الصحاب؟ أم من عبّاد تلك الناحية والرحاب؟

واجتمعت هناك برجل مجذوب، يسمى الدرويش محبوب؛ الهندي الأصل المتجرد عن المال والأهل؛ اتخذ السياحة مذهباً، والتماسه لذوي المقامات مشرباً، كان ورد علينا بدمياط سنة أربعين، فرأيته ممسكاً من التقوى بحبل متين، وهو منفرد عن الخلق، لا يستأنس إلا بالحق، فقلت له: ما السبب الداعي إلى الانفراد؟ فقال: لما ورد عن مالك بن دينار[2] أحد أكابر الزهاد أنه قال لراهب: عظني، فقال: إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سوراً فافعل.

وقيل لبقراط[3]: لم لا تعاشر الناس؟ فقال: وجدت الخلوة أجمع لدواعي السلوة.

---

(١) هو سراقة بن مالك بن جشعم الدلجي الكناني أبو سفيان. صحابي له شعر. كان ينزل قديداً وله في الصحيحين ١٩ حديثاً - كما قال الزركلي. أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ (الإصابة ٢/ ، وتاج العروس (سرق)، الأعلام ١٢٦/٣).

(٢) مالك بن دينار البصري أبو يحيى من رواة الحديث، كان ورعاً، يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة. توفي في البصرة سنة ١٣١ هـ، كان شرطياً ثم تاب وسلك طريق الزهاد (حلية الأولياء ٣٥٧/٢، تهذيب الأسماء واللغات ٨٠/٢، ووفيات الأعيان ١٣٩/٤، وسير أعلام النبلاء ٣٦٢/٥، وطبقات المناوي ٤١٢/١-٤٢٥، الأعلام ١٣٤/٦).

(٣) بقراط أو أبقراط طبيب يوناني مشهور كان يطوف البلدان ويعالج المرضى بلا مقابل، وإليه ينسب قَسَم أبقراط(عيون الأنباء ٤٣، وأخبار الحكماء ٦٤) وهامش أسرار الحكماء لياقوت المستعصمي بتحقيق سميح صالح بإشراف أبيه الزميل الصديق إبراهيم صالح حفظهما الله ص ١٢٤.

ولابن الوردي[1]:

أرحتُ نفسي من الإيناس بالنّـــاس لما غَنيتُ عن الأكيـــاس بالنّـــاسِ

وصرتُ في البيت وَحْدي لا أرى أحداً بناتُ فكري وكتبي هُــنَّ جُلاّســـي

[حَبْلة]

فأقمنا إلى يوم الأربعاء بذلك السوح، ومن تزايد السقم كادت أن تزهق الروح؛ ثم عزمنا على الترحال، فوصلنا إلى حَبْلة[2] وقت الزوال، فنزلنا تجاه البلد تحت الزيتون، أروي لنفسي كتاب (شجون المشجون)، فكان[3] يوماً عليَّ أطول من ظل الفتاة، مما يقاسي المبتلى من شدة عنائه، لا أستطعم بشراب ولا طعام، ولا يستروح جفني بمنام.

[خربة]

فبعد صلاة العصر [٧٥/ب] مع شدة الكروب، سرنا فوصلنا إلى خربة قبيل الغروب، فنزلت بزاوية قريبة[4] من البلد، وقد نفد صبري مني، وعزّ الجَلَد؛ فبتُّ بها تلك الليلة محموماً، وبغربتي عن أهلي وأوطاني أمسيت مهموماً، أتقلّب على أشد من شوك القتاد، وأروي عن السها حديث السهاد.

سقمي يزيد فــأينَ منـــه المَهْــربُ وغَدَتْ وفاتي من حيــاتي أقــربُ

والـــدمعُ يـــشرقني بهاطـــل ورده إذ حـــان منـــي للقبـــور المغـــربُ

وأصبح جسمي بنار الحُمّى مشتعلاً، والقلب بواردات الأفكار مشتغلاً، فورد علي هذا المقام، العمدة الفاضل الشيخ غنام؛ وهو ذو أخلاق سنية حسن

---

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الأديب الشاعر زين ابن الوردي المعري الشافعي، وله بعض مؤلفات، توفي بالطاعون سنة ٧٤٩، وهو في عشر السبعين (الدرر الكامنة ٢٧٢/٣، وفوات الوفيات ١٥٧/٣-١٦١).

(٢) حبلة: بالفتح ثم السكون ولام: قرية من قرى عسقلان (معجم البلدان).

(٣) في م : (فكا) بإسقاط النون وهي سقطة قلم.

(٤) في م : (قريب) وهو خطأ صححته للسياق.

المعاشرة، ولنا به اجتماع بالجامع الأزهر حين المجاورة؛ فأنس به الفؤاد بعض الإيناس، وأوجد لنا خطأً على خلاف القياس؛ وبينما نحن في لذة هذا الكلام، إذ استروحت النفس للمنام فغفوت حصة لطيفة المقدار، وكيف يلتذّ بالنوم من أحاط به السقم ودار؛ فلما تنبهت من غفوتي، وصحوت من سكرتي؛ ودخل وقت العصر، واشتدت بي المشقة والحصر؛ فصليت الظهر والعصر جمع تأخير جلوساً، وقد غدا الزمان بوجهه عبوساً.

[قرية كور]

فسرنا في الحال إلى قرية كور، فوصلنا إليها قبل حلول الديجور، فنزلت بجامعها الجامع الحسن، ولم أجب دعوة شيخها الشيخ حسن؛ وقلت إن المسجد أولى بالغريب، وكنتُ في إجابتي بذلك مصيباً فإنني أقلت هاتيك النواحي، في تلك الليلة بشدة ضجري ونواحي، ثم اعتراني يوم الجمعة عند بزوغ الشمس، شدة إغماء، أذهبت مني إدراك الحواس الخمس، فلم أستفق إلا يوم السبت، ضحوةَ النهار، وقد ضاق علي المسجد من جميع الأقطار، وقد حضر الأستاذ عندي، فحين رأى شدة جهدي، قال: لا بأس عليك، نظر الله بعين اللطف إليك، وبينما الأستاذ لدي حاضر، إذ ورد وليُّ الله الشيخ خاطر، فقبلت يديه، وتوجهت بالخاطر إليه، وقلت له: لعلك أن تحمل حملتي وتريحني من علتي، ولك ما تريد وتختار، فما اختار إلا الفرار [٧٦/أ] وقال: إن حملتك لا أقدر على حملها لخطرها، وشدة ثقلها، فجرت من العيون المدامع، وقلت: ما الذي أنا في المقدور صانع: [من الكامل]

ألفَ الضّنا جسمي فــلا يتزحــزحُ … ولعَبْرتي عن كُنْهِ حــالي يُفْــصِحُ

نَظَــر الطبيـــبُ لعلّتـــي مُتـــأملاً … فبكـــى وقـــال عـــلاج ذا لا يـــنجحُ

قدحت زنـــاد الفكـــر فـــي أحبتـــي … فـــإذا بفكـــر زنـــادهم لا يقـــدح

فبكوا بفيض الدمع ملء عيـــونهم … لمـــا رأوا وُرْق المنيـــة تـــصدح

حسبي الممات على يقين بغربتـــي … فعسى بذا رتـــب الـــسعادة أُمـــنحُ

[عودة إلى نابلس]

ثم استأذنت حضرة الأستاذ في المسير، إما إلى يافا أو إلى نابلس ذات الروض النضير؛ فأذن بالسير إلى نابلس الفيحاء في الحال، لطيب هواها ومناسبتها لذوي الاعتلال؛ فسرت مع رفيقين في الصحبة صديقين، أحدهما الشيخ يوسف بن حمدان الطويل، والثاني هو الشيخ أبو بكر طبين الشهم النبيل، وإني مع ذلك لا أستطيع الاستقرار على متن الجواد، من شدة السقم الذي أنا منه في ازدياد، فوصلت إلى نابلس وقت العصر من بطء السير، وهو الرابع عشر من شهر صفر الخير، فنزلت بمنزل المحب الصديق، والخليل الأعز الشفيق السيد محمد أمين الدين، كُفي شر الأعداء والحاسدين؛ لوعدي إياه حيث كنا في المسجد الأقصى، وتأكيده بعهود ومواثيق لا تحصى؛ فتلقاني بوجه بالبشر متهلل، ولكنه لحالتي محوقِل ومُحَسبل؛ ثم أصعدني إلى علية عالية وصار يتحفني بما يرتجي فيه بحصول العافية، وتوارد عليَّ الأحباب وإخوان الوفاء، وكل يدعو ويرجو لي من الله حسن الشفاء؛ ومع ذلك لا يزداد الأمر إلا شدة، ولم أر إلا حسن الصبر لذلك عدة؛ وقد كنت وأنا بالقدس الشريف، بمجلس مع الأستاذ في الحرم المنيف، جرت بيننا مناسبة بذكر مولانا الشيخ عبد الرحمن السمان وماله من الكرامات البادية للعيان فتشوقت للاجتماع عليه، وهممت بالتوجه إلى الشام لتنظر عيني إليه، وتلحظني بركاته، وتبلغني دعواته؛ [٧٦/ب] فمن صدق النية، وحسن الاتفاق، أنه حضر لنابلس يوم(١) وصولي مع بعض الرفاق؛ فلما حضر الأستاذ لنابلس ذلك اليوم، واجتمع به من أولئك القوم؛ فأخبره حضرة الأستاذ بدائي العضال، والتمسه في التوجّه بالحال والقال؛ فأتى إليّ مع حضرة الأستاذ عائداً، ولزمام الصحة والعافية قائداً، فوضع يده على صدري وقال: أبشر بالسلامة، فإنّ لي بذلك دلالة وعلامة: [من الكامل]

يا عائدي أهــلاً وســهلاً مرحبــا	**جددت لي من بعد أســقامي شــفا**
قد كنتُ من سقمي إخـــال تزايــداً	**والآن قد صار السقامُ علـــى شَــفا**

---

(١) في م : (يوم) بإسقاط الميم كمظهر من مظاهر السرعة.

ثم قال: كم تريد أن تقيم بسقامك، الذي أحرمك طيب منامك، فقلت: ولا لحظة من ساعة، فإنه قد نفدت[1] مني قوة الاستطاعة. فقال لي: احمل حملتك، وأرجو من الله تعالى أن يزيل علتك، بشرط أن تدفع إليَّ شيئاً من الذهب، فقلت: نعم لكن إذا المرض ذهب؛ فقال لي حضرة الأستاذ ذو العرفان: ادفع له ما طلب وأنا على الضمان؛ فدفعت له في الحال ما طلب، فقرأ الفاتحة وقال: يوم الجمعة يذهب عنك الوَصَب، ثم إنّه توجّه هو والأستاذ إلى القدس الشريف، وتركني غريقاً في لجّة هذا المرض المخيف؛ فاشتدّ بي الحال وأشرفت على التلف، فبادرت بالوصية اقتداء بمن سلف: [من الوافر]

وحُمّى الغِبّ أوهَتْني سقاما ... وأحرمت العيون جوى مناما

تزورُ الجسمَ مني كلَّ غِبٍّ ... فتُشْهِدني بزورتها الحِماما

أرومُ الماء وِرْداً علّ أُرْوى ... فما ألفى به إلا أُواما

ومسعر من روى لأبي زنادٍ ... حديثَ الواقدي أبْدى ضِراما

كنيرانِ الخليل ثَوَتْ بقَلبي ... ولم يكُ حرُّها برداً سلاما

فلو شاهدتَ ما ألقاه منها ... شهدت ببأس سطوتها الغراما

فدعني والسقام وبث وجدي ... فإنّ الجسم قد ألف السقاما

وصرت أُجري من العيون الدموع، متذكراً أهلي وهاتيك الربوع [٧٧/أ] أقلّب الطرف في الجهات، وتتصاعد الأنفاس بالزفرات، حيث لم أجد منهم عائداً، ولم أرَ[2] غير السقام مصاحباً ومواددا:

فأنا الذي بالسقم حقاً ذا ضّنًى ... لم ألف في بعدي سواه مواردِ

لا أبتغي صلة الذي لكنني ... بالشّوق مفتقراً لوجه العائدِ

وقد اتهمت الشيخ في مقالته، وكاد يداخلني الإنكار لكرامته، فبت ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر، مشرفاً على التلف، يخالني العائد

---

(١) م : (نفذت) خطأ.

(٢) في م : (لم أرا) بإثبات حرف العلة خطأ.

محتضر[1]؛ فرأيت ما بين النائم واليقظان، السيدة مريم بنت عمران، تبشرني بحصول الصحة، فانتبهت من شدة الفرحة؛ وقد لاح لي فجر المسرة وأسفر، وأينع دوح روضه وأزهر، وبرقت بروق الشفا، ووردت بشائر الصفا؛ وأقبلت الصحة على العبد، فوجب عليه الشكر ولله الحمد؛ غير أن القولنج قد تسلطن حين ذلك، حيث لم يكن له في الجسم مشارك؛ وتركني كالسليم متململاً، قائلاً: إن كنت نجوت من الحُمَّى فمنِّي فلا، فقلت: صبر جميل وبالله المستعان، ولا مفرَّ عما قدر في الأزل للإنسان، ففي ثاني يوم حضر الشيخ عبد الرحمن من القدس الشريف الأقدس، فوجدني من القولنج[2] لا أستطيع أن أتنفس، فوضع يده على ظهري، وقال: بسم الله ذهب الألم وحصل للعليل شفاؤه، فذهب القولنج في الحال، وقمت كأنما نشطت من عقال[3]، وأقبل الأحباب يهنئوني بالصحة والعافية ولهم بذلك السرور والنعمة السامية، وبعد ذلك توجهت إلى الحمام، وحصل لي مزيد البسط والأنس التام؛ وصرت أذهب إلى الرياض الأريجة، أروح النفس بروض رياضها البهيجة، وانتشق عرف أزهارها، وأتلذذ بحسن نغمات أطيارها، لا سيما التكية الدرويشية، ذات الأزهار والكروم العروشية؛ مع أحبة خبرهم حديث إخوان الصفا، ومخبرهم نزهة لقانون الشفا، فمما أنشدته في سوحها، مترنماً بمحاسن روحها: [من الكامل]

وتكيـــة تزهـــو برونـــق زهرهـــا	**طاب الشذا منها بفــائح عطرهـــا**
[٧٧/ب] **نسج الربيع لهـــا مطـــارف سـندس**	**لا تنطوي بسط الــسرور بنـــشرها**
غنـــت بلابلهـــا بحـــسن لغاتهـــا	**فتمايلت أغـــصانها مـــن سـكرها**
وافى النـــسيم يزورهـــا متعطـــراً	**مستكشفاً ما فـــي ضـــمائر سـرّها**
وغـــدا يـــنمّ بطيبهـــا وبعرفهـــا	**حتى تسامى حسنها فـــي قطرهـــا**

---

(١) من حق النحو أن يقول(محتضراً).

(٢) تقدم شرحها في ص ١٤٢ هـــ ٢ وهو مرض معوي مؤلم.

(٣) في مجمع الأمثال للميداني ١٣٢/٢ (كأنما أنشط من عقال) وانظر معجم الأمثال العربية (عقل - نشط).

وجرت جـداولها الأنيقـة منظـراً فغدت تهاديهـا الزهـور بنثرهـا

واعجبْ لبركة مائها فـي شـكلها تجري عيون مياهها من صـدرها

مـا زلـت أقـرا للـسقام دفـاتراً حتى نزلت ضُحى بـساحة خـدرها

فرأيـت قـانون العـلاج مُـسطَّراً مع حلبةٍ تروي الـشفاء بـذكرها

فشُفِيتُ من سقمي بنزهـة بهجـة جَسَّت له نبطـي براحـة بـشرها

فخطبت حـسن جمالهـا مُتَعـشِّقاً ومنحتهـا قلبـي مقـدم مهرهـا

وأقمت عرسـاً للزفـاف وأقبلـت تلوي إلى نحـوي مُقَبّـل ثَغْرهـا

وحظيت في عمري بحسن تواصـلٍ في ساعةٍ كانـت كغـرّة دهرهـا

[بشر الحافي وغانم بن علي الأنصاري]

وفي صبيحة يوم الخميس، رابع شهر ربيع الأول النفيس، عزمت على زيارة ما بها من المشاهد، وشاهدت ما حوته من المعاهد؛ فوردت إلى مقام قد سما بالمهابة والاحترام، يقال له مشهد أولاد يعقوب عليه السلام؛ وإلى ضريح نوره غير خافي، منسوب إلى الإمام الزاهد العابد بشر الحافي(١)؛ فلعل نسبته إليه برؤية منام، أو أنه أقام به مدة من الأيام؛ لأنه ورد أنه دخل الديار القدسية، وأقام بها مدة زمانية.

ثم صعدت الجبل القبلي الأسنى طلباً للمغانم، بقصد زيارة ولي الله الشيخ غانم؛ وأظن أن لنا به وصلة من جهة الأجداد، لكون بني غانم كثيري الأعداد؛ فإن نسبنا من جهة الوالدة ينتهي إلى العالم المحقق الولي النبيل الملك غانم بن علي الأنصاري الخزرجي المنتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الصحابي الجليل.

[اسم المؤلف ونسبه]

فإني الفقير مصطفى أسعد اللقيمي الحسني سبط المولى محمد أفندي العنبوسي سبط المولى عبد الرحمن ابن العالم العلامة [٧٨/أ] مفتي الديار المصرية في أواخر

---

(١) تقدمت ترجمته ص ٢٠٦/٢٥.

القرن العاشر أبي الحسن نور الدين علي[١] بن محمد بن محمد[٢] بن علي بن خليل بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن غانم المقدسي بن علي بن الحسين بن إبراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري.

وبنو غانم بالقدس سلسلة لا يستقلُّ بذكرهم قلم، ولا يقطع عَلَمٌ من وصفهم إلا ويبدو علم؛ شجرة طيبة المنابت، ثبَتَ أصلُها وزاحمت أغصانُها الثوابت، فكم شهم منهم تولّى مشيخة الصلاحية بالقدس الشريف، ولا بدعَ فهم أهل السيادة وبالتالد والطريف.

وقد ترجم صاحب أنس الجليل[٣] في كتابه المذكور نحو العشرين من بني غانم الحبر المشهور، ولنذكر ترجمة الشيخ غانم الكبير كما هو مذكور في الأصل من غير تبديل ولا تغيير.

غانم هو الإمام القدوة المحقق الملك غانم بن علي بن حسن[٤] الأنصاري الخزرجي المقدسي: مولده بقرية بورين من أعمال نابلس سنة اثنتين وستين[٥] وخمس مئة. ولاّه الملك صلاح الدين بن أيوب المشيخة بالخانقاه الصلاحية المنسوبة إليه بالقدس الشريف، والنظر عليه ورأيت توقيعه بذلك، وعليه خطُّ السلطان صلاح الدين يوسف فاتح القدس الشريف، والنظر عليه بما قرأته: الحمد لله على نعمائه، وقد قطع تاريخه لطول الزمان. وهو أول من وليها ممن سكن القدس من ذلك التاريخ وتناسل منه ذرية معروفون مشهورون. وسنذكر ما تيسر منهم إن شاء الله تعالى.

---

(١) ترجمته في خلاصة الأثر ١٨٠/٣، ولطف السمر ٥٦١/٢، وريحانة الألبا ٥٢/٢، والبدر الطالع ٤٩١/١، وطبقات المناوي ٤٩٨/٣ - ٥٠٢، ووفاته في هذه المصادر سنة أربع بعد الألف في مصر.

(٢) في الأصل ولطف السمر: (علي بن محمد بن محمد)، وفي خلاصة الأثر (علي بن محمد بن علي).

(٣) الأنس الجليل ١٤٦/٢ بخلاف في الرواية.

(٤) في الأنس الجليل: (حسين) وهو تحريف وقد تقدم.

(٥) في م : (اثنين وتسعين) وهما محرفان والمثبت عن أنس الجليل مصدر المؤلف.

صحب الشيخ غانم مشايخ أهل زمانه، وأخذ عنهم مكارم الأخلاق، وحسن المآثر. توفي بدمشق في شهر رجب الفرد سنة اثنتين وثلاثين وست مئة. انتهى.

ولعل الشيخ غانم المدفون بهذا الجبل هو الذي ترجمه بقوله[1] الشيخ [العالم] الصالح غانم بن عيسى بن موسى بن الشيخ غانم المقدسي الصوفي كان شيخاً للصوفية بالخانقاه الصلاحية بالقدس الشريف، [وله نظم رائق. وهو والد القاضي شرف الدين عيسى بن غانم قاضي القدس الشريف]. توفي بالأرض المقدسة سنة سبعين وسبع مئة. انتهى.

وبالقرب من قبر ولده الشيخ عبد السلام، ولعله والد العز بن عبد السلام بن غانم المقدسي [٧٨/ب] سلطان العلماء كما يؤخذ ذلك من تاريخ مولده ووفاته، فلما وصلتُ إلى رحابه، ووقفت بأعتابه، قرأت ما تيسّر من القرآن العظيم، وأهديته إلى جنابه الكريم، وقصدت بزيارتي له ما ورد في صلة الأرحام، ورجوت منه حسن الملاحظة على الدوام، وقضيت بذلك الرحاب الأريج، ساعة يكشف بها عن القلب الوهيج، وتشوقت إلى دمشق الشام، حيث رأيت جبالها بادية من ذلك المقام: [من الطويل]

أنابلس الفيحا سقتك الغمائمُ ... وهبَّ بواديك الأريج نسائمُ

وفاح عبيرُ المسك يَرْوي عن الشَّذا ... أحاديثَ للطيبي روتها الكمائم

وغنّى هزارُ الأُنْس في عذباتها ... وناغى بها شحرورها والحمائمُ

ولاحت شموس السعد من أفق قدسها ... تضيء بها أرجاؤها والمعالم

تهيجني الأشواق سعياً لنحوها ... لمشهد إمدادٍ ثوى فيه غانمُ

همام سما فوق السماكين رفعةً ... إمام جواد كنز فيض وعالمُ

ووصلة أرحامي دعتني لنحوه ... وفي صلة الأرحام تُرْجى المَراحمُ

فيا غانم الإسعاد وافاك أسعد ... يَسَلْ مغنماً إذ منك تُرجى المغانم

عليك سلامُ الله ما همَّ زائرٌ ... إذا لاح من وادي دمشق معالمُ

---

(١) الأنس الجليل ١٥٨/٢ والزيادة عنه.

ولما أن طاب الوقت بطيب نفحه، نزلت من أعلى الجبل إلى سفحه؛ فوردت محلاً هو بالزيارة مقصود، مشهور عند أهل تلك الناحية برجال العامود؛ مُحْتَوٍ على مآثر ومعاهد، فيها لتحقيق إجابة الدعاء شواهد؛ منها محل يُقال إن به أربعين نبياً، ومقام رأى فيه بعض الصالحين أبو السبطين علمياً، ومقام الخضر أبي العباس، وجماعة من الصلحاء السادة الأكياس، فبعد الزيارة والوقوف بأعتابهم، واستمداد فيض برّ إمدادهم، ذهبت إلى قرية بُلاطة، وقد نشر لي الأنس بساطه، وبها مشهد على قارعة الطريق، ويقال إن به يوسف الصديق، وهو الذي تعتقده الطائفة السامرة فلذلك استوطنوا نابلس فدورهم بها عامرة.

وقد أخبرني بعض السادة الأخيار، أن هذه الطائفة [٧٩/أ] يوجدون في غير هذه الديار، وأنهم لا يزيدون على سبعين، وأنَّ عُدَّتهم في نابلس لا تتجاوز الأربعين، وهم من رفضة اليهود.

وقد اختلف في ذبيحتهم:

ففي مذهب إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنهم إن خالفوا اليهود في الفروع دون الأصول، حلّت ذبيحتهم وإلا فلا، والموجودون مخالفون في الأصول والفروع. انتهى.

[الحضرة]

ثم لما حسن من النهار الختام رجعت إلى المحل لأريح الجسم بالمنام.

ثم في ثاني يوم ذهبت إلى محل يقال له الحضرة، مقصود بالزيارة وله في تلك الناحية شهرة، وبه بستان يانع الأزهار، رَحْبُ الجنَبات كثيرُ الثمار، ومن بديع حسنه النفيس، أنه بداخله مسجدٌ أنيس، وبجانبه محلٌّ ذو مهابة واحترام، يقال إنه معبدُ يعقوب عليه السلام، وبه خلوة يقال لها خلوة المحزون، كانت مجلس يعقوب حين اعتراه لفقد ولده يوسف الشجون، فهي تهيجُ أخا الهوى، بتحريك الصبابة والجوى:

إنْ خلوةُ المحزونِ أشجَتْ مُغْرمـاً	**شاكي الجوى بـصبابةٍ وشُـجونِ**
فأنا المقيمُ على التولّـهِ والجَـوى	**إذ كـان قلبـي خلـوةَ المحـزونِ**

وقد ذهبتُ مع إخوان أنس وصفا، مذاكرتهم تلينُ كلَّ جلد وصفا، سحبوا ذيل البلاغة على سحبان[1] ونثر درَر الفصاحة على مفارق حسان[2]، صدورهم بيت الحكمة، وقلوبهم أوعية الرحمة، إلى حديقة بهيجة، وروضة بالزهور أريجة ائتلف منثورها ومنظومها، واختلف مطعومها ومشمومها، تباكت الأنواء على أشجارها، فتضاحكت ثغور أزهارها، وغرَّد القُمريُّ لغناء الشحرور، وشط البلبلُ مُعلناً بالسرور، فأطلقتُ طَرْفَ الطَّرف في تلك الحديقة، وسرحت جوادَ الفكر في محاسنها الأنيقة، فرأيت من أعجب العجب شجرة تحمل أُكَر الذهب، وقلت لبعض الأصحاب، المتوشح بحلل الآداب، ما هذه الثمرة العجيبة، والعجيبة الغريبة؛ فقال هذه التي أشار إليها البكري الهمام، في مقامته الغريبة البديعة النظام، فقلت: أسمعني بعض ما فيها إن كنت تسندها وترويها.

فقال: قد قال الشيخ في تلك المقامة [٧٩/ب] قدس الله روحه ورفع مقامه: دخلت بستاناً تآخى فيه المنظوم والمنثور، وغرد بأفنانه طير الهناء والسرور؛ بحسن خضرته، يخبر عن طيب حضرته. صفقت أوراق أغصانه، وزمّر ولابه بمزامير أشجانه، وتباركت الأدواء على عذبات أفنانه؛ وتضاحكت الأنهار مرحاً وطرباً، وقضت الأفكار من هذه الحالات عجباً، ، فوجدت عن اليمين والشمال جنتين، هما في وجه الزمان كوجنتين؛ حُفّتا بروحٍ وريحان، وفي غصون غصونها اليانعة الزهر ألوان، أعلن عندليبها بالأذان على منابر الأفنان؛ وخطب شحرورهما بأفصح لسان، من فوق منابر الأغصان، فقلت: لعلّ هذا اليوم من جملة عيد العيدان؛ فتقدّم بين يدي بلبلها ينادي الأمان الأمان، ويتلو بصوته الرخيم على السامع والأذان؛ قول ربنا تبارك وتعالى في القرآن: **(ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ)** [الرحمن: ٤٦/٥٥]، فقال كلٌّ منا: والله إنا نخاف ذاك المقام، ونود لو طاب لنا ها هنا المقام،

---

(١) ثلاثة أمثال من أمثال العرب في سحبان وهي أبلغ من سحبان أوائل وأخطب وأنطق معجم الأمثال العربية (سحب).

(٢) هو حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص)، وقد شهد عليه السلام بأثر شعره في الكفار فقال (ص): اهجهم وروح القدس معك. انظر الأغاني ١٣٥/٤ حيث قال أبو الفرج (وهو فحل من فحول الشعراء وقد قيل إنه أشعر أهل المدر) انظر الاستيعاب ٣٤٢/١.

واستبعد كلٌّ منا من الوطن أن يعطف، فضلاً عن أن ينال ثمرة أو يقطف، فإذا لسان الحال يترجم في الحال، يا صاحب البستان سبحان ربنا سبحان، أما سمعتم قول ربنا في سورة الرحمن **(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ)** [الرحمن: ٥٥/٥٤]، فقلت: حبذا فاجن حب ذا ولا تجن على القضبان، وأنبأني بأطيب ما عندك في هذا البستان، فأدخلني إلى جَنبات كأنها جَنّات، لسان حالها ينطق بآيات بَيِّنات: **(وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ)** [الرعد: ١٣/٤]، فإذا بي أرى طينة طَيبة مِسْكية، قد عُجنت بمياهٍ صافيةٍ كافورية؛ وتستَّرتْ بجلابيب حُلَلٍ سندسية، فأما قضبانها فزمردية، وأما أزهارها فلؤلؤية، وأما ثمراتها فعسجدية.

وقال لسان قيم ذلك البستان: أقمِ اليومَ عندنا ولك المكانة في هذا المكان، لنتحفك بما يفتح المسام؛ ويملأ المشام؛ ويزيد شهوة الطعام؛ ويبرّد الكبد الحرّى، ويقمع المُرَّة الصَّفرا؛ وتطيبُ أكلاً وشَمّاً، ويُحمَد ريحاً وطَعْماً، ويصلُح غذاء [٨٠/أ] ويستعمل دواء؛ فقلت: عَجِّل لي بذلك عَجَّل الله لكَ بالمبَرّات، وأذهبَ عنكَ كلَّ المضرّات؛ فقال: لابدّ أن أُلغز لك فيه لغزاً، وأن أجعل لك فيه رمزاً؛ فإن عرفته كنت فارس ميدان الحجا، وفاتح باب طالما تراه مدججاً؛ على سواك مرتجاً، وعند ذلك تظفر بالسؤال والمرتجى.

فقلت له: هات لي ما عندَك من الألغاز فما لخزانة على فاقة ولا إعواز؛

فقال: أخبرني عن شيء جاء أوله وآخره، مصحف يسرّ قلبه وسرائره، تقدم آخره على أوله حيث جاء، فإن غيرته صار بحر الحجا، أربعة لو أضفت إليه خمسين فضلاً عن واحد، لا يزيد ولا ينقص عن أهل الفوائد؛ أخبرنا بنو الروم أن نصفه نار، وعند العرب يرى من مجموع علميه نار ولا إنكار؛ وأعجب شيء أنه نبات، وشبه بالحيوان الناطق في أكثر الصفات؛ بيد أنه من جمر ربعه، وكم وكم ضاع منه أرج طيب وما ضاع نفعُه؛ فهذه ألغاز فائقة، ومعان رائقة.

فقلت: لعمرك لقد تأرَّج هذا العرف، وعُرف عندي هذا الوصف، وما أرتج على ذهنه باب بيانه، ولا أرتج إيوان ملكه ولا جارة تبيانه، لعل ذلك

الذي غزلت شقة لغزه بيد فطنتك، ونسجت ثوب معمّاه على منوال بصيرتك هو معنى قول ربنا الجليل في التنزيل، بالمتكأ على قول بعض أهل التأويل؛ واستشهد على دعواه التي بها حكم، وفي ألواح الفكرة والأرواح بها لها رسم؛ بعض الفضلاء، السادة النبلاء؛ بقول بعض شعراء العرب الذين يستدل بكلماتهم عند علماء التفسير والحديث والأدب: [من الوافر]

فأهـــدتْ متكـــةً لبنـــي أبيهـــا   تخـــبُّ بهـــا العَثَمْثَمَـــةُ[1] الوقـــاحُ

أما المتكة[2] يا هذا فالأُتْرجة في العربية.

والعَثَمثمة[3]: الناقة الشديدة القويّة.

والرَّداح: الناقة الصلب خفّها.

وهذه المعاني تم لديك رصفها، وكأنها الأترجة الذي ذكر أبو داود في سننه، ومن سلك طريقه الأقوام وبديع سننه؛ أنها التي شُقَّت نِصفْين [٨٠/ب]، وحُمِلَت على حملِ جَمَلٍ كالعِدْلين، وهذه زيادة في الفائدة، وصلة موصول فضل بشفاء العليل وتبريد الغليل عايده؛ ومن تمام الفوائد ما ذكره المقريزي حيث قال عن هذه الأُترُجّة:

إنها كانت من جنان أحمد بن إبراهيم البصري عالم زاهد قال:

وكانت خارج مدينة الفسطاط، فلما قدم الخليفة المأمون بن هارون الرشيد مصر سنة سبع عشرة ومئتين رأى هذا الجنان فأعجب بها وسأل ابن سنان كم غلت هذا الجنان، قال: لا أستطيع حصرها إلا أنه ما زاد على مئة ألف دينار.

---

(١) في الأصل: (العيثمة) وهو تحريف أخل بالوزن. والتصحيح عن لسان العرب وسيأتي شرحها بعد أسطر.

(٢) قال ابن منظور: (مَتَكَ: في التنزيل العزيز: **(وأعتدت لهن متكأ)** ١٢ / ٣١ قرأ أبو رجاء العطاردي: (وأعتدت لهن متكاً) على فُعْل، رواه الأعمش عنه. وقال الفراء: واحدة المُتْك: مُتْكَة، مثل بُسْرٌ وبُسْرَة وهو الأُتْرُجّ وكذا روي عن ابن عباس. (اللسان متك).

(٣) في الأصل م: (الع وهو تحريف. والعَثَمْثَمَة: الشديدة العلية وقيل الشديدة العظيمة، والذكر عَثَمْثَم (اللسان: عثم).

ويكفي هذه الثمرة من الشرف الذي دونه الهضاب والشرف، قول سيد ولد عدنان والسند أهل الإيمان والعرفان مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، وناهيك بهذا القول الذي يسقي رياض الفكر كل وابل صيب.

ولعل هذا التشبيه من قبيل المفرد المقيد بالحال، كما قرره علماء البلاغة أرباب الفضائل والكمال؛ في تشبيه من لا يتحصَّل من سعيه[١] على طائل بالراقم على الماء، وأبدى في ذلك الوجه البديع الرفيع الأسماء؛ ووجه الشبه في الحديث متعدد حسي وهو الرائحة والطعم، وإن كان ما يوجد من المؤمن من ذلك، من المعقول المتنزل منزله المحسوس في هذه المسالك؛ فصار كتشبيه فاكهة بأخرى في الرائحة والطعم، هكذا ينبغي أن يوجه إلى ذلك جواد الفهم؛ وإنما كان من تشبيه المفرد بالمفرد، وإن كان المراد تشبيه حال المؤمن بحال الأُترجَّة والحال يناسب اعتبار التركيب لما صرح صاحب الكشاف والإيضاح[٢] في تقرير التشبيه على أسلول لطيف عجيب في قول ربنا تعالى وسما: **(إِنَّما مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ)** [يونس: ١٠/٢٤]، من أن المركب إذا عُبِّر عنه بمفرد كان المشبه الذي ولي الكاف الظاهرة أو المقدرة من قبيل المفرد الذي يلي الكاف هكذا جاء بيانه موضح المعاني [٨١/أ] والأوصاف، ثم لا يخفى للتشبيه مراتب ثمانية[٣]، تظهر أسرار حكمها باعتبار قوته في البلاغة وعدمها، وأعلى مراتبها ما حذف منه الوجه والأداة[٤]. والمناسب لكمال بلاغة أشرف الأنبياء **r** مولاه أن يحمل ما وقع منه من التشبيه على أعلى مراتبه، وأجل طرقه وأجمل مذاهبه.

---

(١) انظر تهذيب الإيضاح ٦٩/٢.

(٢) تهذيب الإفصاح ٤٩/٢.

(٣) تهذيب الإيضاح ١٣٣/٢.

(٤) يقصد التشبيه البليغ الذي حذفت أداته ووجهه بقي المشبه والمشبه به كقولنا (زيد أسد).

إذ علم ذلك فنقول: يمكن أن يكون وجه الشبه في الحديث الشريف ميل النفوس والانتفاع المشترك بين الطرفين، وذلك غير مذكور كالأداة في هذا المقام المنيف. وما ذكر من الرائحة والطعم في الحديث من الترشيح، ملاءمتها للأصل الذي الذي هو المشبه به على الوجه الرجيح، هذا وإن كان ظاهر كلامهم ف مقام بيان الترشيح أنه من توابع الاستعارة فقط، فلا ينبغي قصر النظر عليه لما صرح به المولى عصام في شرح رسالة الاستعارة، وأرشد إليه بعض الفضلاء إليه من أن الترشيح كما يكون للاستعارة يكون للمجاز المرسل.

وللتشبيه روض وسيم، ويعرف على هذا التعميم، الذي سقى غوادق معانيه، من بيان بديع مبانيه، بأن ذكر ما يلائم الأصل من المستعار منه في الاستعارة، والمعنى الحقيقي في المجاز المرسل، والمشبه به في التشبيه عند أهل البراعة والعبارة.

وفي الحديث أنه **r** كان يعجبه النظر إلى الأترجّ.

وقال بعض أهل العلوم فسره بأنه مشموم، وشحمه مطعوم، وحماضه أُوام، وبزره دهن تمام، وطبعه بارد رطب في الأولى، والأحسن عندي والأولى أن أبدي لك ما عندي من الفوائد الطبية، واللطائف الحكمية:

فأما شحمه فيصلح فساد الهواء والوباء.

وحماضه يقوّي القلب الذي حرّه ربّاً، ينفع من لسعة العقرب شرباً وطلاء، ويقمع البخار الذي زاد وعاد، ويسكّن الصفراء والقيء والخفقان، وينفع الاكتحال منه من الرمد واليرقان. ويذهب الطلابة القوباء[1] والكلف ويجلو الألوان، وإذا نقع في ماء بارد، وقطع وقطر في العين ينفع الرمد الذي تطاول الذي تطاول منذ زمان، ومرباه جيد [٨١/ب] للرئة والحلق،

(١) القوباء والقُوَباء: الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه وهو داء معروف يَتَقَشَّر ويتَّسع ويداوى بالريق.

وربّه دابغ للمعدة بحق وطبيخه نافع من الحمى وإذا طُبخ لبُّه بخلٍّ وشُرب قتَل العَلَقَة، وأخْرج الداخلةَ في الحلق مع الماء، وقُشْره في الدرجة الثالثة حرارةً ويبساً، وإمساكه في الفم يطيب النكهة، ويورث النفس سروراً وأُنساً، ويقوّي المعدة منه اليسير، وينفع أكله من البواسير، وعصارته إذا شربت نفع من أكل السموم، وحرافته طلا جيد للبرص المعلوم، وبزره يقوي اللثة ويحلل الأورام، وورقه مُقَوٍّ للمعدة، ومُشَهٍّ للطعام، وفيه هضم وتسخين وللتفتح به ذهاب وتسكين مفتح للسد والبلغمية بلا ارتياب، ودهنه نافع من استرخاء الأعصاب، فقال: لقد جئت بالعجب العجاب، ولكن هل تعرف فيه شيئاً من كلام أهل الكمال والآداب، فقلت: على الخبير سقطت[1]، ومن البحر التقطت، وعن الخبير رويت، وإلى علم العلم رأيت فإنني فارس ميدان الفصاحة والبيان، وساحب ذيل التبيان، على تيجان ملك سحبان، فخذ مني أولاً ما جاءت به القريحة، فإنها إن شاء الله تعالى صافية غير قريحة، وجاءت بأبيات شعرية، وألفاظ يانعة زاهرة بهيَة فمن ذلك: [من الوافر]

أُترجّة لقــد حَــوَتْ كــلَّ العجَــبْ	**كفِضَّةٍ قــد طُليــتْ مــن الــذَّهبْ**
لـــونُ المُحـــبِّ لونُهـــا وريحُهـــا	**ريحُ الحبيب وهي في طعم الحَبَــبْ**

وقال آخر: [من المنسرح]

انظر إلــى صــبغة المليــك ومــا	**أظهر فــي الأرض مــن أعاجيــب**
جـــسم لجـــين قميـــصه ذهـــب	**ركّــب فـــي الحـــسن أي تركيــب**
فيـــه لمـــن شيـــمّه وأبـــصره	**لـــون محـــب وريـــح محبـــوب**

ومن اللطائف ما حكاه الصلاح الصفدي في تذكرته عن الأسعد من مماتي قال:

---

(١) أحد أمثال معجم الأمثال العربية (خبر، سقط) ومصادره فيه: مجمع الأمثال ٢٤/٢، وجمهرة الأمثال ٤٦/٢.

دخلت يوماً على القاضي الفاضل، وبين يديه أُترجة كبيرة مفرطة الضخامة، قال: فجعلت أُطيل النظر إليه وأتعجب منها حتى غشيني شيء شبه الذهول، فقال لي: كأنك تفكر في خلق هذه وما [٨٢/أ] فيها من التكثيل والتعويج، وتتعجب من مناسبتها إلي فدهشت وانخلع قلبي ثم عاد إلى خاطري، فقلتُ: لا ولكن، أفكرت في معنى وقع لي فيها ثم نظمت بديهاً: [من السريع]

لله بـــــل للحـــــسن أُترجَّـــــة تُــذَكِّر النَّــاسَ بـــأمر النَّعـــيم

كأنّهـــا قـــد جَمَعـــتْ نَفـــسها من هيبةِ الفاضـلِ عبـدِ الــرحيم

قلت: وبه أختم المقالة، وأُتمم نظام عقد هذه الرسالة، مقالة اختتمت بعض أبياتها على موازن الفقرات، وتقابل بعض الحروف والكلمات: [من البسيط]

أُترجّةٌ قد حَوَتْ صنفاً من العجــبِ كأنّما ذاتُها صـنِعَتْ مــن الــذَّهبِ

في خَدِّها لهبٌ في ثغرهـــا حَبَــبٌ في طَعْمِها شَنَبٌ يَسْمو على الضَّربِ

انتهى.

فلما شنَّف صاحبي سمعي بهذه الجواهر، وتلا مفاخرة الأُترجّ على المنابر، أتحفني بأُترجة ترتاح لرؤيتها النفس، فلك درّه حيث جمع لي بين ملاذ الحواسّ الخمس: [من الكامل]

أفدي الــذي أهــدى إلــيَّ أترجّــة وتلا على سمعي محاسن وصــفها

فنظرتهـــا ولمـــستها وشـــممتها وحلتْ مَذاقاً مــع لَطافــة ظرفهــا

فتنعم الخمــس الحــواس بــأكرةٍ تحوي لجيناً فــي مــذهب ظرفهــا

وما زلتُ أروّح النفس في رياض تلك المدينة، وأنزّه الطرف في عرائس مروجها المتحلية من الأزهار بالجواهر الثمينة، وأنتشق عرف نسيمها العليل، وأرتشف من عيونها سلافاً يبرئ العليل، وأتفكّه بمحادثة لطفائها، وأُشغف السمع بدرر منظوم أدبائها، فعلى الحقيقة فهي مدينة ذات حُسن بديع، وتزداد حسناً إذا ذهب الشتاء ووافى الربيع، وهي معتدلة الهوى، تناسب للطافة كيانها أهل

الجوى؛ وهي غزيرة المياه والعيون، كثيرة الثمار، يانعة الغصون، وأهلها ذوو لطافة وكرم، وفي مكارم الأخلاق أشهر من نار على علم؛ ولهم مزية حسبٍ في تلك البلاد؛ كمزية حسن البياض على السواد، [٨٢/ب]، ولعمري كأنهم المعنيّون بقول القائل، من بلغاء الشعراء الأوائل: [من المتقارب]

هم القوم حــازوا صــفات العُــلا بحــسنِ الطِّبـــاع ولُطــفِ النَّـــسَمْ

ومـــن حقِّهـــم شُـــكر آلائهـــم ومـــن حـــقِّ شـــانئهم[١] أن يُـــذَم

قال صاحب أنس الجليل[٢]:

روى المشرف بسنده عن كعب الأحبار قال:

أحبُّ البلادِ إلى الله تعالى [القدس، وأحب القدس إلى الله تعالى] جبل نابلس، ليأتينَّ على الناس زمانٌ يتماسحونه بالحبال بينهم.

ونابلس مدينة بالأرض المقدسة، مقابل بيت المقدس من جهة الشمال، مسافتها عنه يومان بسير الأثقال - أي على طريق الجادة[٣]- خرج منها كثير من العلماء والأعيان، وهي كثيرة الأعين والأشجار والفواكه ومعظم الأشجار بنواحيها الزيتون، وبها كثير من السامرة[٤]، فإنهم يعتقدون أن القدس جبل نابلس، وقد كذبوا، وخالفوا جميع الأمم في ذلك لعنهم الله تعالى.

وقد قيل: إن سيدنا يوسف عليه السلام قبره بالقرب من نابلس[٥].

وبمدينة نابلس مشهد [يقال: إنَّ به] أولاد يعقوب عليه السلام [أجمعين]، وبنواحيها مشاهد كثيرة تنسب إلى جماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهى.

---

(١) في الأصل م : (شانيهموا) ولا يستوي بها الوزن والمثبت للسياق.

(٢) أنس الجليل ٧٥/٢ بخلاف في الرواية والزيادة عنه.

(٣) ليس هذا الشرح في أنس الجليل.

(٤) في الأصل: (السمرة) والمثبت عن أنس الجليل.

(٥) في أنس الجليل بعد ذلك: (وتقدم ذلك عند ذكره عليه السلام).

وكان ممن أجتلي معه كؤوس الوداد، وينشرح بمحادثته الصدر والفؤاد، وتنبعث به اللذات بتلك الحانات حضرة الزاهد ملا عباس(١) تلميذ الزاهد ولي الله الملا إلياس قدَّس الله سرَّه البديع، ورقّاه في الجنان إلى المنزل الأسنى الرفيع.

فطالما كان يحدثنا عن شيخه المنكور، ويروي خبر زهده وحاله المشهور.

وله كلام في سلوك الطريقة، يدل على أنه من أهل المحبة والحقيقة.

فمنها: شيئان لا تذكرهما: إحسانك للناس وإساءتهم إليك. وشيئان لا تنساهما: ذكر الله والموت.

وعليك بشيئين: لا يراك الله حيثُ نهاك، ولا يفقدكَ حيث أمركَ.

ومنه: عليك باحتمال الأثقال، وارتكاب الأهوال، في كل آن وحال؛ فمهما كنت كذلك، كنت السالك، ومتى جنحت إلى اللذات والراحات فأنت مستدرج. انتهى.

[٨٣/أ] حِكمٌ سَمَتْ فيها مواعظ حكمةٍ	**تُروى عن المولى الزكي إلياس**
يغدو بها الفَطِن الزكي مُتيقظاً	**مُتَردّداً بين الرجا والياسِ**

[تشوّق إلى دمشق]

طالما كنت أتشوق إلى دمشق ومعاهدها، وأتمنى ولو في المنام أشاهدها، لما ورد فيها وفي فضلها من الآثار الصحاح، ولمدحة الشعراء والزوار والسواح ولي إليها من الشوق المبرّح والحنين، ما أشار إليه الصاحب ابن عُنَيْن(٢): [من الطويل]

دمشق فبي شوق إليك مبرح	**وإن لجّ واشٍ أو ألح عذولُ**

---

(١) ذكره المرادي في سلك الدرر في ترجمة إبراهيم الشهير بابن أشنق الحمصي، وقال عنه: (إنه تلميذ الشيخ إلياس الكردي خليفته) وأسماه (المنلا عباس الكردي).

(٢) البيتان في ديوان ابن عنين - طبعة دار صادر المصورة عن طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ص ٦٩ وبين الروايتين بعض الخلافات الطفيفة.

بلاد بها الحصباء دُرٌّ وتربها عبير وأنفاس الشمال شُمولُ

وكيف لا أتشوق لواديها، وأتشوف لرباها[1] وناديها. وبها الغوطة ذات المحاسن، التي ماء أنهارها غير آسن.

وقد قال النواجي في حلبته، مشوقاً لذاك المعهد بمدحته؛ أجمع جوّابو أقطار الأرض على أن منتزهات الدنيا أربعة[2]: سُغْد سَمَرقند، وشعب بَوّان، ونهر الأُبُلَّة، وغوطة دمشق.

قال أبو بكر الخوارزمي: قد رأيتها كلها فكان فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربع على غيرهن، كأنها جنة صُوِّرت على وجه الأرض.

فأما السُّغْدُ: فهو نهر تحفّ به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر ما مقداره اثنا عشر فرسخاً في مثلها.

وأما الشّعب فبقية من نواحي سابور فرسخان وقد ألحفتها الأشجار ظلالها، وجاست الأنهار خلالها، وهو لبوَّان بن إيرجبن أفريدون، وفيه يقول المتنبي: [من الوافر]

مغاني الشِّعب طيباً في المغاني بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ[3]

وهي قصيدة طويلة.

وأما نهر الأُبلةّ فهو من أعمال البصرة، وطوله أربعة فراسخ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد.

وأما الغوطة فهي من خير دمشق، طولها مقدار ثلاثين ميلاً، وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى والضياع، لا تكاد الشمس أن تقع على أرضها لالتفاف شجرها، واكتناف زهرها. وللشعراء في وصفها قصائد كثيرة طَوَيْتُ [٨٣/ب] عن ذكرها خوفَ الإطالة.

---

(١) في م : (لرياها)والمثبت للسياق.

(٢) ذكر ياقوت هذاالقول في معجم البلدان (بوان الأبلة).

(٣) شرح ديوان المتنبي ٣٨٣/٤.

روي عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال:

غوطة دمشق بستان الله في أرضه.

قال الشيخ بدر الدين الدماميني عند دخوله إياها فتأملها المملوك فإذا هي جنةٌ ذاتُ قرار ومَعين، وبلدة تبعث في محاسنها الفكر وتعين.

وحسبك بالجامع مع الفارق بينهما وبين ما سواها، والأنهار التي(١) إذا ذُكِرَت قبل المحل فما أجراها.

وإذا سُمع حديث الخصب فما أرواها.

وما أقول إلا متنزهات مصر عارية من المحاسن وهذه ذات الكسوة، ولأنّ النيل ما احترق إلا من الأسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود إلى تلك الربوة. ولا أظنه احمرّ خَجلاً من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر إلا لتألمه على الانقطاع عن الوصول إلى سقي أزهارها.

فلو رأى العاشق جهتها لسلا بمصر معشوقه، ونسي ظهور جواريه المنحنية بقامات غصونها الممشوقة.

ولو تطاولت المجنونة إلى المفاخرة لتأخرت إلى خلفها متخلية، وأحجمت عن الإقدام، حيث تحركت لها بدمشق السلسلة، وحق لمصر أن لا تجري المفاخرة في فنها، وأن تتقي شر المنازعة قبل أن تصاب بسهمها فسقى الله منتزهاتها التي طرب المملوك برؤية حبكها، ولطالما اهتزت لها الم عاطف على السماع، ورأى بها كل نهر ذاب عند الجليد فانعقد على حلاوة سكره الإجماع، وأنشد الشيخ إبراهيم القيراطي(٢): [من الكامل]

أشتاقُ في وادي دمشق معهداً ... كلُّ الجمال إلى حماه يُنْسَبُ

ما فيه إلا روضةٌ أو جوسَقٌ ... أو جدولٌ أو بلبلٌ أو رَبْرَبُ

---

(١) في م (الذي) وهو من أخطاء القرن.

(٢) هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر الطائي برهان الدين القيراطي: شاعر من أعيان القاهرة. اشتغل بالفقه والأدب، وجاور بمكة فتوفي فيها سنة ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩ م. وله ديوان شعر سماه (مطلع النيرين) ومجموع أدب اسمه (الوشاح المفصل). (الأعلام ٤٣/١، والدرر الكامنة ٣١/١، وشذرات الذهب ٤٦٥/٨).

وكـــأنَّ ذاك النهـــر فيـــه معـــصمٌ … بيـــد النـــسيم مُـــنَقّشٌ ومُكتّـــبُ

وإذا تكـــسّر مـــاؤه أبـــصرتَه … في الحال بـين رياضـه يتـشعبُ

وشدت على العيدان وُرْقٌ أطربـت … بغنائها من غاب عنه المطـربُ[1]

فالوُرْقُ تـشدو والنـسيم مـشبّبٌ … والنهر يسقي والجـداول تـشربُ

وضياعُها ضاع النسيم بهـا فكـم … أضحى لـه مـن بيننـا متَطلِّـبُ

وحَلَتْ بقلبـي مـن عـسال جنـة … فيهـا لأربـاب الخَلاعـةِ ملعـبُ

[٨٤/أ] ولكم طربت على السماعِ بـذكرها … وغـدا بروبتهـا اللـسانُ يُـشَبِّب

فمتـــى أزورُ معالمـــاً أبوابُهـــا … بـــسماحها كتـــبُ الكـــرام تُبـــوَّبُ

ابن خطيب داريا[2] [من الطويل]

سألتكما إن جئتمـا الـشامَ بكـرةً … وعاينتُما الشَّقْراء والغوطةَ الخَضْرا

قفـا واقـرأا منّـي كتابـاً كتبتُـه … بدمعي لكم مقرا ولا تنسيا سـطرا

وقد أجاد القيراطي[3] في تضمينه: [من الطويل]

دمشقُ بواديهـا ريـاض نواضـرٌ … بها ينجلي عن قلب ناظرها الهَـمُّ

على نفسه فَلْيَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمـرُهُ … وليس له منها نـصيبٌ ولا قِـسمُ

انتهى.

وقد هاجني لورود منهلها العذب، وتبوُّئ سوحها الفسيح الرحب ما أخرجه الحافظ أبو الحسن بن ربعي الإمام في «فضائل الأرض المقدسة ودمشق الشام» عن ابن مسعود مرفوعاً:

---

(١) من غاب عنه المطرب كتاب معروف ومطبوع للثعالبي.

(٢) ابن خطيب داريا هو محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري الخزرجي. أديب جيد الشعر، حسن التصنيف. كان شاعر دمشق في عصره. ولد فيها سنة ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م، وتوفي في بيسان سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م، وله عدة مؤلفات (الأعلام ٢٢٧/٦، والضوء اللامع ٣١٠/٦، وبغية الوعاة ٢٥/١).

(٣) تقدمت ترجمته قبل صفحة.

قسم الله الخير عشرة أعشار فجعل تسعة أعشاره بالشام، وبقيته في سائر الأرضين، وقسم العشر عشرة أجزاء، فجعل جزءاً بالشام وبقيته في سائر الأرضين.

وعن الوليد بن صالح الأزدي قال في الكتاب الأول:

الله يقول للشام أنت الأنْدَرُ[(1)]، ومنك المنشر، وإليك المحشر، فيك ناري ونوري، من دخلك رغبة فيك فبرحمتي، ومن خرج عنك رغبة عنك فبسخطي تتسع لأهلها كما يتسع الرحم للولد.

وعن أبي أمامة عن النبي r تلا هذه الآية: قوله عز وجل: **(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)** [المؤمنون: ٢٣/٥٠]، ثم قال: هل تدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هي الشام بأرض يقال لها الغوطة بمدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: **(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)** [المؤمنون: ٢٣/٥٠] قال: هي دمشق. والحسن[(2)]: هي الغوطة.

وعن قتادة قال: ذات ثمار وماء كثير. انتهى.

ولما تحكم الوجد والولوع، لمشاهدة تلك المعاهد والربوع، شمرت لقصدها عن ساق الهمة والعزم، وتمنطقت بمناطق الاستعداد والحزم، [٨٤/ب]

[مغادرة نابلس إلى الشام]

ففي يوم الأربعاء المبارك الأنور، سابع عشري ربيع الأول الأزهر، سريت من نابلس المحروسة، وفارقت معاهد ربوعها المأنوسة.

هذا الطَّرْفُ يذري الدموع بانسجام، فلم أدرِ تلك العَبْرة حزناً لفراقها أم فرحاً بالشام: [من الطويل]

---

(١) الأندر: البَيْدر، شاميَّة والجمع الأنادر، وقال كُراع: الأندر: الكُدْس من القمح. (اللسان: ندر).

(٢) أي قال الحسن، انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٤٦.

لنابلس الفيحــاء غــدوتُ مودعــاً ميمم نحو الــشام نخــبَ تَــشوّقي

ففاضَتْ دموعي من سحاب جُفونها تــسحّ كــسحّ الوابــل المُتــدفّق

فلم أدرِ جَرْيَ الدَّمعِ يــومَ فراقهــا أحُزْناً عليهــا أم سُــروراً بجلَّــقِ

ولما تزايد بي ذلك، أنشدت بين هاتيك المسالك: [من البسيط]

ومُذْ ثَنَيْتُ عَنــانَ العَــزْم مُــرْتَحلاً عن نابلوس لنحو الشام من بــرح

جرت دموعي فــلا أدري تــدفُّقها من موجب الحُزْن أم من داعي الفرح

وامتطيت طرفاً من العتاق، مصاحب السادة وفاق.

منهم: ولي الله الرفيع الشان الشيخ عبد الرحمن السمان، والفاضل منلا عباس تلميذ الزاهد المنلا إلياس .

وخرج معنا للوداع الأصدقاء والأحباب، إلى عين الماء، وواديها الفسيح الرحاب.

فلما حان وقت الوداع، هاجت لواعج القلب الملتاع.

وتراسلت مسلسلات الدموع، وصرف النوى صيغة منتهى الجموع.

وغدا حلو العيش بذلك مرا، وقال لي البينُ **(** لن تستطيع معي صبراً **)** [الكهف/ ٦٧]. [من الطويل]:

ولما نحا التفريق صرف جموعنــا وأعرب عن وجد حديث المــدامع

تنازعني داعي التَّولــه والجــوى وأشــغلني تــذكار تلــك المرابــع

[دير شرف]

ثم سرنا فوصلنا بعد ساعتين دير شرف، فارتقينا من صهوته أعلى الغرف.

فأنس ببرء علته السقيم، مذ رآه فيه اعتلال النسيم.

وأنشدت عند مشاهدة مرجته البهيجة، وفرح شذا أزهاره الأريجة: [من البسيط]

يا حبذا المرجة الفيحا بذي شــرف وروضها الزاهر الزاهــي البهــيج

شفا العليل الجوى مرُّ النسيم بهــا إذ راح يروي الشذا عــن عرفــه

[جنين]

وبعد صلاتنا العشائين جماعة، قصدنا جنين[1] فوصلناها [٨٥/أ] قبيل الفجر بساعة.

فنزلنا بخانها المعد للمسافر، فوجدنا الحسن عن محياه سافر.

وبجانبه مسجد قد كساه الجمال جلباباً، وعقد له من بهجة النفوس باباً.

ترى الروض محيطاً بجوانبه، والماء جارياً في المشارق الخان ومغاربه.

ولا بدَّ إذ كان مذهباً للحزن، فقد جمع الماء والخضرة، والوجه الحسن[2]: [من الرجز]

يا حبذا يوماً بجنين مضى كالغرة البيضاء في وجه الزمان

فيه ثلاث للسرور تجمعت الماء والخضرة والوجه الحسن

واجتمعت فيها بولي الله العارف المتوشح بالمعارف والعوارف مولانا الشيخ أحمد قبونه، لا زالت سحائب امداداته هتونة؛ وقد أجمع على ولايته أهل تلك الناحية، وكم له من كرامات كالشمس ظاهرة غير خافية؛ فلما جلا منظره الشريف ناظري، أفصح بلسانه عما هجس في خاطري؛ وتلقاني بالبشر والابتسام، وأتحفني بدعوات على وفق المرام؛ ثم أقمنا بين هاتيك الظلال، إلى أن توارت الشمس دوننا بحجال؛ سرنا قاصدين عيون التجار[3] نتصفح كتاب المسامرة وأخبار الأخيار؛ ووصلنا قبيل الفجر إلى خانها، ونزلنا

---

(١) جنين: بكسر الجيم، وسكون ثانية، ونون مكسورة أيضاً، وياء أخرى ساكنة أيضاً، ونون أخرى: بليدة حسنة بين نابلس وبيسان، من أرض الأردن، بها عيون ومياه. قلت: وتقع اليوم ضمن الأراضي المحتلة الفلسطينية في الضفة الغربية.

(٢) بعد هذا اللفظ في م: (شعر).

(٣) عيون التجار: والتجار بضم التاء المثناة الفوقية، وتخفيف الجيم، لغة في التجار –بضم المثناة الفوقية وتشديد الجيم – جمع تاجر وهي خان زاره النابلسي في زيارته للقدس وفي الموسوعة الفلسطينية ٥٦٦/١ أنها خان يطلق عليه اسم التكية، ويضم في داخله حصناً بُني زمن المماليك سنة ٨٤٣، وجدده سنان باشا. وانظر الحضرة الأنسية ٥٧.

نحن والرفاق بخانها؛ بداخلها مسجد سامي البناء، قد آل إلى الزوال والفناء، وهذا الخان صار غالبه إلى الخراب، بل قارب أن يساوي التراب: [من الخفيف]

قد نزلنا وقت الصباح بخان   خانه الدهر فانتمى للفقار

كان الروض له التجار توافي   باشتياق من سائر الأمصار

قد بكته عيوننا[(١)] إذ رأوه   بعدُ علياً مشيدة في اندثار

لهف قلبي ولوعتي فعليه   سحَّ جفني بدمعه المدرار

[خان المنية]

ولما أشرقت الشمس على تلك البطاح، قصدنا خان المنية[(٢)] وروضها الفياح فوصلناه عند توسط الشمس المضية، ونزلنا على شط بحيرة طبرية.

وقضينا ذلك اليوم نحن والرفاق اللطفاء، بأنس وحبور [٨٥/ب] ومسرة وصفاء.

وقبل وصولنا إلى المنية، أخبرنا بعض المكارية؛ أنه قريب من هنا مقام شعيب بقرية حطين[(٣)]، ولكن دونها عقبات ومخاوف بيقين.

فأهدينا التحية لسيدنا شعيب عليه السلام، واعتذرنا عن وصولنا لرحابه دار السلام: [من الوافر]

رياض الأُنس مرآها يطيبُ   ومربع دوحها روضٌ خصيبُ

وموردُها يُروّي كل صادٍ   إذا استولى على القلب الوجيبُ

---

(١) في الأصل: (عيون) والمثبت للسياق العروضي.

(٢) خان المنية: زارها النابلسي في رحلته إلى القدس وقال: اسمها المنية وبعضهم يصحفها (المنيَّة)، والرسم واحد في هذه القضية، فإن المنية بالتشديد هي، وبالتخفيف بمعنى الأمنية (الحضرة الأنسية ٥٦).

(٣) طبرية: قرية بين أرسوف وقيسارية، وبها قبر سيدنا شعيب عليه السلام (معجم البدان).

لقـــد أبْـــدَت لنـــا حطّـــين منهـــا ضَريحاً فــاحَ مـــن ريّـــاه طيـــبُ
ضــــريح يزدهـــي حـــسناً ففيـــه صــــفيُّ الحـــق مولانــــا شُـــعيبُ
رســــولٌ ناصـــحٌ هـــادٍ رشـــيدٌ حَلـــيمٌ مُـــصلحٌ راجٍ مُنيـــبُ
خطيـــبُ الأنبيـــاء كمـــا روينـــا بإســـنادٍ فيـــا نعـــم الخطيـــبُ
فيـــا ســـعد الـــذي وافـــى حمـــاه لــــه الإســـعادُ والفـــتح القريـــبُ
وكم رُمْتُ الوصـــولَ وقـــد تـــدانى ومــــورد ورده منــــا قريـــبُ
فعـــاقتني مخـــاوفٌ مزعجـــاتٌ لهـــا رأسُ الوليـــدِ حَـــوى يَـــشيبُ
فيـــا كنـــز النبـــوة صِـــلْ غريبـــاً فـــإني فـــي حمـــاك إذا غريـــبُ
عليـــك الله صـــلى مـــا تـــراءت رياضُ الأنـــس مـــشهدها يطيـــبُ

تذييل:[ترجمة شعيب عليه السلام]

سيدنا شعيب عليه السلام من أولاد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقيل: من ولد بعض من آمن بإبراهيم عليه السلام، أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة و[أهل] مدين [وكانت الأيكة من شجر ملتف] فلم يؤمنوا [به] فأهلك الله تعالى أصحاب الأيكة بسحابة أمطرت عليهم ناراً [يوم الظلّة] فاحترقوا وأهلك الله تعالى أهل مدين بالزلزلة.

وجاء الخبر أن شعيباً عليه السلام، كان خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقبره بقرية حطّين من أعمال مدينة صفد، بعيدة عن بيت المقدس بنحو ثلاثة أيام. انتهى. من الأنس الجليل(١).

[عين تفران]

ولما استقام ظهر الليل، امتطينا ظهور الخيل، فوصلنا قبيل الظهر قرية (٨٦/أ] عين تفران، فإذ هي(٢)خالية من السكان، تبكي عيونها بفيض الدموع، وتندب أطلالُها سكّانَ تلك الربوع:

---

(١) ترجمة شعيب عليه السلام في الأنس الجليل ٧٣/١ برواية مختلفة، والزيادة عنه.

(٢) لفظ (هي) مستدرك فوق السطر في م.

وبلـــــدة لـــــيس بهـــــا أنـــــيسُ   إلا اليعـــــافيرُ وإلا العـــــيسُ

نزلنا بها نتفيأ بظلّها الظليل، ونريح الأرواح بذلك المقيل، فما كان إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى تهيأ أمير الركب، للمسير فارهب، فصرنا في دوحة مغصة بالأشجار، إلى أن وصلنا إلى القنطرة حين ولى النهار. ونزلنا بخانها الخراب، وأقرانا الريح فيها بنثر التراب، وقد نصب البرد فيها خيامه، ورفع بها رايته وأعلامه، فنحي الجسم بشدته، ووكل الزمهرير بإعراب سطوته فتذكرتُ في هذا المقام حين اعتراني الوجيب، ما كتبه الصلاح الصفدي الأديب، بقوله: لو ترى أحدنا وقد أخذه النّافضُ[1]، ونحاه القُرُّ بعامله الرافع، والزمهرير الخافض لرأيت شخصاً رُكِّبت أعضاؤه على الزيبق فما تستقر، وجَفَّت لَهَواتُه يبساً فما تستدرّ، لا يمدّ كفَّه ولو بايعتَه الناسُ على الخلافة، ولا يخرج يده ولو كان فقيراً إلى كيس ذهب أو نديماً إلى كأس سلافة، يكاد لذلك البرد. حتى الكلام يتجسّد ويمنّى الإنسان لو أنه تحت رخام الحمام يتوسَّد. انتهى.

ومن لطيف التناجي ما أنشده الشهاب الخفاجي[2]: [من المتقارب]

ويـــــوم غـــــدا بـــــارداً جـــــوُّهُ   بـــه رعـــدةٌ مـــن هـــواً يَبْـــردُ

تـــرى لهـــبَ النّـــار مـــن بَـــرْده   بكانونـــــــه أبـــــــداً يرعـــــــدُ

---

(١) النافض: حمى الرِّعْدة ، مذكر، وقد نَفَضَته وأخذتْه حُمّى نافِضٍ وحُمّى نافضٌ وحمى بنافضٍ، هذا الأعلى (اللسان: نفض).

(٢) هو أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري: قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة. نسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد بمصر سنة (٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م)، وبها نشأ ورحل إلى بلاد الروم، واتصل بالسلطان مراد العثماني فولاه قضاء سلانيك ثم قضاء مصر، وفيها توفي سنة (١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩ م) (خلاصة الأثر ٣٣١/١، والإعلام ٢٢٧/١).

ولما حُدّثت بأخبار البرد والهوا، أنشدت مرتجلاً من الوعظ الجوى: [من الطويل]

نزلتُ بهــا حتــى تمنّيــت جــذوةً بما أتّقي بَرْدَ الهــوا ومــا تجــدي

ورمت حديثَ الواقــديّ ومــا روى أبو مسعر وأبو الزناد مــن الوقــدِ

[قرية سعسع]

ولما أضاء القمر وشعشع، قصدنا قرية سعسع، فوصلناها وقت الزوال، وقد سُرّب النفس ببلوغ الآمال، ونزلنا بخانها العامر الأنيس، وصلينا التحية بمسجده النفيس؛ وبه تكيّة [٨٦/ب] بجانب المسجد تنبئ بعلو همة المجدد، وتجاهها فستقية ماء عذب الموارد، تروي غليل الصادر والوارد، وبمحاذاته نهر ماء سلساله يتموج، يقال له نهر الأعوج، فجلست على شاطئ ذلك النهر لأروي القلب وأشرح الصدر، مع إخوان رقة ولطف، وأخدان ذوق وظرف، ندير ما بيننا سلاف البديع، ونتفكّه بثمار روضة المريع، فبينما نحن فيؤ لذة هذا الخطاب، ونشأة ذلك الشراب، إذ ورد درويش شريف، ذو أدب وسمت لطيف، فوقف وأبدى التحية والسلام، وطلب الإذن في الجلوس باحتشام، فلما جلس وذهبت عنه دهشة القادم، أخذ ببديع البلاغة ينادم، وأبدى لطائف الأخبار والنوادر، فشنف الأسماع بالدر والجواهر، وقلت له ما الاسم الكريم، حبيت التعظيم والتكريم، فأنشد متبسماً، وأهاج الفؤاد المتيما:

أفــدي الــذي دار بكــأس الطــلا وخـــــده كـــــالورد ممــــا ورد

قلتُ: اسْقِني من غيــرِ دور أبــيَ وقال لي فــي الــدور شــيء وَرَدْ

فقلت له: لعمري هذا من المُعَمّى، وقد اتّفق الوصف مع المُسمّى، فقال: حيَّاك الله وبياك وحفظ ذهنك ولا فضّ فاك.

وقد اتفق مثل هذا المقام، لحضرة يحيى أفندي بن برام، أنه دخل رجل فوقف وسوّى قامته، ثم انحنى ثم قبض على لحيته، وجعل كأنه ينفض منها شيئاً من آخرها ثلاث مرات، ثم قال له: معمى باسم الفقير، فقال له: اجلس يا إدريس.

ومن هذا القبيل ما يحكى عن الصاحب بن عباد أنه سأل رجلاً ع اسمه فأنشده: [من الطويل]

وما تستوي الأسماء والناس والكنـــى كثيراُ ولكن قد تــساوى الخلائـــق

فقال له الصاحب: اجلس يا أبا القاسم. ثم قال لي: ما الاسم حظيت من المعارف بأوفر قسم، فأنشدته قول ابن البكاء في كنزه في الاسم المعمى ورمزه: [من السريع]

لـــم أنـــس إذ قـــال مـــن تيهـــه وكاســـــه بـــالراح قـــد طفـــا

حُبـــاب هـــذا الخمـــر لمـــا رأى فمـــي لـــه صـــاد عليـــه طفـــا

[٨٧/أ] فقال لي: حُبيتَ الأُنس والصفا، فلا زلت للعلياء مصطفى، ثم تجارينا في ميدان التناجي، على سوائق الألغاز والأحاجي، فأنشدته: [من مخلع البسيط]

يـــا مـــن يباحـــث فـــي الأحـــاجي حتـــى عـــدت منـــه المطيعَـــهْ

مـــا مثـــل قولـــك فـــي أديـــب رام الحجـــا عـــين الـــشريعه

وأنشدت أيضاً: [من الوافر]

وغانيــــة لهـــا صـــب مـــشوق يـــرومُ بوصـــلها منهـــا اقترابـــا

تعاطيـــــه نـــــصاباً قرقفيـــــاً محاجيـــة فـــلا يرضـــى رضـــابا

فأنشدني على البديهة واعتذر، وعزم في وقته على السفر:

يـــا مـــن شـــفا بلفظـــه فـــؤادي مذ كـــان بـــي مـــن البعـــاد غلـــه

كيف التحـــاجي والبليـــغ ذو حجـــا إذ مـــا تحـــاجي ثـــواب ملَّـــهْ

ثم ودّع وانصرف، وأبقى التلهّف والأسف، ثم قضينا بقية اليوم بذلك الحمى نحن والقوم، ولما توارت الشمس بالحجاب، أسرعنا بصلاة العشائين نحن والصحاب، وامتطينا من الجياد والمتون، ولنا بقرب الديار شؤون: [من الوافر]

ويــــزداد المحــــب كثيــــر شــــوق   إذا حــــان الوصـــــول مــــن الــــديار

ولما لاحت من دمشق السّرادق، المتمنطقة من رياضها بمذهبات المناطق، وتبسمت ثغوراً أزهارها، وبشّرت المشوق بقرب مزارها، طفق الحادي بحسنها يترنّم، فأنشد هناك، المستهام المغرم: [من الوافر]

ألا زِدْنـــــي ولوعـــــاً بامتـــــداحك   محاسن جِلّـــق وقـــت اصـــطباحكْ

وزد بـــــالنيربين ولــــــوع قلبــــــي   وربوتهـــا فيـــا حُـــسْنَ اقتراحــكْ

فلما أشرفنا على الثنية، وفاح من أرجائها العواطر العنبرية، أنشد بعض الصحب، فأهاج المغرم الصبّ: [من الكامل]

وإذا الثنيةُ أشـــرفت وعمـــت مـــن   أرج الحمى أرجـــاً كنـــشر عبيـــرِ

سَلْ هَضْبَها المنصوبَ أين حديثها الـــ   مرفوع عن ذيل الـــصبا المجـــرور

[دمشق المحروسة]

وعندما حَيْعَل المؤذّن بالفلاح، ولاح من الأفق تباشير الصباح، [٨٧/ب] وصلنا إلى دمشق المحروسة، التي هي بالأبدال مأنوسة، ووقفنا ببابها الوسيع الرحب، وقرأنا الفاتحة لمن بها من الأولياء والصحب، واستأذنّا سراتها في الورود، كما نبه عليه صاحب العهود، ثم سرنا حتى وصلنا المدرسة الشميصاتية[١]، ونزلنا بها بخلوة مراقيها سنية، بعد أن قرأت الفاتحة للواقف، السامي الممنوح بعواطف العواطف، وذلك صبيحة يوم الاثنين المفضل، ثاني عشري ربيع الأول، ثم توجهت للجامع الأموي الجامع، الذي ضياء السنا على أرجائه لامع، فإذا هو أزهر، وكوكب بالمحاسن أنور، تأسست قواعده على التقوى، وحاز من الجمال المرتبة القصوى: [من الوافر]

---

(١) الخانقاه السميساطية بمهملات، مُصَغّرة، نسبة للسميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الحبشي (٤٥٣ هـ) من أكابر الرؤساء بدمشق، وهي معروفة مشهورة عند باب الجامع الأموي الشمالي، وكان هذا الباب يسمى بباب الناطفيين (الدارس ١٥١/٢، ومنادمة الأطلال ٢٧٦).

بيـــوتُ اللهِ بـــالغَبْراء حاكَـــتْ   مـــن الزّرقـــاء أغمهـــا الفراقـــدْ
وهـــذا البيـــتُ بيـــتُ الله حقـــاً   على التقـــوى تأســستِ القواعــدْ

ولله درّ الصفدي الحاذق، حيث جعله جامعاً فارق: [من المتقارب]

دمـــشقُ لهـــا منظـــر رائـــق   وكـــلٌّ إلـــي وصـــلها تـــائقُ
وكيـــف يُقـــاس بهـــا بلـــدةٌ   أبـــا الله والجـــامع الفـــارقُ

[النبي يحيى الحصور عليه السلام]

ثم بعد صلاة ركعتي التحية، والدعاء بالدعوات السنية، قصدت جناب حضرة نبي الله يحيى الحصور، عليه صلاة وسلاماً يؤذنان بالحبور، وجعلته أول وروداً، والموارد مشهداً وشهوداً، لأنه هو الأحقّ بالتقديم، والمستوجب الإجلال والتعظيم، ولذلك جعلته مبدأ زيارتي بهذه المدينة، رجاء حصول الإمداد وتنزل السكينة: [من الطويل]

ولما وصلنا من دمـــشق معاهـــدا   وثغـــر الأمـــاني بالهنـــا يتنـــسّمُ
وقالوا بمـــن ذا بالزيـــارة تبتـــدي   بتقديمـــه قلـــت النبـــيُّ المقـــدمُ
فوافيـــت ذيّـــاك الجنـــاب ميممـــاً   أُصـــلّي عليـــه مثنّيـــاً وأســـلمُ

فوقفت تجاه حضرته الشريفة، مُتَرجياً عواطف إمداداته المنيفة، وقرأت ما تيسر من القرآن، وأهديته لجنابه الرفيع الشان، وأنشدت [٨٨/أ] في ذاك المقام المحترم، ما سنح به الفكر وجرى به القلم:[من الوافر]

عهود الأُنس منـــه القلـــب يحيـــا   بـــأنس حمـــى نبـــيّ الله يحيـــا
حمًـــى عنـــه المـــشاهد أنبأتنـــا   أحاديـــث الـــضيا ســـنداً قويـــا
تسامى إذ حـــوى مـــولى رســـولا   حـــصوراً ســـيداً بـــرّاً تقيـــا
بـــه قـــد بَـــشَّر المـــولى أبـــاه   وأوتي الحكـــم فـــي مهـــد صـــبيا
تـــدّرع بالمـــسوح الـــشعر زهـــداً   وســـار بزهـــده نهجـــاً ســـويّا
ووافى المـــسجد الأقـــصى خـــديماً   وأحيـــا الله بالـــذكرى بكيـــا

وقـد نهـج الـسياحة بـانفراد — وكـان لربّـه فيهـا نجيـا
دمـشق الـشام علياه تـسمو — بمـشهده الـشريف ذرا عليـا
فبـشرى للـذي وافـى حمـاه — يجـوز سـعادة ميتـاً وحيـا
لنحـو جنابـه الـسامي وفـدنا — نرجـي منـه فيـضاً أقدسـيا
لعـل القلـب مـن ظمـأ التنـائي — يـصادف مـنهلاً حـال وريـا
فأهديـه صـلاة مـن سـناها — شهود الأُنس منـه القلـب يحيـا

تذييل

ويحيى عليه السلام نبيّ الله وصفيّه أرسله الله تعالى فدعا الناس إلى عبادة الله تعالى، ولبس الشعر واجتهد في العبادة من صغره، حكي أنه دخل بيت المقدس وهو ابن ثماني حجج، نظر أهل بيت المقدس قد لبسوا مدارع الشعر وبرانس الصوف، ونظر إلى مجتهديهم. فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا، ثم رجع إلى بيت المقدس، وكان يخدم فيها نهاراً ويسبّح ويصلّي ليلاً حتى أتت عليه خمس وعشرون سنة خرج سائحاً حتى جلس على بحيرة الأردن، وقد نقع عليه قدماه من العطش، وقد كاد أن يُذْبح، وقال الله تعالى: وعزتك، وجلالك لا أذوق برد الشراب حتى أعلم أين مصيري إلى الجنة أم إلى النار، فبكى أبواه وسألاه أن يأكل قرصاً من شعير كان معهما ويشرب من ذلك الماء فرق لهما وفعل وكفّر عن يمينه، فذكره الله تعالى بالبر فقال: **﴿وَبَرّاً بِوالِدَيْهِ﴾** [مريم: ١٩/١٤]، فرده أبواه إلى بيت [٨٨/أ] المقدس، فكان إذا كان صلاته بكى فيبكي زكريا لبكائه، حتى يغمى عليه، ويبكي أهل المنازل، ومن كان من العبّاد حولهما لبكائهما فلم يزل كذلك، حتى خرقت دموعه خديه، فاتخذت أمه قطعتين من لبد وألصقتهما على خديه، تستنقع دموعه إذا بكى في القطعتين، فتقوم فتعصرهما فكان يحيى إذا رأى دموعه تجري على ذراعَيْ أمّه قال: اللهم هذه دموعي، وهذه أُمي، وأنا عبدك، وأنت أرحم الراحمين.

استفتاه بردوس الملك في التزوج بابنة أخيه، فقال له: لا تحلّ لك، فسألته البنت وأمها في ذبح يحيى فأبى، فلحتا عليه وأَمَرَ بيحيى فذُبح، ووضع الرأس، فجعل يتكلم ويقول: لا تحلّ لك، واستمر دمه يغلي إلى أن بعث الله تعالى على بني إسرائيل حردوساً فقتل منهم سبعين ألفاً فسكن. وكان قتله قبل رفع عيسى عليه السلام بسنة ونصف.

وقال ابن عباس: أوحى الله عز وجل إلى محمد r أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وأني قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً. انتهى.

وإن رأسه مدفون في هذا المسجد كما دلّت عليه الآثار بمشاهدة الأبصار، فلعل القبور المنسوبة إليه خلاف هذا فيها جسده الشريف فقيل إنه بجبل طور زيتا مقابر الأنبياء وقيل بسَبَسْطية[1] من أعمال نابلس وقيل بصيدا.

ثم ثَنَّيتُ بزيارة نبي الله هود عليه السلام على ما قيل إنه في القبلة تجاه الإمام فوقفت في ميدان الأدب والخشوع مرتدياً برداء التّذلُّل والخضوع وقرأت ما تيسّر من القرآن، وأهديته لجنابه الرفيع الشأن؛ ودعوت الله لي ولإخواني، بما أجراه الحق على لساني، ثم لما انشرح القلب؛ بهذا المشهد طرب الصب؛ وأنشد: [من الوافر]

معاهِدُ فـي دمـشقَ حكـتْ زَرودا — فطابَـتْ مَـصْدراً وحلَـتْ وُرودا

ولاح بأُفقهـا شـمسُ التهـاني — لنـا تبـدي مطالعهـا سُـعُودا

وروضـةُ دوحهـا تُهـدي نـسيماً — يَفـوحُ أريجُـهُ نـداً وعـودا

مـشارقُ حـسنها قـد أشـهدتنا — ضـياءَ حِمَـى نبـيِّ اللهِ هـودا

[٩٠/أ] غدا في قبلة الأمويّ ثـاوٍ — كمـا روت النُّهـى خبـراً مفيـدا

حللنـا سـوحَه الزاهـي صـباحاً — نرجّـي مـن موانحِـه شـهودا

ونهديـه سـلاماً مـا تـراءت — معاهدُ فـي دمـشقَ حكـتْ زَرودا

---

(١) في (م) : (بسبيطة) تحريف وسَبَسْطية قرب نابلس فيها قبر سيدنا يحيى عليه السلام، انظر معجم البلدان، والحضرة الأنسية ١٩٤، والحقيقة والمجاز ٤٦/١، ٣٠٥.

تذييل

وهود[1] عليه السلام هو نبي الله تعالى، أرسله إلى عاد، فدعاهم فلم يؤمن منهم إلا القليل، فأهلك الله تعالى الذين لم يؤمنوا بريح سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً - والحسوم: الدائم - فلم تدع غير هود والمؤمنين معه، فإنهم اعتزلوا في حضر موت، وبقي هود كذلك إلى أن مات بها، ودفن به، وقيل بالحجر من مكة.

وعن عثمان بن أبي عاتكة[2]: قبلة مسجد دمشق قبر هود عليه السلام.

وقال القرطبي في تفسير **(وَالتِّينِ)**: مسجد دمشق كان بستاناً لهود عليه السلام فيه تين. انتهى.

[الجامع الأموي]

وقد بنى هذا المسجد الوليد بن عبد الملك سنة ست وسبعين، وأتم بناءه في عشر سنين، وكان فيه اثنا عشر ألف مرخم، وأنفق في عمارته أربع مئة صندوق، كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، ولما تم عمارته قال الوليد:

يا أهل دمشق إنكم تفتخرون على الناس بأربع: بهواكم، ومائكم، وحماماتكم، وفاكهتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة، وهي هذا الجامع، فاحمدوا الله تعالى، وأثنوا عليه.

وقال الفرزدق:

يا أهل دمشق، في بلدتكم قصر من قصور الجنة - يعني به الجامع الأموي.

ولم يزل على هذا الحسن أن خرَّبه التمرلنك، وأزال محاسنه، ولم يبق منها إلا الآثار، ولكن فضل البقعة باق، كما دلت الأخبار:

فعن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة.

---

(١) له ترجمة في الطبري ٢٨٦/١ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٤٦/٢٧ - ١٥٧، وقد سقطت هذه الترجمة مع ما سقط من تراجم ابن عساكر في التاريخ الكبير لفقد النسخة الأصلية للتاريخ، والبداية والنهاية ١٨٣/١ - ١٩٥.

(٢) هذا الخبر في مختصر تاريخ دمشق ١٥٦/٢٧ ، والبداية والنهاية ١٩٥/١.

وحكي أن واثلة بن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي جيرون فلقي كعب الأحبار، فقال له: أين تريد؟ فقال: أريد بيت المقدس لأصلي فيه، فقال: تعال أريك موضعه، أو قال: موضعاً في هذا المسجد، من صلى فيه فكأنما صلّى في بيت المقدس. قال: فذهب فأراه [٨٩/ب] ما بين الباب الأصغر الذي يخرج منه الوالي إلى الجنينة يعني قنطرة بالعربية. وقال:

من صلّى فيما بين هاتين فكأنما صلّى في بيت المقدس.

قال واثلة: والله إنه لمجلسي ومجلس قومي. انتهى.

[زيارة الصحابة والتابعين والأولياء]

ثم في يوم الثلاثاء، انبعث الشوق بالقلب انبعاثاً لزيارة من بها من الصحابة السادة والتابعين والأولياء القادة، فابتدأت بزيارة خولة الصحابية.

وثنَّيْت برابعة الشامية.

ثم انعطفت نحو الشيخ أرسلان ومن بجواره من العلماء الأعيان.

ثم ختمت بحضرة ابن دقيق العيد، والسلطان صلاح الدين ومحمود الشهيد، فلقد وردت رحاباتهم السنية، وارتويت من مناهلهم العذبة الهنية.

[مقبرة باب الصغير]

وفي يوم الخميس الأنفس النفيس توجهت إلى مقبرة الباب الصغير، التي أضحت بمن فيها كالروض النضير؛ فولجت رحاب سيدنا بلال، ووقفت في مقام الأدب والإجلال، وقرأت الفاتحة والإخلاص، مترجياً من إمداداته حسن الخلاص.

ثم انعطفت لرحاب الصحابي الشهير، سيدنا معاوية الكبير.

ثم إلى زَوْجَتَيِ المصطفى أُمَّي سلمة وحبيبة.

ثم إلى جاريته ميمونة، حيث كانت منهم قريبة.

ثم مآثر قبور جملة من الصحابة، وطائفة من التابعين لتلك العصابة، فوقفت بساحتهم الشريفة، ورجوت إمداداتهم اللطيفة.

ثم انعطفت إلى الخلوة راجعاً، ولأنواع الموانح والمسرات جامعاً.

فمررت بضريح سيدي صهيب الرومي الصحابي النبيل السابق المهاجر المسرع بالإجابة لله ولرسوله الجليل، وهو من السابقين الأولين المعذبين في الله، كناه المصطفى r أبا يحيى، ولم يشهد مشهداً قط إلا وكان حاضره ولا بايع بيعة إلا وكان حاضرها، ولا غزا غزوة إلا وكان عن يمينه أو شماله. مات سنة سبع أو ثمان وثلاثين وقد مدحه عبد الله بن عمر مع شدة ورعه وحرصه بقوله[١]: نِعْمَ العبدَ صهيبٌ لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعْصِهِ.

وقد [٩٠/أ] استشكل هذا الأثر، واستعجم معناه المعتبر.

وقد قال ابن هشام في المغني:

اشتهر بين الناس الأثر المروي عن ابن عمر[٢] رضي الله تعالى عنه: وقد وقع مثله في حديث رسول الله r وفي كلام الصديق رضي الله تعالى عنه، وقلّ من يتنبه لهما: فالأول قوله عليه الصلاة والسلام في بنت أبي سلمة[٣]: إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي إنها لابنةُ أخي من الرضاعة[٤] فإن حلها له عليه السلام منتفٍ من وجهين: كونها ربيبته في حجره، وكونها ابنة أخيه من الرضاعة. كما أن معصية صهيب منتفية من جهتي المخافة والإجلال. والثاني قوله رضي الله عنه: لما طوَّل في صلاة الصبح، وقيل: لكادت الشمس تطلع: لو طَلَعت ما وَجَدتنا غافلين، لأن الواقع عدم غفلتهم، وعدم طلوعها، وكل منهما يقتضي أنها لم تجدهم غافلين. أما الأول فواضح. وأما الثاني فإنها إذا لم تطلع لم تجدهم البتة لا غافلين ولا ذاكرين . انتهى.

---

(١) الأثر في مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب لابن هشام بتحقيق أستاذتي الدكتور مازن المبارك والأستاذ محمد علي حمد الله والأستاذ سعيد الأفغاني رحمه الله وفسح في مدة الآخَرَين - طبعة دار الفكر ٣٣٩ و ٣٤٣ منسوباً إلى سيدنا عمر رضي الله عنه. والزيادة عنه.

(٢) في المغني: (عن عمر رضي الله عنه).

(٣) هي زينب بنت عبد الله المخزومية ربيبة رسول الله r ، وابنة أم المؤمنين أم سلمة، ماتت سنة ٧٣ هـ في المدينة. انظر (الاستيعاب ١٨٥٤، وأسد الغابة ٤٦٨/٥، والسير ٢٠٠/٣، والإصابة ٣١٧/٤).

(٤) الحديث في صحيح البخاري كتاب النكاح.

ثم توجهت إلى رحاب الشيخ مسعود، وسيدي محمد الدباس، والشيخ السروجي، والمنلا إلياس، وأهديت لكل منهما السبع المثاني راجياً بلوغ المنى والأماني فشهدت لوامح الإسعاد ولوائح العواطف والإمداد: [من الكامل]

يا حبّذا يـــوم الخمـــيس بزورتـــي ... للـــــسادة الأنجـــاب والأوتـــــادِ

بَرَقَت بسوحِهم بـــروقُ عواطـــفٍ ... منهـــا شـــهدتُ مـــوانحَ الإمـــدادِ

[مقبرة الدحداح]

وفي يوم الجمعة وقت الصباح توجهت إلى زيارة مقبرة الدحداح، فمررت في طريقها السنية، بضريح بنت المصطفى السيدة رقية، وبباب المقبرة جماعة من التابعين الأعلام، كالأعمش(١) وأبو شامة الهمام، وبالمقبرة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وجملة من أهل الحقيقة والتحقيق، ثم وردت جامع ابن منجك المسمى بجامع السادات(٢)، وإذا به ضريح سبعة من الصحابة القادات، مكتوبة أسماؤهم على باب المقام فكأنه وهم به باب السلام، وهم: قَبيصة العبسي(٣) وكِدام ابن حيّان العَنَزي(٤)، وحُجْر بن عَديّ الكندي(٥)،

---

(١) في الأصل : (والأعمش) والمثبت هو الأشبه.

(٢) قال النعيمي في ترجمة ناصر الدين ابن منجك المتوفى سنة ٨٤٤ هـ: أوله مآثر حسنة منها أنه عَمَّر جامعاً لصيق تربته، وجامعاً آخر بمحلة مسجد القصب خارج سور دمشق (الدارس ٢/١٠٦). قلت: ويسمى اليوم جامع السادات).

(٣) في م : (قبيضة العبسي) وهو قَبيصة بن ضُبَيْعة بن حرملة العبسي. انظر تاريخ خليفة - دمشق ٢٥١/١، وتحرفت فيه نسبته إلى (القيسي). وتاريخ دمشق - دار الفكر ببيروت ٢٧/٨ و ٢٦٧/٤٩، والبداية والنهاية ٦٨/٨.

(٤) في الأصل : (كرام بن حبان العبدي) وفيها تحريفات. وانظر تاريخ دمشق ٢٧/٧ و ٣٢٧/٥٩ طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق وفيه إنه تابعي من أهل الكوفة، قتل مع حجر بن عدي في مرج عذراء وانظر البداية والنهاية ٦٧/٨، ٦٨.

(٥) حجر بن عدي قتل مع سبعة في مرج العذراء، وقد اختلف في عددهم ومكان دفنهم فالأكثر على أنهم سبعة وإنهم دفنوا في المرج نفسه، انظر تاريخ خليفة - دمشق - ٢٥١/١، وتاريخ دمشق ٢٧/٨ و ٢٠٧/١٢ ٢٣٤ والنهاية في غريب الحديث ٦٨/٨.

ومُحرزِ بن شهاب [٩٠/ب] التَّميمي[١]، وصَيْفي بن فَسيل الشَّيباني[٢]، وتمام بن عبد الله الزبيدي[٣]، وشريك بن شداد الحضرمي رضي الله تعالى عنهم أجمعين: [من الطويل]

حوى جامعُ الساداتِ سبعَ صــحابةٍ	دمشقُ بهم تَزْهو فخُــذْهُم بتعــدادِ
قَبيــصةُ كِــدامٌ وحِجْــرٌ ومُحْــرِزٌ	وصَيْفي وتمامٌ شريكُ بــن شَــدّادِ
حكى الفلكُ الزّاهي بسبع كواكــبٍ	ونــاظِرُه يَزْهــو بطــالعِ إسْــعادِ
عليهم من الرحمنِ أزْكــى تحيَّــةً	ورحمةُ رضــوانٍ تــوافي بإمــدادِ

[باب الفراديس]

ثم انعطفت على باب الفراديس، ووردت معهداً سامٍ نفيس، به جماعة من الصحابة الأنصار، والسادة التابعين الأخيار، فرفعت إليهم أكفَّ الطلب، بعد أهدائهم بعض ما وجب؛ ولما انقضت تلك الزيارة، ووافت بحس القبول بشاره؛ ثنيت عنان العزم مع السرعة، حرصاً على إدراك صلاة الجمعة، وقبل مفارقة ذلك المعهد الرحب، والمشهد السامي المريع الخصب، أنشدت ارتجالاً ثلاثة أبيات، لها بمدحة باب الفراديس حسن التفات: [من الطويل]

ومعهــد ســاداتٍ كــرامٍ صــحابةٍ	غدا يزدهي حسناً بباب الفــراديسِ
وفدنا إليــه عَــلَّ نُمْــنَح عطفَــة	بإمدادِ إســعادٍ وعطــفٍ وتقــديس
شهدنا به سحب الفيوض مــواطراً	ففُزْنا بتقريــبٍ وأنــسٍ وتــأنيسِ

---

(١) مُحْرز بن شهاب المنقري التميمي انظر تاريخ دمشق ٢٧/٨ و ٢٥٤/٦٦ من طبعة المجمع البداية والنهاية ٦٧/٨.

(٢) في الأصل (ضيف بن يشكر الشيباني) وفيها تحريفان صححتهما عن الأغاني ١٤٤/١٧ وتاريخ دمشق ٢٧/٨ و ٢٥٧/٢٤، والبداية والنهاية ٦٦/٨.

(٣) لم أجد ذكراً لهذا الرجل ضمن من ذكروا في هذه الحادثة في المصادر السابقة.

[باب شرقي]

ثم في عصر ذلك النهار، توجهنا إلى باب شرقي المشرق بالأنوار؛ فزرنا به جماعة من التابعين والصحب، لاسيما حضرة أُبَيّ بن كعب؛ فحصل لنا الأنس بتلك الزيارة، ووافى لنا بقبولها من عالم الغيب بشارة، وأخبرني بعض أولي الفضل، والعهدة عليه في ذلك النقل، بكرامة شوهدت غابر الأزمان، صدرت عن أُبي بن كعب عليه الرضوان؛ وهو أن ممر جنائز النصارى كان تجاه حماه. وليس لهم في دمشق طريق سواه؛ فإذا جاز النعش ذلك الطريق، ينقلب فيعود الميت وهو على الأرض طريح، فعجزتِ النصارى عن ذلك، وراموا سلوك غير هذه المسالك [٩١/أ] فأخذوا بستاناً بمال كثير، وجعلوه طريقاً خلوصاً من هذا الأمر الخطير، وقد أخبر بعض الوزراء بهذا الشأن؛ فلم يصدّق إلا بمشاهدة العيان، فتوجه وأمر بجنازة من النصارى تمرّ عليه، فشاهد ذلك حين وقعت بين يديه، فأذعن لهذه الكرامة السنية، وخلصت منه ببركة الطوية:

[ترجمة أبي بن كعب]

قال الإمام المناوي في (طبقاته) [(١)] أفاض الله عليه سحب رحماته:

أُبَي بن كعب[(٢)] المنبئ إذا سئل عن الغامض الصعب السيد القارئ الأنصاري الخزرجي البخاري العقبي البدري. كان نحيفاً قصيراً، أبيض الرأس واللحية، شهد العقبة الثانية، وبدراً وما بعدها من المشاهد، وكان كاتب الوحي، وأحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله[(٣)] r،

---

(١) طبقات المناوي الكبرى ١/١١٤.

(٢) لأبي رضي الله عنه ترجمة في حلية الأولياء ١/٢٥٠ - ٢٥٦، والاستيعاب ١/١٢٦، وتاريخ دمشق - طبعة بيروت - ٧/ وأسد الغابة ١/٦١، وسير أعلام النبلاء ١/٣٨٩، والإصابة ١/٢٦.

(٣) لفظ الجلالة مستدرك في هامش م.

وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون[١] على عهد رسول الله r، وأقرأ الصحابة لكتاب الله.

وقال له رسول الله r: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. فبكى ثم تلا: **(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)** [يونس: ١٠/٥٨]، وهذه منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الصحابة، وناهيك بمن سماه المصطفى سيد الأنصار، وسماه الفاروق سيد المسلمين.

وقال له رجل: أوصني. فقال : اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ به[٢] قاضياً وحكماً.

وقال: ما من عبد تركَ شيئاً لله إلا أبدلَه اللهُ ما هو خَير منه حيثُ لا يحتسبُ.

وقال: اقتصادٌ[٣] في سنةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في بدعةٍ.

مات بالمدينة، ودفن بها سنة ثلاثين، وقيل اثنتين وعشرين. وقيل غير ذلك.

قال ابن حجر في (مختصر التهذيب)[٤] وصحح أبو نعيم: أنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه. انتهى.

وقد علمت نسبته لدفنه في هذا المكان. ويجاب عنه بالجواب في ضريح سلمان.

---

(١) جمعهم نجم الدين ابن قاضي عجلون في الأبيات التالية:

لقد كان يفتي في زمان نبيّنا	**من الخلفاء الراشدين أئمةُ**
معاذٌ وعمارٌ وزيد بن ثابت	**أبيُّ بن مسعود وعوفٌ حذيفةُ**
ومنهم أبو موسى وسلمان حبرهم	**كذاك أبو الدرداء وهو تتمةُ**
وأفتى بمرآه أبو بكر الرضا	**وصدّقه فيها وتلك مزيةُ**

انظر عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام للمرادي ١٩ - ٢٠

(٢) في الأصل م : (وارض الله) والمثبت عن طبقات المناوي.

(٣) في م : (انتصار) وما أثبته عن طبقات المناوي.

(٤) لم أجده في تقريب التهذيب ٩٦.

[مقبرة باب الله]

ثم انعطفنا إلى مقبرة باب الله قبيل الغروب، وقد أمطرت سحب الهناء من سماء الغيوب، فزرنا بها الشيخ الحصني(١).

والشيخ العسالي(٢) وجمعاً من أهل الفضل والكمال.

ثم رجعنا إلى تلك الخلوة بعد أن أخذنا حظنا من تلك الجلوة [٩١/ب].

[الصالحية]

وفي يوم السبت بعد صلاة الصبح، وقرأ الأذكار قصدنا حمى الصالحية ومَنْ فيها من الأخيار، لنحتسيَ من كأس شرابهم، ونتمسك بثرى أعتابهم.

[الشهداء]

فمررنا في الطَّريق على محلٍّ يقال له الشهداء به ثلاثة من الصحابة القادة السعداء(٣) حرملة بن وائل، ومسعود بن جابر، ومساعد، فأهديت لهم الفاتحة واتخذتهم عدة عند الشدائد: [من الوافر]

مَقَــامٌ يزدَهــي ســامي المــشاهد　　حلَــت منــه المــصادرُ والمــواردْ

مِنَ الــصَّحْب الكــرام بــه ثــلاثٌ　　وهــم مــسعودُ حَرْملــةٌ مُــساعِدْ

فمَـــنْ وافـــاهم يرجـــو نجاحـــاً　　لــه البُــشرى بإنجــاحِ المقاصِــدْ

---

(١) هو أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلّى الحسيني الحصني تقي الدين فقيه ورع من أهل دمشق. ولد سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥١م، وتوفي بدمشق سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦ م نسبته إلى الحصن من قرى حوران وإليه تنسب زاوية الحصني بناها رباطاً في محلة الشاغور بدمشق وله تصانيف كثيرة.

(٢) أحمد بن علي الحريري العسالي الشافعي شيخ الخلوتية بالشام. ولد بقرية عسال من ضواحي دمشق وتوفي في سنة (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) ودفن في عمارته بالقرب من مسجد القدم بظاهر دمشق، وله تصانيف. (خلاصة الأثر ٣٤٨/١-٢٥١، ومعجم المؤلفين ٥/٢).

(٣) لم أعثر على تراجم هؤلاء فيما توافر لي من مصادر.

[ضريح ابن عربي]

ثم قصدنا ضريح ذي التمكين، سيدي وأستاذي مولاي محيي الدين؛ فوقفت على الباب، واستأذنت في الدخول على ذلك الجناب؛ وبعد صلاة ركعتي التحية، وإهداء ما ناسب من السَّلام والتحية؛ دخلت مرقدَه الشَّريف، ووقفت تجاه ضَريحه السّامي المنيف، ودعوت الله بما أجراه على لساني، ولم أنس من تلك الحظوة إخواني؛ وأنشدت في ذلك المقام، ووابل الدمع في انسجام: [من البسيط]

عواطف الشوق للأحباب تلويني ... ودمع عيني كم يجري بتلويني

شغفت بالحب من قبل الصِّبا ولها ... حتى اتخذت الهوى في حبهم ديني

تلوَّن الحال من تمكينِ حُبِّهم ... فاعجبْ لتلوينِ حالي حين تمكيني

فالقَبْضُ والبسطُ فيما بيننا قسم ... فالبسطُ يظهرهم والقبض يخفيني

والفرقُ عنهم أراه عين جَمْعهم ... وغَيْبتي بشهود الأُنس تسبيني

إرادتي تبعث حقاً إرادتَهم ... أنا المريدُ مرادي ذاك يكفيني

وشاهدُ الوَجْد في أطوار موردهم ... حقيقة في بقاء الحب تُغنيني

وكلما قلبت مني مشاهدهم ... جلال أنوارهم بالبعد يقصيني

ذهلتُ كوني مُذْ لاحَتْ بوارقُهم ... فحيرتي من مقام القُرب تُدنْيني

رجوت وصلاً وخفت البعد يورثني ... عنهم سلواً وما الهجران يسليني

رَضُوا ببعدي ونَأْي الدار إذ غَضِبوا ... حَسبي فإن الذي يَرْضَوه يُرضيني

[٩٢/أ] طربتُ من عَذْل عُذّالي ولومهم ... لمَّا غدا الذِّكْرُ للأحباب يُشجيني

رجَتْ طوامِحُ آمالي بقربهم ... ريَّ اتصالٍ لبُعد كان يُظمِيني

باحوا بسري وكتمان الهوى شرف ... وما دَرَوا أنَّ كَتمَ السِّرّ يُنْجيني

سوائح الفِكر كم تبدو لوامِحُها ... عن نارِ وَجدٍ بها الأشواق تصليني

مظاهر الحب للعشاق قد كثرت ... في عين وحدتها من غير تعيينِ

فخُذْ حديثَ هُيامٍ صحَّ مُسْنَده ... فالسُّهد عن مَدمعي بالوجد يُنبيني

إن يقضي سيِّئ حظٍّ عن بلوغ مني ... فنخب مدحي لمحيي الدين تدنيني

مولى لديه يد التحقيق قد كـشفت حُجبَ الحقيقة عن أنـوار تبيينـي
فحلَّ من مشكلاتِ القـول مُبْهمهـا حتى تبـدَّت بتـصحيحِ البـراهينِ
ختمُ الولاية قطبُ الكون نور هـدى مطالع النجم مـن علياه تهـديني
نص النصوص بها كم أجتلي حكماً جلاؤها من سقام الـرين يـشفيني
وفي مسامرة الأخيار حـسن سَـناً ضياؤها من ظلام الغـيِّ يُنجينـي
وكم له من فتوح الفـتح مكرمـةٌ مَنْ لي سواه بفيضِ الفيضِ يُسديني
فقد تركتُ السِّوى مُذ شمت حضرته فلمحـةٌ لمقـام القُـرب تُـدنيني
وافيتُ نحو الحمى سعياً أطوفُ بـه ففي منًى عرفاتُ القُـرب يُغنينـي
فجُدْ بفـيضِ نـوالٍ سـحَّ وابِلُـهُ عساكَ من ظمأ الأشواق ترويني
فلي ثبوتُ غـرامٍ لـم يـزل أبـداً له اتصالٌ بكم مـن قبـل تكـويني
حيًّا ضريحَكَ روحٌ بالرِّضا نفحَـتْ تهدي عبير الشذا عن مسك دارين
ما هيج الـشوق ذا وجـد فأرقـه أو غرَّد الوُرْقُ فـي دَوْح بتَلحـينِ
أو أسـعدٌ لامـهُ واشٍ فأنـشدَهُ عواطفُ الشَّوق للأحبـاب تَلْـويني

[عبد الغني النابلسي]

ثم توجهنا إلى زيارة ذي النفس القدسي، العلم الرباني مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي؛ قدس سره الرحمن، وأمدنا بمدده الفائض الهتان، فوقفت ببابه الرفيع، ولذت بجنابه المنيع، ووكفت بالدموع سحائب الجفون، حيث لم أُدْركه قبل احتسائه كأسَ المنون، فطالما كنتُ أعلِّل النظَر بشهود مُحيّاه، [٩٢/ب] وأرجي الفؤاد بطيب لقياه، فعاقتني قيودُ الموانع، ولم يُسْعفني مظهرُ اسمهِ الجامع: [من البسيط]

مولاي عبدَ الغني يا سـيد النُّجَبـا حاولتُ قدماً بأن أحدو لـك النُّجُبـا
وأطوي نشرَ فيافي البيـد مُغترِبـاً حتى أكونَ لـدى عليـاك مُقتربـا
فسوَّفَت بي الأماني غيـر صـادقة وأنّ داعي الأمـاني طالمـا كَـذبا
حتى دَعَتْك المنايا فاسـتَجَبْتَ لهـا مولىً إلى جنة الفِردوس مُختَطَبـا
ولم أشاهِدْ مُحَياكَ المـضيءَ سَـنا لسوء حَظّي الذي دَرْك المنى حَجَبا

فهَيَّجَتنـــي دواعٍ لا انفكــاكَ لهـــا   لنحوِ مَشْهدك الحاكي شــهود قبـا
إذ ذاك كعبة أمن الخــائفين ومَــنْ   وافاه يحظى منــاه والــذي طلبـا
سارت بسيرتك الرُّكبــان منــشدةً   مدائحاً زُركشت بل تُوّجــت كُتُبـا
كم من عرائس أفكارٍ كـشفت لنــا   عنها القناعَ وكانت قبل خلف خبـا
شرحُ الفُتوحات إذ أوضحتَ مشكلها   مطالعــاً لكنــوزٍ تحتــوي عجبــاً
وللفصوص نقوشٌ ضــمنُها غــررٌ   إكسيرَ فضلك فيــضاً جلهــا ذهبـا
وقفتُ في بابك المرفــوع منتــصباً   فإنــه بــاب جــود للمنــى نُــصبا
عــساكَ أســعد بالإســعاد تمنحــه   موانحُ الفيضِ حتّــى يبلــغَ الأدَبــا

[سفح قاسيون]

ثم توجهنا لسفح قاسيون، لنروي حديث شجون المشجون، فسفحت عيوني على سفحه، حين هبَّت علينا نفحة من نفحه، فشَرعنا في صعود الجبل الأقدس الأنفَس، فنودينا لن تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس، فامتطينا صهوته الرفيعة، وارتقينا ذروته المنيفة؛ مُتوسّلين بمن به من الأنبياء والمرسلين، والصحابة الكرام والتابعين؛ أن يكشف عنا سحائب الأوهام، ويجعلنا من أهلِ الخصوصية بهذا المقام؛ فوصلنا إلى مغارة الدم، ويقال لها مغارة الأربعين، حيث قتل قابيلُ، وبها آثار الدم بالتعيين؛ وهو محل عليه الأنوار ساطعة، ولوائح الإجابة بجوانبه لامعة،

فعن أبي زرعة(١) قال: سألت أبا مسهر عن خبر مغارة الدم فقال: مغارة الدم موضع الجمرة موضع الحوائج، يعني بذلك الدعاء فيها والصلاة [٩٣/أ] وعن كعب الأحبار أنه موضع الحاجات والمواهب من الله عز وجل فإنه لا يردّ سائلاً في هذا الموضع.

---

(١) لم أجد هذا النقل فيما طبع من تاريخ أبي زرعة الدمشقي بتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وعن هشام: لقد صعدت مع أبي وجماعة من أهل دمشق، نسأل الله عز وجل السقيا فأرسل الله عز وجلّ علينا مطراً غزيراً حتى أقمنا في المغارة التي تحبّ الدم ثلاثة أيام، ثم دعونا الله أن يرفع عنا وقد رويت الأرض. انتهى.

فرفعتُ أكفَّ الطلب والدعاء، في ذلك المقام والمَدْعى[1]، وأنشد لسان الحال، على البديهة والارتجال: [من البسيط]

مغارةُ الدم مــن قاســونَ مُـشْرَقةٌ نوراً بها لذوي الحاجــات ميقــاتُ

فانزل بسوح حِماهــا داعيــاً أبــداً عسى توافي من المــولى إجابــاتُ

فأقمنا بها نحو أربع ساعات، نحتسي كأس الأنس والمسرات؛ وكان القصد المبيت بها مع الأحباب، فلم يتيسّر ذلك لعدم تيسر الآداب، فنزلنا والعين تتامل ذلك[2] السفح والربوع، إلى أن وصلنا إلى محل يقال له مغارة الجوع، قيل إن بها أربعين من الأنبياء الكرام، قضوا جوعاً على ما ذكره بعض الأعلام، فقرأنا ما تيسّر من القرآن، وأهديناه لجنابهم الرفيع الشان؛ ثم ودعنا السفح والصالحية بسلام، وتوجهنا بعد الظهر إلى الشام.

وفي يوم الأحد حين لاح وجه الصباح الوسيم، وفاح أرج الصَّبا بمعطار النسيم، قصدنا زيارة قبر السّت، واحتفينا السرور من الجهات الستّ؛ فتوجهنا مع أعزّة وأحباب، نروم فسيح الرّحاب، فوردنا ساحتها البهية، واستمدّينا من مواهبها العلية؛ فوجد على الضريح مكتوب؛ ما هو مُبَشِّرٌ ببلوغ المطلوب: [من البسيط]

هذا مقــام شــريف لا نظيــر لــه فالرجــال غيــاثٌ فيــه والحَــرم

مــا مــدّ عبــدٌ يديــه للإلــه بــه إلا ونال الذي يرجــوه مــن كــرم

فالتمس مني بعض الرفاق الكرام، أن أشطرهما حالاً بهذا المقام؛ فابتدرت ممتثلاً لإجابته، وأمرت القلم أن يكتب فأجاب من ساعته: [من البسيط]

هذا مقــام شــريف لا نظيــر لــه إذ فيه نبت علي الطــاهر الــشّيَمِ

---

(١) المَدْعى: مكان الدعاء، مثل مَسْقى ومَثْوى . (اللسان).

(٢) في الأصل: (تلك)، والمثبت للسياق.

يَمّمَ حماه إذا ما خِفْتَ مُعْضِلةً ... فللرجال غياثٌ فيه والحرَمِ

[٩٣/ب] ما مدّ عبدٌ يديه للإله به ... إلا وعاد بحظ وافر القسم

وما أتى مرتجى الإحسان مفتقراً ... إلا ونال الذي يرجوه من كرم

ثم سنح لي أن أمدح جنابها الكريم، بقصيدة تشوق السامع لها للزيارة وتهيم: [من الكامل]

روض به ورق السيادة تعرب ... تنبي عن الحسن البديع وتغربُ

طلعت شموس العزّ في أرجائه ... فلها شروقٌ في عُلاهُ ومَغْرِبُ

برقت بروقُ الأنس حول حمائه ... وهما سحابٌ بالمسرَّة صيّبُ

وتبسَّمت في دوحه زهرُ الهَنا ... وسما سماه بالسَّعادة كوكبُ

وافى النسيم لحيّه مُتَعطّراً ... لما شذا منه العبير الأطيبُ

تتروحُ الأرواحُ منه بعرفه ... وبورد مَوْرِدِه يطيبُ المشربُ

يا سعدُ إن وافيتَ ذَيّاك بالحمى ... وبدا لك الروضُ البهيُّ المُخْصِبُ

قف ساعة وانظر له متأملاً ... وانشق أريجاً بالصَّبا يتطيّبُ

ثم التثم أعتابه واخضع له ... واجري[1] جُفوناً بالمدامعِ يسكبُ

وادْخل إلى الحرم السعيد فإنّه ... حلمت به شمس المحاسن زينبُ

بنت البتول سمت بطه جدّها ... فلفخرها جمعُ المفاخرِ تنسبُ

هي بِضْعَةٌ نَبويةٌ علويةٌ ... أعْظِمِ بها نسب شريف طيبُ

منها سحاب الفيض يهمي بالعطا ... لموانح عنها الهنا يتسببُ

حسن البلاغة قاصر عن مدحها ... لو أنه دوماً يخط ويكتبُ

فاقصرْ نظام المدح أنت مُقَصّر ... من ذا الذي زهر الثواقب يحسب

يا سعد هيا للمقام فإنني ... بحمى حماها في الرحاب مقرَّبُ

وافيتُها أبغي اجتناء موانح ... فوجدتُ منها ما يسرّ ويطربُ

بشرى لأسعد إذ حظي لزيارة ... ذيل السرور بها عليه يُسحبُ

---

(١) كذا في الأصل:(واجري) للضرورة العروضية.

يُهْــدي ســـلاماً بالمـــديح مُـــدَبّجاً ‏ ‏ ‏ يَزْهو به عقــد النظـــام ويعجــبُ

وسقا الحمى صوب السحاب برحمة ‏ ‏ ‏ طــولَ الزمـــان بحيهـــا يتـــصببُ

مـــا لاح نجـــم أو زهـــا بمحاســـن ‏ ‏ ‏ روض بـــه وُرْقُ الـــسيادة تعـــربُ

[الشيخ مدرك]

[٩٤/أ] وزرنا الشيخ مدرك(١) حيث هو منها قريب، وتملينا بذلك المربع الخصيب، ثم انعطفنا إلى قرية المنيحة(٢) سائرين، وبحصول المنح والمواهب مستبشرين؛ نؤمّ المورد العذب الأحلي، حيث به ضريح جدنا الأعلى؛ الصحابي الجليل سيد الخزرج السادة، مولانا سعد بن عبادة(٣)؛ فحين وقفت ببابه ولثمت ثرى أعتابه؛ أنشدت في الحال معلناً، لنصف بيت مضمناً: [من الكامل]

وافيـــت ســـعداً بالمنيحـــة زائـــراً ‏ ‏ ‏ ووقفـــت بالأعتـــاب وقفـــة لائـــذِ

أبدي الضراعة مـــستجيراً عائـــذاً ‏ ‏ ‏ من جور دهـــر لا يـــزال منابـــذي

ورفعت صوتي من حمـــاه منـــشداً ‏ ‏ ‏ هـــذا مقـــام المـــستجير العائـــذ

وأنشدت ثانياً، ولعنان التضمين ثانياً: [من الكامل]

لمـــــا أتيـــــت حمـــــاكم مُتَـــذللاً ‏ ‏ ‏ ووقفـــتُ بالأعتـــاب وقفـــة لائـــذ

فسئلت ما هـــذا المقـــام أجبـــتهم ‏ ‏ ‏ هـــذا مقـــام المـــستجير العائـــذ

---

(١) مدرك بن زياد الفزاري صاحب رسول الله r، وقدم دمشق مع أبي عبيدة فتوفي فيها بقرية يقال لها راوية، وكان أول مسلم دفن بها (تاريخ دمشق ٣٦٥/٦٦، والروضة البهية في فضائل دمشق المحمية لعز الدين عربي كاتبي الصيادي ٩٧، وغوطة دمشق ١٧٠).

(٢) المنيحة - بالفتح ثم الكسر ثم باء وحاء مهملة، واحدة المنايح من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان) ويلفظها أهل دمشق اليوم باللام والإمالة أي (المليحة).

(٣) سعد بن عبادة توفي سنة ١٤ بحوران أول ما فتحت بُصرى (الاستيعاب ١٥٢/٤، وابن عساكر - دار الفكر ببيروت - ١٣٧/٢٠، وأسد الغابة ٣٥٦/٢، وسير أعلام النبلاء ٢٧٠/١، والإصابة ١٥٢/٤).

ثم وردت حمى حماه البهيج، ودخلت دوح روضته الأريج؛ فبشَّرني وارد الإلهام بنجح أمري، وإهدائه لعالي جنابه الكريم؛ رأيت مكتوباً باتجاه مقامه، ما ينبئ عن علو مقامه: [من المجتث]

يـــا سُــعْدى ســعدٌ وافـــى ... يرجـــوكَ يـــا بـــن عبـــادَه

عـــسى ينـــال منـــاه ... فـــشوقُه لـــك قتـــادَه

فـــإنَّ مَـــنْ أمَّ يومـــاً ... حِمـــاكَ نـــالَ مـــرادَهْ

ولما طاب لي المقام برحابه، وجاد الوقت بقربه واقترابه؛ أنشدت لجنابه مادحاً، وبحسن شمائله صادحاً: [من الكامل]

مَـنْ أمَّ سُـعْدى بالمنيحـة يُمـنح ... ولديـه أبـوابُ المعـارف تُفْـتَحُ

وله تلـوحُ مـن الغُيـوب بـشائرٌ ... تَروي أحاديـثَ القَبـول وتـشرحُ

فبـسوحه ثغـر الهنـا مُتَبـسِّمٌ ... وبدوحـه ورق البـشائر تـصدحُ

وبروضه الزاهي الأريـج نـوافح ... مـن نـشرها أرج الربـا يتفـوّحُ

(٩٤/أ] تتروحُ الأرواح من أنفاسه ... وله عيونُ أولـي النُّهـى تـتلَمَّحُ

أعظِـمْ لـه بمناقـبٍ ومفـاخرٍ ... ومـآثرٍ عنهـا البخـاري يُفْـصح

مـولًى تـشرَّفَ بـالنبيّ صـحابة ... وببيعـة العَقبـى نقيبـاً ينـصحُ

شهدَ المـشاهدَ غيـر بـدر وإنـه ... منها لـه سـهم المثوبـة يـرمحُ

وغدا بيوم الفتح حاملَ راية الـ ... أنصار والنـصر المبـاهج يفـتحُ

ورث المكارم كـابراً عـن كـابرٍ ... فبجوده الخبر الـصحيح مـصرحُ

فهو الجواد ابن الجواد ابن الجـوا ... دابن الجواد أخو الغيـاث المـنجحُ

ولنحو أرض الشام وافـى مقـبلاً ... بعد النبي هُدَى الـشّريعة يُوضـحُ

فرماه رامي الجـنّ منـه بـسهمه ... فقضى كما هو في الطروس مصرّحُ

سـحت عيـون رحمـة لمـصابه ... وغـدت عليـه بالمـدامع تـسفحُ

أهدي إليـه مـع الـسلام تحيـة ... طابت شذاً فالمـسك منهـا يـنفح

لــي منــه أســنى نــسبة قدســية	**عن غانم وهــو المليــك المفلــحُ**
يممــت نحــو رحابــه متــشوقا	**وعيون قــصدي للمــونح تطمــح**
ووقفــت بــالأبواب وقفــة لائــذ	**والمرء يهــدي للــصواب فيفــتحُ**
مال سوى قــصد الزيــارة متجــر	**فلــي البــشائر متجــر مــستربح**
وبه انتهى بي السَّيْر غيــرَ مُــذَمَّم	**فإليــهِ مَــنْ أمَّ المقاصــدَ يَــنجحُ**
وجعلتُ زَوْرَتَه اختتــامَ ســياحتي	**لكــن بحُــسن ختامهــا أسْــتَفْتِحُ**

ثم بعد صلاة الظهر بذاك الرحاب، هبت علينا فواتح نسيمه المستطاب، فعرجنا خلف المقام، وكحلنا العيون بميل المنام؛ ثم بعد الانتباه احتسينا من الأنس كؤوساً، وحلينا بحديثه القديم نفوساً؛ فكم له من منقبة وردت بها الأخبار، وناهيك إذ كان أحدَ النقباء وحامل راية الأنصار، وأما منهجه في الكرم، فأشهر من نار على علم.

[سعد بن عبادة]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في معرفة الصحابة:

سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة [بن حرام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن سعد بن كعب بن الخزرج] الأنصاري سيد الخزرج.. وكان أحد النقباء. وكان يكتب بالعربية، ويحسن العوم [٩٥/أ] والرمي، فكان يقال له الكامل، وكان مشهوراً بالجود وهو وولده وجده وأبوه، وكان لهم أُطُمٌ[١] ينادي عليه كل يوم: مَنْ أحبَّ الشحم واللحم[٢]، فَلْيَأتِ أطم دليم بن حارثة، وكانت جفنة سعد تدور مع النبي r في بيوت أزواجه.

وعن ابن عباس: كانت راية رسول الله r في المواطن كلها مع علي وراية المهاجرين، ومع سعد بن عبادة راية الأنصار.

---

(١) الأُطم: حصن مبني بحجارة (اللسان). والنص في الإصابة ٣٠/٢، والزيادة عنه.

(٢) في م : (اللحم والشحم) وما هنا عن الإصابة.

وروى الإمام أحمد[1] من طريق محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة[2]، عن قيس بن سعد:

زارنا النبي r في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله.. الحديث وفيه: ثم رفع يديه فقال:

اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة.

وكان سعد يقول: اللهم هب لي مجداً لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال]. اللهم إنه لا يصلحني القليل، ولا أصلح عليه.

وعن محمد بن سيرين: كان سعد بن عبادة يعشّي كل ليلة ثمانين من أهل الصفَّة، وخرج إلى الشام في خلافة أبي بكر فمات[3] بحوران سنة خمس عشرة [وقيل سنة ست عشرة]. وقيل إن قبره بالمنيحة قرية بدمشق بالغوطة. انتهى.

وفي نهاية التقريب: أن سعداً شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في روايتهم جميعاً. وكان أحد النقباء الاثني عشر، وكان يحثُّ الأنصار على الخروج لبدر، فنهش فتخلف، فضرب له رسول الله r وأجره ولم يثبت.

شهد الخندق وأُحداً[4] والمشاهد كلَّها مع رسول الله r ومناقبه وفضائله كثيرة جداً. ولم يختلف في أنه وُجد ميتاً، واخضرّ جسده ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول، ولم يَرَوْا أحَداً[5]: [مجزوء الرمل]

قد قَتَلنا سيّد الخَزْ رَجِ سَعدَ بنَ عُباده
[و] رَمَيْناهُ بسَهْمَيْنِ فلم نُخْطِ فُؤادَهْ

---

(١) في الأصل م : (محمد) ثم صححه الناسخ.

(٢) في م : (محمد بن سعد بن عبادة بن زرارة) وما هنا من الإصابة.

(٣) في الأصل : (ومات).

(٤) في م : (وأحد) وهو خطأ صححته للسياق النحوي.

(٥) البيتان عند أكثر من ترجم له وأحسنها ما ورد في سير أعلام النبلاء ٢٧٧/١ لضبط وزنه بهاتين الإضافتين.

ويقال إن الجنَّ قتلته.

له ذكر في غير موضع من الصحيحين. وروى له الأربعة. انتهى باختصار.

وفي الإحياء عن جابر، قال: بعث رسول الله r بعثاً، وأمَّر عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا، فنحر لهم قيسٌ تسعَ ركائب، فحدثوا رسول الله r بذلك فقال [٩٥/ب] لهم رسول الله r: إن الجودَ من شيمة أهل ذلك البيت. انتهى.

سمعت خاتمةَ المحدثين شيخنا العلامة عبد الله بن سالم البصري عام مجاورتي بمكة سنة ثلاث وثلاثين ومئة وألف يقول: إن قيساً بن سعد كان أطلس، فقال قومه: وددنا له لحية ولو بنصف أموالنا.

وكان سعدٌ لا يتزوج إلا بكراً، وإذا طلَّق زوجتَه لم يتجاسر أحد يتزوجها بعده لشدة غيرته وشرفه.

[القيام المنهي عنه]

وروي أنه r خرج إلى قبا لصلح بني النجار؛ فقدم سعد فالتفت النبي r إلى الأنصار وقال: قوموا لسيدكم . انتهى.

قلت: وليس هذا من القيام المنهي عنه:

قال أبو داود في سننه في باب قيام الرجل للرجل: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حمادٌ عن حبيب بن الشهيد، عن أبي مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام بن عامر وجلس عبد الله بن الزبير. فقال معاوية لابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر، وجلس عبد الله بن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعتُ رسول الله r يقول:

من أحبّ أن يَتَمثَّل له الرجالُ قياماً فليتبوّأ مقعدَه من النار.

قال شارحه ابن رسلان: أي يقومون له قياماً، وهو جالسٌ. يقال: تمثل الرجل يتمثل تمثُّلاً: إذا انتصب قائماً، وإنما نهى عنه لأنه من زي الأعاجم

كما سيأتي في كلام المصنف، ولأن الباعث له الكبر وإذلاله الناس بأن يتمثلوا قياماً بين يديه طول جلوسه، فالنهي هنا ليس للقائم للإكرام بل للذي يقام له فنهى عن سروره بما يفعل له لما فيه من رؤيته المنزلة له في نفسه.

ثم قال المصنف عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله r متوكئاً عصاً، فقمنا إليه، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً.

قال الشارح المذكور: والمراد بالأعاجم فارس والروم بدليل رواية مسلم: إنما يفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم، وهم قعود، فلا تفعلوا.

ومنه النهي عن قيام الغلمان الأتباع على رأس متبوعهم الجالس لغير حاجة لأنه من أفعال المتكبّرين.

وأما القيام للوالد والفضلاء إذا دخلوا فليس من هذا كما دلت عليه الأحاديث. انتهى.

[برزة]

لما انقضى [٩٦/أ] ذلك المجلس النفيس، بذاك المعهد السامي الأنيس انتهزنا في الوقت نهزة، ويممنا قاصدين قرية برزة[١]، فوردنا حماها بعد العصر، وراية المسرّة تخفق بالنصر، فصلَّينا بها الصلاة الوسطى، ورجونا من وافر الأجر قسطاً، ودعونا الله تعالى بحصول الإنابة، فإنه من المواطن المشهورة بالإجابة.

قال ابن عباس: وُلد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون.

وعن حسان بن عطية قال: أعان بنطُ ملكُ هذا الجبل على لوط فسباهُ وأهلَه، فبلغ إبراهيمَ عليه السلام ذلك، فأقبل في طلبه في عدة أهل بدر ثلاث مئة وثلاثة عشر، فالتقى في صحراء القعود فعبأ، إبراهيم ميمنة وميسرة وقلباً. وكان أول من عَبّأ لحرب هكذا واقتتلوا، فهزمهم إبراهيم واستنقذ لوطاً وأهله، وأتى الموضع الذي ببرزة، وصلى فيه واتخذه مسجداً.

---

(١) انظر الحقيقة والمجاز ٨٠/٢.

وعن الزهري أنه قال: مسجد إبراهيم r في قرية يقال لها برزة، فمن صلّى فيه أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ويسأل الله ما شاء، فإنه لا يردُّ خائباً ولو أحسَّ من النهار الختام.

[المرجة]

رجعنا للمبيت بمدينة الشام، وفي صبح يوم الأربعاء ذا التهاني، غرة ربيع الثاني، دعاني بعض الأعزة الأحباب، للتنزّه بدوح المرجة المستطاب، فأجبت دعوته امتثالاً، ولسان الحال يُنْشِدُ ارتجالاً: [البسيط]

انهضْ إلى المرجة الفيحاء مبتهجاً ... ونزّه الطرفَ في أرجــاءِ دوحتهــا

أما بها الروضة الغناء قــد جُليــت ... جَلْيَ المليحة فــي ورديّ حلَّيتهــا

فوردنا حماها الزاهي البهيج، وانتشقنا شذاها الزاكي الأريج، ولاحت لنا لوائح النجاح، بزيارة ابن عساكر وابن الصلاح، فوردنا سوحهم الزاهي الأنفس، واستمددنا مددهم الوافي الأقدس؛ ثم لما استحلينا من الزمان مزة، تشوّقنا إلى التوجّه إلى قرية المزة، حيث بها الصحابي الجليل سيدنا دحية المتمثل به جبريل، لأنه سما من الحسن [٩٦/ب] رتبة سنية، والشبه في الصورة لا في الحقيقة الذاتية(١).

أخرجَ الحافظ السيوطي في جامعه عن ابن سعد في الطبقات، عن الشعبي مرسلاً: دحية الكلبي يشبه جبريل.

قال المناوي في شرحه: هو الصحابي القديم المشهور، شهد مع المصطفى مشاهده كلها بعد بدر وبايع تحت الشجرة، وكان جبريل يأتي المصطفى غالباً على صورته، فإنه كان بارعاً في الجمال. يضرب به المثل فيه بحيث كان إذا دخل بلداً برز لرؤيته العوانق من خدورهن. وفيه جواز تشبه الملائكة بغيرهم، وهذا الشبه إنما هو للصورة، كما تقرر ولا شك أن الصورة المذكورة أخص بالمشبه فلا يرد أن المشبه يجب كونه أقوى. انتهى.

---

(١) بعد هذا اللفظ في م كلمة لا تبين.

فوردنا ناديه المنادي، وبشير القبول ينادي، فدخلنا مقامه الشريف بعد الاستئذان، وقرأنا ما تيسر من آي القرآن، ورفعنا أكف الدعاء و الطلب، راجين نجح المقاصد والأرب، ولما احتسينا كأس مسرة بالأنس طفح، واجتلينا عرائس العواطف واللطائف والمنح، أنشدت صادحاً، ولجنابه مادحاً: [من الكامل]

لمقام دحية قد سريتُ صباحاً ... فوجدتُ في حسن المسير نجاحا

ونشقت من أرج الرحاب نوافحا ... لما شذا عرف العبير وفاحا

ودهشتُ من ذاك الحماء ونوره ... ورشفتُ من كأس المسرّة راحا

صادفت في أرجائه طيبَ الرجا ... ولقيتُ من حسن القبول فلاحا

وشهدت من فرط السرور مظاهراً ... تقصي الهموم وتذهب الأترحا

لا بدع أن تتروي أحاديث الصبا ... بمشارق الأنوار عنه صحاحا

نجم الصحابة في سماء مشاهدٍ ... فجماله الزاهي سناً قد لاحا

ذو مظهر بالحسن أشرق وجهه ... يحكي سناه كوكباً وضّاحا

فلذا الأمين أتى بصورة ذاته ... للمصطفى بالوحي منه صراحا

مولى تسامى بالمكارم قدره ... مَنْ أمَّهُ ألفى لديه رباحا

فإذا رجوت من الإله عواطفاً ... هيا ويَمِّمْ روضَه الفَيّاحا

[٩٧/أ] تلقى زهور غصون أُنس أينعت ... فاقطف حُبيتَ البسط والأفراحا

ثم انتشق عرف القبول مضوعاً ... عرفاً شذاه يُنعش الأرواحا

لا أنثني عن بابه دوماً ولا ... أبغي على قِرى الزمان براحا

ولقد أتيت لبابه مستعطفاً ... أرجو بفيض الفيض منه سماحا

لا أنثني عن بابه دوماً ولا ... أبغي على قِرى الزمان براحا

فاعطفْ وجُدْ واسمح بحسن مبرة ... لفقير حال قد غدا ملتاحا

فعواطف الإمداد منك موانح ... يلفى بها أهل الصلاح صلاحا

فإليك أُهدي بالسّلام تحيةً ... رفعت لها بالخافقين جناحا

وسحائب الرضوان من أفق العلا ... تغشى المقام عشيّة وصباحا

[الربوة والمنشار]

ثم توجهنا إلى الربوة والمنشار، وعند المقسم سبعة أنهار، فارتوى القلب بسلسالها، وروى حديث الشهد عن عسالها، وسرحنا الطرف في تلك الأرواح، وشرحنا الصدر بمروحات الأرواح، وانتشقنا شذا عرف الزهور، وانتعشنا بصفاء مياه النهورِ؛ وشربنا من المسرات حالي صرفها، على مطربات الحمائم بجنكها ودفها؛ فهناك أنشد لسان الصب، وأقسم علي حسن هذه المشاهد بالربوة وعز المقسم: [من الكامل]

قسماً سما حسناً بصدق المقسم	**بالربوة الفيحا بعز المقسَمِ**
الشام يزهو بالمشاهد حسنها	**فلها بسامي الحسن فضل يقدم**
فغياضها قد وشحت بأزاهر	**ورياضها أهدت لطيف تنسم**
وبدوحها ورق الحمام صوادح	**ببديع ألحان ولطف ترنم**
فبمائها ورياضها وهوائها	**وقيانها للصب حُسْن تنعّم**

ثم اتخذتُ بعضَ الصحاب أنيساً، وصعدت وإياه إلى مهد سيدنا عيسى؛ حيث اختبأ فيه من اليهود الحائزين مكراً وغياً، وبه اختبأ إبراهيم وإلياس ويحيى؛ وبه صلّى جماعة من الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام؛ ففي كتاب أبي الحسن الربعي في فضائل دمشق ما نصه:

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: سمعت [٩٧/ب] رسول الله r وسأله رجل عن الإمارات بدمشق؟ فقال: بها جبلٌ يقال له قاسيون، فيه قتل ابن آدم أخاه، وفي أسفله في الغرب ولد إبراهيم، وفيه أوى عيسى ابن مريم وأمُّه من اليهود، وما من عبد أتى معقل روح الله فاغتسل وصلى ودعا لم يدرّه الله خائباً، وفيه احترس يحيى بن زكريا بن هدار رجل من عاد، وقد احترس إلياس النبي عليه السلام من ملك قومه. وفيه صلى إبراهيم ولوط وموسى وعيسى وأيوب فلا تعجزوا في الدعاء فيه.

وعن كعب الأحبار أنه قال: إنه موضع الحاجات والمواهب من الله تعالى لا يردّ سائلاً فيه. انتهى.

فصلّينا به صلاةَ الضُّحى، وقد زال عن القلب حرف الهم وانمحى؛ ورفعنا أكف الدعاء بذاك المقام، راجين التوفيق وحسن الختام:

يــا حبَّــذا المهــدُ الأنــيسُ فإنــه ... سامي المقام سنا وزاهي المــشهد

فمطــالع الأنــوار مــن آفاقــه ... تدعو السراة إلى عـذيب المــورد

فارفع بــه كــفَّ الــسؤال مرجّيــاً ... حسنَ القبول وطيبَ نجحِ المقــصدِ

[قلعة دمشق]

ثم ثنينا العنان إلى نحو المدينة، إلى أن وصلنا إلى القلعة الحصينة، فدخلنا حمى حرمها الأمين، برداء الأدب والسكينة متوشحين.

[أبو الدرداء]

وقصدنا زيارة الصحابي الجليل أبي الدرداء، وأدينا له من آداب الزيارة ما يؤدّي، وقرأنا ما تيسر من الكتاب العظيم، وأهديناه لجنابه العالي الكريم؛ ورجونا لمحةً من لمحاته، وتشوفنا لنفحة من نفحاته، عسى نشتفي بحكمه البهية، ونتيقظ بمواعظه السنية، فكم أرى من مواعظ، وحكم تشرح الصدر وتنفي السقم.

حكم سَمَتْ فيهــا لطــائفُ حكمــة ... تَــشْفي فُــؤاداً دائــمِ الحــسراتِ

ومواعظ منهــا القلــوبُ تنبهــت ... وتيقّظــت مــن قــدرة الغفــلاتِ

قال المناوي في الطبقات(١): همعت عليه سحائب الرحمات أبي الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري العارف المتفكر، العالم المتبحر، العامل المتذكر، داوم على العلم استباقاً، وأحب العمل اشتياقاً، تفرّغ من الهموم [٩٨/أ] ففتح له المفهوم، فصار صاحب(٢) الحكم والعلوم، كان رضي الله عنه حكيماً لبيباً، ونحريراً طبيباً، كلامه يُكْنز(٣)، ومواعظه تغرَز، وكان

---

(١) طبقات المناوي ١١٥/١.

(٢) م : (حاجب) وما هنا عن الطبقات.

(٣) في الطبقات (كلامه يكثر ومواعظه تغزر) وما أثبته هو الأشبه.

أكثر عبادته التفكُّر والاعتبار، ويفضل بذلك على غيره من الأخيار[1]، وكان يقعد إلى القبور فقيل له فيه فقال: أجلس إلى قوم يذكِّروني في معادي، وإذا قمت من عندهم لم يغتابوني.

وقال له بعضهم: أوصني. فقال له: اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء، وإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير.

وقال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطّم أحبّ إليّ من مجالسة الأغنياء.

ومرّ بقوم يبنون. فقال: تجددون الدنيا، والله يريد خرابها، والله غالب على ما أراد.

وقال: موعظةٌ بليغةٌ، وغفلةٌ سريعةٌ، كفى بالموت واعظاً وبالدهر مُفرِّقاً. اليوم في القصور[2] وغداً في القبور.

وقال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً كلما مُشِيَ خلفه.

ومن شعره[3]: [من الوافر]

يريد المرءُ أن يُعطى مُناهُ ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقولُ المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

ولما احتُضِر جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ **(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)** [الأنعام: ٦/١١٠].

مات سنة ٣٢ اثنتين وثلاثين. انتهى باختصار.

فنسألك اللهم يا ميسر الأمور، وكاشف الهمّ، وشارح الصدور، أن تنبهنا من سِنَةِ الغفلات، وتهيئنا لتوارد النفحات، وترفع عنا سحب الأوهام، وتمنحنا التوفيق وحسن الختام.

---

(١) في الطبقات (ويفضل ذلك على غيره من الأذكار).

(٢) في الطبقات ١/١١٨ (الدور).

(٣) البيتان في طبقات المناوي ١/١١٩.

[دار الحديث]

ثم أسرعنا بالسير الحثيث إلى أن وصلنا دار الحديث التي كان الإمام النووي بها يحدث عن المصطفى، فكم أطلع بها مشارقَ الأنوار، بحديث الشفا وناهيك دليل شرفها السامي الأثير، ما أنشده الإمام السبكي الكبير، قدس الله سره، وجعل في غرف الجنان مقره: [من الوافر]

وفي دار الحديث لطيفُ معنى ... على بسط لها أصبو وآوي

عسى أني أمُسُّ بحرِّ وجهي ... مكاناً مسّه قدم النواوي

[يحيى النووي]

قال ولده في طبقات الشافعية(1) - حباه الله بالدرجات العلية [98/أ] في ترجمة الإمام المذكور، ذي القدر العالي والفضل المشهور، يحيى النووي الشيخ الإمام العلامة محيي الدين أبو زكريا شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين، كان يحيى رحمه الله سيداً وحصوراً، وليثاً على النفس هصوراً، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذ صير دينه ربعاً معموراً، له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير بحيث لا يصرف ساعة في غير طاعة؛ هذا مع التفنُّن في أصناف العلوم فقهاً ومتوناً، أحاديث وأسماء رجال ولغة وتصوفاً وغير ذلك. وأنا إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله وأدل الخلق على شرف مقداره لم أزد على بيتين سمعتهما من الشيخ الوالد رحمه الله لما سكن في قاعة الحديث الأشرفية في سنة ٧٤٢ اثنتين وأربعين وسبع مئة.

كان يخرج في الليل إلى إيوانها فيتهجد تجاه الأثر الشريف، ويمرّغ وجهه على البساط الذي كان من الإمام النووي يجلس عليه وقت التدريس، وينشد وفي دار الحديث: .... البيتين.

---

(1) طبقات الشافعية ٣٩٥/٨ - ٤٠٠ وانظر البداية والنهاية ٢٧٨/١٣ - ٢٧٩، وشذرات الذهب ٦١٨/٧ - ٦٢١.

قال المناوي[١]: وكان يقرئ كل يوم اثني عشر درساً؛ وكان لا ينام الليل ويكتب حتى تكلّ يده، ويعجز ثم يضع القلم وينشد: [من الطويل]

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة   على غير سلمى فهو دمع مُضَيّعُ

واستمر على هذا الحال حتى هجمت عليه المنية قبل بلوغ الخمسين .

وصرّح بعض أهل الكشف أنه لم يمت حتى تَقَطَّب.

وكان يُضْرَب به المثل في [شدة] الورع.

مات سنة ست وسبعين وست مئة، ودفن بنوى[٢] رضي الله عنه. انتهى.

فتشرّفنا بلثم ثرى آثارهم، وشنفنا السمع بدرر أخبارهم، وبسطنا أكف الطلب: رجاء الإثابة والتوفيق، فإنك لا شك من مواطن الإجابة على التحقيق. [من الكامل]

دار الحديث تشرّفت بمآثر   قد أثبتت بمسلسل الأخبار

طلعت بها شمس الحديث وأشرقت   أرجاؤها بمشارق الأنوار

[٩٩/أ] فلكم بها راوي الصحيح ومسند   عن قتادة عن سادة أخيار

ناهيك بالسبكي الإمام وشيخه   يحيى النواوي سامي المقدار

فارفع به كفَّ السؤال مرجياً   شرح الصدور ومنحة الأبرار

[تذكرة الصفدي]

ثم أطلعني السيد محمد الأدهمي المحب الحبيب على جزء من تذكرة العلامة الصفدي الأديب، فإذا هي روضة ذات أفنان، ومنهل عذب سائغ للظمآن، تشتمل على ملح ومستظرفات، وتحتوي على مفاكهة ومستغربات فأحببت أن أوشّح هذه الرحلة من أحلى أزهارها، وأرشحها بقطرة من مسلسل أنهارها؛ فمما استحسنته منها، وبالسند رويته عنها، رسالة لأبي عثمان الجاحظ وهي:

---

(١) طبقات المناوي ٥٦/٢.

(٢) نوى: بليدة من أعمال حوران. وتقع جنوب سورية وفيها مقام الإمام النووي، وقد بُني عليه مسجد جديد (انظر معجم البلدان).

رأيت فلاناً ينفض يده منك وأنت تصادره على وصله، وكفى بالإعراض حاجباً، وبالانقباض طارداً، ومن وقف في الإذن لك فقد حجبك، ومن تنكر عن حكاياتك فقد كذبك، ومن مطلك ولو ساعة فقد حرمك، ومن حظر سره عنك فقد اتهمك، ومن تمنّى فقدك فقد قتلك، ومن صادق عدوك فقد عاداك، ومن عادى عدوك فقد والاك، ومن أقبل بحديثه على غيرك فقد طردك، ومن شكر إليك سواك فقد سألك، ومن سكت عند مدح الناس فيك فقد ثلبك، ومن بلّغك الذم فقد شتمك، ومن استمهلك في الجواب فقد هابك، ومن أجرى ذكرك عند من لا يأمنه عليك فقد اغتابك، ومن نقل إليك فقد نقل عنك، ومن شهد لك بالباطل فقد شهد عليك، ومن وقع لك في أخيك فقد وقع له فيك، ومن مدحك بما ليس فيك فقد هجاك بما لا يعلمه منك، ومن أحبك لغير شيء فقد أبغضك لغير شيء، ومن أحسن إليك فقد استعان بالزمان عليك، فإن شكرته جازاك عنه، وإن كفرته جازاك دونه، ومن ألح عليك في سؤاله فقد طرق لك إلى حرمانه، ومن أمرك بما لا تطيقه فقد أفتاك إلى عصيانه، جعلتك سهمي فيها وأعطيتك ما أعطيت منها، فكن شفيعي إلى أذنك حتى [٩٩/ب] تسمعها وشفيع أذنك إلى قلبك حتى يفهمها وشفيع قلبك إلى نفسك حتى تعمل بها، والسلام.

[رسالة النيربين]

والرسالة المعروفة بالنيربين وهي:

يقبل الأرض بين يدي الملك الرحيم سلطان الملاح، وقطب فلك الحسن والعدل والسماح؛ مالك الرقاب، وسالب الألباب، أجرى الله بالعدل أقلامه، وقرن بالنصر أعلامه؛ وأدام سلطان جماله؛ بمحمد وآله، وينهي أنه عبد مظلوم، محروم لا مرحوم، ظلمه صفي مولانا ووزيره، ووليه ومحبه ونصيره، بصَّرَه الله بسوء أفعاله، وأعانه على صلاح حاله، وذلك أنه كان قد استأجر من العبد بستاناً عامراً زاهراً، لا غامراً خضراً نضراً، لا تغني ثماره، ولا تعرى أشجاره، ولا تجف أنهاره، صحيح التقسيم، طيب النسيم، شتاؤه كمصيفه، وربيعه كخريفه، فيه من فنون الأفنان، صنوان وغير صنوان، وهذا

البستان يعرف بالقلب من أعمال الجسد، المسلوك إليه من الجهات الست بالحواس الخمس، ويحيط به ويشتمل عليه حدود أربعة:

- فالحد الأول ينتهي إلى مراعاة الحقوق، ومجانبة العقوق.

- والحد الثاني ينتهي إلى الشوق المقلق، والزفير المحرق.

- والحد الثالث ينتهي إلى مكابدة الأشجان، وممارسة الأحزان.

- والحد الرابع ينتهي إلى الطريق التي بها يختبر كل صديق، وفي هذا الحد مشروع باب ذلك بجميع حدوده، وحقوقه الداخلة فيه والخارجة عنه،

- فمنها العين التي لا تبصر إلا باختياره.

- والأذن التي لا تسمع إلا بإيثاره.

- واللسان الذي لا يترجم إلا عن آثاره.

- وجميع الجوارح على اختلافها وتباين أوصافها وأصنافها، استأجر ذلك كله منه مدة سنين متوالية، وأيام متتالية:

- أولها تاريخ منشأ هذا البستان،

- وآخرها انقضاء الزمان، بأجرة مبلغها من العين نظرة إليه، وسلام عليه، وتقبيل لكفه وقدميه، يؤدي ذلك إلى المؤجر المسكين، في كل حين، من غير مدافعة، ولا ممانعة ولا منازعة ولا مخادعة، وأقر المستأجر المذكور أنه ملي بذلك وفيّ به قادر عليه [١٠٠/أ] وتسلم منه ما استأجره، وصار ذلك في يده وقبضته وتصرفه ثم إن المستأجر المذكور أهمل أمر البستان، ورماه بالهوان؛ فما سقاه من ماء الوصال، ولا حماه من وحوش الملال، فاستقلع واستخرب، واستعجم بعدما استعرب، وزوت أشجاره، ونأت أطياره، فزهد في عمارته، ورغب في فسخ إجارته، فهل يجوز له أن يتسلمها عامراً، ويروها غامراً، قد تبدل بعد حمائمه بالبوم، وبعد فواكيه بالزقوم، لا والله لا أرضى بهذا الحكم، ولا أصبر على هذا الظلم، وكيف وعدل مولانا قد شمل أقطار العراق وانتشر في سائر الآفاق: [من الوافر]

فإذا ظُلمتُ ولي بكم متعلقٌ فعلي عُلاكم لا عليّ العارُ

وكتب الصلاح الصفدي إلى التقيّ السبكي الشافعي:[من الوافر]

تقيَّ الدين يا قاضي البرايا ... ويا ربَّ النهى والألمعيَّة

ويا من راح أثنيتي عليه ... تضوع كمثل فطرته الزكيَّة

أهزّ إليك منك بجذع علم ... فوائده تساقط لي جنيّة

لأنك لا تسامى في علوم ... نزلت بها منازلك العليَّة

ونظمك نظم مصري طباعاً ... حلاوته لذلك قاهريَّة

ودأبك فتح باب النصر حقاً ... وغيرك شغله بالباطليّة

أفِدْنا إننا فقراءُ فهمٍ ... لما تملي فضائلك الغنيَّة

تقرر أن فعّالاً فعولاً ... مبالغتان في اسم الفاعليَّة

فكيف تقول فيما صحّ منه ... وما الله بظلام البريَّة

أيعطي القول إن فكرت فيه ... سوى نفي المبالغة القويَّة

وكيف إذا توضأنا بماءٍ ... طهور وهو رأي الشافعيَّة

أزلنا الوصف عنه بفرد فعل ... وذاك خلاف رأي المالكية

فأوضحْ ما ادلهمَّ عليّ حتى ... تغادرني على بيضا نقيّة

فإن يدجو ظلام الشك مني ... فذهنك ذو قناديل مضيَّة

[١٠٠/ب] ودم للمشكلات تميط عنها ... أذى فهم لأذهان صديَّة

فأجاب: [من الوافر]

جلوت عليّ ألفاظاً جليَّة ... وسُقْتَ إليَّ أبكاراً سنيَّة

ونظمت الكواكب في عقود ... فأزرت بالعقود الجوهريَّة

وأبدعت المسيّر في نظام ... فما لمسيّر عندي مزيَّة

لآلٍ مثل بدر التمِّ نوراً ... ولكن في النهار لها مضيَّة

حلاوتها تخالط كلَّ قلب ... ومن حشو وحوشي نقيَّة

أنت من حافظ الآداب طراً ... وقلبي مغرم بالحافظيَّة

وتعزى للخيل فما فؤادي ... يميلُ هوى لغير السكريَّة

فهمت بما فهمت من المعاني ... ولم أظفر بنكتتها الخفية

لأن العجز مني غير خافٍ ... ومالي في العلوم يدٌ قويَّة

تأنَّف صاغةُ الآداب مني ... ومالي للإجابة صالحيَّة

ومن جاء الحروب بلا سلاح ... كمن عقد الصلاح بغير نيَّة

فخذ ما قد ظفرت به جواباً ... فما أنا قدر فطرتك الذكيَّة

فَظَّلام كيَزّاز وأيضاً ... فقد يأتي بمعنى الظالميّة

وقد ينفي القليل لعلة في ... فوائده بنص الأكثريَّة

وقد ينحى به التكثير قصداً ... لكثرة من يُضام من البريَّة

وأما قوله ماء طهور ... ونصرته لقول المالكيَّة

فجاء على مبالغة فعول ... وشاع مجيؤه للفاعليَّة

وقد ينوى به التكثير قصداً ... لكثرة من يروم الظاهريَّة

وأيضاً فهو يغسل كل جزء ... ولاءً وهو رأي المالكيَّة

فخذها من محبٍّ ذو دعاء ... أتى منه الروي بلا رؤيَّة

له فيكم موالاة حَلَتْ إذ ... أصول الودّ فيه قاهريَّة

فإن مرت إذا مرت فعفواً ... فإن الستر شيمتك العليَّة

فمرسلُ شعره ما فيه طعمٌ ... يجاب به القوافي السكَّريَّة

[١٠١/أ] وكتب العلامة الشهاب محمود[١] إلى العلامة علاء الدين غانم المقدسي[٢] ملغزاً : [من الطويل]

---

(١) هو محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ثم الدمشقي أبو الثناء شهاب الدين، أديب كبير استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً. ولد بحلب سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٧ م. وتوفي في دمشق ٧٢٥ هأ/ ١٣٢٥ م، كان شاعراً مكثراً وله تصانيف أدبية كثيرة (الدرر الكامنة ٣٢٤/٤، والقلائد الجوهرية ٢١٤ والأعلام ٤٩/٧).

(٢) علي بن محمد بن سلمان بن حمائل الكاتب الشاعر علاء الدين ابن غانم. توفي بتبوك سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م (الدرر الكامنة ١٠٣/٣، وفوات الوفيات ٧٨/٣-٨٤).

وما اســم خماســي جميــل رواؤه ... لــه منظــر يزهــو بــه وشــميم

ألذّ من المسك العتيــق إذا ســرى ... بأنفاســه عنــد الــصباح نــسيم

بقايا نــضار فــي ســداهن لؤلــؤ ... تركب منهــا الــدرُّ وهــو نظــيمُ

إذا الروضة الغناء أبدتــه خلتهــا ... سماء عليهــا مــن حــلاه نجــوم

كلا طرفيه اســم صــحيح وقلبــه ... عليــل ولا قلــب لــه فيهــيمُ

ورب جنـــاح لا ظلـــيم تخالـــه ... فيعــدو ولا طيــراً يــرى فيحــوم

متى تُلْقِ خمسيه قباقيــه إن تــشا ... ففي الجو أو بــين النجــوم مقــيم

فبينه لي مستقــصياً مــا رمزتــه ... فأنــت بحــلِّ المــشكلات علــيمُ

يا مولانا هذا اللغز إن شممت رياه خلته عبيراً، وإن عكسته بعد إسقاط خمسيه ألفيته وإن لم يعاشر الفرزدق جريراً، فهو بكماله معير المسك بأنفاسه، وبفتح وسطه مثنى ما دل على مسماه ثلاثة أخماسه، وإن حططت إعجام أوله عن رتبته، وجعلت الضمة مكان ما استقر من لزوم فتحته، كان مع إسقاط خمسيه ثمراً حلواً، منه ما يصفرّ حسناً، ومنه ما يحمرّ زهواً، أو اسم بلد يزار ساكنه، وترتاح له قلوب مريديه، وإن لم ترق مساكنه، وليس الغرض بحله غير تنزيله، ولا المطلوب من إجمال الجواب غير تنزيله، والله يطيب ذكرك، ويوزع ألسنة الأقلام شكرك.

فكتب له الجواب: [من الطويل]

أيا عالمــاً بــالعلم منــه وبــالنُّهى ... وبالفــضل كــلّ العــالمين علــيمُ

ومن فضله قد عمَّ شــرقاً ومغربــاً ... ففي القرب منــه والبعــاد عمــيمُ

وأنى لقيس وامرئ القــيس مثلــه ... كـــلام تثيـــر درُّه ونظـــيمُ

لعبد الرحيم الفــضل قــدماً وإنمــا ... حــديثك لــم يلحقــه منــه قــديمُ

بعثــت بلفــظ كالنــسيم لطاقــة ... وما مثله في اللطــف قــط نــسيمُ

وألغزت في اسم راق شماً ومنظراً ... يسرّ بــه وقــت الــصبوح نــديمُ

متى ما تُصحّفْ منه حرفاً وثانياً   فشهر تراه في الخلائق روم
[١٠١/ب] يرى في ألم نشرح بتصحيف بعضه   وتحريفه منه تزول هموم
لعل إله الخلق يرحم خلقه   ويدركهم باليسر فهو رحيم

يا مولانا أدام الله تعالى لك الأيام، وأمتع بحياتك وحسناتك جميع الأنام؛ هذا اللغز في اسم إذا صحفت خمسيه الأولين مع التحريف كان اثنين من البشر، وإذا أسقطت خمسيه الآخرين فهو به تسر؛ وإذا فاحت روائحه زادت على طيب عرف الأزهار. وإذا حذفت حرفه الأخير كان لنا من مهمات السفر في الليل والنهار، فإن ظهرت حقيقته بهذا الكلام. وإلا فالمملوك بعيد عن حلٍّ والسلام.

[من نثر ضياء الدين ابن الأثير]

ومن نثر ضياء الدين ابن الأثير [1] رحمه الله تعالى:

ومما سمحت لي به الأيام، وما أقول إلا أنها غفلة، والغفلة أخت المنام؛ وذلك أني أصحرت على حكم الارتياد، وخلوة الانفراد؛ في يوم متأرّج الصَّبا، متبرج الوهاد والربا، سماواه بأجنحة الفواخت مجموعة، وقطره في أعناق الأغصان درر ولكنها غير مثقوبة، والجو قد برز في حلته الدكناء ولو كان للحسناء مثلها لازدادت في ملاحتها حسناً، والأنهار قد سلت بأيديها كل عضب صقيل، صيغ فضة بيد الضحى وذهباً بيد الأصيل؛ والأغصان كأنما خلقت منابر لخطباء الحمام، وصورت أوراقها محاجر لدموع الغمام، وخرطت أزهارها مجامر للمندل الرطب، وقدر أقحوانها فماً لمؤشر الثغر العذب، والطير ما بين متطلع من وكنه وقائم على غصنه من كل صفوف الطيلسان، ذي طوق يزهو على طوق العقيان: [من الطويل]

يصلن بنوحي نوحهنّ وإنما   بكيت بشجوي لا بشجو الحمائم

---

(١) هو نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب، وزير من العلماء الكتاب المترسليين. ولد في جزيرة ابن عمر ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م، وتعلم بالموصل مع أخويه، له المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. توفي سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م (وفيات الأعيان ٣٨٩/٥ والأعلام ٣٥٤/٨).

فبينما يسرح في محاسن الروض وبدائعه، وطرفي يتخير مسارح رعي ومراتعه إذ دخلت حديقة قد سقاها النعيم ماءه وألبسها نعماءه، ففيها ملهى للناظر والسامع، ما بين مغرد وساجع وأحمر قان وأخضر ناضر، وأصفر فاقع، وما أقول إلا أنها خلقت في الأرض. وقيل استدلوا بها على جنة السماء وبعض الأشياء يدل [١٠٢/أ] فلما دخلت قلت: الحمد لله والحمد هو آخر دعوى أهل دار السلام، وشوقتني إلى أختها في الآخرة، فأخذت في اكتساب الحسنات، واجتناب الآثام، ولما طوفت بها لم يكن بأسرع من أن وثب النرجس وثب الريم من كناسه، نافضاً عن جفنه سِنَة نُعاسه، وقال: أنا عيون الرياض الناظرة وزهراته الناضرة، بي يوصف تضعيف الأجفان، وأنا البشير بمقدم طيب الزمان، فنهض لمبارزته الأقحوان، بمرهفي سيف وسنان وقال: أيها المفتخر بما ليس فيه، الراعي زرعاً ليس بواديه، بماذا أتيته على خلطائك وتشرف على نظرائك؛ وأنت لا تزل منكوس الراس، وأنت أعجمي الاسم والعجمة ضرب من الالتباس؛ ولولا خبث طويتك لما كثفت، ولو لم يلحق بك الماء لذبلت وتلفت؛ ولا تستخدم إلا صاغراً قائماً، ولا تزال الهفان هائماً؛ وأما أنا فحسني حسن البداوة ولا حسن للحضارة، ولا أحتاج لما يحتاج إليه النبت من النفحة المستعارة، ألا ترى أنك تنتقل من الصحراء إلى البستان، ولولا ذلك لم تكسب طيب العرف ولا تضعف الأجفان.

فلما أنهى الأقحوان مشاجرته، وأثبت مفاخرته، وثب الشقيق لكفاحه، ونشر محمر جناحه، وقال: أردت أن تتقدم فتأخرت، وظننت أن تشبه بعظام أهل القبور، لكن أنا المصبوغ بدم القلوب، الشارب دمع الغمام المسكوب. [من الكامل]

عن بهجتي تتحدث الزهرات ... وإلى احمراري تنسب الوجنات

فانظر إلى المحمّر ثم تأمّل الـ ... ـمسودّ فيه كأنه خالات

فنهضت له زهرة بدوية الانتساب، لا تهوى غالب أمرها إلا سكان القباب، فقالت: هلا وقفت بمكانك وميَّزت بين شأن غيرك وشأنك، ألبست الضعيف النية،

القريب المنية، تأتي والربيع يختال في حلل الإعجاب، فتأذن لعمره بالانقضاب، لكني أنا الذي ناسبت السماء بزرقتي، وأرجت الأرض بطيب عبقي، لزمت أهل الوبر، أتفه من أهل المدر [١٠٢/ب] [من الخفيف]

[ ]للطيب ريح زكي شبهوه بريحتي تعظيما

أنا صبح الأزهار وما دو ني تراه العيون ليلاً بهيما

فاندلق البنفسج حنق الأوداج، وانقضّ انقضاض الكوكب الوهّاج، وقال: أيتها الساكنة بمساكن الشيح والقَيْصوم، التي لا يعلم لها مقام في المفاخرة حتى يقال، وما منا إلا له مقام معلوم، هل أنت إلا ريحانة المشتقي الكعاب، البوالين على الأعقاب، تتشقّ عنك البيدا، لتوعك الطبيعة الصيدا، فقد حرمت ريف العراق، وطيب نسيمه، وصنعت مقارنة الحضر ونضرة نعيمه، فلا تضحى إلى مبالهة الرياحين ذا أمل متطاول، فأين الثُّريا من يد المتناول، ولكن أنا حبيب النفوس، وتاج الرؤوس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي يشبه عذار المحبوب، فأقبل الورد في جنوده، خافقة السنة عذباته وبنوده، محمر الوجنات في الغضب، منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال: [من الكامل]

أعليَّ يفتخر البنفسج جاهلاً وإليّ يُعزى كل فضل يبهرُ

وأنا المحبب للقلوب زمانه وبمقدمي أهل المسرة تفخرُ

كيف أطعت هوى نفسي الأمّارة، ألست صاحب الاسم المعجم، والبُرْد الذي ليس بمعلم، بينا تُرى ناضراً، إذ يُرى الطرفُ عنك نافراً، وهل لك فخر إلا أن تُشَبّه بالعذار إذا بقل، وبالكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من الوصفين إلا بالصيت المذموم لأن هذا إحراق النار وذاك تسويد الخد الملثوم، على أن بعض البلغاء، ذكر تشبيهك بالعذار، ونزعتك خلقة هذا الثوب المعار فقال: [من الكامل]

ومهفهف لما بدا في خدّه شبه البنفسج وانطفى توريده

غم البنفسج حين شوّه خلقه وعدا على مبيضه تسويده

لكن أنا أيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، لا يشرف للربيع إلا بورودي، ولا تشبّه خدود الغيد إلا بخدودي، ولا تطرب النفوس إلا بمحاورتي، ولا تطيب الكؤوس إلا بمجاورتي:[من الطويل]

فمن ذا يضاهيني بوصف فـضيلة وفضلي على كل الرياحين ظــاهرُ

زماني علي الأزمان بي متــشرف وفخري لمن يبغي التفــاخر قــاهرُ

ولم أزل من الأزهار في سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات التعجب لمفاخرة الإعجاب، حتى سمعت صوت هاتف ورقاء، على بانة خضراء؛ بلسان فصيح، وقلب بفرقة الأحباب قريح، وقد أذّنت على غصنها الرطيب ومالت، وأعلنت بما أسرته من وجد وقالت: [من الرمل]

اذكرونـــــا ذكرنـــــا عهـــــدكم رب ذكــــرى قربــت مـــن ترحـــا

اذكـــروا صــــبّاً إذا غنــــى بكــم شــــرب الـــدمع وعـــاف القـــدحا

لقد حزتم حد الادكار، ولم ينج أحدكم من شعطات العار، هب أنكم نزهة العيون، وزينة الأفنان والفنون، فهل أنتم إلا أعشاش أفراخنا، ومواضع أوساخنا، وأعواد خطبائنا، وأرائك أمرائنا، ومهود أبنائنا، وستور نسائنا، رؤوسكم محط أرحلنا، وهاماتكم نعال أرجلنا، ونحن نسبح بحمد ربنا بالألسن الناطقة، والأفواه الرائقة، فلما سمعت كلام الحمائم هممت بالانصراف من حيث أتيت، لا خير بما سمعت ورأيت إذ أقبلت غمامة تمشي لثقلها مشي الرداح، ويكاد يلمسها من قام بالراح، وما أظلمت إلا أضاء البرق في جوانبها، فتمثلت ليلاً في صباح، فلم يزل البرق يأخذ في إذهاب ردائها، والرعد يندر بأندائها، وهي تلقي على الأرض ما حملته في أحشائها، وتنشئ به خلقاً آخر بقدر سيرها بإنشائها، ثم قالت: يا ذرات البكاء والنواح المفتخرات على الأيك والدوح، ألستم الباكين بغير جوى، الشاكين بغير جوى، قلوبكم خاشعة، وعيونكم غير دامعة، منكم عرف اختلاف الباطن والظاهر، وقد أعرب عن ذلك قول الشاعر: [من الطويل]

وهاتفة في البان تملـــي غرامهــا علينا وتتلو من صـــبابتنا صـــحفا

ولو صدقت فيما تقول من الأســـى لما لبست ثوباً ولا خـــضبت كفـــا

لكن أنا مخرج الأرض من موتها إلى نشورها، ومظهر ما في بطونها إلى ظهورها [١٠٣/ب] وقد نطق بحالي الكتاب العزيز **(وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** [الحج: ٥/٢٢] فبينما الغمامة تطلق لسانها، وتذكر إحسانها؛ إذ عارضتها الشمس فخرجت من أثوابها، وبرزت من حجابها، وقالت هذه منة على الأرض أنا أولى بها، فشيمتك أيتها الغمامة البكاء من غير حزن، والحنين من غير فراق ولا سكن، لكن أنا عروس الفلك الدوّار، ومربية الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسده تتابع الأمطار، فلما رأيت النزاع بينهم لا ينقطع مجاذبة حبلة، وإن كلاً منهم لا يسلم لصاحبه ما يدعيه من فضله، قلت لهم: إن الله عند لسان كل قائل، والرجوع إلى الحق أولى من التمادي على الباطل، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، واعلموا أنه قد جاءكم مخلص كريم، ألم تعلموا أن جامع هذه الأوصاف كلها مولانا السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى الذي سعيه مشتق من لقبه، وسبقه إلى المعالي سبق الذي منتمي إليه من نسبه، فهو الممدوح بكل لسان الذي حظي بشيبة العمر وشبيبة السلطان: [من البسيط]

تراه مستغنياً عـن مـدح ممتـدح … غنى الظباء عن التكحيـل بالكحـلِ

تلوح فـي غـرة الأيـام دولتُـه … كأنها ملـة الإسـلام فـي الملـل

فاعترف الربيع بنضارة أخلاقه، والنسيم بطيب أعراقه، والغمام بجود عينيه، والشمس بضوء جبينه، وأقرت الأطيار له بالثناء وقالت: لا أتغنى إلا بمدحه، وأطيب المدح ما اشتبه بالغناء، فلما اعترف الجميع لأنفسهم بالنقص، وله بالمزيد، وقالوا: إذا جاء زهر معقل بطل نهر يزيد؛ تمثلت عند ذلك بقول القائل: [من السريع]

لـيس علـى الله بمـستنكر … أن يجمـع العـالم فـي واحـد

انتهى.

أنشد أبو هلال العسكري: [من الطويل]

وخط من التصحيح فيه معالمٌ … وللحسن إذ يبدو عليه نسيبُ

يُعبر عند الروض وهو منمٌّ … ويُخبر عنه الوشيُ وهو قشيبُ

سوادٌ بياضٌ في بياض صحيفةٍ … تقول شبابٌ بالمشيب مشوبُ

كأنَّ ظلام الليل أذرى دموعه … فظلت على خدِّ الصباح تصوبُ

وللمصنف: [من الوافر]

ورُبَّ حمامة في الدوح باتت … تُجيدُ النوح فناً بعد فنِّ

أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا … فمنها النوحُ والعبراتُ مني

وله أيضاً: [من الخفيف]

لا تقيسوا إلى الحمامة حزناً … إن فضلي تدري به العشاقُ

أنا أُملي الغرامَ عن ظهر قلبٍ … وهي تُملي وحولها الأوراقُ

وله أيضاً: [من الوافر]

أرى ورقاءَ شجا وشجوٍ … لهاتفة غدت سبباً لهتكي

تقول أما خلقتنا يا مُعنَّى … سوى أني أنوح وأنت تبكي

وله أيضاً: [من الكامل]

أحباب قلبي إن تطاول بيننا … أمدُ الفراق حكيتُ من أشواقِ

ورقاءُ فارقها القرينُ فأرسلت … منها بديع السجع في الأوراقِ

انتهى ما اخترت من النكات الأدبية من جزء التذكرة الصفدية.

ولمناسبة الأبيات المتقدمة في الحمائم، التي هي لنحور البلاغة عقود تمائم، أعجبني بيتٌ في المقامة الأثيرية، يسير لسامعه الأشجان اليعقوبية: [من الطويل]

يصلنَ بنوحي نوحهنَّ وإنما … بكيتُ بشجوي لا بشجو الحمائمِ

فضمنه بيتين لطيفين، صابهما محلى الطرفين: [من الطويل]

ترومُ تحاكي النوح مني حمائمٌ ... تنوحُ بقلبٍ في الهوى غير هائمِ

يصلنَ بنوحي نوحهنَّ وإنما ... بكيت بشجوي لا بشجو الحمائمِ

وهيهات أن تحكي شجوني صبابةً ... وأنى لها سفحُ الدموع السواجمِ

وقد كنت خلال تلك الزيارات، وتفيؤ ظلال الأنس والمسرات، وتفيؤ ظلال الأنس أجتلي محاسن دمشق البديعة، وأتحلّى بشهد مشاهدها الرفيعة، فإنها قد توشحت بوشاح الجمال، وتزينت بعقود البهاء والكمال، وناهيك بجوامعها الجوامع، ومدارسها الزاهية اللوامع، وحماماتها الحسنة، ورياضها، ومنتزهاتها البهجة، وغياضها، وأسواقها الظريفة [١٠٤/ب] الكيان، وعماراتها المشيدة البنيان، وتقسيم مياهها أحسن تقسيم على الأماكن بالضبط والتسهيم، ودوام الفواكه والثمار، والمحمضات والخضروات والأزهار، وتيسير أسباب التعيش والمعاش، وتيسير مسببات التريش والرياش؛ وتنعماتها الدانية القطاف، وكم وكم لها في منهج الحسن من أوصاف: [من الوافر]

دمشق الشام في وصفٍ تسامَتْ ... فكم يحوي رباها من محاسن

بها الأزهار دانية قطافاً ... كذا الأنهار ماء غير آسن

فكم سرحتُ الناظر في مدرسةٍ وجامع، لاسيما المسجد الأموي الذي هو للحسن جامع؛ وشرحت الخاطر ببعض منتزهاتها الحسان، المضاهية والمحاكية فراديس الجنان؛ وتروحت بشذا عبير أزهارها، وتفكهت بجنى يانع ثمارها، وتنعمت بأحسن حماماتها، التي عذب ماؤها، وحسن للصب بها هواؤها، ومررت بأسواقها المحكمة البناء وتحليت بمشاهدها التي ليس عنها غنى، واجتليت من آفاقها شموس عباد، فاقوني السيادة ملوك عبّاد، ورويت القلب من ظمأ الجهد الدوام، باجتماعي بأفراد من علمائها الأعلام: [من الكامل]

سرحت في وادي دمشق نواظري ... وشرحت صدري باجتلاء مشاهدي

وتنعمت مني الحواس بقربهم ... فمصادري فيها حلت ومواردي

وتروّح القلب العليل بسادة ... حازوا العلا؛ بمدارس ومعابد

وأنا مع ذلك أتقلّب على بسط التهاني، وأرتع في رياض الأمن والأماني؛ لا أتفكر في الانتقال، ولا يخطر مني السفر ببال، فبينما أنا في روضة طاب بها المقيل، متفيئاً بفيء ظلها الظليل أنتشق نسيم الشفاء من صبا روحها، وأقتطف زهور الصفا من ربا دوحها، إذ سمعت وت ورقاء على فنن، بعثت الذكرى وحركت الشجن، فحنوت لأحبتي ومربع أوطاني، وحننت إلى جيرتي، ومرتع أخداني، فحين أذكرتني الحما والمراتع،أنشدت مضمناً البيت الرابع: [من الكامل]

[١٠٥/أ] صبٌّ يبـوع بمـا أكـن فالســسر والنجــوى علــن

لا تعجبـــوا مـــن شـــجوه إذ مـــا نفـــى عنـــه الوســـن

قـــد هاجـــه جـــنح الـــدجى ورقـــا تنـــوح[١] علـــى فـــنن

أهـــدت لـــه الـــذكرى شـــجن فحنـــى وحـــن إلـــى الـــوطن

وهمـــت ســـحاب جفونـــه شـــوقاً إلـــى الوجـــه الحـــسن

فتحركت مني الخواطر بالرجوع، وتراسلت سحب الأجفان بالدموع، وتمثلت بما أنشدته بعض الأعراب، لما استطالت به شقة النوى والاغتراب: [من الطويل]

ذكرتُ بلادي فاســتهلت مــدامعي بشوقٍ لعهــدي بالــصبا المتقــادم

حننتُ إلى أرض بها اخضرّ شاربي وقطع عنـــي قبـــل عقـــد التمـــائم

وقد قيل: اللبيب يحن إلى وطنه، والنجيب إلى عطنه[٢]، والحليم إلى رحابه، والأسد إلى غابه، فلا تجفوا أرضاً فيها قوابلك، ولا تنس بلداً فيها مراضعك.

قال بزرجمهر: من علامات العاقل أنسه بإخوانه وحنينه لأوطانه ومداراته لأهل زمانه.

---

(١) تكرر اللفظ في م.

(٢) العطن للإبل كالوطن للناس وقد غلب على مبركها حول الحوض (اللسان).

قال بعض الأدباء: كان الناس يشوقون إلى أوطانهم، ولا يدرون العلة في تحريك أشجانهم، حتى أوضحه ابن الرومي الوحيد، بما أنشده من جملة قصيد: [من الطويل]

وحبيب أوطانَ الرجال إليهمُ — مآربُ قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانَهم ذكرتهموا — عهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا

وقال أبو هلال منشداً في هذا المجال: [من للطويل]

إن أنا لا أشتاق أرضاً لجيرتي — فليس مكاني في النهى بمكين

من العقل أن أشتاق أول منزل — غنيت بعيش في ذراه ولين

إذا أنا لم أرع السهود على النوى — فلست بمأمون ولا بأمين

وقال ذو الشجون، رجاء بن هارون:

أحنّ إلى وادي الأراك صبابة — بعهد الصِّبا فيه وتذكار أولي

كأن نسيم الريح في جنباته — وفاء حبيب أو لقاء مؤمل

تعليق على قوله: (ولا تنس بلداً فيه مراضعك):

الرضاع له ذمة يجب [١٠٥/ب] مراعاتها وحقوق وحرمة يلزم مواساتها، فقد روى أهل الحديث أنه لما قدم زهير بن صُرد الجشمي السعدي على النبي r من حنين وهو بالجعرانة، يميز الرجال من النساء [في سبي هوازن] فقال له زهير: يا رسول الله إنما سبيتَ منا عماتك وخالاتِك وحواضِنَك اللاتي كفلْنَك، وإنا لو جئنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا أحدهما بمثل ما نزلت به رجونا فضله وعائدته [علينا]، وأنت خير المكفولين وأنشد: [من البسيط]

امنن علينا رسول الله في كرم — فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر — مشتت شملها في دهرها عبر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها — إذ فوك يملؤه من مخضها الدرر

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها — وإذ يريبك ما تأتي وما تذر

لا تجعلَنَّـا كمـن شـالت نعامتـه **واستبقِ منـا فإنـا معـشر زهـر**

فألبسِ العفوَ من قد كنت ترضـعه **من أمهاتـك إن العفـو مـشتهر**

في أبيات أكثر من هذه.

فقال رسول الله r: **ما كان لي ولعبد المطلب فهو لكم.**

وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لله ولرسوله. انتهى.

١ - [الشوق إلى الشام]

فلما تمكن مني داعي الشوق والولوع أخذت في أسباب السفر والرجوع وأنا أتأسف على مضي تلك الأوقات، وأتلهف على قصر هاتيك الساعات سويعات، المقام بها قليل، ولكن للتولع باعثات، أتخيّل الإقامة لمحة طيف، أو مرور فكر أو مزنة صيف، فإنها كانت نحو عشرة أيام حسب ما جرت في اللوح والأقلام لم تشف عليلاً، ولم تطفئْ غليلاً: [من الطويل]

وتتمـيم ميقـات الكلـيم إقـامتي **بدار دمشق ما روت حَرَّ أشـجاني**

رويت أحاديث الـسرور بـدوحها **على نغمات الطير من حيث أشجاني**

فلما عزمت على طي بساط المقام، ونشر رداء المسير من هذا المقام؛ توجهت وأهديت الفاتحة لحُماتها، وطلبت الفيض والملاحظة من سراتها، لهجاً بدعوات مختتمة بآمين، **(دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ** [١٠٦/أ] **وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)**. [يونس: ١٠/١٠]

ثم شرعت في السُّرى، ولاعج الوجد بالفؤاد سَرى، ورحلنا وقد كسانا النوى بالبعد وجداً، ستذكرين لمن بها عهداً، أنشد لبعض ذوي الهيام، حين وقف بمثل هذا المقام: [من الطويل]

حللت دياراً بـالغرام سـرت بهـا **إلينـا صَـبا نجـدٍ بطيـب نـسيمِ**

وبان ردى الأشجان لمـا تجاذبـت **أكـفّ المنايـا رداء نعـيم**

فما إن نشبنا العيس أن قذفت بنـا **إلى فرقـة والعهـدُ غيـرُ قـديم**

فإن يـك ودعنـا الـديار وأهلهـا   فمـا عهـد نجـد عنـدنا نـديم

[الوداع]

ففي يوم الخميس ثاني ربيع الثاني، عام وجدي وولعي وتحركت أشجاني، طلعنا إلى الوادي المستطاب، وقد صاحبنا للوداع بعض الصحاب، فوقفنا في مقام الوداع، وقد نُثر ينا عقد الاجتماع، فأنشدت من حفظي، وإن لم يكن من إنشائي ولفظي: [من المنسرح]

كنـا جميعـاً والـدارُ تجمعنـا   مثل حـروف الجميـع[1] ملتـصقَهْ

واليـوم صـار البعيـد[2] يجعلنـا   مثـل حـروف الـوداع مفترقـه

ويحق أن أتمثل ساعة التفريق، بما أنشده بعض أولي التحقيق:[من الوافر]

وقفنـا سـاعةً ثـم ارتحلنـا   وما يغني المشوقَ وقـوفُ سـاعَهْ

كأنّ الـشملَ لـم يـك ذا اجتمـاعٍ   إذا مـا شـتت الـشمل اجتماعـه

وأنشد مُتَحسّراً لبيت مُشَطّراً:[من البسيط]

يا من يعزُّ علينـا أن نفـارقَهم[3]   ونـار أشـواقنا بـالبين تـضطرمُ

بنتم فليس لنا عن حـسنكم خلـفٌ   وجداننا كلّ شـيء بعـدكم عـدمُ

ثم ركبنا جادة الطريق، وقد رجع أولئك الفريق: [من الخفيف]

وبروحـي ودمعـي حـين وافـى   سال دمعي يوم النـوى كـالعقيقِ

قال ما في الطريق تـصنع بعـدي   قلت أبكي عليـك طـول الطريـق

وحين حدا بنا نحو صيدا الحادي، التفتّ متشوفاً إلى ذلك الوادي، أتمثل ودمع العين صبيب، بما أنشد الشاعر الأديب: [دوبيت]

---

(١) في الأصل:(الجمع)، والمثبت للوزن.

(٢) في الأصل م : (البعد) ولا يستقيم الوزن بها.

(٣) الشطر صدر بيت لابن زيدون، وعجزه هو عجز البيت الثاني.

[١٠٦/ب] هل ترجع أيامنا بهـذا الـوادي تـــالله لقـــد عهــدتها أعيـــادي
أيــــام يـــضم شـــملنا منتــــزه بالغوطـــة لا فقـــدت ذاك النـــادي

وصرت بعد مشاهدة الربا، أقنع بمرور نسيم الصبا؛ وأردد ما أنشده المقَّري الهمام، حين قوَّض عنها الخيام: [من الطويل]

حمدت وحــق الله للــشام رحلــةً أباحــت لعينـــي اجــتلاء محيـــاه
وبعد التنائي صرت أرتـــاح للـــصبا لأن الصَّبا تـــسري بعـــاطر ريـــاه
فللـــه عهـــد قـــد أنـــاخ بجلّـــق ســـروراً فحيـــاه الإلـــه وحيّـــاه

ولم أنس بوارق أنسها، ولا عيشاً مضى بمعاهد قدسها، وجدير أن يزيد في التلهف إفراطي، وأنشدت أبيات الأديب القيراطي: [من البسيط]

لم أنسَ بالشام أُنساً شِـمْتُ بارقَــهُ جـــادتْ معاهـــده أنـــواء نيـــسانِ
لهفي لعيشٍ تقضَّى فـــي معاهـــدها ما بين حُسْنٍ من الـــدنيا وإحـــسانِ

وكلما أضناني الجوى لتذكار معاهدها، أتسلى وأترنم بذكر مشاهدها. شعر: [من الطويل]

وأضنى الجوى قلبي لتذكار معهـــدٍ بوادي دمشق الشام حالي المـــوارد
شهدت بسفح السفح منه مـــشاهدا نعمت بها انعـــم بتلـــك المـــشاهد

وحين هاجت بلابل الغرام، ضمَّنت بيتاً للشمس الغرام: [من الطويل]

أيا سادة بالشام مـــا زلـــت لاهجـــاً بـــذكراكم دومـــاً أروّح خـــاطري
أحنّ لترداد الـــصبا مـــن بـــشامكم فأصبو لساريه الـــسرى بـــسائري

ولا بدع إذ هاجت لواعج الجوى بالفؤاد، وألف الناظر المقروح البكا والسهاد على انقضاء الليالي الخاليات، ومرورها بتلك الأويقات الحاليات: [من الطويل]

ولا بد للقلب المشوق من الجـــوى وللناظر المقروح أن يألف الـــسهدا

على زمن بالشام حال قد انقــضى　　　فكم ذقت فيه من مشاهدها الــشهدا

ولعمري كانت أوقاتها مواسم، حيث ثغور التهاني برباها بواسم، أماني نفس ما علمت قيمتها، ومغاني أنس ما نسيت لذتها، ولله در من حرك بالقلب أشجاناً، إذ جعل لياليها للمسرة عنواناً:[من الطويل]

[١٠٧/أ] وكانت في دمشق لنا ليالٍ　　　ســرقناهن مــن ريــب الزمــان

جعلنـــاهن تـــاريخ التهـــاني　　　وعنـــوان المـــسرة والأمـــاني

[قرية ضُمَّر(١)]

وبينما أنا أتلهف وأتحسر، إذ مررنا ضحوة النهار، على قرية ضُمَّر، وقد أحاطت بها الأنهار، كما يحيط بالمعصم السوار، وتبرجت رياضها الأنيقة، وتأرجت زهورها العبيقة، ورقت صوادح الأطيار، تخطب فوق منبر الأشجار، فأشجاني حسن منظرها، وأهاجني طيب مخبرها، فرمت بها المقيل، لأتفيأ بظلها الظليل، وأستروح للطف نسائمها، وأترنح لصدح حمائمها، فلم يوافق أولئك الرفاق، فأنشدت والدمع والمطايا في استباق: [من الطويل]

مررنا صباحاً والــصحابُ بــضُمَّر　　　وزهر الربا من عَرْفه الطيب ينفحُ

وأدواحُها تزهو بميــل غــصونها　　　إذا ما بها ورق الحمــائم تــصدحُ

فأشجت فــؤادي المــستهامَ لأنهــا　　　لمتن غرامـــي بالــصبابة تــشرحُ

فرُمْتُ انعطافــاً نحوهــا بتعطــف　　　لعـــل فـــؤادي ســـاعة يتـــروّح

فما وافقت تلك الرفاق وأســرعت　　　تحثُّ المطايا نحو صــيدا وتكــدح

[قرية الديماس]

فأشغلت الوقت بمفاكهة وإيناس، إلى أن وصلنا الظهر قرية الديماس، فنزلنا بواديها الأبهج الفياح، بدوح مشهد به ضريح بعض أهل الفلاح، فأقمنا

---

(١) لعلها بلدة دمر الواقعة في غوطة دمشق الغربية، يدل على ذلك ويقويه ما سيصفه المؤلف في النثر والشعر.

به نتفكر بمسامرة الأخيار، ونتجلى بناشد الأشعار، وتوارد الأخبار، فمما أنشدنيه بعض الصحاب للمولى القيراطي(١) محرر الآداب: [من الطويل]

دمشق بواديهـا ريـاضٌ نواضـر — تجلى بهاعن قلب ناظرهـا الهـمٌّ

على نفسه فليبكِ من ضاع عمـره — وليس له فيـه نـصيبٌ ولا سـهمُ

وأنشد الثاني، من غير تواني: [من البسيط]

لم أنس معهدنا والـشمل مجتمـعٌ — والعيش غضٌّ وروضُ الأنس معطارُ

فها أنا بعدٍ بعـدِ عنـه فـي قلـق — وقد نبـت بـيَ أرجـاءٌ وأقطـارُ

تمضي الليالي وأشـواقي مجـددة — وما انقضت لي من الأحباب أوطارُ

فلما استروحت النفس بهذا الإنشاد، ابتدرتُ مادحاً هذا الوادي [١٠٧/ب] الطيب المهاد، إذ صفا لي الوقت وراق، وأهاج فؤادي سواجع الأوراق، [من الكامل]

ورد الـسرور مـوارد الإينـاس — لمـا حللنـا دوحـة الـديماس

وافـى النـسيم وللأزاهـر بهجـة — تهدي الأريـج بأطيـب الأنفـاس

وتمايلت غصن الريـاض بـدوحها — تحكـي قـوامَ الأهيـف الميـاسِ

وحمائمٌ تشجي المـشوق بـشدوها — تروي لنا الألحـان عـن عبـاس

وصفا الزمـان فأنـسنا متواصـل — لا نضرب الأخماس في الأسـدادس

[خان الضهر]

وما زلنا في أنس وسرور، إلى أن تلا الفجر آية النور. سرنا نحو الضهر الأحمر، فوصلنا ظهراً وقد تدبج بالأخضر والأصفر: [من البسيط]

نزّه عيونك في الوادي البهيج ترى — روض الربا قد حوى للزهر ألوانـا

به روينا حـديث الأنـس متـصلاً — لكنَّ سلسل دمـع الـصب عقيانـا

واسمع سواجع ورق من صوادحه — فقد روت فيه ن إسـحاق ألحانـا

---

(١) انظر ترجمة القيراطي في هامش ٢ من ص ١٨٣. ورواية الشطر الثاني من البيت الأول في م: (بها يتجلى عن قلب) والمثبت للوزن.

فنزلنا بحمام لطيف بجانب الخان، مستكمل العمارة إلا أنه معطل منذ أزمان لكونه وسط الوادي، بعيد عن أهل ذلك النادي، فبتنا والرفاق الظرفاء والأحباب الأرقاء اللطفاء، ثم أرحنا العيون والجسم بالكرى، لتحصيل الراحة فتقوى على السُّرى، فلما حيعل الديك بالصياح، وكاد أن يفجأنا ضوء الصباح، سرينا فوصلنا خان حاصبيا رابعة النهار، وقد وكفت عيون السحب بهوامع الأمطار، فنزلنا بجانب الخان على شاطئ النهر ونسيم الصبا يهدي لنا طيب النشر، فأنشدني أحد الرفاق الأنجاب، حتى لامه العاذل على التشوق للديار والأحباب: [من الكامل]

[١٠٨/ب] أعليَّ في ذكر الديار مـلامُ	**أم هــل تــذكُّرها علــيَّ حــرامُ**
أم هــل أُذمُّ إذا ذكــرتُ منــازلاً	**فارقتُهــا ولهــا علــي ذمــامُ**
دار الأحبـــة والهـــوى وشـــبيبة	**ذهبــت وجيــرانٌ علــيَّ كــرامُ**
كــانوا حيــاتي وابتُليــت بفقــدهم	**فعلـــى الحيـــاة تحيـــةٌ وســـلام**

فطربت لسماعها وهممت لإنشادها، وخطر بالخاطر الفاتر تشطيرها، وإن كنت عن مجاراتها قاصر فبادرت في الحال وكتبت على الارتجال:

أعلــيّ فــي حــب الــديار ســلام	**إذ هاج بــي وجــد لهــا وغــرام**
أو شِمت من نحو الربوع بوارقــاً	**أم هــل تــذكرها علــي حــرام**
لم أنس طيب معاهد مــن حــسنها	**فارقتهــا ولهــا علــي ذمــام**
دار الأحبـــة والهـــوى وشـــبيبة	**كانت وبــي نحــو الهيــام هيــام**
ومراتــع فيهــا الظبــاء أوانــس	**ذهبــت وجيــران علــي كــرام**
كــانوا حيــاتي وابتليــت بفقــدهم	**فكأنهــــا وكــــأنهم أحــــلام**
لا خير في طلبــي حيــاةً بعــدهم	**فعلـــى الحيـــاة تحيـــة وســـلام**

[النباطية]

وقضينا بقية اليوم في أنس وصفاء، على بسط المودة ونمارق الوفاء، فلما أراد الفجر أن يبرز من الحجاب، نادى المكاري: تهيؤوا للسرى يا

صحاب، فشددنا نجب السير والانتقال، وسرنا فوصلنا النباطية وقت الزوال، وقطعنا في الطريق عقبة المسالك، متوعرة الأرجاء شديدة المهالك؛ ثلاث ساعات في هبوط ومثلها في وصعود، تقصم الظهر وتفتت الكبود، بين المهبط والمصعد نهر يسمى الخردلة، ونزلنا على شاطئه فيا نعم تلك المنزلة، فتروحت النفس وحصل بها بعض الراحة ولكنها صورية، ومن أين يحصل للمسافر استراحة. ولما وصلنا نزلنا بها ببعض الحوانيت، وعزمنا أن يكون بها المقيل والمبيت، فحسَّن لنا بعض أولئك الرفاق، المبيت بالقرية من باب الإشفاق، ليكون أتم للأنس وأكمل وأنه اللائق بأمثالنا [١٠٩/أ] وأجمل.

إذا حشر الناس يوم المعاد ليجزي الإله جميع العباد

وقد فاز أهل التقى والرشاد كما خاب بالكفر أهل العناد

وساءت بي تلك الليلة بطولها، وأبدت الأفكار المتنوعة بطولها، [١٠٩/أ].

ثم إني في صبيحة يوم الأربعاء السعيد صرت أتأمل المدينة وبناءها المشيد وأسرّح الطرفَ في رياضها، وأنتشق عرف نسيم غياضها، فهي كما قال الأميني في نفحته، أسكنه الله بحبوح جنته:

[١١٠/أ] وأما صيدا فإنها بين البلاد أسد البيدا، وما أدري كيف يذمّها الناس، وأهلها يعوذونها من الوسواس الخناس؛ ولعمري إنها بلدوة لولا حرارة مائها وهوائها، وبرودة أوضاعها وأبنائها لكانت جنة المأوى في الدنيا والأخرى. اللهم إنا نسألك الإنصاف، ونعوذ بك من التعصب والاعتساف، وكيف يسام الإنسان بلدة إذا جلب إليها الماء يكتسب حرارة، وإذا استجلب إليها العذب السائغ ينقلب إلى عفوصة ومرارة، وهي كما قال أبو الحسن الباخرزي في مدح محاسن الري ولطف هوائها ومائها:

صادفت فيها كل شيء حائزاً أقصى حدود البرد غير الماء

وكيف لا يمدح الماء الحار، وهو الذي يجلب المسار، ويدفع المضار، وهو الذي ينفع في الحمام للاغتسال والاستحمام، ويحلل الأورام، وإن شئت فقل يجلب البرسام والسلام.

ثم إني توجهت إلى منتزه يقال له المقصف، حسنه في الغاية لا يوصف، يشابه الروضة والمقياس، لكنه على خلاف القياس؛ فانشرح الصدر بذلك المنتزه البهيج، وانتعش الفؤاد بعرف روضه الأفيح الأريج، وهو واد متسع رحب الأكناف، متناسق النعوت والأوصاف، تشجيك حمائمه، وتشفيك نسائمه، فصعدنا إلى قصره المشيد، نروي حديث المسرة بالمسامرة والنشيد؛ فلما طاب لي به المقام، أنشدت في وصف ذاك المقام: [من الوافر]

ومنتزهات صيدا قد تسامت — حوت للحسن من كل الجهات

ومقصفها الأنيق له افتخار — على تلك الرياض الزاهيات

نبي الله شمعون

ثم سرت إلى زيارة نبي الله شمعون، مع طائفة زوار إلى رحابه يسعون، فوصلنا إلى رحابه، ووقفنا تجاه بابه، وقرأت ما تيسر من القرآن مع أم الكتاب وجعلته هدية لذلك الجناب، فورد علي وارد الإلهام، بأعظم بشارة تؤذن بنجاح قصدي وقبول تلك الزيارة؛ فطفق ينشد اللسان مع الفرح، مادحاً ذاك الجناب حسبما به الفكر سمح:

دوح به لذوي الشجون شجون — يزهو حلاه ويطرب المحزون

[١١٠/ب] يشفي العليل جرى بطيب نسيمه — ويهيج من وجد به المفتون

برق المنى قد أشرقت أنواره — من أفقه إذ حلَّه شمعون

وأظنه صنو الكريم المرتضى — إذ قبر غير المصطفى مظنون

مولى نبي قد سما بمكارم — حاوي المحامد سيد مأمون

وافاه أسعد يرتجي الموانح — حيث الرجا بوفوده مضمون

حيا الحيا سوحاً سما نحو العلا — وسقاه من سحب الرضاء هتون

الإمام الأوزاعي

ثم ذهبت لرياض السبع عيون، لشرح الصدر وتنزيه العيون، فرحت الطرف في مرابع سوحها، واقتطفت ثمار الأنس من حدائق

دوحها؛ فبينما أنا أقرأ مطالع الأنس ونزهة الأبصار، إذ ورد من بيروت عزيزنا السيد أحمد جندرس القصار فانبسطنا بطيب وروده، وسررنا بحسن وفوده إذ له معنا علاقة مصاهرة ونسب، وارتباط محبة ومودة ونشب، وما زلنا في أنس إلى أن لبست الشمس ثوب الاصفرار، رجعنا والسيد أحمد المذكور إلى الديار، وبتنا وإياه بليلة بديعة الأوصاف، غدت ثمار حدائق أنسها دانية القطاف، وقد عزم علينا السيد المنعوت، بالتوجه معه إلى مدينة بيروت لنزور جناب الهمام الأوزاعي، ويسرّ هو والأحباب بوفوده واجتماعي فتعللت عليه بخوف سفر الغليون، وأن تميد بنا الوقت فيدخل شهر كانون، فأبرم وألح غاية الإبرام، وشوقني للتوجه باطلاعي على ترجمة هذا الإمام.

قال في مجمع الأحباب ما ملخصه في ترجمة هذا الجناب:

هو الإمام الزاهد العلامة عبد الرحمن.

وقال الشيخ محيي الدين النواوي قدس الله روحه:

[عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد].كنيته أبو عمرو الشامي الدمشقي: كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة، وكان يسكن دمشق خارج باب الفراديس، ثم تحول إلى بيروت، فسكنها إلى أن مات مرابطاً بها، وهو من تابعي التابعين. روى عن عطاء بن [أبي] رباح وقتادة، ونافع مولى ابن عمر، والزهري، ومحمد بن المنكدر [وغيرهم]، وروى عنه جماعة [من التابعين وشيوخه كقتادة والزهري ويحيى بن أبي كثير وجماعات من أقرانهم وكبار العلماء] كسفيان، ومالك، وشعبة وابن المبارك، وخلائق لا يحصون [قلت:] وقد أجمع العلماء على جلالته وإمامته وعلو مرتبته وفضيلته، وأقوال [١١١/أ] السلف كثيرة مصرحة بورعه وعبادته وقيامه بالحق وكثرة أحاديثه، وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسنة، وبراعته في الفصاحة وإجلال أعيان علماء عصره من الأقطار له واعترافهم بمنزلته ومرتبته.

قال غير واحد: أجاب الأوزاعي عن سبعين ألف مسألة [أو نحوها] .

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي، ومالك، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد.

ولما بلغ سفيان الثوري مقدم الأوزاعي لمكة خرج حتى لقيه بذي طوى فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته. وكان إذا مرّ بجماعة قال: الطريق للشيخ.

وعن الشيرازي: استُفْتي الأوزاعي وله ثلاث عشرة سنة، وكان مولده بعلبك ومات في حمام بيروت، دخل الحمام، فذهب الحمامي في حاجته وأغلق الباب عليه، ثم جاء ففتح الباب، فوجده ميتاً متوسداً يمينه، مستقبل القبلة رضي الله عنه وأرضاه(١).

وقال موسى بن أعين: قال الأوزاعي: يا أبا سعيد، كما نمزح ونضحك فلما صرنا يقتدى بنا ما أرى يسعنا إلا التبسُم.

وقال أبو الفرج، قال الأوزاعي: ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يوماً يوماً وساعة ساعة، فالساعة التي لا يذكر الله فيها إذا مرت به تقطعت نفسه عليها حسرات فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ويوم مع يوم.

وقال: رأيت رب العزة جل جلاله في المنام، فقال: يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قلت: بفضلك يا رب، ثم قلت: يا رب أمتني على الإسلام، فقال جل جلاله: وعلى السنة. انتهى.

وقال الإمام المُناوي في طبقاته: هو الإمام المشهور عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي كان جليل القدر حاوي السماحة، رحب الصدر، رفيع المنزلة والهمة، بهي المنظر، عظيم اللمة، ذا براعة ولسن، وأخلاق خبرها صحيح وحديثها حسن، نعم، وكان أوحد زمانه، وإمام عصره وأوانه، لا يخاف في الله لومة لائم، قوال بالحق لا يخشى سطوة ظالم، وكان أهل الشام والمغرب على مذهبه، قبل تحوُّلهم إلى مذهب الإمام مالك. ولد سنة ثمان وثمانين، ونشأ في الفقه والتعبد [١١١/ب] والتزهد حتى كان لا يدخل الخلاء إلا في كل شهر

---

(١) إلى هنا تنتهي ترجمته عن النووي بتصرف.

مرة، فرقّت بطنه، فصار يدخل في كل شهر مرتين، فصارت أمه تقول لصحبه: ادعو لعبد الرحمن فإنه مبطون.

دخل عليه المنصور فقال: عظني، فوعظه، فبكى، قال: ادع لي، قال: ما دعاء رجل لك، مع دعاء بقية الرعية عليك.

وقال: من عمل سوءاً فبنفسه بدأ.

وقال: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق، المتشوقين للرئاسة فلا يمقتهم، هم أحق بالمقت من الشرطي.

وقال: مَن أكثر [من] ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أن منطقه عمله قل كلامه.

مات سنة سبع وخمسين ومئة بحمام بيروت رضي الله عنه . انتهى.

فهاجني ترجمة هذا الجناب، لزيارته الوقوف بالأعتاب؛ لكن الوقت ضاق عن التوجه والرجوع، ولواء العذر منشور ومرفوع، فأهديت له ما تيسر من القرآن العظيم، وأنشدته قصيدة تنبئ بالعذر تُقرأ بمقامه الكريم، عسى يقبل عذري في التخلف عن ورود مقامه، ويتحفني بمنحة من فيضه وإنعامه:

[من الكامل]

شـــوقٌ ألـــمّ بمهجـــة الملتـــاع	**يبدي الحنين لحـضرة الأوزاعـــي**
مولى له في العلـم أرفـع رتبــة	**منشـــورة الأعـــلام بالإجمـــاع**
قطب الحقيقة والطريقة والـشريـ	**ـعة قد سما فيهـا بغيـر نـزاع**
إن كان لم يحـظ برتبـة صـحبة	**فلقـد غـدا مـن قـادة الأتبـاع**
وردت له سبعون ألف من المـسا	**ئـل أشـكلت بتخـالف الأنـواع**
فأجاب عنهـا موضـحاً منهاجهـا	**قد أُفرغـت فـي قالـب الإبـداع**
واختـار بيروتـاً لفـضل رباطهـا	**حتـى دعتـه للحمـام نـواعي**
فثـوى ببقيعهـا الـسنية مـشهداً	**أعظـم لهـا بمـشاهد وبقـاع**
وكم رمت أسـعى نحـوه لزيـارة	**فيعـودقني حظـي بحـسن دفـاع**
فبعثـت أهديـه القـريض تحيـة	**تحلـو لـدى الأفـواه والأسـماع**

شطَّ المـزارُ وللزيـارة باعـث   شـوق ألـم بمهجـة الملتـاع

وظهر للسيد أحمد العذر وحصحص، وطاب لي منه بذلك حسن المخلص، [١١٢/أ] وفي يوم الأحد ذي التهاني، العاشر من ربيع الثاني، توجهت بصحبة جناب مفتي المدينة، إلى نحو الجزيرة والقلعة الحصينة؛ واجتمعنا بجناب صاحب العز والإجلال، ساحب أنيال السعد والإقبال، الجامع بين مرتبتي العلم والوزارة، ومن هو على التحقيق أحقٌّ بالصدارة، حضرة الدستور المكرم، الوزير الحاج سليمان باشا بن العظم، أطلع الله بما مجده شمس بشائر الخلاص، وبلغه ما يروم لما فيه من النفع العام والخاص؛ فقد كان مقيماً بتلك القلعة المشيدة الأركان، بأمر من حضرة مولانا السلطان، لسعاية حاسد اقتضت ذلك، وهو في الحقيقة بريء مما هنالك؛ وليس هذا نقصاً في مقداره، وإنما هو دليل على عزه وفخاره، ومما يناسب هذا المقام، ويسطر في الطرس ببنان الأقلام ما أنشده الوزير ابن زيدون، حين هو بقصر بني جهور مسجون: [من الطويل]

ألم يأْنِ أن يبكي الغمامُ على مثلـي   ويطلب ثاري البرق منصلت النصل

وهلا أقامت أنجـم الزهـر مأتمـاً   لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي

أمفتونـة الأجفـان مالـك والهـاً   ألم تُرِكَ الأيام نجماً هـوى قبلـي

ولله فينـا علـم غيـب وحـسبنا   به عند جور الدهر من حاكم عـدل

وأنشد أبياتاً من قصيدة، في الرضا بالقدر مفيدة: [من البسيط]

ما جال لحظك بعدي في سنا القمر   إلا ذكرتـك ذكـر العـين للأثـر

ولا استطلت دماء الليل من أسـف   إلا على ليلة سـرّتْ مـع القِـصَرِ

يا للرزايا لقـد شـاهدت منهلهـا   غمراً فما أشرب المكروه بـالغمر

لا يهنأ الشامت المرتـاح خـاطره   فإن معنى الأماني ضـائع الخطـر

إن طال في القصر إبداعي فلا عجب   قد يودع الجفن حدّ الصارم الـذكر

وإن يثبط أبا الحزم الرضـى قـدر   من كشف ضرّي فلا عتب على القـدر

وكان مجلسه السامي الجليل، ومقامه العالي الجميل، بزاوية بالجزيرة على شاطئ البحر مع حسن الانتظام، ونفاذ النهي والأمر، وهو - حفظ الله

مقامه ورفع بالنصر والسعادة أعلامه - ممن جمع بين مرتبتَيْ [١١٢/ب] الوزارة والعلم، ومزج جريال الشجاعة والصولة بسلسال الحلم[١]، أشعري العقيدة شافعي المذهب، له في كل فن من المعارف مسلك ومذهب، ذو قريحة ذكية بالفطنة تتقد، وفكرة سليمة، جواهر المعارف تنتقد، ومحاضرات كوميض البرق لائحة، ومحاورات بحسن الآداب طافحة، يرتاح القلب الشجي بلقياه، ويسر الناظر المقرح برؤياه، يحسد الأسماع على رؤياه ذو النواظر، ويغبط الفكر إذا ما مرّ يوماً بالخواطر، وهيهات أن يفي لسان البراعة بمدحه، أو يشير بنان اليراعة بنعمته وحقيقة شرحه، فقد ظهرت محاسن أوصافه، ظهور الشمس، وتنعمت وتلذذ بها الحواس الخمس، لا زالت أوقات مواسم الأعياد، ومجلسه مطلع بدور السعادة والإسعاد، وقد جرى في مجلسه العالي بحضرته الشريفة أبحاث دقيقة في العلم لطيفة:

فمن جملتها سأل: ما المراد بقوله r بالولد الصالح في حديث: إذا مات ابن آدم انقطع عمله.. الحديث.

فأجاب حضرة المفتي بأن العلماء نقلوا المراد به المسلم لأنه لا صلاح أعظم منه.

وسأل - حفظه الله تعالى - لأي شيء نص r على دوام آثار هذه الأعمال الصالحة دق مقابلها مع أنه كذلك لا ينقطع؟

فأجبت بأن في الحديث إضمار . والتقدير: انقطع اتصال عمله إلا من ثلاث: وإنما استم اتصاله بهذه دون غيرها لبقاء آثارها - أعني معمولاتها - وذلك ظاهر في العلم والصدقة الجارية، وكذا الولد الصالح إذ هو السبب في وجوده، ومن البين أن ليس شيء من الأعمال سواها بهذه المثابة، ولا يقدرالمضمر الثواب ليلاً ينتقص ببعض الأعمال المستتم ثوابها كالرباط وتكبير مبصر الجنازة ثلاثاً. وقوله هذا ما وعد الله ورسوله... إلخ وغيرهما مما هو مذكور في محله فارتضى بهذا الجواب.

---

(١) الجريال والجريالة اخمر الشديدة والسلسال: الماء العذب (اللسان).

وسأل - حفظه الله - عن قوله تعالى: {**(فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)** [النحل: ٦١/١٦] مع أنه لا يتصور التقدم مع حضور الأجل.

فأجاب حضرة المفتي: إنه على معنى المقاربة وعليه أكثر المفسرين .

فقلت: يحضرني أن [١١٣/أ] الشمس الرملي أجاب بأن قوله تعالى ولا يستقدمون عطف على جملة الشرط مع الظرف لا على الجزاء والمعنى وهم لا يستقدمون على وقت آجالهم فاستحسن الجواب.

ولنورد العبارتين: قال الشمس الرملي: وقوله عز وجل ولا يستقدمون عطف على الجملة الشرطية مع الظرف لا الجزئية، والمعنى: فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة، فما الظن بما زاد، ولو كان عطفاً على الجملة الجزائية لورد أن الاستقدام لا يتصور لفواته.

وفي تفسير الآخرين ما نصه: قوله تعالى ولا يستقدمون قيل ما معنى هذا مع استحالة التقدم على الأجل وقت حضوره؟ وكيف يحسن قوله ولا يستقدمون بعد فناء الأجل؟. قيل : هذا على المقاربة لأن العرب تقول جاء الشتاء إذا قارب وقته وجاء الصيف كذلك، ومع مقاربة الأجل يتصور الاستقدام وإن كان لا يتصور مع الانقضاء، والمعنىك لا يستأخرون عن آجالهم إذا انقضت ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء. انتهى.

قال الخطيب في تفسيره في سورة يونس:

قوله تعالى:**(فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ)** أي: انقضت مدة أعمارهم **(فَلا يَسْتَأْخِرُونَ)** أي لا يستأخرون عنه ساعة. ثم عطف على الجملة الشرطية ولا يستقدمون، أي: ولا يتقدمون، فلا تستعجلوا فإن الوفاء بالوعد لا بد منه، والسين فيهما بمعنى الوجدان، أي: لا يوجد لهم المعنى الذي صيغ منه الفعل، ويجوز كون المعنى لا يوجدون التأحر ولا التقدم، وإن اجتهدوا في الطلب فتكون السين في معنى الطلب، وتدل الآية على أن أحداً لا يموت إلا بانقضاء أجله، وكذا المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه. انتهى.

ولم نزل مع المولى الصدر في أبحاث دقيقة ولطائف تشرح الصدر، فإن رحابه الشريف محط الفوائد، وجنابه المنيف محل للصلة والعوائد، ولا بدع إذا أنشدت لما سمعت وشاهدت: [من الكامل]

وافيت مجلسه المنيف لكي أرى ... ما حدثت عن وصفه الركبانُ

فرأيت حلماً ما لأحنف مثله ... وشهدت بأساً هاجه الشجعان

[١١٣/ب] قد خُصّ من فصل الخطاب بحكمة ... لم يؤتها قسٌّ ولا سَحبانُ

فله السعادة والسيادةُ والثناء ... والمجد والإسعاد والإيمانُ

ما قام في شرع المدائح مُدَّعٍ ... وقضى بصدق مقاله برهانُ

فلما صلينا الصلاة الوسطى، وقد منحنا من وافر الأنس قسطا، رفعنا أكف الدعاء لجنابه، بتفريج كربه، وجبر مصابه، واستأذناه في السير من هذا المقام، فودعناه وانصرفنا بسلام: [من الطويل]

لعل الذي نجَّى من الجبِّ يوسفا ... وخلصه من سجنه واغترابه

وخصَّ سليمانَ النبي بمنحةٍ ... وردّ عليه الملكَ بعد ذهابه

يُنجِّي سليمان الزمان من الردى ... ويمنحه البشرى برفع حجابه

وفي ضحوة يوم الخميس، خامس عشر ربيع الثاني الأنيس، حضر قبجي باشي من دار الخلافة الكبرى على نجب الهنا، برسائل البشرى، لجناب حضرة الوزير المشار إليه، بالعفو عن جنابه، والرضا عليه، وأن يكشف عنه حجب الترسيم، ويرفع فوق منصات الإجلال والتكريم، وتوليته محافظ طرابلس الشام كحكمه بها في سالف الأيام، وكان لعمري هذا اليوم ثالث العيدين، وموسم المسرات والأنس بلا مين؛ وحمدنا الله المولى المفضال على تحقيق الرجاء، وبلوغ الآمال، وأنشدت أبياتاً تهنئة بالبشرى تهدى لجنابه بالمدح من طي عرفها نشراً: [من الطويل]

بشير الرضى وافى على نُجُب البشرى ... لصدر المعالي بالهنا شارحاً صدرا

كبشرى سليمان النبي بملكه ... ويعقوب إذ وافى المبشِّر من مصرا

هي الغاية القُصوى التي كنت آملاً ... بها أحتظي لكنها النعمة الكبرى

حلا وصفا دهري بطيب ورودها ... وقد كان حرّاً بالتكدر إذ مرا

سررت بها والبشر يروي حـديثها   فأعْظِم ببشرى قد سمعنا بها بـشرا

لقد صدقت فيها القـضايا بمنطـق   يصور أن النجح يستعقب الـصيرا

وقد أنتجت برهان سـعد بـشكلها   وما تلك صغرى للنتيجة بل كبـرى

وفاحت كعرف الطيب نـشر طيهـا   فأبدت نظـام لـيس تتبعهـا نثـرا

[١١٤/أ] وحلّت لجيد الدهر من كنـز حـسنها   عقود نظـامٍ لـيس تتبعهـا نثـرا

رُفعتُ بذا قدراً وقد صـرت راقيـاً   معارج يتلى عندها سورة الإسـرا

فدم في مراقي السعد ممتطيَ السُّها   بعزٍّ به تعلو الـسماكين والنـسرا

وهاك تهاني العز تشرق شمـسها   فلا تخلُ من أضواء إشراقها قطرا

فأهدت علاك اليُمن والسعد والهنـا   مع المجد فاستعبد بعزتـك الـدهرا

واسعد بهـديك للتهـاني مبـشراً   فتأريخـه فيـه بـشائر بالبـشرى

زيارة صيدا

ثم زرنا بصيدا من المقامات المقصودة والمعدودة لاستمناح الإمدادات؛ كمقام سيدنا يحيى، وسيدنا داود، وأولاد يعقوب، وأبي الروح، ذي المنهل المورود. وقد أسلفنا بحثنا في تعدد المشاهد والمآثر المنسوبة لبعض الأنبياء وخواص الأكابر، وإن لوائح الأنوار السنية، دليل على ثبوت هذه الآثار الأقدسية، وأنه يحصل للزائر الفيض والإمداد، بحسب القبول والاستعداد، فينبغي أن يقف بالأعتاب، متخلقاً بمحاسن لطائف الآداب [من الطويل]

ورُوينا أحاديث الضيا عن مـشارق   بـأرفع إسـناد لتلـك المعاهـدَ

بأن الـذي ينجـو المـآثر زائـراً   يفـوز بإسـعاد ونجـح المقاصـد

فقف في حماها خاضـعاً متـرجلاً   وقبّل ثراهـا بـالجفون الـسواجد

وبمناسبة ذكر هذه المآثر والمشاهد، والآداب المطلوبة لهامن المار والقاصد. تذكرت أبياتاً ونبذة أدبية، أوردها الشهاب الأميني في نفحته الزكية حيث قال: قال عبد الباقي السمان من قصيدة : [من الطويل]

وقفنا على الأطلال والليـلُ شـائب وأعناقُنـا فـوق المطايـا موائـلُ

ولما رآها الصبُّ والوضـع حـائر أناخ وحيـا تُرْبهـا وهـو راحـل

أخذه من قول المتنبي : [من الطويل]

ولما رأينا رسم من لم يَـدَعْ لنـا فـؤاداً لعرفـان الرسـوم ولا لُبّـا

نزلنا على الأكوار نمـشي كرامـةً لمن بان عنها أن نلـم بـه ركبـا

قال ابن بسام: أول من بكى الربع ووقف واستوقف الملك الضليل[1] حيث يقول[2]: [١١٤/ب]

قفا نبكِ من ذكرى حبيـب ومنـزل

ثم جاء أبو الطيب[3] فنزل وترجل ومشى في آثار الديار حيث يقول[4]:

---

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي. أشهر شعراء العرب على الإطلاق. وكان أبوه ملك أسد وغطفان. لقنه خاله المهلهل الشعر فقال وهو غلام، قضى في اللهو حتى قتل بنو أسد أباه فقام يطالب بثأر أبيه فتوفي قبل أن يصل إلى ما يريد سنة ٦٤٥ م (الأغاني - دار الكتب ٧٧/٩، وتهذيب ابن عساكر ١٠٤/٣ والأعلام للزركلي - طبعة ٢/ ١/ ٢٥١ - ٢٥٤).

(٢) هذا أول بيت من معلقته المشهورة وعجزه:

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

انظر شرح المعلقات العشر المذهبات للخطيب التبريزي ٢٥.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. ولد بالكوفة سنة (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م) وتوفي مقتولاً سنة (٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م) (مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٤٨/٣، ووفيات الأعيان ١٢٠/١، والأعلام ١١٠/١).

(٤) بقية البيت:=

نزلنـــا علـــى الأكـــوار ....البيـــت

ثم جاء أبو العلاء المعري(١) فلم يقنع بهذه الكرامة حتى خشع وسجد حيث قال(٢): [من الطويل]:

تحية كِسْرى فـــي الملـــوك وتُبَّـــعِ لربعـــك لا أَرْضَـــى تحيـــةَ أربـــع

انتهى.

وقد خطر في الفكر فقرات حسان، ذكرها الشهاب الخفاجي في ريحانته مشيراً إلى حال أهل هذا الزمان، قد كان شراب الأصول يداوي العليل، والآن ليس في غير الدينار شفاء العليل، ألم تسمع أن الدراهم لجروح العدم مراهن، وقد استردت الأيام، ورائع الكرم والكرام. انتهى.

فنحوت نحو هذه الطريقة، وأين الجوهرة من العقيقة. فقلت:

لقد كان شراب الأصول، فيما مضى من الأزمنة والفصول؛ تنتدب العقلاء الظرفاء إليه، وتقوّل الحكماء اللطفاء عليه، حين اعتدال الطبائع والأمزجة، حيث الأبدان بطيب الفصل ممتزجة، والآن فقد تغيرت الطباع، وخلت من الرؤساء

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نُلمَّ به ركبـــا

انظر ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ١/١٨٢ ، وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة مطلعها:

فديناك من ربع وإن زدتنـــا كربـــاً فإنك كنت الـــشرق للـــشمس والغربـــا

(١) أبو العلاء المعري هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري: شاعر فيلسوف ولد سنة ٣٦٣ هـــ/ ٩٧٣ م في معرة النعمان بسورية، وفيها توفي سنة ٤٤٩ هـــ/ ١٠٥٧ م. أصيب بالجدري صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـــ، فأقام بها سنة وسبعة أشهر. وكان يلعب بالشطرنج والنرد، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه، وكان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وكان يلبس خشن الثياب (معجم الأدباء ١/١٨١ وإنباه الرواة ١/٤٦، وتتمة اليتيمة ٩، والأعلام - ط ٢ - ١/١٥٠).

(٢) البيت في سقط الزند ١٦٣ مطلع قصيدة يخاطب بها أبا أحمد عبد السلام بن حسن البصري صاحب الدولة ، وكان يكثر عنده أيام إقامته ببغداد. وروايته ثمَّ: (تحية كسرى في السناء..).

البلغاء البقاع، ففسدت قضايا التدبيرات، واختلطت في أنين المركبات، وخفق من الهموم قلب الزمان، وأغمي عليه بكثرة الدوران، فكان فيه إنذارٌ بالأمراض، وذهاب بالجواهر والأعراض، وقد نظمت بعض ذلك، محذراً مما هنالك:

رغب الناس في شــراب الأصــول   **سالف الــدهر لاعتــدال الفــصول**

فاســتقامت طبــاعهم واســتداموا   **فــي ســرور بــذلك المحــصول**

قد سُقوا أكــؤس التهــاني سُــلافاً   **واحتظوا منــه بــالمنى والــسُّول**

واعترى أهــل ذا الزمــان فــسادٌ   **فــي طبــاعٍ وديــنهم والعقــولِ**

فتــراهم وهــم ســكارى حيــارى   **فــي اعــتلال بربقــة المعــضول**

رُفِــعَ النــذلُ فــوقَ كــل كــريم   **باعتلالٍ لخفــضِ أهــلِ الأصــولِ**

ديــنهم درهــمٌ عليــه تواصــوا   **والنــسا قِبْلَــةٌ بغيــر عــدول**

وجهة الشخص منهمُ جمــعُ مــالٍ   **باحتيــالٍ وإن يكــن مــن غلــول**

[١١٥/أ] باذل الفضل بالفــضول اعتباطــاً   **واغتباطــاً عدمتــه مــن فــضولِ**

بائع الــدين عــن غــرور بــدنيا   **رابــح الخــسر فاقــد المعقــول**

فخذِ النــصح واعتــزلهم وحــاذر   **أن تبيــع المعلــوم بــالمجهول**

وفي يوم الأحد هاج بي الشجون، للتوجه ثانياً لزيارة نبيِّ الله شمعون؛ فتوجهت مع إخوان لطفاء وأصحاب ندمان ظرفاء نؤم دوح روضته الغنّا، ونستطلع الأنس من سوحه الأسنى، فوصلنا إلى رحابه الأفيح الرحب، ونزلنا بواديه الفسيح الخصب، وتجارينا في ميدان الأبحاث والنوادر، على كرائم الأفكار وعتاق الخواطر، فأفضى بنا السبق في هذا المضمار، إلى حديث شمعون صاحب المزار؛ هل هو شمعون بن يعقوب بيقين؟ أو هو رسول عيسى المعزز به في سورة يس؟ فلم نر نصاً نرجع إليه، ولا خبراً وارداً نعتمد عليه؛ فقلت أيهما كان هو يحصل الإمداد، ويمنح قاصد الزيارة تحايف الإسعاد، ولنورد هنا نبذة مختصرة العبارة، توضح قصة كل منهما بألطف إشارة:

فأما شمعون بن يعقوب عليه السلام، فقد ورد في سورة يوسف بطريق الإشارة والإفهام.

قال المفسرون في قول يوسف: **﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾** [يوسف: ٥٩/١٢] أعني بنيامين ذهبوا وارتهن شمعون عنده، وفي قوله تعالى: **﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾** [يوسف: ٨٠/١٢] قالوا: هو شمعون لأنه كان له الرئاسة على إخواته. وقيل: هو روبيل لأنه كان أكبرهم في السن، وقيل في الفضل والعلم. انتهى.

وأما شمعون رسول عيسى عليهما السلام فقد قال الخطيب في تفسيره ما ملخصه بلا إيهام في قوله تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾** [يس: ١٣/٣٦] إلى آخر القصة:

المراد بالقرية أنطاكية والمرسلون رسل عيسى، ونسبة الإرسال إلى الله تعالى، لأن رسول الرسول رسول المرسل كما أن وكيل الموكل المطلق وكيل الموكل لا وكيل الوكيل فلا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وهما يحيى ويونس من حواريه لا يحيى بن زكريا، ولا يونس بن متى.

وقال كعب: صادق وصدوق أرسلهما إلى أهل أنطاكية وكانوا عبدة أصنام فلما قربا من [١١٥/ب] المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً فسلّما عيه. فقال: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام، يدعوكم من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم؛ نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص، بإذن الله تعالى. فقال: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين، قالا: فانطلق بنا إليه ننظر حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحاه، فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً فآمن حبيب، وفشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، فانتهى الخبر إلى الملك، فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام. قال: وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال: ولنا إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وأوجد آلهتك؟ فقال: قوما حتى أنظر من أمركما، فأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مئة جلدة. فلما كُذّبا وضُربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفا في أثرهما لينصرهما، فدخل البلد متنكراً، وما زال حتى اتصل بالملك فعاشره وأنس به فقال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حتى دَعَوا إلى غير دينك، فهل كلمتهما، وسمعت قولهما، فقال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك

دعاهما حتى نطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: اللهُ الذي خلق كل شيء، وليس له شريك. فقال لهما شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك. فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: أرأيتَ إن سألت إلهك أن يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولإلهك. فقال الملك: ليس لي عنك سر، إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ثم قال لهما الملك: إن هنا ميتاً مات، منذ سبعة [١١٦/أ] فهل يقدر إلهكما على إحيائه، فإن أحياه آمنا به وبكما. قال: إلهنا قادر على كل شيء فجاؤوا به وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربَّهما علانية وجعل شمعون يدعو ربَّه سرّاً فقام الميت. فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون فصاح جبريل على من لم يؤمن فهلكوا. انتهى.

ولما حان الانصراف من هذا المقام، وطاب مجلسنا بمسك الختام، أنشدت أبياتاً بين التصريح والتلويح في عدم تحقق صاحب هذا الضريح وإنَّ موانح المدد والإسعاف حاصلة لمن وافى الكعبة مشهده وطاف: [من الخفيف]

مشهد مشرق الضيا بضريح	**يزدهي حسنه بوادٍ فسيح**
نشهد الأنس من حماه ولكنه	**ليس يدري من قد ثوى بالضريح**
فاختلفنا في كونه ابن نبي الـ	**ـله يعقوبٍ أم رسول المسيحِ**
حيث لم يأت بالبينات نصوص	**واردات بمسند التوضيح**
فعلى كل الوافدين[1] إليه	**يمنحون المنى بلا ترجيح**

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من الشهر المذكور الموضح بالتعيين حضر لصيدا غليون البيليك المعرف بالريالة، المشحون بالرجال، والمحصن بالعدة والآلة، فتحركت مني للوطن لواعج الأشواق، وصار لي بالسفر شدة اعتلاق، فعزمت على التوجّه فيه، وتوكّلت على الله وليّ العبد

---

(١) في م : (الوافدون) والمثبت للسياق.

وكافيه، وسعيتُ في تحصيل ما هو للمسافر مطلوب ووافيت ساحل البحر قبل الغروب، فرأيت الغليون، قد نشر مطوى الشراع، ولجّ في سيره مع شدة الإسراع، فحصل لي غم أعدمني أنسي، ولمت على عدم المبادرة نفسي، وتحيّرت في أمري كيف أصنع، والليل أقبل والغليون قد أقلع، فأشار علي بعض أولي الكياسة، بالمبادرة إلى لحاقه ولو في قياسه؛ ووجدي مع ذلك بالتوله نامي، بسبب مفارقة المربع الشامي، أنشد ما بقلبي من الوجيب، قول الكمال الشريشي[1] الأديب:[من البسيط]

يا جيرة الشّامِ هل من نحوكم خَبَــر ... فإن قلبي بنـــار الــشوق يــستعرُ

بعـــدت عـــنكم فـــلا والله بعـــدكم ... ما لـــذَّ للعـــين لا نـــومٌ ولا ســـهر

[١١٦/ب] إذا تذكرت أوقاتــاً نــأت ومـضت ... بقربكم كـــادتِ الأحــشاء تنفطـــرُ

والوُرق تشدو والأغصانُ راقــصة ... والدَّوحُ يطرب بالتصفيق والقــصر

سقاكَ بالسفح مسفوح الدموع ضـحى ... وقــلَّ ذاك لـــه إن أعــوز المطـــر

فلما آن فراق أرضه المقدسة، ومواطنه التي على الأنس والخيرات وؤسسة؛ وقوضت عنها الخيام بالنوى، واشتعل القلب بنيران الجوى أهديت الفاتحة لحماة تلك الربوع، وودعت أهلها بتحايا الدموع، وأرسلتهم بتحائف السلام، وطبعت عليها بمسك الختام [من الكامل]

حلَّت عقود الــصبر منـــي عنـــدما ... رفعت من الــشام الــشميم خيـــامُ

وبموقف التوديع إذ حكـــم النـــوى ... كـــم هـــاجني وجـــد بهـــا وهيـــامُ

أهدي لمـــن فيهـــا لطيـــف تحيـــة ... أبـــداً لهـــا مـــسكُ الختـــام ختـــام

فنزلت في سفين صغير، مستعيناً بالمولى المعين النصير، وعندما سرنا من مرساها تلونا: **(بسم الله مجراها)** [هود/٤١] ثم لما تحققت قضايا

---

(١) لفظاً (الشريشي الأديب) مستدركان في هامش الأصل م. وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى أبو العباس الشَّريشي، من العلماء بالأدب والأخبار نسبته إلى شريش بالأندلس، ومولده فيها سنة ٥٥٧ هـ/ ١١٨١ م، وفاته فيها سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٣م، له كتب كثيرة أشهرها شرح المقامات الحريرية (نفح الطيب ٣٨٢/١، وبغية الوعاة ٣٣١/١، والإعلام ١٥٨/١، ومعجم المؤلفين ١//٣٠٤).

الانفصال، وسلبت موجبات الاتصال؛ لم نشعر إلا وهي في وسط البحر العجاج، وقد عصفت الريح وتلاطمت الأمواج وتصالح الريح والبحر، واتفقا على المواصلة وعدم الهجر: [البسيط]

ومذ ركبتُ عبابَ البحـر مغتـرراً	**شاهدت منها دواعي الفتك بـالنظر**
تصالحَ الـريحُ والأمـواجُ واتفقـا	**على السفين بأنواعٍ مـن الخطـر**
الرفعُ والخفضُ فيما بيـنهم نُـوَب	**وكاد ينصبنا كـانوا علـى الخيـر**

فهاج من بها من شدة الفَرَق، لما لاحت بوارق التلف والغرق، وصاروا ما بين غائب عن الوجود وحاضر، ومستيقظ لكلمة الشهادة ذاكر، فلَعَمري لو شاهدتَ ما هالنا من تلك الأهوال، لقضيتَ بعدم النجاة لا محال:

لو كنت شاهدنا وقد لعـب الهـوى	**بـسفيننا وتلاطـم الأمـواج**
لجرتْ جفونُـك بالـدموع ترحّمـاً	**وقـضيت أنـي لـست بنـاجي**

فاعتراني لطفٌ من الحق المبين، وحصل لي سكون وثبات يقين؛ [١١٧/أ] وأنشدت مَنْ غدا مِنَ الخوف ذاهل، تسلية له بيتين من بحر الكامل:

يا راكـب البحـر العُبـاب يخافُـه	**سَلِّم ففي التـسليم حـسن سـعادة**
لا بـد إحـدى الحـسنيين تنالُهـا	**إما الـسلامةُ أو حـصولُ شـهادةِ**

وأطبق الليل علينا بظلامه، وصال البحر فيه بسيف اصطلاحه، وطالت الليلة لشدة هولها، وهالت الأنفس بطولها وطولها، وصار الموجُ يلطم وجهَ السفين، ويد الريح تقليه ذات الشمال وذات اليمين، والبحر يمنحنا من فيضه بمائه، والجو يتحفنا بقطر سمائه، إلى أن تُليت آي الصباح، ونسخت بها أحاديث المصباح، صلينا الفجر جلوساً، ولم نطق من المشقة أن نرفع رؤوساً، ثم سرحنا في أرجاء البحر النظر، وإذا بالغليون بمطالع القرب قد ظهر، فسرت النفوس، وزال التروح، واطمأنت القلوب وحصل الفرح، فأسرعنا نحوه حتى تمسكنا بأسبابه، وصعدنا ودخلنا من أحد أبوابه، فتلقاني ريِّسُهُ محمد قبَّدان المغربي، بأحسن ملتقى وهش وبشّ ورحّب بي؛ وأنزلني بمحل الترحيب والإكرام، وبسط بساط الكرم والإنعام.

وما زلنا نستقبل الليل بطالع سعيد، ونستفتح النهار بأنس جديد، إلى أن وصلنا إلى جزيرة قبرص المعروفة، واستقبلنا تجاه مينها الموصوفة، أعني مينة الملاحة، التي نفى عنها الحسن والملاحة، لما بلغني من المنكرات من بيع الخمر جهاراً وكثرة نساء الكفار المتبرجات، فأنفت النفس من الطلوع إليها، وأبت من الجزع الاطلاع عليها، وأنشدت ذاماً لعهودها، محذر المتقين من ورودها [١١٩/أ]: [من البسيط]

أنشد فدونك مطويّ الشراع دجا — وأجري السفين بمتن البحر في لجج

واحذر تمرّ على ملاحة قبحت — فقد حوت منكراً خال عن الحرج

فالخمر قد شهدت والمومسات بدت — ومنهج الحق فيها غير منتهجِ

ثم في يوم الأربعاء خامس جمادى الأول الميمون، أقلع الغليون لنحو دمياط، وقد قرت بذلك العيون.

ففي صباح يوم الاثنين عاشر الشهر المذكور، برقت بوارق البشرى ولاحت طلائع السرور وظهرت أعلام الديار المصرية وبدت رياض أدواحها الزهرية، فيالها نعمة أوجبت شكراً وسنت تواليه شفعاً ووتراً: [من البسيط]

حمداً سفينتنا للحي قد وصت — من بعدما طاب بالإسعاف مجراها

وقد غدت ألسن التقدير تالية — تقول بُشْراك باسم الله مرساها

وما حان من الشمس الارتفاع، حتى ألقيت المراسي وطوي الشراع، واستقبل الغليون بوجه البر، والزم من فيه الإتمام، وترك القصب، ووردت السفن الصغار تخفق بأجنحة شراعها، وتتسابق إليه في ميدان البحر بعدوها وإسراعها، والرياح تعطفها علينا بلطفها، والأمواج تدنيها إلينا بعطفها، فقرت بمنظرها الحسن منها العيون، وانشرح الصدر بوفودها، وزالت الغبون، وأرسلت في أول سفينة سابقة في الإياب بطاقة تنبئ بالوصول وتبشر الأحباب، جرت بها البراعة بمردود الأمن والارتياح وحملتها إلى الأحبة حمائم المسرة والأفراح، وهي [من البسيط]

سفينة البين ما زلـت تـسير بنـا   في لجة البعد لا ينفعـك مجراهـا

والآن عطفاً لجو القرب قد وصلت   يتلو المبـشّر باسـم الله مرسـاها

سفينة الألطاف لجودي القرب رست، وسفينة الإسعاف لها باسم الله تلت؛ وطوي بأكف السلامة مطوي الشراع، فنشر في طيه عرف الفرح سروراً وبشرى، وتشرح قضايا قرب موجبة متصلة، أنتجت براهين وصل عنه البعد منفصلة، وتخبر بأن حكم النوى [١١٩/ب] أن ينسخ وعقد الجوى قد حان أن يفسخ، ويروي غليل القلب من ظمأ البين، وتقر عين باعتياضه عن الأثر بالعين، فحمائم الهناء بألحان التهاني صادحة، ونسائم المنى بأفنان التداني فائحة، وبروق أشرقت الشمس سنا الربوع، وروت حديث الضياء بسندها المرفوع ومذ شاهد النائي من مرابعها الأعلام، حن شوقاً وزاد به الهيام، فأنشد في هذا المقام، حتى له العاذل لام [من الوافر]

ألا تنكـروا ولهـي ووجـدي   إذا مـا شـمت أعـلام المعاهـد

فقرب الـدار تبعـث ذا التـصابي   وتـدعو للتولّـه والتّواجـد

ولقد كدتُ أن أسير إليها مع الصبا؛ وأطير شوقاً إلى شرفات تلك الربا؛ لكن عاقني لحظي عائق الأثقال، وأقعدني المقيم المقعد من الأحوال، فمدوا خطا الشوق بميدان اللقا، وطيروا بجناح الشوق إلى أفق المنتقى فداعي الحب ينادي هلموا للتداني، ودعوا الكسل فما هذا وقت التواني: [من الوافر]

فمـروا نحونـا خطـرات شـوق   بميـدان الـسباق فـلا تـواني

وطيـر للقـا بجنـاح تـوقٍ   إلـى أفـق التلاقـي والتهـاني

فـداعي البِـشر للأحبـاب نـادى   هلمـوا يـا صـحابي للتـداني

أقر الله بمشهد الاجتماع منا النواظر، وسرَّ بتحقيق اسمه الجامع منا الخواطر وأنعشنا بشهود جنابكم السامي الشريف، وأنشقنا طيب رحابكم الغالي المنيف، ليطيب لي في ذرى حماه المقام، وتزدوج المقابلة مع المخلص وحسن الختام.

ثم نزلنا وبعض الأحباب في سفينة وقد اطمأنّ القلب ونزلت السكينة وروينا بملاقاة النيل حديث الشفاء حيث اتصل أخباره بإسناد الوفاء، وأطربني منه حسن المشهد الباهر، وقد أحاطت به كالسوار الرياض النواضر، وتذكرت قول الأديب الشاعر، لما وافت بوفاء النيل حسن البشائر، النيل قد امتدت أصابعه، وامتلأ حتى تكسر بالموج أضالعه، وحلى كما احتمل خلايا النحل، واحمر فكأنه قد سفك [١٢٠/أ] دم المحل كم قد هاج وماج، وأوتر في الأمواج، فسكنت لرؤيته النفوس، وطبقت الأرض فكأنها أنوار الشموس.

ومن إنشاء محيي الدين عبد الظاهر الذي حسن عنه في الإنشاء الظاهر، هذا النيل جر على الربا والوهاد ذيولاً، وجرّد في وجه المحل سيفاً مسلولاً، فحسن في سري مسراه، وجعل على اسم الله مجراه، يركض في مضمار فلا يلحق، ويجري في تياره فلا يسبق، فكان كما قيل مسرى عرس النيل لما يملأ عليه من بشائر تملأ الوجود، وسرور بنعم على الخلائق تعود، لا زال مخضوب البنان، معرساً بالربا والجنان. انتهى.

ولله در ابن رشيق، حيث شبهه بوادي العقيق: [من المجتث]

أحمـــــر للنيـــــل خــــدٌّ	**حتـــــى غـــــدا كالــــشقيقِ**
وقـــــد ترنمـــــت فيـــــه	**إذ صـــــار وادي العقيــــقِ**

وقد أنشد منه بعض أولي الطرب، لما رآه فاض واضطرب: [مجزوء الكامل]

انظـــر إلـــى النيـــل الـــذي	**ظهــرت بـــه آيـــات ربـــي**
فكأنـــــه فــــي فيـــضه	**دمعــي وفـــي الخفقـــان قلبـــي**

ومما ينبغي أن أزركش به طرسي قول الشاعر [ابن] جابر الأندلسي: [من الكامل]

ما زلت أنشد في محاسن مــصرنا	**خبراً صــحيحاً لــيس بــالمقطوع**
كم مرسـل مــد نيلهــا ومسلــسل	**ومــدبّج مــن هــضبها المرفــوع**

وما زلنا في سرور وانبساط، حتى وصلنا إلى ثغر دمياط، فمنذ وصولنا إلى المنزل ابتدأنا بصلاة التحية، وحمدنا الله تعالى على هذه النعمة السنية، واجتمعنا بحضرة الوالد والإخوة المكرمين الأنجاب، والأهل والأولاد والأحبة والأصحاب، وقد طوى أيدي اللقاء بساط البين، وانشرح الصدر بالاجتماع وقرت العين وشفيت النفس من أليم الجوى، وألقت عصاها واستقر بها النوى: [من الطويل]

وما زال دهــري بــالتفرق مولعــاً ... يُذيب فـؤادي بالتباعـد والجـوى

يجوب بنا في مهمه البــين فدفــداً ... مناهجه تـوحي التجلـد والقـوى

إلى أن وفت لي باللقــاء ركــائبي ... وألقت عصاها واستقر بها النـوى

مزدوجة بديعية لشقيقه محمد السعيد

[١٢٠/ب] ثم إني لما رويت لهم ما شاهدته من المعاهد، وما وقفت عليه من الآثار والمشاهد لا سيما دمشق الشام ذات المحاسن، وأنهار رياضها التي ماؤها غير آسن، لووا إليها من شوقهم عناناً، والأذن تعشق قبل العين أحياناً وكان أشدهم بها ولوعاً وهياماً، وأكثرهم لطي نشر شقتها اهتماماُ، جناب المولى الفاضل اللبيب، واللوذعي الفطن اللسن الأديب، شقيق الروح الأخ المُجيد المَجيد، حضرة مولانا السيد محمد السعيد، فمن شوقه وحنينه إلى ذاك المغنى أنشأ وأنشد في مزدوجة بديعة في المعنى، منسوجة على منوال اللطافة والرقة، مزركشة بأنامل الظرافة والدقة، فأحببت أن أودعها ضمن هذه الطروس لتجتليها نواظر أولي النهى اجتلاء العروس وهي[١]:

١ - الحمــد لله المعيــدُ المُبْــدي ... ثــم الــصلاة والــسلام أهــدي

المصطفى طه الأمــين جــدي ... والآل والــصحب وكــل عبــد

مقرب مستوجب الحمد

---

(١) المقاطع ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٦ في البرق المتألق في محاسن جلق - لابن الراعي طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ٨٤ - ٨٥.

٢ - هذا وصِنْوي المصطفى الممجّد الغـانمي الـسعد اللُّقَيْمـي أسـعد
وافى دمشق الشام وهو مفردُ كأنمـا حـلّ سـماها الفرقـدُ

رقا العلا بجده والجد

٣ - وافى لها كي يشهد المـشاهدا وأن يـزور بـالحمى المعاهـدا
وأن يرى من ذي النهى أماجدا ويحتظـي لمـا نـوى مقاصـدا

بشرى له بحسن ذاك القصيد

٤ - ولي روى أنموذجاً من مدحها وما تـلاه مـن متـون شـرحها
وما رأى من نزهـة بـسفحها ومن زهـور ثـم طيـب نفحهـا

من سوسن ونرجس وورد

٥ - حتى اخترعت هذه المزدوجـه ثغورهـا بالمـدح فيهـا المهجـه
تجلي الهموم فهي كالمنفرجـه أو أنهـا كواكـب مبتهجـه

فرائداً تلوح ضمن عقد

[١٢١/أ] سقى دمشق الـشام صـوب عهـد وحيّهـا تحيـةً مـن عنـدي
واشرح بـصدر لاعجـاتِ وجـدي ومـا أقاسـي مـن جفـا وبُعْـدِ

لواعجاً في القلب ذات وَقْد

٧ - فكم بها مـن نزهـة وفَرْجَـه وروضـةٍ بـالورد ذات بَهجـه
وللعـروس بالمقـام لهجـه تختـال كـالمران حـول المرجـه

بالزعفران خلقت والندِّ

٨ - والهفـي لرنـة الخلخـال ومرشـفي مـن رائـق السَّلـسال
أو في نصيب لـذَّ كالجريـال والشّرف الأعلـى الرفيـع العـالي

وارتقى من ذاك أوج مجدِ

٩ - كم أطربـت بـدفها والجنـكِ وجبهـةٍ ضـوءَ الهـلالِ تحكـي
ومقسم أضحى قَـش نُـسْكي وربـوةٍ بـالزهر ذات الحُبْـك

كأنها الفردوس دار الخلدِ

١٠ - فهــذه الــشقراءُ والميــدانُ   قد رتعــت فــي دوحهــا غــزلانُ

من كل ظبــي طرفــه الفَتّــانُ   عليــه دَمْــعُ ســفحه[1] هتــانُ

يزيد منه لاعج من وجد

١١ - وقاسيون إن ســطا وصــالا   مفوقــاً مــن ســهمه نــصالا

بــالنيربين أرتجــي اتــصالا   كعاشــق قــد ابتغــى وصــالا

من وجنة المعشوق لثم الخدِّ

١٢ - مَنْشُوق عَرْف نَشْرها المنثور   وما ازدهى مــن بهجــة المنثــورِ

وما جرى في السبعة النُّهــور   تحكي لشاذِروان وصــفَ الحــورِ

من كل عطف مائس وقَدٍّ

١٣ - أبوابها أبواب بــسط للهنــا   فتحتظي الــسوّاح منهــا بــالمنى

أوقاتها تحكي الليــالي بمنــى   كم صادح يــشدو بألحــان الغنــا

من رمل وبنجك ورصد

١٤ - وحيث لم يسفر لــي العنــانُ   عن حسنها قــد حــدَّث الركبــانُ

[١٢١/ب] والحسنُ قاض وهو ترجمــانُ   والــشاهدان الحــور والمــردان

شهادة ما إن لها من رَدِّ

١٥ - والأمويُّ في دمشق جامعــا   أضــحى ولكــن للبهــاء جامعــا

فكــم حــوى للأنبيــا مــضاجعا   ضــرائحاً تبــدى الــسنا لوامعــا

من كل بحر زاخر في لحدِ

١٦ - والصالحية حلَّها ابن العربي   العارف القطــب الرفيــع النــسبِ

مقامه بــالحق كنــز مطلبــي   فكــم لــه كرامــة بهــا حُبــي

لا يستطاع حصرها بالعدِّ

١٧ - ويبتغي السعيد أن لو وفــدا   إلــى حمــاهم يــستمدا المــددا

مستمطراً من فيضهم قطر الندا   هم فتيةٌ مــن ربّهــم زادوا هــدى

وسعدهم جدي ونجم سعدي

---

(١) في البرق المتألق: (من البرق دمعي سفحه هتان).

فلله دره من فصيح شاعر، وبليغ أديب لبيب ماهر، حيث اخترع هذه المزدوجة، وجعلها بفرائد التوجيه مبتهجة، تهيج الصب الواله المستهام، إلى المعاهد الزاهية بوادي الشام.

بـــديع نظـــام شـــاقني ببديعـــه لوادي دمشق الشام أفديه من وادي

فلي في حمـاه للـسرور معاهـد شـــهود حلاهـــا بغيتـــي ومـــرادي

وقد حبست عنان القلم فقصر الخطا، ووقف مقراً معلناً بالقصور والخطا؛ وأنا أستغفر الله مما نمّقه بناني، وتخيله فكري ونطق به لساني، وأرجو أن يحسن انتهاء مسيري إليه، ويمنحني من تحائف القرب زلفى لديه بجاه حبيبه طه أشرف من علَّم وعَلِم، الذي أوتي جوامع الكلم، والكتاب المحكم صلى الله عليه وسلم، وعلى صحابته وآله، والتابعين السائرين على منهج منواله، صلاة يفوح بالخافقين عرف نشرها، وينشر في الآفاق عبير عطرها، ما مدح السفر وطاب المقام، وطاب الابتداء وحسن الختام، والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبيَّ بعده [١٢٢/أ] وقد وافق الفراغ من تبييض هذه الرحلة اللطيفة في نهار الأحد المبارك رابع عشر شهر صفر الخير سنة ثلاث وثمانون؟ ومئة وألف، من هجرة من له العز والشرف، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشرف وعظم وكرم، على يد العبد الفقير إلى مولاه الغفار، السيد محمد أمين القادري بن الحاج محمد العطار، نسيب مؤلف هذه الرحلة عفا الله عنهم أجمعين، بمنّه وكرمه ولطفه آمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والحمد لله ربِّ العالمين، تم(١).

---

(١) وانتهيت من تحقيقه وتهذيبه، أنا رياض عبد الحميد مراد، في مساء يوم الأربعاء ٢٩ رجب ١٤٣٠ هـ الموافق ٢٢ آب/ ٢٠٠٩ م، شاكراً لله حامداً له جل جلاله.وتم طبعه وتصحيحه في مدة آخرها يوم الجمعة ٢١ جمادى الآخرة ١٤٣٣ه الموافق ٢٠١٢/٤/١٣م

فهرس المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

المحقق في سطور

د. رياض عبد الحميد مراد:

- مؤلف ومحقق ومدرس جامعي. ولد في دمشق سنة ١٩٤١م. وفيها تلقى دراسته حتى تخرج من جامعة دمشق بالإجازة في اللغة العربية وآدابها.

- حصل على شهادة دبلوم دراسات عليا من جامعة القديس يوسف ببيروت سنة ١٩٦٩م، ونال شهادة الدكتوراة سنة ٢٠٠٣م، وكان موضوع رسالته (معجم الأدباء في تاريخ دمشق لابن عساكر) تحقيق ودراسة.

درّس العربية في ثانويات دمشق، ومعهد تعليم العربية لغير الناطقين بها وعمل موجِّهاً للغة العربية في المملكة العربية السعودية. وكان قد عمل في معهد الفتح الإسلامي مدرساً في قسم التأهيل الصباحي، ثم في قسم التخصص منه. وهو الآن مدرس جامعي في معهد الشام العالي – قسم معهد الفتح الإسلامي.

- انتدب في السبعينات للعمل في مجمع اللغة العربية بدمشق كمحقق لتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر مع لجنة برئاسة الدكتور شكري فيصل رحمه الله تعالى.

من كتبه المؤلفة:

١ – معجم الأمثال العربية (٤أجزاء)

٢ – التبادل الثقافي بين بلاد الشام وبلاد خراسان

٣ –شعر دمشق في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

٤ –فهرس مجلة المقتبس التي أصدرها محمد كرد علي رحمه الله

من كتبه المحققة:

١ – المحمدون من الشعراء وأشعارهم للقفطي.

٢ – الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للنابلسي (٣أجزاء)

٣ – البداية والنهاية (الأجزاء: ٥، ١٤، ٢٠).

٤ - محاضرات الراغب الأصفهاني (٥ أجزاء).

٥ - تاريخ دمشق ٢٧ من مطبوعات مجمع اللغة العربية (قيد الطبع).

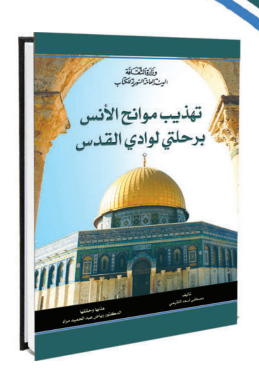
٦ - تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس (الهيئة العامة للكتاب).

* * *



الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



التعريف بالرحلة

في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي خرج اللقيمي من دمياط في مصر ليقوم برحلة إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، ثم العودة إلى حيث انطلق في دمياط وبدأ الرحلة في يوم الثلاثاء أحد أيام ذي العقدة سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣١م، وانتهت رحلته في يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومئة وألف هجري.

وزار في رحلته هذه ثلاثة بلدان غير بلده مصر التي تجوّل بها قبل أن ينطلق خارجها على عادة رحالي ذلك الوقت.

والبلدان التي زارها: فلسطين والشام ولبنان.

وتجوّل في كل مكان منها متفقداً المقامات، والأولياء، والمساجد، والأمكنة المشهورة فيها.

وقابل فيها بعض الأشخاص الذين مرّ بهم من علماء، وشعراء، وقضاة. ولولا المرض الذي ألمّ به أثناء رحلته لكانت الرحلة مثالية وجميلة وسعيدة.

والرحلة امتازت بما فيها من سير الأنبياء والزهاد والصالحين بالإضافة إلى سرد ما مرّ بها من بلدان تلك المناطق وقد حرص على أن يقيّد كثيراً منها بالحروف.

أما الشعر فهو الذي ملأ صفحات الرحلة بحيث لا تخلو صفحة منه، بالبيت والبيتين والمقطعة والقصيدة الطويلة. وهذه الظاهرة عامة في تلك الفترة، فالنابلسي شيخه أورد في رحلته الكبرى ما ينوف عن ثلاثة آلاف بيت من الشعر. ولذلك اعتبر كراتشكوفسكي أن هذه الرحلات أميل إلى الأدب منها إلى الجغرافية ووصف البلدان.





www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٢٦٠ ل.س أو ما يعادلها